

نام كتاب: عصر الإمام السجاد، سياسيا و إجتماعيا

پديدآور: يوسفى غروى، محمدهادى

موضوع: امام سجاد (ع)

زبان: عربى

تعداد جلد: ۱

ناشر: المجمع العالمى لاهل البيت (عليهم السلام)

مكان چاپ: قم - ايران

سال چاپ: ۱۴۳۶ هـ. ق

نوبت چاپ: ۱

ص: ۷

مقدمه المجمع

إنّ مدرسة أهل البيت (عليهم السلام) التي تجسّد الإسلام المحمّدى الأصيل، وتستند إلى مصدر الوحي، ذات معارف كبرى تتصف بأعلى درجات الإتقان، والإستدلال، والمنطق الجزل، وتتطابق مع الفطرة الإنسانية السليمة. فإنّ الناس لو علموا محاسن كلامنا لاّ تبعونا.

إنّ هذه المدرسة الثرة والوضاءة، قد اعتنت وتسامت وانتشرت بفضل الرعاية الربّانية وإرشادات الأئمة الأطهار (عليهم السلام)، وبجهاد وجهود الآلاف من العلماء والفقهاء.

لقد أدّى انتصار الثورة الإسلامية بقيادة الإمام الخميني (قدس سره) إلى إقامة نظام الجمهورية الإسلامية وفقاً لمبدأ ولاية الفقيه، ما أدّى إلى استقطاب أنظار الكثير من أحرار العالم إلى هذه المدرسة وخاصة المسلمين منهم.

المجمع العالمى لأهل البيت (عليهم السلام) وليد هذا التغيير المبارك فى الجمهورية الإسلامية الإيرانية، وجاء انطلاقاً من فكرة ابتكرها المرشد الأعلى للثورة الإسلامية سماحة آية الله العظمى الخامنئى (مدّ ظله الوارف) فى عام ۱۹۹۰ م. واضطلع حتى الآن بتقديم خدمات جليّة فى مجال الدعوة وترويج معارف القرآن وأهل البيت (عليهم السلام) والذود عن حياض القرآن الكريم وأتباع أهل البيت (عليهم السلام).

إن المعاونة الثقافية للمجمع العالمي لأهل البيت (عليهم السلام) وفي سياق نهوضها برسالتها من أجل الإرتقاء بمستوى الوعي والمعرفة لدى أتباع أهل البيت (عليهم السلام) وترصين دعائم البيت الشيعي، قامت بتأليف الكتب وإصدار المجلات بعدة لغات حيّة، وبكافة الوسائل الثقافية المعاصرة المتاحة، بمختلف المواضيع على مستوى المخاطبين وفي شتى المجالات والميادين، قامت بعقد المؤتمر الدولي للإمام علي بن الحسين السجاد (ع).

وهنا أرى لزماً على أن أقدم شكرى للجهود المتواصلة التي بذلها الأمين العام

ص: ٨

للمجمع العالمي لأهل البيت (عليهم السلام) سماحة الشيخ محمدحسن الاختری (دام عزّه)، وسماحة آية الله الشيخ قربان على درى نجف آبادي، نائب رئيس المجلس الأعلى للمجمع ورئيس اللجنة العلمية لمؤتمر العالمي للإمام السجاد (ع). وسماحة الشيخ محمد سالار معاون الشؤون الدولية، والمهندس مجد حكمت معاون الشؤون التنفيذية، وأعضاء اللجنة العلمية للمؤتمر أصحاب السماحة: الشيخ محمدهادي اليوسفي الغروي، السيد محمدرضا الحسيني الجاللي، السيد محسن الحسيني الأميني، السيد منذر الحكيم، الشيخ حميدرضا المطهرى، الشيخ رمضان المحمدي، السيد محمدرضا آل أيوب، والشيخ عباس الجعفرى مدير لجنة الدراسات الاستراتيجية وسكرتير اللجنة العلمية لإقامة المؤتمر العالمي للإمام السجاد (ع).

وكذلك نشكر الكتّاب والمترجمين والمقيمين: سماحة آية الله الشيخ محمدمهدي الآصفى، الشيخ قيس بهجت العطار، السيد راضى الحسيني، السيد عبدالأمير المؤمن، السيد أمين السعيدى، السيد محمد المروّج، عبدالكريم الكرمانى، محمدعلى معينيان، محمدجواد الخرسندى، حسين الصمدى، حسين الصالحى، قاسم البغدادي، جواد الجعفرى، وبرويز الكاظمى، وجميع الإخوة الذين عاضدونا بشكل أو بآخر على صياغة وإعداد وطباعة هذه المقالات.

نسأل الله تعالى أن يوفّقنا لخدمة الإسلام والمسلمين بنشر فكر وتراث أهل البيت (عليهم السلام).

نجف لك زايبى

معاون الشؤون الثقافية

ص: ٩

تمهيد

الكلام عن تاريخ عصر الإمام السجّاد علىّ بن الحسين زين العابدين وسيّد الساجدين (ع)، وعهد إمامته بيدّان من بعد مقتل أبيه الحسين بن عليّ (عليهما السلام)، وآثرتُ هنا أن أبدأ من خبر إدخاله بالكوفة علىّ واليها يومئذٍ من قبل يزيد بن معاوية: عبيدالله بن زياد.

ونمهدّ قبل ذلك بالحديث عن والدّة الإمام (ع) ومولده فنقول:

والدّة الإمام السجّاد (ع):

في عام ٣١ هـ - بلغ يزديجرد الثالث الساساني امپراطور إيران يومئذٍ بأصحابه في هزيمته وهروبه من أمام المسلمين الفاتحين، إلى مدينة مرو، وبها عامله ماهويه، وأخذ يتشدّد عليه لإحضار أمواله. وكان خاقان الأتراك المجاورين قد صاهر ماهويه، فكتب ماهويه إليه وأعلمه بالأمر ورغبه في الزحف إليه بجنوده لفتح بلاده، ففعل خاقان الأتراك ذلك، وفتح ماهويه له أبواب بلاده.

فقتل أصحاب يزديجرد وبنوه، وهرب هو علىّ رجله ليلاً حتى لجأ إلى بيت رحيّ علىّ الماء واستضاف الطحّان، فلمّا عرفه الطحّان قتله وسلبه وألقاه في الماء ١.

روى الشيخ الصدوق بسنده عن الرضا (ع) قال: لمّا فتح عبدالله بن عامر خراسان أيّام عثمان، أصاب ابنتين ليزديجرد بن شهریار آخر ملوك الفرس، فبعث

ص: ١٠

بهما إلى عثمان، فوهبهما للحسين (عليهما السلام) ٢ وكلتاها حملتا منهما (عليهما السلام)، وفي نفاسهما بأولادهما ماتت صاحبة الحسن (ع) قبل ولادتها بولدها، ونفست صاحبة الحسين بعليّ بن الحسين (عليهما السلام) ثمّ ماتت، ودفنتا في بقيع الغرقد.

هذا هو ما دلّت عليه رواية الشيخ الصدوق عن الرضا (ع)، وهو مختار الراجح من بين مختلف الأخبار في الموضوع بمرجّحات عديدة، منها ما يلي في أخبار مولده (ع).

مولد الإمام السجّاد (ع)

في آخر شهر ربيع الآخر عام ٣٦ هـ - خرج علىّ (ع) بأنصاره من المهاجرين والأنصار ومعه ابنه الحسنان (عليهما السلام) إلى البصرة لحرب الجمل ٣.

١. الأخبار الطوال للدينوري: ١٤١، فتوح البلدان للبلاذري: ٣٢٢.

٢. عيون أخبار الرضا (ع) ١٢٨: ٢ ب ٣٥ ح ٦.

٣. تاريخ الطبري ٤٧٨: ٤ عن النعماني البصري عن المدائني البصري.

وفي عاشر جمادى الأولى زحف على (ع) إلى أصحاب الجمل بالبصرة^٤ واستظهرت أنا من أخبار الحرب أنّها استمرت ثلاثة أيّام^٥ أى إلى أواخر نهار الثاني عشر من جمادى الأولى، وعليه ففي اليوم الثالث عشر منها دخل على (ع) البصرة فاتحاً، وبقي بها إلى أواخر جمادى الأولى إذ تركها لأوائل شهر رجب إلى الكوفة حتّى دخلها في الثاني عشر منه^٦.

فيظهر أنّه في أواخر أيّامهم بالبصرة أى في أواخر جمادى الأولى بلغهم خبر مولد علىّ بن الحسين (ع) في منتصف شهر جمادى الأولى، أى في أوائل دخولهم البصرة فاتحين. وأوّل قلم قدّم لنا هذا التاريخ هو قلم الشيخ المفيد بعد

ص: ١١

إرشاده ومسارّه في «حدائق الرياض»^٧ وهو مختار المحدث القمّي في «الأنوار البهيّة»^٨ وكان علىّ والحسنان (عليهم السلام) قد تركوا أهلهم بالمدينة وخرجوا إلى البصرة، فكان ميلاد السجّاد (ع) في غيابهم، ولذا لا نجد خبراً عن من أجرى عليه سنن المولود، ثمّ لمّا رحلوا إلى الكوفة حملوهنّ من المدينة إلى الكوفة، كلّ ذلك كان عام ٣٦ هـ - لا ٣٨ هـ - ٩.

وكما أن عليّاً (ع) تأدّب أمام رسول الله (ص) فلم يسبقه بتسمية ابنه الحسين (عليهما السلام) حتّى سمّاهما جدّهما رسول الله (ص) بوحي ربّه، كما رواه الشيخ الصدوق بسنده عن الرضا (ع)^{١٠}، كذلك هنا أثر الحسين أباه عليّاً في تسمية ابنه فسّمّاه باسمه عليّاً (عليهم السلام).

وكان أبو الأسود ظالم بن عمرو الكناني البصري قد سمع بها رجلاً من أهلها أمّه من العجم يدعى لأُمّه الطرمّاح ابن ميادة، سمعه يُعاب بأمّه فيقول شعراً مفتخراً بها:

وأمّي حصان أخلصتها الأعاجم

أنا ابن أبي سلمى وجدّي ظالم

بأكرم من نيّطت عليه التمام^{١١}

أليس غلام بين كسرى وظالم

ولهذا فهو بيت شعر فرد لا تمام لها.

٤ . الجمل للمفيد: ٣٣٦.

٥ . موسوعة التاريخ الإسلامي ٦٦٥: ٤ - ٦٦٧.

٦ . وقعة صفين: ٣، مروج الذهب ٢٧٢: ٢، وانظر موسوعة التاريخ الإسلامي ٦٥٤: ٤.

٧ . كما عنه في الإقبال للسيد ابن طاووس ١٥٦: ٣.

٨ . الأنوار البهيّة: ١٠٧.

٩ . كما في أصول الكافي ٤٦٦: ١ غفلة من الكليني وليست رواية، وتبعه من بعده.

١٠ . عيون أخبار الرضا (ع) ٢٥: ٢، وفي أماليه: ١١٦، أمالي الطوسي: ٣٦٧ ح ٧٨١.

١١ . أصول الكافي ٤٦٧: ١.

زواج السجّاد بابنة عمّه الحسن (ع)

فى عام ٥٠ هـ - لمّا عزم معاوية على البيعة لابنه يزيد دسّ إلى زوجته - زوجة الإمام الحسن (ع) - جعدة بنت الأشعث بن قيس الكندى من حملها على

ص: ١٢

سمّه (ع) بمائة ألف درهم! فسقته جعدة السمّ، فمرض أربعين يوماً حتى مضى لسبيله فى صفر سنة ٥٠ هـ - ١٢ فلما حضرته الوفاة استدعى أخاه الحسين (عليهما السلام)، ثمّ وصّى إليه بأهله وولده وتركاته، وما وصّى به إليه أبوه أمير المؤمنين (ع) حين استخلفه وأهله لمقامه ١٣.

وكان السجّاد (ع) يومئذٍ فى الخامسة عشرة من عمره، فيبدو أنّه بعد خمس سنين؛ أى فى عام ٥٥ هـ -، لمّا بلغ السجّاد (ع) عشرين عاماً، وكان الحسين وصّى أخيه الحسن على أهله وولده، ورأى من بناته فاطمة ١٤ أنها - كما عن الصادق (ع) - كانت صديقة لم يدرك فى آل الحسن امرأة مثلها ١٥، اختارها فزوَّجها لابنه السجّاد (ع).

وفى مستهلّ شهر رجب الحرام عام ٥٧ هـ - رُزق منها ابنه الباقر (ع) ١٦، وكما جرت السّنة من قبل فى تسمية السجّاد وأبيه الحسين (عليهما السلام) ترك السجّاد تسمية ابنه لأبيه الحسين (ع) فسّمّاه باسم جدّه محمد (ص)، ولم يكنّه بكنية جدّه أبى القاسم؛ لتهيء عن الجمع بين اسمه وكنيته، بل كنّاه بأبى جعفر ١٧، ولعلّه حباً وإحياءً لذكر عمّه الشهيد جعفر الطيّار ذى الجناحين. فكان عمر الباقر (ع) يوم الطف ثلاث سنين.

وهنا ننتقل إلى ما تلقّيناه من أخبار تاريخية عن أقدم المصادر وأقومها، من أخبار السجّاد (ع) لأوائل عصر إمامته بعد مقتل أبيه الحسين (ع)، مما يدخل تحت عنوان: التاريخ السياسى والاجتماعى لعصر الإمام السجّاد (ع)، وهى أخبار أسرهِ وإدخاله على والى الكوفة ليزيد بن معاوية: عبيدالله بن زياد.

ص: ١٣

الإمام السجّاد (ع) فى مجلس ابن زياد

١٢ . الإرشاد ١٥: ٢.

١٣ . المصدر السابق ١٧: ٢.

١٤ . كذا فى تاريخ أهل البيت (عليهم السلام): ١٢٢ وكنيتها أمّ عبدالله كما فى أصول الكافى ٤٦٩: ١.

١٥ . أصول الكافى ٤٦٩: ١ بطريقين.

١٦ . مسار الشيعة: ٥٦ عن جابر الجعفى.

١٧ . تاريخ أهل البيت: ١٣٨.

ثمَّ أدخلوا عيال الحسين (ع)، أخواته ونساءه وصبيانَه على ابن زياد، وكانت زينب ابنة فاطمة تنكّرت بأن ليست أردل ثيابها، وكان لها معها إماء حففن بها حولها فدخلت وجلست بينهنَّ وهنَّ قمن حولها، ورآها كذلك ابن زياد فقال:

من هذه الجالسة؟ فلم تكلمه ولا إماؤها حتّى قال ذلك ثلاثاً، فقال بعض إماءها:

هذه زينب بنت فاطمة!

فقال لها ابن زياد: الحمد لله الذى فضحككم وقتلكم! وأكذب أحدوشتكم!

فأجابته: الحمد لله الذى أكرمنا بمحمد (ص) وطهرنا تطهيراً ١٨، لا كما تقول أنت! إنما يفتضح الفاسق! ويكذب الفاجر!

فسألها: فكيف رأيت صنع الله بأهل بيتك؟!

فأجابته: كتب عليهم القتل فبرزوا إلى مضاجعهم ١٩ وسيجمع الله بينك وبينهم فتحاجّون إليه وتخاصمون عنده ٢٠!

فغضب ابن زياد واستشاط غضباً وقال لها: قد أشفى الله نفسى من طاغيتك والعصاة المردة من أهل بيتك!

فبكت، ثمَّ قالت: لعمرى لقد قتلت كهلى! وأبرت أهلى! وقطعت فرعى (أولادى) واجتشت أصلى! فإن يشفك هذا فقد اشتفيت!

ص: ١٤

فقال ابن زياد: هذه سَجاعة ٢١! ولعمرى قد كان أبوها شاعراً سَجاعاً!

فأجابته: ما للمرأة والسجاعة! إن لى عن السجاعة لشغلاً، ولكنى نفثى بما أقول. ثمَّ نظر ابن زياد إلى على بن الحسين فقال له: ما اسمك؟ قال: أنا على بن الحسين!

فقال: أولم يقتل الله! على بن الحسين! فسكت، فقال: ما لك لا تتكلم؟! قال: قد كان لى أخ يقال له أيضاً: على، فقتله الناس ٢٢! قال: إنَّ الله قتله! فسكت الإمام السجّاد (ع)، فقال له: ما لك لا تتكلم؟! فتلا عليه آيتين من القرآن: اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ٢٣، وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ٢٤.

١٨ . إشارة إلى الآية ٣٣ من الأحزاب.

١٩ . اقتباس من الآية ١٥٤ من آل عمران.

٢٠ . وليس فى المصادر الأولى المعتبرة جملة: ما رأيت إلا جميلاً، ولا جملة: فانظر لمن الفلج يومئذ تكلتك امك يابن مرجانة!

٢١ . هذا فى الإرشاد ١١٦: ٢، وفى الطبرى ٤٥٧: ٥: شجاعة! وهى لا تناسب ذيل الخبر: كان أبوها شاعراً سَجاعاً!

٢٢ . تاريخ الطبرى ٤٥٧: ٥ عن أبى مخنف. وروى فى ذيل المذيل: ٦٣٠: عنه (ع) قال:

قلت: كان لى أخ أكبر منى.

فقال له ابن زياد: أنت والله منهم^{٢٥}! وبك جراً لردّ جوابي! وفيك بقيّة للردّ على^{٢٦}! ثمّ التفت إلى المرى بن معاذ الأحمرى من جلاوزته وقال له: ويحك اقتله! فتعلّقت به عمّته زينب وقالت له:

يا ابن زياد! حسبك ممّا! أما رويت من دماننا! وهل أبقيت ممّا أحداً! واعتنقته وقالت لابن زياد: أسألك بالله - إن كنت مؤمناً - إن قتلتك لما قتلتني معه!

وناداه علىّ بن الحسين (ع): إن كانت بينك وبينهنّ قرابة (من قريش) فابعث معهن رجلاً تقيّاً يصحبهنّ بصحبة الإسلام!

ص: ١٥

فنظر إليهما ثمّ قال: عجباً للرحم! والله لو أدّت لو أنّي قتلتك أنتي قتلتها معه! دعوا الغلام^{٢٧}! فإنّي أراه لما به^{٢٨}.

ثمّ أمر ابن زياد أن ينصب رأس الحسين (ع) على رمح ويُدَار به في الكوفة^{٢٩}! في سككها كلّها وقبائلها.

روى عن زيد بن أرقم قال: مرّ به علىّ وهو على رمح وأنا في غرفة (فوقانية)، فلما حاذاني سمعته يقرأ: أمّ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَباً^{٣٠} فقفّ شعري والله وناديت: رأسك والله - يا ابن رسول الله - أعجب وأعجب^{٣١}!

موقف ابن عفيف

وأمر ابن زياد فنادوا: الصلاة جامعة! فاجتمع الناس في المسجد الأعظم، فخرج ابن زياد وصعد المنبر وقال:

الحمد لله الذي أظهر الحقّ وأهله ونصر أمير المؤمنين يزيد بن معاوية وحزبه، وقتل الكذّاب ابن الكذّاب: الحسين بن عليّ و «شييعته»!

٢٣ . الزمر: ٤٢، واكتفى بذكرها الإرشاد.

٢٤ . آل عمران: ١٤٥، وليست في الإرشاد.

٢٥ . الطبرى ٤٥٨: ٥.

٢٦ . الإرشاد ١١٦: ٢.

٢٧ . تاريخ الطبرى ٤٥٧: ٥ عن أبي مخنف.

٢٨ . الإرشاد ١١٦: ٢- ١١٧ أى مريضاً مرض الموت.

٢٩ . تاريخ الطبرى ٤٥٩: ٥ عن أبي مخنف.

٣٠ . الكهف: ٩.

٣١ . الإرشاد ١١٧: ٢، وليس في الطبرى.

وكان عبد الله بن عفيف الأزدي الغامدي من «شيعه على كرم الله وجهه» ٣٢، وكان أعمى لا يكاد يفارق المسجد الأعظم يصلّي فيه إلى الليل، فلما سمع هذه المقالة من ابن زياد وثب إليه وناداه: إنّ الكذاب ابن الكذاب أنت

ص: ١٦

وأبوك والذي ولاك وأبوه يابن مرجانة! أتقتلون أبناء النبيين وتتكلمون بكلام الصديقين!

فنادى ابن زياد بجلاوزته: علىّ به! فوثبوا عليه حتّى أخذوه، فنادى بشعار الأزد: يا مبرور! فوثب إليه فتية منهم فانتزعوه من أيدي الجلاوزة وذهبوا به إلى أهله. فأرسل إليه ابن زياد من أتاه به (ليلاً) فقتله وأمر بصلبه في السبخة! فصلب هناك رحمه الله ٣٣.

الرؤوس بين يدي يزيد

لم يمنع ابن زياد وثبة ابن عفيف الأزدي عليه من أن يدعوأبا بردة بن عوف وطارق بن أبي ظبيان الأزديين ليكونا مع زحر بن قيس الجعفي الكندي، ليسرحهم برأس الإمام (ع) ورؤوس أصحابه إلى يزيد بن معاوية ٣٤.

روى السبط عن الزهري قال: لما جاءت الرؤوس كان يزيد في منظره على جبل جيرون بدمشق فأنشد:

لما بدت تلك الحمل وأشرق
تلك الشمس على ربي جيرون

نق الغراب فقلت: نح أولاً تنح
فلقد قضيت من النبي ديوني ٣٥

فروى الكلبي عن الغاز بن ربيعة الحميري الجرشي أنّه كان عند يزيد بدمشق إذ دخل عليه زحر بن قيس الجعفي الكندي، فقال له يزيد: ويلك ما وراءك؟ وما عندك؟ فقال له: أبشر يا أمير المؤمنين! بفتح الله ونصره! ورد علينا الحسين بن عليّ في ثمانية عشر من أهل بيته وستين من «شيعته»، فسرنا إليهم فسألناهم أن يستسلموا وينزلوا على حكم الأمير عبيد الله بن زياد، أوالقتال! فاختراروا القتال على الاستسلام! فعدونا عليهم مع شروق الشمس «فأحطنا بهم من كل ناحية، حتّى إذا أخذت السيوف مأخذها من هام القوم حتّى أتينا على

ص: ١٧

آخرهم، فهاتيكم أجسادهم مجرّدة! وثيابهم مرملة! وخدودهم معفّرة! تصهرهم الشمس، وتسفى عليهم الريح، زوّارهم العقبان والرّخم بقيّ سبب ٣٦.

٣٢ . كانت عينه اليسرى ذهبت يوم الجمل مع عليّ (ع) ومعه في صفين ذهبت عينه الأخرى، الطبري ٤٥٨: ٥.

٣٣ . تاريخ الطبري ٤٥٨: ٥ - ٤٥٩ عن أبي مخنف الأزدي، وفي الإرشاد ١١٧: ٢ بلا تفصيل.

٣٤ . تاريخ الطبري ٤٥٩: ٥ عن أبي مخنف، والإرشاد ١١٨: ٢.

٣٥ . تذكرة الخواص ١٩٦: ٢ بتحقيق تقي زاده.

ووضع الرأس بين يدي يزيد في طست، فجعل ينكت على ثناياه بقضيبه! وتمثل بقول عبد الله بن الزبيري:

ليت أشياخي ببدر شهدوا

جَزَع الخزرج من وقع الأسل

قد قتلنا القرم من أشياخهم

وعدلناه ببدر فاعتدل! ٣٧

وقال سبط ابن الجوزي: والمشهور عن يزيد في جميع الروايات: أنه لما أحضر الرأس بين يديه كان قد جمع جمعاً من أهل الشام، وجعل ينكته بالخيزرانة ويقرأ الأبيات ... حتى جاء في «كتاب الوجهين والروايتين» للقاضي أبي يعلى عن أحمد بن حنبل أنه قال: إن صح ذلك عن يزيد فقد فسق! وقال مجاهد:

فقد نافق. وقال الشعبي: وزاد فيها يزيد، قال:

لعبت هاشم بالملك فلا

خير جاء ولا وحى نزل

لست من خندف إن لم أنتقم

من بني أحمد ما كان فعل ٣٨

ولما وضعت رؤوس أهل بيت الحسين وأصحابه بين يدي يزيد تمثل بقول المربي:

يفلقن هاماً من رجال أعزة

علينا وهم كانوا أعق وأظلم!

وكان يحيى بن الحكم أخومروان حاضراً فقال:

لهام بجنب الطف، أدنى قرابة

من ابن زياد العبد ذى الحسب الوغل

ص: ١٨

سمية أمسى نسلها عدد الحصى

وبنت رسول الله ليس لها نسل!

٣٦ . تاريخ الطبري ٤٦٠: ٥ عن الكلبي. والقي: القفر، والسبب: القاحلة الجرداء، وفي الإرشاد ١١٩: ٢.

٣٧ . مقاتل الطالبين: ٨٠.

٣٨ . تذكرة الخواص ١٩٥: ٢- ١٩٦ بتحقيق تقي زاده. وخندف اسم إحدى جداته.

فضرب يزيد في صدر يحيى وقال له: اسكت ٣٩.

ثم أذن للناس فدخلوا والرأس بين يديه، ويده قضيب ينكت به في ثغره!

وكان ممن دخل عليه الصحابي أبو برزة الأسلمي الأنصاري من أصحاب رسول الله (ص)، فلما رأى يزيد يفعل ذلك أنكره وقال: أنتنكت بقضيبك في ثغر الحسين! أما لقد أخذ قضيبك من ثغره مأخذاً لربما رأيت رسول الله (ص) يرشفه! أما إنك يا يزيد (كذا بدون لقب) تجيء يوم القيامة وشفيحك ابن زياد! ويجيء هذا يوم القيامة وشفيعه محمد (ص)! ثم قام فوَلَّى.

وسمعت دور الحديث هند بنت عبد الله بن عامر بن كريز زوجة يزيد، فتقنعت بثوبها وخرجت فقالت:

يا أمير المؤمنين! رأس الحسين بن فاطمة بنت رسول الله!

قال: نعم! فأعولى عليه وحُدِّي على ابن بنت رسول الله! وصريخة قريش! عجل عليه ابن زياد فقتله ٤٠.

ص: ١٩

أم سلمة ونعي الحسين (ع)

روى اليعقوبي عن أم سلمة زوج رسول الله (ص): أنه كان قد دفع إليها قارورة فيها تربة وقال لها: إن جبرئيل أعلمني أن أمتي تقتل الحسين! وأعطاني هذه التربة. وقال النبي لي: إذا صارت دماً عبيطاً فاعلمي أن الحسين قد قتل! فلما (خرج الحسين (ع) إلى العراق) جعلت تنتظر إلى القارورة في كل يوم فلما رأتها قد صارت دماً صاحت وا حسيناها! وا ابن رسول الله ٤١!

وروى عن سلمى بنت أبي رافع القبطي، قالت: ارتفعت واعية من حجرة أم سلمة، فكنت أول من أتاها ورأيت بين يديها قارورة تفور دماً، فقلت لها: يا أم المؤمنين! ما دهاك؟! قالت: رأيت رسول الله (ص) في المنام والتراب على رأسه! فقلت له: ما لك؟ فقال: وثب الناس على ابني فقتلوه، وقد شهدته الساعة قتيلاً! فاقشعر جلدِي! فوثبتُ إلى هذه القارورة التي دفعها رسول الله إليّ وفيها رمل من الطفّ وقال لي: إذا تحول هذا دماً عبيطاً فعند ذلك يقتل الحسين. فوجدتها تفور دماً ٤٢!

٣٩ . تاريخ الطبري ٤٦٠: ٥ - ٤٦١ عن أبي مخنف، والإرشاد ١١٩: ٢ - ١٢٠.

٤٠ . كان ذلك قبل وصول السبايا إلى الشام.

٤١ . تاريخ اليعقوبي ٢٤٥: ٢ - ٢٤٦.

٤٢ . بحار الأنوار ٢٣٢: ٤٥ عن بعض كتب المناقب!.

وروى الطوسي بسنده عن ابن عباس، قال: بينا أنا راقد في منزلي (بالمدينة) إذ سمعت من بيت أم سلمة زوج النبي (ص) صراخا عاليا! فقلت لقائدي يقودني إليها، فخرج بي، وأقبلت إليها النساء الهاشميات، فهي أقبلت عليهن وقالت لهن:

ص: ٢٠

يا بنات عبد المطلب! أسعدنني وابكين معي، فقد والله قتل سيديك وسيد شباب أهل الجنة! قد والله قتل سبط رسول الله وريحاته الحسين! فقلت لها: يا أم المؤمنين! ومن أين علمت ذلك؟ قالت: رأيت رسول الله في المنام الساعة شعنا مذعورا! فسألته عن شأنه ذلك؟ فقال: قتل ابني الحسين وأهل بيته اليوم، والساعة فرغت من دفنهم!

قالت: فقممت حتى دخلت البيت وأنا لا أكاد أن أعقل، فنظرت فإذا بتربة الحسين التي أتى بها جبرئيل من كربلاء وقال: إذا صارت هذه التربة دماً فقد قتل ابنك! وأعطانيها النبي فقال: اجعلي هذه التربة في قارورة أوزجاجة ولتكن عندك، فإذا صارت دماً عبيطاً فقد قتل الحسين! فرأيت القارورة الآن وقد صارت تفور دماً عبيطاً! وكانت أم سلمة قد لطخت بذلك الدم وجهها، واتخذت ذلك اليوم مآتماً ومناحةً على الحسين (ع) ٤٣.

واختار شيخه المفيد خبراً آخر عن أم سلمة، قالت: خرج رسول الله (ص) من عندنا ذات ليلة فغاب عنا طويلاً، ثم جاءنا ويده مضمومة وهو أشعث أغبر! فقلت له: يا رسول الله! ما لي أراك شعناً مغبراً؟! فقال: اسرى بي في هذا الوقت إلى موضع من العراق يقال له: كربلاء، فاريت فيه مصرع الحسين ابني وجماعة من ولدي وأهل بيتي! فلم أزل ألقط (من) دماهم! فهي في يدي. وبسطها إليّ، وقال: خذيها واحتفظي بها. فأخذتها فإذا هي شبه تراب أحمر! فوضعتها في قارورة وشدت رأسها واحتفظت بها.

فلما خرج الحسين من مكة متوجّها نحو العراق، كنت أخرج القارورة في كل يوم وليلة وأنظر إليها وأشمها ثم أبكي لمصابه! فلما كان اليوم العاشر من

ص: ٢١

المحرم أخرجتها أول النهار فكانت بحالها، ثم عدت إليها آخر النهار فإذا هي دم عبيط! فصحت وبكيت.

قالت: (ولكني) كتمت غيظي مخافة أن يسمع أعداؤهم بالمدينة فيسرعوا بالشماتة! ولم أزل حافظة للوقت حتى جاء الناعي ينعاه، فحقق ما رأيت ٤٤.

قال: ولما أنفذ ابن زياد برأس الحسين (ع) إلى يزيد دعا عبد الملك بن أبي الحديث السلمي ٤٥.

وفي الطبري عن الكلبي: عبد الملك بن أبي الحارث السلمي، وأعطاه دنانير وقال له: انطلق ولا تعتل ولا يسبقك الخبر، وإن قامت بك راحلتك فاشتر راحلة، حتى تقدم المدينة على أميرها عمرو بن سعيد بن العاص فتبشّره بقتل الحسين ٤٦!

٤٣. أمالي الطوسي: ٣١٥ المجلس ١١، ح ٧٨، المجلس ١١، وبعده: ثم جاءت الركبان بخبره وأنه قتل في ذلك اليوم.

٤٤. الإرشاد ١٣٠: ٢. وعليه فالصياح والبكاء السابقان كانا خاصين ولم يكن عامين. وكانت وفاة أم سلمة في (٦٣ هـ).

٤٥. الإرشاد ١٢٣: ٢.

قال عبد الملك: فركت راحتي وسرت حتى دخلت المدينة، فلقيني قرشيّ فسألني ما الخبر؟ فقلت له: تسمعه عند الأمير! فاسترجع وقال: قتل والله الحسين! ودخلت على عمرو بن سعيد فقال لي: ما وراءك؟ قلت له: ما يسرّ الأمير: قتل الحسين بن عليّ! فقال: فاخرج فناد بقتله! فخرجت فناديت بقتله!

فوالله لم أسمع قطّ واعيةً مثل واعية نساء بني هاشم حين سمعوا النداء بقتله! فعدت إلى عمرو بن سعيد، فلمّا رأيته تبسم ضاحكا ثمّ تمثّل بقول عمرو بن معدى كرب الزبيدي:

عجّت نساء بني زياد عجةً كعجيج نسوتنا غداة الأرنب

ثمّ قال: هذه واعية بواعية عثمان بن عفّان ٤٧.

وروى المعتزلي عن «المثالب» لأبي عبيد القاسم بن سلّام البصري، قال:

ص: ٢٢

كتب ابن زياد إلى عمرو بن سعيد يبشّره بقتل الحسين (ع)، فقرأ كتابه على المنبر ثمّ أنشد:

يا حبّذا بردك في اليمين وحمرة تجري على الخدين

كأنما بتّ بمحشدين!

ثمّ أوماً إلى القبر الشريف قائلاً: يوم بيوم بدر! فأنكر عليه ذلك قوم من الأنصار ٤٨!

وحين سمعت نعي الحسين (ع) أمّ لقمان بنت عقيل بن أبي طالب خرجت ومعها نساؤها وهي حاسرة وتلوي بثوبها على رأسها وهي تقول:

ماذا تقولون إن قال النبيّ لكم: ماذا فعلتم! وأنتم آخر الأمم

بعترتي وبأهلي بعدمفتقدى منهم اسارى ومنهم ضرجوا بد ٤٩

ماكان هذا جزائي إذ نصحت لكم أن تخلفوني بسوء في ذوى رحمي ٥٠

٤٦ . تاريخ الطبري ٤٦٤: ٥ عن الكلبي عن عوانة.

٤٧ . الإرشاد ١٢٣: ٢، تاريخ الطبري ٤٦٤: ٥.

٤٨ . شرح النهج للمعتزلي ٧٢: ٤ عن كتاب المثالب.

٤٩ . تاريخ الطبري ٤٦١: ٥ - ٤٦٢ عن أبي مخنف.

ولما علم الناس بقتل ابني عبدالله بن جعفر (محمد وعون) مع الحسين (ع)، دخلوا عليه يعزّونه، وكان له مولى يدعى أبا السلاس فقال: هذا ما دخل علينا من الحسين! فخذفه عبدالله بن جعفر بنعاله وقال له: يا ابن اللخنا! أللحسين تقول هذا؟! والله لو شهدته لأحببت ألا افارقه حتى أقتل معه! والله إنه لما يسخى بنفسى عنهما ويهون على المصاب بهما: أنّهما أصيبا مع أخى وابن عمى مواسيين له صابرين معه. ثم أقبل على جلسائه وقال: الحمد لله عز وجل على مصرع الحسين، إن لا تكن يدي آست حسينا فقد آساه ولدائى ٥١. أو قال: إن لا أكن آسيت حسينا بيدي فقد آساه ولدئى ٥٢.

ص: ٢٣

السبايا فى الشام

روى الصدوق بسنده عن حاجب ابن زياد عن من صحب السبايا إلى الشام، قالوا: دخلنا دمشق بالنساء السبايا بالنهار مكشّفات الوجوه! فقال بعض أهل الشام: ما رأينا سبايا أحسن من هؤلاء! فمن أنتم؟ فقالت سكينه بنت الحسين: نحن سبايا آل محمد.

وكانوا من قبل يوقفون السبايا على درج المسجد الجامع بدمشق ليراهم الناس، فأقاموهم عليه، فأتاهم شيخ من أهل الشام فقال لهم: الحمد لله الذى قتلكم وأهلككم وقطع قرن الفتنة! وما زال يشتمهم.

فلما انقضى كلامه قال له على بن الحسين: أما قرأت كتاب الله عز وجل؟

قال: بلى قد قرأت. قال: أما قرأت هذه الآية: قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ٥٣؟ قال: بلى. قال: فنحن أولئك!

ثم قال: أما قرأت: وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ ٥٤؟ قال: بلى. قال: فنحن هم!

ثم قال: فهل قرأت هذه الآية: إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ٥٥؟ قال: بلى. قال: فنحن هم!

٥٠. الإرشاد ١٢٤: ٢.

٥١. تاريخ الطبرى ٤٦٦: ٥ عن أبي مخنف.

٥٢. الإرشاد ١٢٤: ٢.

٥٣. الشورى: ٢٣.

٥٤. الإسراء: ٢٦.

فرجع الشيخ الشامي يده إلى السماء وقال ثلاثاً: اللهم إني أتوب إليك. ثم قال: اللهم إني أبرأ إليك من عدو آل محمد ومن قتله أهل بيت محمد. لقد قرأت القرآن فما شعرت بهذا قبل اليوم.

ثم أدخل نساء الحسين (ع) على يزيد بن معاوية ٥٦.

ص: ٢٤

السبايا والسجّاد (ع) عند يزيد:

وجلس يزيد بن معاوية وقد دعا أشراف أهل الشام وأجلسهم حوله، ثم دعا بعليّ بن الحسين (ع) وصبيانته ونسائه فأدخلوا عليه والناس ينظرون .. فرأى هيئته قبيحة فقال: قبح الله ابن مرجانة! لو كانت بينه وبينكم رحم أو قرابة ما فعل هذا بكم، ولا بعث بكم هكذا! فرق لهم وأمر لهم بشيء من الألطاف!

وقال لعليّ بن الحسين (ع): يا عليّ! أبوك الذي قطع رحمي! وجهل حقّي! ونازعني سلطاني! فصنع الله به ما قد رأيت! فتلا الإمام عليه قوله سبحانه: مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا ٥٧.

وكان خالد بن يزيد عند أبيه فقال له أبوه يزيد: اردد عليه! فما درى خالد بماذا يردّ عليه؟ فقال يزيد: قل: وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ٥٨ ثم سكت.

فقام إليه رجل أحمر من أهل الشام وقال له: يا أمير المؤمنين! هب لي هذه الجارية، وأشار إلى فاطمة بنت الحسين (ع)! فخافت وأخذت بثياب عمّتها زينب، فالتفتت إليه زينب وقالت له: كذبت - والله - ولؤمت! ما ذلك لك ولا له!

فغضب يزيد وقال لها: كذبت والله! إنّ ذلك لي! ولو شئت أن أفعله لفعلت!

فقالت زينب: كلا - والله - ما جعل الله ذلك لك! إلا أن تخرج من ملّتنا وتدين بغير ديننا!

ص: ٢٥

فغضب يزيد واستطار غضباً وقال: أليّاي تستقبلين بهذا! إنّما خرج من الدين أبوك وأخوك!

فقالت زينب: بدين الله ودين أبي وأخي وجدّي اهتديت أنت وأبوك وجدك!

فقال لها: كذبت يا عدوّ الله!

فقالت: أنت أمير مسلّط تشتم ظالماً وتقهر بسطانك! فسكت!

٥٥ . الأحزاب: ٣٣.

٥٦ . أمالي الصدوق: ٢٣٠، المجلس ٣١، ح ٢.

٥٧ . الحديد: ٢٢.

٥٨ . الشورى: ٣٠. وروى أبو الفرج: أن يزيد بدأ بهذه الآية فأجابه الإمام بآية الشورى، وهو أنسب.

فعاد الشامي فقال: يا أمير المؤمنين! هب لي هذه الجارية!

فقال له يزيد: اعزب! وهب الله لك حتفاً قاضياً ٥٩!

خطبة العقيلة في مجلس يزيد:

أرسل ابن أبي طيفور البغدادي ٦٠ قال: لما جعل يزيد ينكت ثنانيا الحسين (ع) بقضييه وهوينشد شعره ...

قالت زينب: «صدق الله ورسوله يا يزيد! ثم كان عاقبة الذين أسأوا السواى أن كذبوا بآيات الله و كانوا بها يستهزؤن ٦١
أظننت يا يزيد! أنه حين أخذ علينا بأطراف الأرض وأكناف السماء، فأصبحنا نساق كما يساق الأسارى: أن بنا هواناً على
الله وبك عليه كرامة! وأن هذا لعظيم خطر! فشمخت بأنفك ونظرت في عطفك جذلان فرحاً! حين رأيت الدنيا
مستوسقة لك والأمور متسقة عليك، وقد أمهلت ونفست! وهو قول الله تبارك وتعالى: وَ لَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ

ص: ٢٦

كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّى لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ٦٢.

أمن العدل - يابن الطلقاء - تخديرك حرائك وإماءك وسوقك بنات رسول الله سبايا! قد هتكت ستورهن، وأصحت
أصواتهن! مكتنبات! تخدى بهن الأباعر، ويحدو بهن الأعادي من بلد إلى بلد، لا يراقبن ولا يؤوين، ويتشوقهن القريب
والبعيد، ليس معهن ولى من رجالهن.

وكيف يستبطناً في بغضتنا من نظر إلينا بالشنف والشنآن والإحن والأظغان؟! وتقول: «ليت أشياخي بيدر شهدوا» غير متأثم
ولا مستعظم! وأنت تنكت ثنانياً على عبد الله بمخصرتك!

ولم لا تكون كذلك وقد نكأت القرحة واستأصلت الشافئة، بإهراقك دماء ذرية رسول الله (ص)، ونجوم الأرض من آل
عبد المطلب، ولتردن على الله وشيكاً موردتهم، ولتودن أنك عميت وبكمت وأنت لم تقل: «لأهلوا واستهلوا فرحاً»!

والله ما فريت إلا جلدك، ولا حزرت إلا لحمك، وسترد على رسول الله (ص) برغمك ... يوم يجمع الله شمل لحمته
وعترته في حظيرة القدس ملمومين من الشعث، وذلك قول الله تبارك وتعالى: وَ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ
أَمْواتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ٦٣.

٥٩. الإرشاد ١٢٠: ٢-١٢١، وانظر تاريخ الطبري ٤٦١: ٥-٤٦٢ عن أبي مخنف، ومختصره عن الباقر (ع): ٣٩٠.

٦٠. وأسنده الخوارزمي في المقتل ٦٣: ٢ عن رجل من تميم الكوفة!

٦١. الروم: ١٠.

٦٢. آل عمران: ١٧٨.

٦٣. آل عمران: ١٦٩.

وسيعلم من بوأك ومكّنك من رقاب المؤمنين، إذا كان الحَكَمُ الله والخِصمُ محمد (ص)، وجوارحك شاهدة عليك! فبئس للظالمين بدلا ولنعلمنّ أيكم شرّاً مكاناً وَ أضعفُ جُنْدًا ٤٤.

ص: ٢٧

مع أنّي - والله يا عدو الله وابن عدوّه - أستصغر قدرك وأستعظم تقريعتك! غير أنّ العيون عبرى والصدور حرّى! وما يجزى ذلك أو يغني عنّا وقد قتل الحسين (ع) ... يعطوهم أموال الله على انتهاك محارم الله! فهذه الأيدي تنطف من دمائنا، وهذه الأفواه تتحلّب من لحومنا، وتلك الجثث الزواكي يعتامها عسلان الفلوات! فلئن اتّخذتنا مغنما فلتجدنّ مغرماً، حين لا تجد إلا ما قدّمت يداك، تستصرخ بابين مرجانة ويستصرخ بك! وتتعاوى وأتباعك عند الميزان، وقد وجدت أفضل زادٍ زودك معاوية قتلک ذريّة محمد (ص)!

فوالله ما اتّقيت الله، ولا شكواي إلا إلى الله، فكد كيدك واسع سعيك وناصب جهدك! فوالله لا ترحض عنك عار ما أتيت إلينا أبداً.

والحمد لله الذي ختم بالسعادة والمغفرة لسادات شبّان الجنان وأوجب لهم الجنة، وأسأل الله أن يرفع لهم الدرجات وأن يوجب لهم المزيد من فضله، فإنّه وليّ قدير» ٤٥.

وأسكت يزيد حتّى سكنت زينب ثمّ تمثّل بقول القائل:

يا صبيحة تحمد من صوائح ما أهون النوح على النوائح ٤٦

ثمّ أمر بالنسوة أن ينزلن في دار على حدة متّصلة بدار يزيد، فأفردت لهم، ومعهم عليّ بن الحسين (ع) ٤٧، ومعهم ما يصلحهم، فاخرجوا إلى تلك الدار، واجتمع نساء آل معاوية فاستقبلنهنّ بالبكاء والنوح على الحسين (ع) ثلاثة أيام ٤٨.

٤٤ . مريم: ٧٥.

٤٥ . بلاغات النساء: ٢١ - ٢٣.

٤٦ . مقتل الحسين (ع) للخوارزمي ٤٦: ٢ مسنداً عن رجل من تميم الكوفة!

٤٧ . الإرشاد ١٢٢: ٢.

٤٨ . تاريخ الطبري ٤٦٢: ٥ عن أبي مخنف عن فاطمة. وروى عن الباقر (ع) قال: ثمّ أدخلهم على عياله ٣٩٠: ٥. وهذا لا يدع مجالاً لخبر إسكانهم في خربة بدمشق ووفاء ابنة صغيرة للحسين (ع) فيها باسم رقية، بل لا ذكر في الأنساب والتواريخ المعتبرة لبنات الحسين (ع) سوى سكينه وهي في العاشرة من عمرها - السيّد سكينه للمقرّم: ٨٩ - وفاطمة، وهي في حدود السابعة من عمرها.

والمرقد المنسوب إلى رقية بدمشق لعلّه لرقية أخت الحسين (ع) زوجة ابن عمّها مسلم بن عقيل، فإنّها كانت معهم، ولا ذكر لها بعد كربلاء، فلعلّها مرضت هناك من وعناء السفر والقهر، بعد قتل ابنائها الصغيرين، فماتت ودفنت هناك. كما كان على صخرة القبر حين اكتشف قبل قرن تقريباً: «هذا قبر رقية بنت عليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه».

ص: ٢٨

ورأس الحسين (ع) إلى المدينة:

نقل البلاذرى عن الكلبي قال: بعث يزيد رأس الحسين (ع) إلى المدينة ٦٩.

فصرخت نسوة آل أبي طالب، فسمعهن مروان بن الحكم فتمثل وقال:

عجّت نساء بنى زياد عجةً
كعجيج نسوتنا غداة الأرنب

ثمّ تمثّل بقول ابن منقذ العدوى في كتيبة «دوسر» للنعمان بن المنذر:

ضربت دوسر فيهم ضربة
أثبتت أركان ملك، فاستقرّ ٧٠

وقال عمرو بن سعيد: وددت أن أمير المؤمنين! لم يبعث إلينا برأسه! فقال له مروان: بئسما قلت! هاته! ثمّ تناول منه الرأس فوضعه بين يديه، ثمّ أخذ بأرنبه أنفه وقال:

يا حبذا بردك فى الديدن
ولونك الأحمر فى الخدين ٧١

لكأنى أنظر إلى أيام عثمان ٧٢.

وخطب عمرو الأشدق فتشّدق بقتل الحسين (ع)، فقام ابن أبى حبيش الأسدى القرشى فقال: رحم الله فاطمة! فقال له عمرو: وما أنت وفاطمة؟ قال:

ص: ٢٩

أمّها خديجة - يريد أنّها أسديّة من قومه - فقال عمرو: نعم والله، وابنة محمّد! أخذتها يمينا وأخذتها شمالا! ووددت والله أن أمير المؤمنين! كان نحاه عنى ولم يرسل به إلى! ووددت والله أن رأس حسين كان على عاتقه، وروحه كان فى جسده ٧٣.

٦٩ . أنساب الأشراف ٢٢٥: ٣، ح ٢٢٤.

٧٠ . أنساب الأشراف ٢٢٣: ٣، ح ٢٢١، ودوسر بالفارسية أى ذات الرأسين.

٧١ . الطبقات الكبرى، ترجمة الإمام الحسين (ع): ٨٤ برقم ٢٩٧، وأنساب الأشراف ٢٢٣: ٣، ح ٢٢٠.

٧٢ . تذكرة الخواص ٢٠٦: ٢ - ٢٠٧.

ونصب الرأس على خشبة، ثم رُدَّ إلى دمشق ٧٤.

خطبة السجّاد (ع) بالشام:

كان يزيد راوية للشعر وشاعرا كما مرّ، ولم نجد له فيما بأيدينا خطبة، وقد مرّ الخبر عن خطبة ابن زياد في المسجد الجامع بالكوفة بعد جلسة القصر، وكأنّ يزيد بدل أن يخطب أحضر الإمام السجّاد (ع) إلى المسجد الجامع بالشام ضحى قبيل الزوال، واستحضر الناس، وخطيباً أمره أن يخطبهم فيذكر للناس مساوئ الحسين وأبيه على (عليهما السلام) ويقرّظ معاوية ويزيد.

فصعد الخطيب المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثمّ أطنب في تقرّظ معاوية ويزيد، وأكثر الوقيعه في علىّ والحسين (عليهما السلام)! وكان الإمام السجّاد (ع) في هذه الفترة قد تماثل للشفاء، فصاح به:

ويلك أيّها الخاطب! اشتريت رضا المخلوق بسخط الخالق! فتبواً مقعدك من النار!

ثمّ التفت إلى يزيد وقال له: يا يزيد (كذا بدون لقب) إئذن لي حتّى أصعد هذه الأعواد فأتكلم بكلمات فيهنّ لله رضا، ولهؤلاء الجالسين أجر وثواب! فأبى يزيد، فقال له بعض الناس: يا أمير المؤمنين! ائذن له ليصعد فلعلنا نسمع منه شيئاً.

ص: ٣٠

فقال لهم: إن صعد المنبر هذا لم ينزل إلا بفضيحتي وفضيحة آل أبي سفيان! فقالوا: وما قدر ما يحسن هذا؟! فقال: إنّه من أهل بيت قد رُقوا العلم زقاً! فلم يزلوا به حتّى أذن له بالصعود ٧٥.

وقال الإصفهاني الأموي: أمره أن يصعد المنبر فيخطب فيعتذر إلى الناس ممّا كان من أبيه! فصعد المنبر وخطب خطبة طويلة منها:

«أيّها الناس! من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا أعرفه بنفسي: أنا علىّ بن الحسين، أنا ابن البشير النذير، أنا ابن الداعي إلى الله بإذنه، أنا ابن السراج المنير» ثمّ قال: وهي خطبة طويلة كرهت الإكثار بذكرها ونظائرها ٧٦. ونقلها الحلبي عن الأوزاعي في (الكتاب الأحمر): أنّه لما نزل الخطيب قام علىّ بن الحسين فقال ٧٧ وذكرها الخوارزمي أنّه قال:

(أيّها الناس! اعطينا ستّاً وفضلنا سبع:

اعطينا: العلم، والحلم، والسماحة، والفصاحة، والشجاعة، والمحبة في قلوب المؤمنين.

٧٣. الطبقات الكبرى: ٦٦، الباب ٤٧، ح ٢٩٧، وفي قسم الترجمة المنشورة: ٨٤ - ٨٥، وأنساب الأشراف ٢٢٤: ٣، ح ٢٢٣.

٧٤. أنساب الأشراف ٢٢٥: ٣، ح ٢٢٤ عن الكلبي.

٧٥. مقتل الحسين (ع) للخوارزمي ٦٩: ٢.

٧٦. مقاتل الطالبين: ٨١.

٧٧. مناقب آل أبي طالب ١٨١: ٤.

وفضّلنا: بأنّ منّا النّبىّ المختار محمّداً (ص)، ومنّا الصّدّيق، ومنّا الطّيّار، ومنّا أسد الله وأسّد الرّسول، ومنّا سيّدة نساء العالمين فاطمة البتول، ومنّا سبطا هذه الأمّة وسيّدا شباب أهل الجنّة.

أيّها الناس! من عرفنى فقد عرفنى، ومن لم يعرفنى أنبأته بحسبى ونسبى:

أنا ابن مكّة ومنى، أنا ابن زمزم والصفاء، أنا ابن من حمل الركن بأطراف الرّداء، أنا ابن خير من انتزر وارتدى، أنا ابن خير من انتعل واحتفى، أنا ابن خير من طاف وسعى، أنا ابن خير من حجّ ولبّى، أنا ابن من حُمِل على البراق

ص: ٣١

فى الهواء، أنا ابن من أسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، فسبحان من أسرى! أنا ابن من بلغ به جبرائيل إلى سدره المنتهى، أنا ابن من دنا فتدلّى فكان من ربّه قاب قوسين أو أدنى! أنا ابن من صلّى بملائكة السماء، أنا ابن من أوحى إليه الجليل ما أوحى.

أنا ابن محمّد المصطفى، أنا ابن علىّ المرتضى، أنا ابن من ضرب خراطيم الخلق حتى قالوا: لا إله إلا الله! أنا ابن من ضرب بين يدى رسول الله بسيفين (ذى الفقار وغيره) وهاجر الهجرتين (إلى المدينة واليمن!) وباع البيعتين (يوم الدار والرضوان) وصلّى إلى القبلتين (الكعبة وبيت المقدس) وقاتل بيدر وحنين، ولم يكفر بالله طرفة عين.

أنا ابن «صالح المؤمنين» و «يعسوب الدين» ونور المجاهدين، وزين العابدين، وتاج البكّائين، وأصبر الصابرين، وأفضل القائمين من آل طه وياسين ورسول ربّ العالمين.

أنا ابن المؤيّد بجبرائيل، والمنصور بميكائيل.

أنا ابن المحامى عن حريم المسلمين، وقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين! والمجاهد أعداء الناصبين! وأفضل من مشى من قریش أجمعين، وأوّل من أجاب واستجاب لله من المؤمنين، وأقدم السابقين، وقاصم المعتدين، ومببر المشركين، وسهم من مرامى الله على المنافقين، ولسان حكمه العابدين، ناصر دين الله، وولىّ أمر الله، ولسان حكمه الله، وعيية علم الله. سمح سخى، بهلول زكىّ أبطحى، رضى مرضى، مقدم همام، صابر صوام، مهذب قوام، شجاع قمقام. قاطع الأصلاب، ومفرّق الأحزاب. أربطهم جنّانا، وأطلقهم عنانا، وأجرأهم لسانا. وأمضاهم عزيمة، وأشدّهم شكيمة. أسد باسل وغيث هائل. إذا ازدلفت فى الحروب الأسنة وقربت الأعنة يطحنهم طحن الرّحى، ويذروهم ذرو الرّيح الهشيم! ليث الحجاز! وصاحب الإعجاز، وكبش العراق، والإمام بالنصّ والاستحقاق. مكّى مدنى، أبطحى تهامى، خيفى عقى،

ص: ٣٢

بدرى احدى، مهاجرى شجرى (بيعة الشجرة). من العرب سيّدها، ومن الوغى ليثها. وارث المشعرين (الحرام المزدلفة، والحلال عرفات) وأبوالسبطين الحسن والحسين (عليهم السلام). مظهر العجائب، ومفرّق الكتائب، والشهاب الثاقب، والنور العاقب (المتعاقب) أسد الله الغالب، مطلوب كلّ طالب، وغالب كلّ غالب. ذاك جدّى علىّ بن أبى طالب (ع).

أنا ابن فاطمة الزهراء، أنا ابن سيّدة النساء، أنا ابن الطهر البتول، أنا ابن بضعة الرّسول.

ثمّ لم يزل يقول أنا أنا، حتّى ضجّ الناس بالبكاء والنحيب، وخشى يزيد أن تكون فتنة (وأن أوان الأذان) فأمر المؤذن أن يؤذن، فرفع المؤذن صوته وقال:

الله أكبر! فقال عليّ بن الحسين: كبرت كبيراً لا يقاس ولا يدرك بالحواس! لا شيء أكبر من الله! فلما قال المؤذن: أشهد أن لا إله إلا الله، قال عليّ: شهد بها شعري وبشري ولحمي ودمي ومخي وعظمي! فلما قال المؤذن: أشهد أن محمداً رسول الله، ولم يزل عليّ على المنبر، فالتفت إلى يزيد وقال له: يا يزيد (بدون لقب) محمد هذا جدّي أم جدك؟! فإن زعمت أنّه جدك فقد كذبت! وإن قلت: إنّ جدّي، فلم تقتل عترته؟! وأكمل المؤذن الأذان والإقامة، فتقدّم يزيد وصلى بهم الظهر ٧٨، وإنما صلى معه بعضهم وتفرّق آخرون فلم يصلوا معه ٧٩.

ثمّ قام إليه المنهال بن عمرو الطائي الكوفي، وكان حاضراً بدمشق الشام فقال له: كيف أمسيت يا بن رسول الله؟ فقال له: ويحك كيف أمسيت؟ أمسينا فيكم كهينة بنى إسرائيل في آل فرعون: يذبحون أبناءهم ويستحيون نساءهم! وقد أمست العرب تفتخر على العجم بأن محمداً منها! وأمست قريش تفتخر على سائر العرب بأن محمداً منها،

ص: ٣٣

وأمسى آل محمد مقهورين مخذولين! فإلى الله نشكو كثرة عدونا وتظاهر الأعداء علينا وتفرّق ذات بيننا ٨٠. وكان يزيد أراد استعادة هيبته حكمه، فأمر بحمل رأس الحسين (ع) والتطواف به في دمشق، وأمامه قارئ يقرأ من القرآن سورة الكهف حتّى بلغ قوله:

أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ٨١ وكان المنهال الطائي الكوفي حاضراً قال: فأنطق الله الرأس فقال بلسان ذلق ذرب:

أعجب من أصحاب الكهف قتلى وحملى ٨٢.

ردّهم إلى أوطانهم

عرفنا تساهل النعمان بن بشير الأنصاري في التشديد على «شبيعة» الحسين (ع) في الكوفة، فعزله يزيد بابتين زياد، فعاد النعمان إلى أحضان حفيد أبي سفيان يزيد، فكانما اليوم أراد تأنيبه على ذلك فدعاه، فلما جاء قال له: كيف رأيت ما فعل عبيد الله بن زياد؟ فقال: الحرب دول! وكأنّه يريد أن الأمر لم يكن مضموناً لهم. فقال يزيد: الحمد لله الذي قتله! فأراد النعمان أن يبرّر تساهله فقال: قد كان أمير المؤمنين (معاوية!) يكره قتله!

٧٨. مقتل الحسين (ع) للخوارزمي ٦٩: ٢-٧١.

٧٩. الكامل البهائي ٣٠٢: ٢.

٨٠. مناقب آل أبي طالب ١٨٢: ٤. والطبري في ذيل المذيّل: ٦٣٠، عن الطبقات لابن سعد ٢١٨: ٥.

٨١. الكهف: ٩.

٨٢. الخرائج والجرائح ٥٧٧: ٢، ح ١ مرسلًا، وكذا السيوطي في الخصائص ١٢٧: ٢.

فقال يزيد: ذلك قبل أن يخرج! ولو خرج على أمير المؤمنين (معاوية!) لقتله - والله - إن قدر عليه! فقال النعمان: ما كنت أدري ما كان يصنع ٨٣!

ص: ٣٤

ثم لما تبني يزيد على التظاهر بعدم التبني والالتزام بإجرام ابن زياد بقتل الحسين (ع)، تمايل إلى جانب النعمان يشاوره فيمن حضره من أهل الشام قال لهم: يا أهل الشام! ما ترون في هؤلاء؟

فقال النعمان: انظر ما كان يصنعه بهم رسول الله (ص) لو رأيهم في هذه الحالة، فاصنعه بهم! فقال: صدقت، خلوا عنهم، وكساهم ٨٤ وأمر بردهم إلى المدينة ٨٥ وقال له:

يا نعمان بن بشير! جهّزهم بما يصلحهم، وابعث معهم من أهل الشام رجلاً صالحاً أميناً! وابعث معه أعواناً وخيلاً، فيسير بهم إلى المدينة ٨٦. وسمح لهم أن يحملوا معهم الرؤوس ولا سيما رأس الإمام (ع) ٨٧، فكان عليهم أن يمرّوا بكربلاء في الراجح.

فخرج بهم، وكان يسايرهم من خلفهم وهم أمامه بحيث لا يفوتون طرفه، فإذا نزلوا تنحى عنهم، وتفرّق هو وأصحابه حولهم يحرسونهم، بحيث إذا أراد أحدهم قضاء حاجة لم يحتشم، فلم يزل هكذا ينازلهم في الطريق ويسألهم عن حوائجهم ٨٨.

ص: ٣٥

فزاروا الحسين (ع) في أربعينه

على ما مرّ من موافقة يزيد على حملهم معهم الرؤوس ولا سيما رأس الحسين (ع)، كان من الراجح في غالب الظن أن يحملوها إلى مدفنهم بكربلاء،

ولما كانوا يسألونهم عن حوائجهم كما مرّ خبره، قالوا لدليلهم: مرّ بنا على طريق العراق إلى كربلاء. فزاروا قبور الحسين وأهل بيته وأصحابه عليهم السلام ودفنوا رؤوسهم عندهم، ثم عرجوا على مدينة جدّهم رسول الله (ص) ٨٩.

٨٣. ثم خرج النعمان، فقال يزيد لمن حضره: هو كما ترونه منقطع إلينا وقد ولّاه أمير المؤمنين! ورفعه، ولكن أبي كان يقول: لم أعرف أنصارياً قطّ إلا يحبّ علياً وأهله ويبغض قريشاً بأسرها! مقتل الخوارزمي ٥٩: ٢ عن ابن سعد عن الواقدي بسنده.

٨٤. العقد الفريد ٣٨٢: ٤.

٨٥. مقتل الحسين (ع) للخوارزمي ٦٦: ٢ مع ما قبله.

٨٦. تاريخ الطبري ٤٦١: ٥ - ٤٦٢ عن أبي مخنف عن فاطمة ابنة الحسين (ع)، وانظر الإرشاد ١٢٢: ٢.

٨٧. انظر: مقتل الحسين (ع) للمقرّم: ٤٦٩ - ٤٧٠، ونفس المهموم: ٤٦٦ - ٤٦٧، وتذكرة الخواص ٢٠٦: ٢ - ٢٠٩.

٨٨. المصدران الأسبقان.

٨٩. قال أبو ریحان البيروني (م ٤٤٠ هـ) في كتابه: الآثار الباقية عن القرون الخالية: ٣٣١.

وأرسل ابن نما، قال: ولما ورد عيال الحسين (ع) إلى كربلاء وجدوا جابر بن عبد الله الأنصاري وجماعة من بني هاشم قدموا لزيارته في وقت واحد، فتلاقوا بالحنين والاكنتاب والنوح على ذلك المصاب ٩٠. ولعلّه عنه أخذ ابن طاووس وزاد: فتلاقوا بالبكاء والحنين واللطم، وأقاموا المآتم المقرحة للأكباده، واجتمع إليهم نساء ذلك السواد فأقاموا على ذلك أياماً ٩١.

ولعلّه لذلك أمر الصادق (ع) صفوان بن مهران الجمال بأن يزور الحسين (ع) في الأربعين ٩٢. وعدّها العسكري (ع) من علامات المؤمنين ٩٣.

ص: ٣٦

ثم انفصلوا من كربلاء نحو المدينة حتى قربوا منها فنزلوا:

لم يعرف من الرجال الذين أرسلهم يزيد مع آل الحسين (ع) ومع النعمان بن بشير الأنصاري المدني إلى المدينة، وأمرهم بالرفق بهم وباتباعهم للإمام السجاد (ع)، لم يعرف منهم سوى من سمّاه ابن طاووس ببشير بن حذام، ويظهر من الخبر أنّه كان قد تقرب إلى الإمام وعرفه بنفسه وأنّ أباه كان شاعراً، فهنا يقول: إنّ الإمام قال له: يا بشير، رحم الله أباك لقد كان شاعراً، فهل تقدر على شيء منه؟ قال: بلى يابن رسول الله إنيّ لشاعر. فقال له: فادخل المدينة وانع أبا عبد الله (ع). ويظهر أنّ أمير ذلك الخيل والنعمان الأنصاري لم يأبى ذلك عليه، فركب فرسه إلى المدينة حتى بلغ المسجد النبوي الشريف فرفع صوته قائلاً:

قُتِلَ الْحُسَيْنُ! فَأُدْمَعِي مِدْرَارُ

يا أهلَ يثرب لا مقامَ لكم بها

والرأس منه على القنأ يُدارُ

الجسمُ منه بكربلاء مُضَرَجٌ

ويظهر أنّه كرّر ذلك حتّى اجتمع الناس حوله فقال لهم: هذا عليّ بن الحسين مع عمّاته وأخواته قد حلّوا بساحتكم ونزلوا بفنائكم، وأنا رسوله إليكم اعرفكم مكانه. قال: فلم أر يوماً أمرّاً على المسلمين منه! ولم أر باكياً أكثر من ذلك اليوم! وخرجن النساء يدعون بالويل والثبور، ويضرين الخدود ويخمشن الوجوه، وفيهنّ جوارى نائحات ينحن على الحسين (ع). ثمّ عرفهم مكان نزولهم، فبادروه.

« وفي العشرين (من شهر صفر سنة ٦٠ هـ) زيارة الأربعين، وهم حرم (الحسين) (ع) بعد انصرافهم من الشام، وردّوا رأس الحسين (ع) إلى مجتمه حتّى دفن مع جثته. » وهو أقدم كتاب في هذا الباب.

٩٠. مثير الأحزان لابن نما: ٥٩، وهو أقدم نصّ بهذا المعنى.

٩١. كتاب الملهوف على قتلى الطفوف: ١٧٦، ولعلّه يشير إلى المثير في الإقبال لما قال: « ووجدت (في غير المصباح): أنّهم وصلوا كربلاء في عودتهم من الشام يوم العشرين من صفر » واستبعاده مردود بردود السيد القاضي في: تحقيق أربعين الحسين (ع).

٩٢. التهذيب ١١٣: ٦، ح ٢٠١، ومصباح المتجّد ٧٣٠: ٢.

٩٣. التهذيب ٥٢: ٦، ح ١٢٢، ومصباح المتجّد: ٧٣٠، وأصلها عشرة في الهداية الكبرى للخصيبي مسنداً.

قال: فضربت فرسى ورجعت إليهم، فوجدت الناس قد أخذوا الطرق والمواضع، فنزلت عن فرسى وتخطيتهم حتى قربت من فسطاط عليّ بن الحسين (ع) وكانهم كانوا قد تجهّزوا بكرسىّ معهم، وبعض الموالى أو الخدم، فخرج الإمام وهو يمسح دموعه بخرقه معه، وخلفه خادم يحمل معه كرسيّاً وضعه له فجلس عليه، ولما رآه الناس ارتفعت أصواتهم بالبكاء، وحنين النسوان والجواري، وتقدّم إليه الناس من كلّ ناحية يعزّونه بأبيه، ثمّ أوماً إليهم بيده أن اسكتوا ثمّ قال:

ص: ٣٧

الحمد لله ربّ العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين، بارئ الخلائق أجمعين، الذى بعدَ فارّت في السماوات العلّى، وقربَ فشهد النجوى. نحمده على عظام الأمور وفجائع الدهور، وألم الفجائع ومضاضة اللواذع، وجليل الرزء وعظيم المصائب، الفاضلة الكاظّة، الفادحة الجائحة.

أيّها القوم! إنّ الله - وله الحمد - ابتلانا بمصائب جليّة، وثلمة في الإسلام عظيمة: قُتلَ أبو عبد الله الحسين وعترته، وسُبيّت نساؤه وصبيته! وداروا برأسه في البلدان، من فوق عالي السنان! وهذه الرزية التي لا مثلها رزية!

أيّها الناس! فأىّ رجالات منكم يُسرون بعد قتله؟! أم أيّة عين تحبس دمعها وتضنّ (تبخل) عن انهمالها؟! فلقد بكت السبع الشداد لقتله، وبكت البحار بأمواجها، والسماوات بأركانها، والأرض بأرجائها، والأشجار بأغصانها، والحيتان في لجج البحار والملائكة المقربون وأهل السماوات أجمعون.

يا أيّها الناس! أىّ قلب لا ينصدع لقتله؟! أم أىّ فؤاد لا يحنّ إليه؟! أم أىّ سمع يسمع هذه الثلمة التي ثلمت في الإسلام ولا يصمّ؟!!

أيّها الناس! أصبحنا مطرودين مشرّدين مذودين، وشاسعين عن الأمصار، كأنّا أولاد ترك وكابل من غير جرم اجترمناه، ولا مكروه ارتكبناه، ولا ثلمة في الإسلام نلّمناها ما سمّعنا بهذا في الملة الآخرة إنّ هذا إلّا اختلاق^{٩٤} والله لو أنّ النّبىّ تقدّم إليهم في قتالنا كما تقدّم إليهم في الوصاية بنا لما زادوا على ما فعلوا بنا! فإنّا لله وإنا إليه راجعون، من مصيبة ما أعظمها، وأوجعها وأفجعها، وأكظّها وأفضعها، وأمرّها وأفدحها! فعند الله نحتسب ما أصابنا وما بلغ بنا، فإنّه عزيز ذو انتقام^{٩٥}.

ص: ٣٨

وكأنّ الوصى (ع) كان قد رأى من اقتدائه بالنّبىّ (ص) في زيجاته الائتلافية أن يصاهر أولاد الزبير وطلحة، فزوّج الحسن (ع) ابنته أمّ الحسن لعبد الله بن الزبير، وتزوّج هو ابنة طلحة أمّ إسحاق، ورزق منها طلحة^{٩٦}، لكنّه مات صغيراً، وكانت أمّ إسحاق حسنة السلوك مع الحسن (ع)، فأوصى أخاه الحسين (ع) أن يتزوّجها فتزوّجها بعده، فرزق منها ابنته فاطمة^{٩٧}.

٩٤ . سورة ص: ٧، وفي الخبر: في آياتنا الأولين. خطأ، ولعلّه من سهو الرواة.

٩٥ . كتاب الملهوف على قتلى الطفوف لابن طاووس: ١٧٧ - ١٨٢.

٩٦ . أنساب الأشراف: ٧٨: ٣، ح ٨٤.

٩٧ . المعارف لابن قتيبة: ٢٣٣.

وكانت في السبايا، فلما عادت إلى المدينة زارها أخوها إبراهيم بن طلحة، وكأنه اغتنمها فرصة للشماتة بعلی بن الحسين (عليهما السلام)، فتجراً بسوء الأدب وقال له: يا علی بن الحسين، من غلب؟! فذكره الإمام بما ذكر به يزيد في كلامه له بالشام، قال: إذا أردت أن تعلم من غلب فإذا دخل وقت الصلاة فأذن وأقم ٩٨ فيعرف الغالب بالباقي ذكره فيهما!

ابن الزبير وقتل الحسين (ع):

روى الطبري عن أبي مخنف قال:

كان ابن الزبير يُظهر أنه عائد بالبيت ويباع الناس سرّاً، فلما قتل الحسين (ع) قام خطيباً فحمد الله وأثنى عليه وصلى على محمد (ص) ثم قال: إن أهل العراق غدر فجر إلا قليلاً، وإن أهل الكوفة شرار أهل العراق؛ فإنهم دعوا حسيناً لينصروه ويؤثروا عليهم، فلما قدم عليهم ثاروا إليه وقالوا له: إما أن تضع يدك في أيدينا فنبتك بك إلى ابن زياد بن سمية سلماً فيمضي فيك حكمه، وإما أن

ص: ٣٩

تحارب! فرأى أنه هو وأصحابه قليل في كثير ... ولكنه اختار الميتة الكريمة على الحياة الذميمة. فرحم الله حسيناً، وأخزى قاتل حسين!

ثم قال: أبعده الحسين نظمناً إلى هؤلاء القوم ونصدق قولهم ونقبل لهم عهداً؟! لا ولا نراهم أهلاً لذلك! أما والله لقد قتلوه طويلاً بالليل قيامه كثيراً في النهار صيامه، أحق بما هم فيه منهم وأولى به، في الدين والفضل! أما والله ما كان يبذل بالقرآن الغناء! ولا بالبكاء من خشية الله الحداء! ولا بالصيام شرب الحرام! ولا بالمجالس في حلق الذكر الركض في تطلاب الصيد! فسوف يلقون غيًّا! يعرض بيزيد.

وثار إليه أصحابه وقالوا له: أيها الرجل؛ إذ هلك حسين فإنه لم يبق أحد ينازعك هذا الأمر! فأظهر بيعتك! فقال لهم: لا تعجلوا.

ولما استقر عند يزيد ما جمع ابن الزبير حوله بمكة، عاهد الله ليوثقته في سلسلة، ثم أعد سلسلة من فضة وبرنس خز ودعا ابن عضاه الأشعري ومسعدة ومعهما جمع، وأرسلهم إليه ليأتوا به إليه في جامعة فضة ليبر يمينه، فمروا بالمدينة فبعث معهم مروان بابنيه عبد الملك وعبد العزيز، فردهم ردّاً رقيقاً ٩٩.

وقال البعقوبي: إن ابن الزبير أجاب ابن عضاه الأشعري بجواب غليظ! فقال له ابن عضاه: إن الحسين بن علي كان أجلاً قدراً في الإسلام وأهله من قبل، وقد رأيت حاله! يهدده بمصير الحسين، فقال له ابن الزبير: إن الحسين بن علي خرج إلى من لا يعرف حقه! وإن المسلمين قد اجتمعوا على! فقال له: فهذا ابن عباس وابن عمر لم يبايعاك. وانصرف عنه ١٠٠.

٩٨ . أمالي الطوسي: ٦٧٧، المجلس ٣٧، ح ١١ بسنده عن الصادق (ع)، هذا، ولا نجد في أبناء طلحة إبراهيم، وإنما هو ابن محمد بن طلحة القتيل يوم الجمل، كما في المعارف لابن قتيبة: ٢٣١ - ٢٣٣ وعليه فهو ابن أخي أم إسحاق وهي عمته. ويعلم من خبر الصادق (ع) أنه اشتهر بنسبته إلى جدّه طلحة.

٩٩ . تاريخ الطبري ٤٧٤: ٥ - ٤٧٧ عن أبي مخنف.

١٠٠ . تاريخ يعقوبي ٢٤٧: ٢.

ص: ٤٠

وعمر بن سعيد يومئذ عامل مكة والمدينة، فكان مع شدته عليه يداريه ويفرق به. فوفد الوليد بن عتبة وناس معه إلى يزيد وقالوا له: لو شاء عمرو بن سعيد لأخذ ابن الزبير وبعث به إليك. فسرّح الوليد أميراً على الحجاز وعزل عمرًا لهلال ذي الحجة موسم سنة إحدى وستين ١٠١.

وكما تمرّد ابن الزبير بعد قتل الحسين (ع) كذلك تمرّد باليمامة نجدة بن عامر الحنفي في بني حنيفة من تميم، وحجّ بهم، وحجّ ابن الزبير بأصحابه، وحجّ الوليد، ولم يتبعاه في الموسم ١٠٢.

ص: ٤١

يزيد، بعد الحسين الشهيد

قال السيوطي الشافعي: لما قتل ابن زياد الحسين وبني أبيه وبعث برؤوسهم إلى يزيد، سرّ بقتلهم أولًا، ثمّ لما مقته المسلمون وأبغضه الناس على ذلك ندم. ثمّ نقل عن «مسند أبي يعلى» عن النبي (ص)، قال: «لا يزال أمر أمتي قائمًا بالقسط حتّى يكون أول من يثلمه رجل من بني أمية يقال له: يزيد» وضعّف سنده ١٠٣، ولكنّه قال: لعن الله قاتل الحسين وابن زياد معه ويزيد أيضًا ١٠٤.

وروى البلاذري قال: كتب يزيد إلى ابن زياد: أمّا بعد، فزد أهل الكوفة أهل السمع والطاعة في أعطياتهم مئة مئة ١٠٥.

وحكى المسعودي: أنّه بعد قتل الحسين (ع) جلس ذات يوم على شرابه وقد دعا إليه ابن زياد فأجلسه عن يمينه وأقبل على ساقيه وقال له:

اسقني شربةً تروى مشاشي

ثمّ مرّ فاسقٍ مثلها ابن زيادِ

صاحب السرّ والأمانة عندي

ولتسدّد مغنمي وجهادي

١٠١. تاريخ الطبري ٤٧٧: ٥.

١٠٢. المصدر السابق ٤٧٩: ٥.

١٠٣. تاريخ الخلفاء: ٢٤٨.

١٠٤. المصدر السابق: ٢٤٧.

١٠٥. أنساب الأشراف ٢٢٦: ٣-٢٢٧، ح ٢٢٧.

ثم أمر المغنين فغنوا له بها.

وغلّب على أصحاب يزيد وعمّاله ما كان يفعله من الفسوق، وفي أيّامه ظهر الغناء بمكّة والمدينة واستعملت الملاهى وأظهر الناس شرب الشراب!

وكان يزيد صاحب جوارح وكلاب، وفهود وقرود! وكان له قرد يكتّيه بأبى قيس! يحضره مجلس منادمتة ويطرح له متّكناً! وكان قرداً خبيثاً، وكان يحمله على أتان وحشيّة قد ريّضت وذلت لذلك بسرّج ولجام، ويسابق بها الخيل يوم

ص: ٤٢

حلبة السباق، وكان يُلبس قرده أبا قيس قباء مشمراً من الحرير الأحمر والأصفر، ويجعل على رأسه قلنسوة بشقائق من الحرير ذات ألوان، وعلى الأتان سرج من الحرير الأحمر منقوش ملمّع بألوان، فسبق يوماً على الخيل فتناول قصب السباق ودخل في الحجر، فقال في ذلك اليوم بعض شعراء الشام:

تمسّك أبا قيس بفضل عنانها فليس عليها إن سقطت ضمان!

ألا من رأى القرد الذى سبقت به جياذ أمير المؤمنين! أتان ١٠٦

ومع هذا لم يعدم من تملّق له فنقل لعمر بن عبد العزيز قولاً عن يزيد ولقبه بأمرير المؤمنين! فأنكر عليه عمر وقال له: أتقول له أمير المؤمنين؟! ثم أمر أن يضرب عشرين سوطاً! فضرب ١٠٧.

يزيد، وبنو زياد:

إزداد زياد من الأزواج والأولاد، فقد ذكروا له أكثر من أربعين: أكثر من عشرين بنتاً وعشرين ابناً ١٠٨ عبيد الله على العراقيين، وأخوه عبد الرحمان على خراسان، وأخوه عبّاد على سجستان فى ثغر البلاد. وقد عرفنا تولية عبيد الله البصرة لما وفد على معاوية، فالיום وفد أخوه سلم على يزيد بعد قتل الحسين (ع)، وهو ابن أربع وعشرين سنة، وكان يزيد أحبّ أن يلقي بأسهم بينهم فقال له: أوليك عمل أخويك عبد الرحمان وعبّاد؟ فقال: ما أحبّ أمير المؤمنين! فولّاه خراسان وسجستان.

وكان ابن زياد كأنّه عاد من الشام بعد الكوفة إلى البصرة، فقدم عليه أخوه سلم بكتاب يزيد إليه بنخبة ألفى رجل - إلى ستّة آلاف - لسلم، فكان سلم

ص: ٤٣

١٠٦ . مروج الذهب ٦٧: ٣- ٦٨.

١٠٧ . تاريخ الخلفاء: ٢٤٨ - ٢٤٩.

١٠٨ . المعارف لابن قتيبة: ٣٤٧.

ينتخب الوجوه والفرسان لديوانه، خلقاً كثيراً من فرسان البصرة وأشرافهم. ووجه أخاه يزيد ابن زياد إلى سجستان، وكان عبيد الله يحبّ عبّاداً، فكتب إليه يخبره بولاية سلم، فقسّم عبّاد ما في بيت ماله وخرج من سجستان، وخرج منها إلى جيرفت ثمّ إلى فارس حتّى قدم على يزيد بن معاوية وأخبره بتقسيمه ما أصاب بين الناس، فلم يؤاخذه!

وتجهّز سلم وسار إلى خراسان، فأخذ الحارث بن قيس السلمي عامل أخيه عبد الرحمان بن زياد وأقامه في سراويله يطالبه بالمال! وكان عمّال خراسان إذا دخل الشتاء عادوا من مغازيهم إلى بلدّة مرو، ويجتمع ملوك خراسان في بلد من بلاد خوارزم، وكان مع سلم المهلب بن أبي صفرة، فسأله أن يوجّهه إليهم، فوجّهه في أربعة آلاف، فحاصروهم وصالحهم على ثيف وعشرين ألف ألف، فبلغ قيمة ما أخذ منهم خمسين ألف ألف، فاصطفى سلم منه ما أعجبه وبعث بعمدته مع مرزبان مروفي وفد إلى يزيد بالشام، ثمّ عبر إلى سمرقند فصالحه أهلها ١٠٩.

ولعلّه لهذا قال الأصوص الشاعر في تملك يزيد واثقياد الناس لملكه وتجبره:

ملكٌ تدين له الملوك، مبارك! كادت لهيبته الجبال تزولُ

تُجبى له بلخ، ودجلة كلّها وله الفرات وما سقى، والنيلُ ١١٠

وفي اليعقوبي: ولّى يزيد: سلم بن زياد خراسان فصار إليها ومعه عدّة من أشراف (البصرة) وأقام بنيسابور ثمّ صار إلى خوارزم ففتحها، ثمّ صار إلى بخارى.

ص: ٤٤

وكان ملكهم امرأة تدعى خاتون، فلما رأت كثرة جمع سلم هالها ذلك، فكتبت إلى ملك السغد طرخون: أقبل إلىّ لتملك بخارى وتزوّجني! فأقبل إليها في مائة وعشرين ألفاً، فلما بلغ سلم بن زياد إقبال طرخون وجّه المهلب بن أبي صفرة طليعة له، فخرج إليهم، فلما أشرفوا على عسكر طرخون زحف أصحاب طرخون إليهم والتحم القتال، فرشقهم المسلمون بالنبال فأصابوا طرخون فقتل وانهزموا فقتل منهم كثير، وغنم المسلمون كثيراً، حتّى بلغت سهامهم للفارس ألفين وأربعمائة، وللراجل ألفاً ومائتين.

ولم يزل سلم بخراسان حتّى بلغه موت يزيد (في ٦٤ هـ-)، فكتمه حتّى ذاع، فاستخلف على خراسان عبد الله بن خازم السلمي وعاد، وأقام ابن خازم بخراسان يفعل الأعاجيب! وسار سليمان إلى هراة، ووثب أوس بن ثعلبة بالطالقان يحاربهم وينتصر عليهم ١١١.

إجلاء زينب ووفاتها

١٠٩. تاريخ الطبرى ٤٧١: ٥ - ٤٧٤.

١١٠. مروج الذهب ٦٨: ٣.

١١١. تاريخ اليعقوبى ٢٥٢: ٢.

لَمَّا عَادَتْ زَيْنَبُ بِنْتُ عَلِيٍّ (ع) إِلَى الْمَدِينَةِ مِنَ الشَّامِ مَعَ النِّسَاءِ وَالْأَيَّامِ، كَانَتْ تُؤَلِّبُ النَّاسَ بِالْمَدِينَةِ عَلَى الْقِيَامِ بِأَخْذِ ثَارِ الْحُسَيْنِ (ع) فَلَمَّا بَدَأَ ابْنُ الزَّيْبِرِ بِمَكَّةَ بِحَمْلِ النَّاسِ عَلَى خَلْعِ يَزِيدٍ وَالْأَخْذِ بِثَارِ الْحُسَيْنِ (ع) وَبَلَغَ ذَلِكَ إِلَى أَهْلِ الْمَدِينَةِ، أَخَذَتْ زَيْنَبُ تَخْطِبُهُمْ وَتُؤَلِّهِمْ عَلَى الْقِيَامِ بِأَخْذِ الثَّارِ، وَبَلَغَ ذَلِكَ عَمْرَوِينَ سَعِيدَ الْأَشْدُقِ، فَثَارَتْ فِتْنَةٌ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْأَشْدُقِ وَالْيَ الْمَدِينَةِ مِنْ قَبْلِ يَزِيدٍ، فَكُتِبَ إِلَى يَزِيدٍ يَعْلَمُهُ بِالْخَبَرِ وَيُشِيرُ عَلَيْهِ بِنَقْلِهَا مِنَ الْمَدِينَةِ. فَكُتِبَ يَزِيدُ إِلَيْهِ أَنْ يَفْرُقَ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُمْ.

فَأَمَرَ الْأَشْدُقُ أَنْ يَنَادِيَ عَلَيْهَا بِالْخُرُوجِ مِنَ الْمَدِينَةِ إِلَى حَيْثُ تَشَاءُ!

ص: ٤٥

فَأَبَتْ زَيْنَبُ وَقَالَتْ: قَدْ عَلِمَ اللَّهُ مَا صَارَ إِلَيْنَا: قُتِلَ خَيْرُنَا، وَسَقْنَا كَمَا تَسَاقُ الْأَنْعَامُ! وَحَمَلْنَا عَلَى الْأَقْتَابِ! فَوَاللَّهِ لَا خَرَجْنَا وَإِنْ أَهْرَقَتْ دِمَاؤُنَا!

فَاجْتَمَعَ إِلَيْهَا نِسَاءُ بَنِي هَاشِمٍ وَتَلَطَّفْنَ مَعَهَا فِي الْكَلَامِ وَوَاسَيْنَهَا، وَكَلَّمَتْهَا مِنْهُنَّ زَيْنَبُ بِنْتُ عَقِيلِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، قَالَتْ لَهَا: يَا ابْنَةُ عَمَّاهُ! قَدْ صَدَقْنَا اللَّهَ وَعَدَهُ، وَأَوْرَثْنَا الْأَرْضَ تَتَبُوءُ مِنْهَا حَيْثُ نَشَاءُ، فَطِيبِي نَفْسًا وَقَرِّي عَيْنًا، وَسِيَجْزِي اللَّهُ الظَّالِمِينَ! أَتُرِيدِينَ هَوَانًا بَعْدَ هَذَا! فَاجْلِي إِلَى بَلَدٍ آمِنٍ (?) وَوَاسْتِ مَعَهَا لِلْخُرُوجِ وَالْجَلَاءِ ابْنَتَا أَخِيهَا الْحُسَيْنِ (ع): سَكِينَةُ وَفَاطِمَةُ.

فَجَهَّزَ الْأَشْدُقُ لَهَا وَلَمَنْ أَرَادَ السَّفَرَ مَعَهَا مِنْ نِسَاءِ بَنِي هَاشِمٍ، وَتَعَيَّنَ الْمَصِيرَ إِلَى مِصْرَ. وَلَمْ يُوَرِّخْ لَخُرُوجِهَا وَإِنَّمَا جَاءَ: فَقَدِمَتْ (الْفُسْطَاطُ - الْقَاهِرَةُ الْقَدِيمَةُ) لِأَيَّامٍ بَقِيْنَ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ الْحَرَامِ لِآخِرِ عَامٍ إِحْدَى وَسَتِينَ، وَسِيَأْتِي عِزْلَ الْأَشْدُقِ لِهَلَالِ ذِي الْحِجَّةِ فَيَعْلَمُ أَنْ إِخْرَاجَهَا كَانَ قَبْلَهُ.

وَرَوَى الْعَبِيدِيُّ الْأَعْرَجِيُّ الْحُسَيْنِي (م ٢٧٧ هـ-) بِسَنَدِهِ عَنْ رَقِيَّةَ بِنْتِ عَقْبَةَ ابْنِ نَافِعِ الْفَهْرِيِّ أَنَّهَا كَانَتْ فِيمَنْ اسْتَقْبَلَ زَيْنَبًا (سَلَامُ اللَّهِ عَلَيْهَا) لَمَّا قَدِمَتْ مِصْرَ، فَتَقَدَّمَ إِلَيْهَا مُسْلِمَةُ بْنُ مَخْلَدٍ الْأَنْصَارِيُّ الْخَزْرَجِيُّ (قَاتَلَ ابْنَ أَبِي بَكْرٍ) وَعَبَدَ اللَّهَ بْنَ الْحَارِثِ وَأَبُو عَمِيرَةَ الْمَزْنِيَّ، وَعَزَّاهَا مُسْلِمَةُ وَبَكَى فَبَكَتْ وَبَكَى الْحَاضِرُونَ وَتَلَتْ قَوْلَهُ سُبْحَانَهُ: هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ١١٢ ثُمَّ احْتَمَلَهَا مُسْلِمَةُ الْوَالِي إِلَى دَارِهِ بِالْحَمْرَاءِ الْقَصْوَى. فَأَقَامَتْ بِهِ أَحَدَ عَشَرَ شَهْرًا وَخَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا ثُمَّ تَوَفَّيَتْ، وَصَلَّى عَلَيْهَا مُسْلِمَةُ بْنُ مَخْلَدٍ فِي جَمْعٍ بِالْجَامِعِ، وَكَانَتْ قَدْ أَوْصَتْ أَنْ يَدْفَنُوهَا فِي مَخْدَعِهَا مِنْ دَارِ مُسْلِمَةَ، وَنَفَّذَ مُسْلِمَةُ الْوَصِيَّةَ فَرَجَعُوا بِهَا حَتَّى دَفَنُوهَا بِمَخْدَعِهَا مِنَ الدَّارِ بِالْحَمْرَاءِ الْقَصْوَى، بِوَصِيَّتِهَا، حَيْثُ بَسَاتَيْنِ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ الزَّهْرِيَّ.

ص: ٤٦

وَكَانَ وَفَاتِهَا عَشِيَّةَ يَوْمِ الْأَحَدِ لِخَمْسَةِ عَشَرَ يَوْمًا مَضَتْ مِنْ رَجَبِ سَنَةِ (٦٢) مِنَ الْهَجْرَةِ ١١٣.

الْوَلِيدُ وَعَمْرُو بْنُ سَعِيدٍ:

١١٢. يس: ٥٢.

١١٣. كَذَا فِي النُّسخَةِ، وَالصَّحِيحُ: (٦٣ هـ-) وَفَقًا لَمَّا مَرَّ مِنْ تَارِيخِي قَدُومِهَا الْفُسْطَاطُ وَإِقَامَتِهَا بِهَا، وَالْأَخْبَارُ عَنْ رِسَالَةِ أَخْبَارِ الزَّيْنَبَاتِ لِلْعَبِيدِيِّ النَّسَابَةِ، الْمُنْشُورَةِ فِي كِتَابِ السَّيِّدَةِ زَيْنَبٍ لِحَسَنِ مُحَمَّدٍ قَاسِمٍ، ط. الْمَنِيرِيَّةُ: ٢١ - ٢٢، فَوَفَاتِهَا كَانَ قَبْلَ وَقْعَةِ الْحَرَّةِ، كَمَا يَأْتِي، وَانْظُرْ تَرْجُمَةَ مُسْلِمَةَ فِي قَامُوسِ الرِّجَالِ ٧٢: ٧٥٤٧ / ١٠.

ثم إن الوليد بن عتبة وناساً معه من بنى أمية قالوا ليزيد: لو شاء عمرو بن سعيد لأخذ ابن الزبير، فلموسم الحج لسنة إحدى وستين عین يزيد الوليد بن عتبة فحج ولم يتبعه فيه ابن الزبير وأصحابه ونجدة الحنفى وأصحابه. ورجع من الحج إلى المدينة وخرج عمرو بن سعيد بعد ليلتين منها، وكان موالیه وغلمانہ نحواً من ثلاثمئة رجل! فأخذهم الوليد وحبسهم وأبى أن يخليهم! فبعث عمرو رسولاً إلى المدينة بأموال ليشتري لكل رجل منهم جملًا وأداة وحقيبة فينيخ الجمال في السوق ثم يخبرهم فيكسروا باب سجنهم ويركبوا الجمال إلى عمرو، ففعل رسوله ذلك وخرجوا إليه، فخرج بهم إلى يزيد في الشام، واعتذر إليه فقبل عذره ١١٤.

يزيد، وابن عباس

عرفنا ببيعة ابن عباس ليزيد ١١٥ فلعل ذلك هو الذي أطمع ابن الزبير فيها منه ولا سيما بعد مقتل الحسين (ع)، فأرسل إليه: أنا أولى من يزيد الفاسق الفاجر وقد علمت سيرته وسوابق معاوية، وعلمت سيرتي وسوابق أبي الزبير مع رسول

ص: ٤٧

الله! ودعاه إلى بيعته. فقال ابن عباس: ما لي ولهذا وإنما أنا رجل من المسلمين، والفتنة قائمة وباب الدماء مفتوح! وامتنع عليه.

وبلغ ذلك إلى يزيد فكتب إليه: أما بعد؛ فقد بلغني أن الملحدين في حرم الله دعاك لتبايعه فأبيت عليه وفاء منك لنا! فانظر من بحضرتك من أهل بيتك ومن يرد عليك من البلاد فأعلمهم حسن رأيك فينا وفي ابن الزبير! وأن ابن الزبير إنما دعاك إلى طاعته والدخول في بيعته لتكون له على الباطل ظهيراً وفي المأثم شريكاً! وقد اعتصمت ببيعتنا طاعة منك لنا ولما تعرف من حقنا! فجزاك الله من ذي رحم خير ما جرى به الواصلين أرحامهم والموفين بعهدهم! فما أنسى من الأشياء فما أنا بناس برّك وتعجيل صلتك بالذي أنت أهله! فانظر من يطلع عليك من الآفاق فحذرهم زخارف ابن الزبير وجنّهم لقلقة لسانه! فإنهم منك أسمع ولك أطوع، والسلام ١١٦.

جواب ابن عباس ليزيد

فكتب إليه ابن عباس: من عبد الله بن عباس إلى يزيد بن معاوية. أما بعد؛ فقد بلغني كتابك تذكر دعاء ابن الزبير إتي إلى نفسه وامتناعى عليه في الذي دعاني إليه من بيعته. فإن يك ذلك كما بلغك، فلست أردت حمدك ولا ودك، والله بما أنوى عليهم.

وزعمت أنك لست بناس ودّي! فلعمري ما تؤتينا ممّا في يديك من حقنا إلا القليل، وإنك لتحبس عنا منه العريض الطويل.

ص: ٤٨

١١٤. تاريخ الطبري ٤٧٧: ٥ - ٤٧٩.

١١٥. الإمامة والسياسة ٢٠٣: ١.

١١٦. تذكرة الخواص ٢٣٧: ٢ عن ابن إسحاق! والواقدي والكلبي، وفي مقتل الخوارزمي ٧٧: ٢، مسنداً عن الأعشى.

وسألتني أن أحت الناس عليك وأخذلهم عن ابن الزبير. فلا، ولا سرورا ولا حيورا! وأنت قتلت الحسين بن علي، بفيك الكنكث ولك الأثلب ١١٧، إنك - إن تمنك نفسك ذلك - لعازب الرأي! وإنك لأنت المفند المتهور! لا تحسبني - لا أبا لك - نسيت قتلك حسينا وفتيان بني عبد المطلب: مصاييح الدجى ونجوم الأعلام، غادرهم جنودك مصرعين في صعيد، مرملين بالتراب، مسلوبين بالعراء لا مكفين، تسفى عليهم الرياح، وتعاورهم الذئاب، وتنشى بهم عرج الضباع! حتى أتاه الله لهم أقواما لم يشتركوا في دمائهم، فأجنوهم (ستروهم) في أكفانهم، وبى - والله - وبهم عززت وجلست مجلسك الذي جلست يا يزيد!

وما أنسى من الأشياء فلست بناس تسليطك عليهم الدعي العاهر ابن العاهر، البعيد رحما، اللئيم أبا وأما، الذي في ادعاء أبيك إياه ما اكتسب أبوك به إلا العار والخزي والمذلة في الآخرة والأولى، وفي الممات والمجيا؛ فإن نبي الله قال:

«الولد للفراش وللعاهر الحجر»

فألحقه بأبيه كما يلحق بالعفيف النقي ولده الرشيد! وقد أمات أبوك السنة جهلا، وأحيا البدع والأحداث المضلة عمدا!

وما أنسى من الأشياء فلست بناس أطرادك الحسين بن علي من حرم رسول الله إلى حرم الله، ودسك إليه الرجال تغتاله، فأشخصته من حرم الله إلى الكوفة، فخرج منها خائفا يترقب، وقد كان أعز أهل البطحاء بالبطحاء قديما، وأعز أهلها بها حديثا، وأطوع أهل الحرمين بالحرمين لو تبوأ بها مقاما واستحل بها قتالا، ولكن كره أن يكون هو الذي يستحل حرمة البيت وحرمة الحرم، فأكبر من ذلك ما لم تكبر حيث دسست إليه الرجال فيها ليقاتل في الحرم، وما لم يكبر ابن الزبير، حيث ألحد بالبيت الحرام، وعرضه للعائر وأراقل العالم، وأنت - لأنت - المستحل فيما أظن بل لا شك فيه: إنك للمحرّف العريف، فإنك حليف نسوة

ص: ٤٩

١١٨

وصاحب ملاه! فلما رأى (الحسين) سوء رأيك شخص إلى العراق ولم يبتغك ضرابا! وكان أمر الله قدرا مقدورا.

ثم إنك الكاتب إلى ابن مرجانة أن يستقبل حسينا بالرجال، وأمرته بمعاجلته وترك مطاولته، والإلحاح عليه حتى يقتله ومن معه من بني عبد المطلب: أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا! فنحن أولئك، لسنا كآبائك الأجلاف الجفأة الأكباد، الحمير.

ثم طلب الحسين بن علي إليه (ابن مرجانة) المودعة والرجعة، فاغتنمت قلة أنصاره واستئصال أهل بيته، فعدوتم عليهم، فقتلوهم كأنما قتلوا أهل بيت من الترك والكفر!

١١٧. الكنكث: التراب، والإثلب كذلك.

١١٨ يوسف غروي، محمد هادي، عصر الإمام السجاد، سياسيا و اجتماعيا، ١، جلد، المجمع العالمي لاهل البيت (عليهم السلام) - قم - إيران، چاپ: ١، ١٤٣٦

ه.ق.

فلا شيء أعجب عندي من طلبك ودّي ونصرى وقد قتلت بنى أبى وسيفك يقطر من دمي، وأنت مأخذ ثأرى، فإن يشأ الله لا يطلّ لديك دمي ولا تسبقني بثأرى، وإن سبقتني به في الدنيا فقبلنا ما قتل النبيون وآل النبيين، وكان الله الموعد، وكفى به للمظلومين ناصراً ومن الظالمين منتقماً، فلا يعجبنيك إن ظفرت بنا اليوم فوالله لنظفرن بك يوماً!

وأما ما ذكرت من وفائي وما زعمت من حقّي؛ فإن يك ذلك كذلك فقد والله بايعت أباك وإنّي لأعلم أن ابني عمّي (الحسنين) وجميع بنى أبى أحقّ بهذا الأمر من أبيك! ولكنكم - معاشر قريش - كاثرتُمونا فاستأثرتُم علينا سلطاننا ودفعتمونا عن حقنا، فبعداً لمن تحرّى ظلمنا واستغوى السفهاء علينا وتولّى الأمر دوننا، بعداً لهم كما بعدت ثمود وقوم لوط وأصحاب مدين ومكذبوا المرسلين.

ألا ومن أعجب العجب - وما عشت أراك الدهر العجيب - حملك بنات عبد المطلب وغلمة صغاراً من ولده إليك بالشام، كالسبي المجلوب! ترى الناس أنك قهرتنا وأنت تمنّ علينا! ولعمري لئن كنت تصيح وتمسى آمنا من جرح يدى إنّي لارجو أن يعظم جراحتك بلساني ونقضى وإبرامى، فلا يستمرّ بك الجذل (الفرح) ولا يمهلك الله بعد قتلك عترة رسول الله إلا قليلاً حتّى يأخذك

ص: ٥٠

أخذاً أليماً فيخرجك الله من الدنيا ذميماً أثيماً! فعش لا أبالك! فقد - والله - أرداك عند الله ما اقترفت! والسلام على من أطاع الله ١١٩.

وزاد السبط عن الواقدي، قال: فلما قرأ كتابه يزيد أخذته العزة بالإثم وهمّ بقتل ابن عباس، ولكنه شغله عنه أمر ابن الزبير ١٢٠.

ص: ٥١

يزيد، وابن الحنفية

وطمع يزيد بعد اليأس من ابن عباس في محمّد بن الحنفية، وكان بالمدينة، فكتب إليه:

أما بعد، فإنّي أسأل الله لى ولك عملاً صالحاً يرضى به عنا! فإنّي ما أعرف اليوم في بنى هاشم رجلاً هو أرجح منك علماً وحلماً! ولا أحضر منك فهماً وحكماً، ولا أبعد منك عن كلّ سفه ودنس وطيش! وليس من يتخلّق بالخير تخلّقاً وينتحل بالخير تنحلاً كمن جبّله الله على الخير جبلاً، وقد عرفنا ذلك كلّك منك قديماً وحديثاً شاهداً وغائباً.

١١٩. تاريخ اليعقوبي ٢٤٨: ٢ - ٢٥٠، وأسند في مقتل الخوارزمي ٧٧: ٢ - ٧٩، ويسنده في بحار الأنوار ٣٢٣: ٤٥ - ٣٢٥.

١٢٠. تذكرة الخواص ٢٣٧: ٢ - ٢٤٠. وسيأتى ما يدلّ على بيعه ابن عباس لابن الزبير!

غير أنّي قد أحببت زيارتك والأخذ بالخطّ من رويتك! فإذا نظرت في كتابي هذا فأقبل إلىّ آمناً مطمئناً. أرشدك الله أمرك، وغفر لك ذنبك! والسلام عليك ورحمة الله وبركاته ١٢١.

وكان لابن الحنفية عشرة بنين ١٢٢ لم يحضر أحد منهم مع عمّهم الحسين (ع)! سمّى أحدهم باسم جدّه لأمه جعفر، والآخرون عبد الله. فلمّا جاءه الكتاب وقرأه استشارهما في ذلك.

فقال له ابنه جعفر: يا أبة! إنّ قد طمأنك وأطفك في كتابه إليك! ولا أظنّه يكتب إلى أحد من قريش بأن «أرشدك الله أمرك وغفر ذنبك» فأنا أرجو أن يكفّ الله شرّه عنك.

ص: ٥٢

فسار ابن الحنفية (بنيه) حتّى قدم الشام على يزيد، فلمّا استأذن أذن له وقرّبه وأدناه حتّى أجلسه معه على سريرته، ثمّ أقبل عليه بوجهه وقال له: يا أبا القاسم! أجرك الله وإيتاك في أبي عبد الله الحسين! فوالله لئن كان أوجعك فقد أوجعني! ولو كنت أنا المتولّي لحربه لما قتلتته بل لدفعت القتل عنه ولو بجزّ أصابعي وذهاب بصري! ولقد يتّه بجميع ما ملكت يدي! وإن كان نازعني حقّي وقطع رحمي وظلمني! ولكن عبيد الله بن زياد لم يعلم رأيي فيه من ذلك فعجلّ عليه وقتله ولم يستدرّك ما فات! وبعد فإنّه لم يكن يجب (يجوز!) على أخيك أن ينازعنا في أمر خصّنا الله به دون غيرنا! وليس يجب علينا أن نرضى بالدنيّة في حقّنا! وعزّيز علىّ ما ناله! وهات ما عندك الآن يا أبا القاسم!

فحمد الله وأثنى عليه ثمّ قال: قد سمعت كلامك، ورحم الله حسينا وبارك الله له فيما صار إليه من ثواب ربّه والخلد الدائم الطويل في جوار الملك الجليل. وقد علمنا أنّ ما عرانا من ترح فقد عراك وأنّ ما نقصنا فقد نقصك! وكذا أظنّ أن لو شهدت ذلك بنفسك لاخترت أفضل الرأي والعمل! ولجانبت أسوأ الفعل والخطل!

والآن فإنّ حاجتي إليك ألا تسمعني فيه ما أكره؛ فإنّه ابن أبي وأخي وشقيقي؛ وإن زعمت أنّه كان عدوّاً لك وظالمك كما تقول!

فقال له يزيد: فإنّك لا تسمع منّي فيه إلا خيراً، ولكن هلمّ فبايعني! ثمّ اذكر ما عليك من الدّين حتّى أقضيه لك!

فقال محمّد: أمّا البيعة فقد بايعتك! وأمّا ما ذكرت من أمر الدّين فما علىّ بحمد الله دين، فإنّي من الله تبارك وتعالى في كلّ نعمة سابعة لا أقوم بشكرها!

وكان خالد بن يزيد بن معاوية عند أبيه فالتفت يزيد إليه وقال له: يا بني! إنّ ابن عمّك هذا! بعيد من الدنس والخبّ واللؤم والكذب، ولو كان غيره كبعض من عرفت لقال: علىّ من الدّين كذا وكذا، ليستغنم أخذ أموالنا! ثمّ أقبل يزيد على ابن الحنفية وقال له: بايعتني يا أبا القاسم؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين! قال: فإنّي أمرت لك بثلاثمائة ألف درهم! فقال محمّد: لا حاجة لي في هذا المال ولا

ص: ٥٣

١٢١. مقتل الخوارزمي ٧٩: ٢.

١٢٢. المعارف لابن قتيبة: ٢١٦.

جئت له! فقال يزيد: لا عليك أن تقبضه فتفرقه فيمن أحببت من أهل بيتك! قال: قد قبلته يا أمير المؤمنين ١٢٣!

وفد المدينة عند يزيد

وفي موسم الحج لسنة اثنتين وستين حج بالناس الوليد بن عتبة ١٢٤ وكان يماكره ابن الزبير فمكر به وكتب إلى يزيد: إنك بعثت إلينا رجلاً أخرج، لا يتجه لأمر رشد، ولا يروعى لعظة الحكيم! ولو بعثت إلينا رجلاً سهل الخلق لين الكنف رجوت أن يسهل من الأمور ما استوعر منها! وأن يجتمع ما تفرق، فانظر في ذلك، فإن فيه صلاح خواصنا وعوامنا إن شاء الله، والسلام.

فدعا يزيد ابن عمه الآخر: عثمان بن محمد بن أبي سفيان، وبعث به إلى المدينة وعزل عنها الوليد، وكان عثمان فتى لم يحنكه السن ولم يجرب الأمور حدثاً غراً.

فدعا عثمان بن محمد رجالاً كثيرين من الأشراف فيهم عبد الله بن حنظلة الغسيل الأنصاري، والمندر بن الزبير، وعبد الله بن أبي عمرو المخزومي، وبعث بهم وفداً إلى يزيد ١٢٥، وزاد الخوارزمي: عبد الله بن عمر، فأقاموا عنده أياماً، وقد أنزل ابن الحنفية في بعض منازلهم، يلتقي بهم صباحاً ومساءً، وأجاز كل واحد منهم بخمسين ألف درهم! والمندر بن الزبير بمائة ألف!

ص: ٥٤

فلما أرادوا الانصراف استأذنه ابن الحنفية ليكون معهم، فوصله بمائتي ألف درهم مع عروض بمائة ألف أخرى وقال له: كنت أحب ألا تفارقني وتأمرني بما فيه حظي ورشدي! والله ما أحب أن تنصرف عني وأنت ذام لشيء من أخلاقي؟

فقال له محمد: أمّا ما كان منك إلى الحسين (ع) فذلك شيء لا يستدرك! وأمّا الآن ... فلو رأيت منك خصلة أكرهها لما وسعني السكوت دون أن أنهاك عنها واخبرك بما يحق لله عليك منها (وذلك) للذي أخذ الله تبارك وتعالى على العلماء في علمهم أن يبينوه للناس ولا يكتُموه ... فأنا أنهاك عن شرب هذا المسكر! فإنه رجس من عمل الشيطان! وليس من ولي أمور الأمة ودعى له بالخلافة فوق المنابر على رؤوس الأشهاد كغيره من الناس! فاتق الله في نفسك، وتدارك ما سلف من ذنبك!

فقال له يزيد: فإني قابل منك ما أمرتني به! ثم ودّعه وخرج معهم إلى المدينة ففرق كل ذلك المال في الرجال والنساء والذرية والموالي من بني هاشم وقريش، ثم خرج إلى مكة مجاوراً ١٢٦ محاذراً أمرهم.

وزاد الطبري قال: ولما عاد الوفد إلى المدينة قالوا لهم: إننا قدمنا من عند رجل لا دين له، يشرب الخمر ويعزف بالطناير ويضرب عنده القيان، ويلعب بالكلاب، ويسامر الخراب والفتيان! فنحن نشهدكم أننا قد خلعناه!

١٢٣. مقتل الخوارزمي ٨٠: ٢ - ٨١.

١٢٤. تاريخ الطبري ٤٨١: ٥.

١٢٥. تاريخ الطبري ٤٧٩: ٥ - ٤٨٠ عن أبي مخنف.

١٢٦. مقتل الخوارزمي ٨١: ٢ - ٨٢.

وكان المنذر بن الزبير صديقاً لابن زياد، فقدّم عليه بالبصرة، فلمّا بلغ يزيد أمر أصحابه بالمدينة كتب إلى ابن زياد بحبس المنذر، فأنذره ابن زياد فخرج إلى المدينة وأخذ يقول لهم: واللّه لقد أجازني يزيد بمائة ألف درهم ولا

ص: ٥٥

يمنعني ذلك أن أخبركم خبره صادقاً: واللّه إنّه ليشرب الخمر، وإنّه ليسكر حتّى يدع الصلاة! فاشتدّ عليه أكثر من أصحابه. فدعا يزيد النعمان بن بشير الأنصاري وقال له: إنّ بالمدينة من عشيرتي من لا أحب أن ينهض في فتنهم فيهلك، وقومك (الأنصار) إن لم ينهضوا في هذا الأمر لم يجترئ الناس على خلافي! فاذهب إليهم وفترهم عمّا يريدون. فجاءهم النعمان ودعاهم إلى لزوم الطاعة والجماعة وقال لهم: إنّه لا طاقة لكم بأهل الشام! فعصاه الناس فانصرف عنهم ١٢٧ إلى الشام.

ص: ٥٦

مقدمات واقعة الحرّة ١٢٨

تمرد أهل المدينة على يزيد

وكان معاوية قد اكتسب أموالاً ونخيلاً بالمدينة، وعليها قيّم يجيبها لهم يدعى ابن ميثاء، وكانت له نوق وجمال لذلك في حرّة المدينة، فأقبل بها يريد جباية الأموال ليزيد، وكانت نخيلاً يجذّ منها كلّ سنة مائة وستين ألف وسق تمرًا! فاجتمع نفر من قريش والأنصار ودخلوا على عثمان بن محمّد فقالوا له: إنّ معاوية آثر علينا في عطائنا فلم يعطنا درهماً فما فوقه قطّ! حتّى مضى الزمان ونالتنا المجاعة! فاشترى منّا أموالنا بجزء من مائة من ثمنها! فهذه الأموال كلّها لنا! فقال لهم عثمان: لأكتبنّ إلى أمير المؤمنين بسوء رأيكم وما أنتم عليه من الضغون القديمة والأحقاد التي لم تزل في صدوركم!

فتفرّقوا عنه، ثمّ اجتمع رأيهم على منع ابن ميثاء القيّم عليها. فكتب عثمان بن محمّد بأمرهم إلى يزيد.

فكتب يزيد كتاباً خطاباً لأهل المدينة وأمر عثمان بن محمّد أن يقرأه عليهم فقرأه فإذا فيه:

«وأيّم الله لئن آثرت أن أضعكم تحت قدمي فلاطآنكم وطأه أقلّ منها عددكم، وأترككم أحاديث تتناسخ كأحاديث عاد وثمود! فلا أفلح من ندم!

ص: ٥٧

فلما قرئ الكتاب على أهل المدينة بدر عبد الله بن المطيع العدوى القرشي بكلام قبيح وأيده رجال آخرون.

وأمل يزيد في وساطة عبد الله بن جعفر وكان عنده، فأرسل إليه وقال له:

إن ابن الزبير حيث علمت من مكّة، وهو زعم أنّه قد نصب الحرب، فأنا أبعث جيوشاً وأمر صاحب أول جيش أبعثه أن يتخذ المدينة طريقاً، فإن نزعوا عن غيهم وضلالهم وأقروا بالطاعة فلهم على عهد الله وميثاقه أن لهم في كل عام عطاءين: عطاء في الشتاء وعطاء في الصيف، ما لا أفعله لأحد من الناس طول حياتي؛ ولهم على عهد أن أجعل الحنطة عندهم كسعر الحنطة عندنا! والعطاء الذي يذكرون أنّه احتبس عنهم في زمان معاوية فهو على أن أخرجه لهم وافرأ كاملاً! فإن قبلوا ذلك وأنا بوا جاوزهم إلى ابن الزبير، وإن أبوا قاتلهم، ثم إن ظفر بها أنهبها ثلاثاً!

فروى ابن قتيبة عن ابن جعفر، قال: فرجعت إلى منزلي ليلاً وكتبت إليهم كتاباً أعلمهم فيه بقول يزيد وأحضهم على القبول بما بذله لهم، وأنهم أن يتعرضوا لجيوشه! وسلّمت الكتاب لرسولي وطلبت إليه أن يجهد السير إليهم، فوصل إليهم في عشرة أيام، فما قبلوه «١٢٩».

نفى بنى أمية من المدينة

قال ابن قتيبة: فلما استبان لهم أن يزيد سيبعث إليهم بجيوشه اتفقوا على تمردهم واختلفوا في رياستهم، فمنهم من قال: ابن مطيع، وقائل: إبراهيم بن نعيم، ثم اجتمعوا على عبد الله بن حنظلة فبايعوه ١٣٠. وكان له ثمانية بنين كانوا

ص: ٥٨

معه في وفودهم على يزيد، فأعطى كل واحد منهم عشرة آلاف درهم وأعطى أباه مائة ألف، فلما عاد وسأله الناس ما وراءك؟ قال لهم: أتيتكم من عند رجل لو لم أجد إلا بنى هؤلاء لجاهدته بهم! فقالوا: فقد بلغنا أنه أكرمك وأعطاك! قال: أجل قد فعل ولكنني ما قبلت ذلك منه إلا أن أتقوى به عليه ١٣١. فلما بايعوه للخروج على يزيد قال لهم: والله ما خرجنا على يزيد حتى خفنا أن نرمى بالحجارة من السماء! إنه رجل ينكح أمهات الأولاد (أى أمهات أولاد أبيه!) والأخوات والبنات! ويشرب الخمر حتى يدع الصلاة ١٣٢.

وكان ابن زياد لما قتل الحسين (ع) قالت له أمه مرجانة: ويلك ماذا ركبت وماذا صنعت! فلما كتب يزيد إليه أن يغزو مكّة أبى عليه وقال: لا أجمعهما للفساق أبداً! أقتل ابن بنت رسول الله وأغزو البيت ١٣٣! ولعله كان قد بلغه إلقاء يزيد عليه قتله (ع).

١٢٩. الإمامة والسياسة ٢٠٦: ١-٢٠٧، ونسب عثمان بن محمد بالثقفى، بل هو ابن أبي سفيان الأموى. وسمى يعقوبى عامل صوافى معاوية فى المدينة: ابن مينا ٢٥٠: ٢ مصحف.

١٣٠. الإمامة والسياسة ٢٠٧: ١.

١٣١. تاريخ خليفة: ١٤٨ ولم يذكر وصفهم ليزيد!

١٣٢. تاريخ الخلفاء للسيوطى: ٢٤٩ عن الواقدى بطرق، وصحف بطرف!

١٣٣. تاريخ الطبرى ٤٨٣: ٥-٤٨٤.

وتأهَّب أهل المدينة لإخراج الأمويين منها، وبلغهم ذلك فاجتمعوا إلى مروان بن الحكم وقالوا له: يا أبا عبد الملك! ما الرأي؟ فقال لهم: إنما الخوف على الحرير فمن يقدر منكم أن يغيَّب حريمه فليفعل! وبلغه أن عبد الله بن عمر يريد الخروج إلى مكة ليغيَّب عن أمرهم هذا، فأتاه وقال له: احبَّ أن أوجَّه عيالي معك، وهي عائشة بنت عثمان بن عفان. فقال: إني لا أقدر على مصاحبة النساء!

قال: فاجعلهم مع حرمك في منزلك! قال: فلا آمن أن يدخل على حريمي لمكانكم معهم ١٣٤!

ص: ٥٩

وروى الطبري عن الواقدي نحوه وقال: فلبجاً إلى علي بن الحسين (ع) وقال له: يا أبا الحسن! إن لي رحماً! فتكون حرمي مع حرمك؟! قال: افعل! فبعث بحرمه إلى علي بن الحسين، فخرج بحرمه وحرم مروان إلى ينبع، فكان مروان شاكراً ذلك له ١٣٥. ثم وثب أهل المدينة على واليهم عثمان بن محمد بن أبي سفيان ومن بالمدينة من بنى أمية ومواليهم ومن كان معهم من قريش، فأخرجوهم حتى أنزلوهم دار مروان بن الحكم وكانوا نحو ألف رجل! وحاصروهم حصاراً ضعيفاً ١٣٦، وذلك ليخرجوهم من المدينة. فقالوا: نحن نريد الشام فالشقة بعيدة ولنا عيال وصبيّة ولا بدّ لنا ممّا يصلحنا. فاستنظروهم عشرة أيّام، فأنظروا.

ثم أخرجوا كبارهم إلى منبر رسول الله (ص) فحلفوهم ١٣٧. قالوا لهم: والله لا نكفّ عنكم حتى نستنزلكم ونضرب أعناقكم أو تعطونا عهد الله وميثاقه أن لا تبغونا غائلة ولا تدلّوا لنا على عورة، ولا تظاهروا علينا عدواً، فنكفّ عنكم ونخرجكم عنّا. فأعطوهم عهد الله وميثاقه ١٣٨، وشرطوا عليهم أن يخرجوا فيقيموا عشرة أيّام بذي خشب. فأخرجوهم من المدينة، وتبعهم السفهاء والصبيان يرمونهم بالحجارة حتى انتهوا إلى ذي خشب ١٣٩.

فبعث مروان إلى حبيب بن كره وكتب كتاباً إلى يزيد وسلّمه إلى ابنه عبد الملك فخرج مع ابن كره إلى ثنية الوداع فسلم الكتاب إليه وقال له: قد أجلتك اثنتي عشرة ليلة ذاهباً واثنتي عشرة ليلة مقبلاً، فوافني لأربع وعشرين ليلة في هذا المكان في هذه الساعة تجدني جالسا أنتظر.

ص: ٦٠

١٣٤ . الإمامة والسياسة ٢٠٨: ١.

١٣٥ . تاريخ الطبري ٤٨٥: ٥ وقال: وكانت بينهما صداقة قديمة! بل الصحيح: عداوة قديمة.

١٣٦ . تاريخ الطبري ٤٨٢: ٥.

١٣٧ . الإمامة والسياسة ٢٠٨: ١.

١٣٨ . تاريخ الطبري ٤٨٥: ٥ عن الكلبي عن الأزدي عن ابن كره الأموي.

١٣٩ . الإمامة والسياسة ٢٠٨: ١، موسوعة التاريخ الإسلامي ٢٤٠: ٦.

قال ابن كره: أخذت الكتاب ومضيت به حتى دخلت به على يزيد وهو على كرسيه وقدماه في ماء في طست من وجع النقرس، فقرأه فإذا فيه: أمّا بعد، فإنّه قد حصرنا في دار مروان، ورمينا بالجبوب (الأرض الغليظة) ومنعنا العذب! فيا غوثاه يا غوثاه! فلمّا قرأه قال لي: أما يكون بنو أميّة ومواليهم ألف رجل؟

قلت: بلى وأكثر! قال: فما استطاعوا أن يقاتلوا ساعة من نهار! قلت: أجمع الناس كلّهم عليهم فلم يكن لهم طاقة على الناس ١٤٠.

ص: ٤١

جيش الشام إلى المدينة

فبعث يزيد- بعد إباء ابن زياد- إلى عمرو بن سعيد الأشدق وكان في الشام فأقرأه الكتاب، وطلب إليه أن يسير بالناس إليهم، فقال: إنّما هي دماء قريش فلا أحبّ أن أتولّى أنا ذلك.

فروى الطبري عن حبيب بن كره قال: فبعثني يزيد بالكتاب إلى مسلم بن عقبة المرّي القرشي (في فلسطين) فسلمت الكتاب إليه وهو شيخ كبير مريض، فقرأه وأخبرته الخبر فجاء حتى دخل على يزيد.

فقال له: ويحك! إنّ لا خير في العيش بعدهم، فخرج وسر بالناس.

فخرج مناديه ينادي: أن سيروا إلى الحجاز على أخذ أعطيائكم كاملة، ومعونة مائة دينار توضع في يد الرجل فوراً! فانتدب له اثنا عشر ألف رجل ١٤١.

وخرج يزيد وخطب فقال: يا أهل الشام! إنّ أهل المدينة أخرجوا قومنا منها، واللّه لئن تقع الخضراء على الغبراء أحبّ إليّ من ذلك ١٤٢. وأمر بقبة ضربت له خارج قصره، وقطع البعوث على أهل الشام، فلم تمض أيام ثلاثة حتى فرغ، وعرضت الكنائس عليه في اليوم الثالث ١٤٣.

وخرج مسلم وهو أعور فاستعرض الجنود، فلم يُخرج معه أصغر من ابن عشرين ولا أكبر من ابن خمسين، على خيل عراب وأدوات كاملة، ووجه يزيد معه عشرة آلاف بعير تحمل زاده.

وخرج إليه يزيد يودّعه فقال له: إنّ شئت أعفيتك، فإنّي أراك مدنفاً منهوكاً!

١٤٠. تاريخ الطبري ٤٨٢: ٥، ٤٨٣.

١٤١. تاريخ الطبري ٤٨٣: ٥.

١٤٢. الإمامة والسياسة ٢٠٩: ١ و ٩: ٢.

١٤٣. تاريخ خليفة: ١٤٨، ولم يذكر وصايا يزيد للمسرف المرّي!

فقال الأعور: نشدتك الله ألا تحرمني أجراً ساقه الله إلي! أوتبعث غيري!

ص: ٦٢

فقال يزيد: فإن حدث بك حدث فأمر الجيوش إلى الحصين بن نمير السكوني، فانهض بسم الله إلى ابن الزبير، واتخذ المدينة طريقاً إليه، فإن صدوك فاقتل من ظفرت به منهم، وأنهبها ثلاثاً ... فإذا قدمت المدينة فمن عاقبك عن دخولها أو نصب لك الحرب فالسيف السيف، أجهز على جريحهم واتبع مدبرهم وإياك أن تبقى عليهم! وإن لم يتعرضوا لك فامض إلى ابن الزبير ١٤٤.

فأمره بقتال أهل المدينة، فإن ظفر بها أباحها للجند ثلاثة أيام يسفكون فيها الدماء ويأخذون أموالهم، وأن يبايعهم على أنهم خول وعبيد ليزيد ١٤٥، فإذا مضت الثلاث فاكفف عن الناس. وانظر على بن الحسين فاكفف عنه واستوص به خيراً وأذن مجلسه، فإنه لم يدخل في شيء مما دخلوا فيه ١٤٦.

وقال اليعقوبي: كان جيشه خمسة آلاف رجل: من فلسطين ألف رجل عليهم روح بن زنباع الجذامي، ومن الأردن ألف رجل عليهم حبيش بن دلجة القيني، ومن دمشق ألف رجل عليهم عبد الله بن مسعدة الفزاري، ومن أهل حمص ألف رجل عليهم الحصين بن نمير السكوني، ومن قنسرين ألف رجل عليهم زفر بن الحارث الكلابي ١٤٧.

ص: ٦٣

لقاء أهل المدينة بالأمويين

ولما أيقن أهل المدينة بقدوم الجيوش إليهم، قال بعضهم: لقد خندق رسول الله، فتشاوروا في ذلك وخندقوا المدينة من كل نواحيها ١٤٨ أو في جانب منها ١٤٩ وهو خندق النبي، وواصلوا سائرها بالحيطان ١٥٠.

١٤٤ . الإمامة والسياسة ٢٠٩: ١، والتنبيه والإشراف: ٢٦٣.

١٤٥ . تاريخ ابن الوردي ١٦٥: ١.

١٤٦ . تاريخ الطبري ٤٨٤: ٥ - ٤٨٥ عن الكلبي، عن الأزدي، عن حبيب بن كثر الأموي، وفيه: وقد أتاني كتابه. وانفرد به ولم يذكره غيره.

١٤٧ . تاريخ اليعقوبي ٢٥١: ٢.

١٤٨ . الإمامة والسياسة ٢١٠: ١.

١٤٩ . الطبري ٤٨٧: ٥.

١٥٠ . التنبيه والإشراف: ٢٦٣ - ٢٦٤.

وخرج بنو أمية بأثقالهم حتى انتهوا إلى وادي القرى قرب خيبر في طريق الشام فالتقوا بجيش مسلم المروى، وسمع أن فيهم عمرو بن عثمان بن عفان، فدعا به أول الناس وقال له: أخبرني خبر ما وراءك وأشر عليّ. فقال عمرو: لقد أخذ علينا العهد والميثاق ألا ندلّ على عورة ولا نظاهر عدواً! فقال المروى: والله لو لا أنك ابن عثمان لضربت عنقك! وأيم الله لا أقبلها بعدك قرشياً! وانتهره! فخرج إلى أصحابه وأخبرهم بما لقي عنده.

فدخل عليه عبد الملك بن مروان فقال له: أخبرني خبر الناس وكيف ترى؟

فقال له: أرى أن تسير بمن معك حتى إذا انتهيت إلى أدنى نخل للمدينة نزلت، حتى إذا أصبحت وصليت مضيت وتركت المدينة على يسارك ودرت حولها إلى الحرّة في مشرقها فتستدبر المشرق وتستقبل القوم فتشرق الشمس عليهم وبين أكتاف أصحابك فلا تؤذيهم، وتقع في وجوههم فيؤذيهم حرّها وأذاها، وما دمت مشرقين فهم يرون من بيضكم وحرابكم وأسنة رماحكم وسيوفكم ودروعكم وسواعدكم ما لا ترونه أنتم من شيء من سلاحهم ماداموا

ص: ٦٤

مغربين!

ثم دخل عليه مروان فأقنعه بولده عبد الملك واقتنع به ١٥١. هذا ما رواه الطبري، وزاد ابن قتيبة، قال:

قال له مروان: عددهم أكثر من الجيش الذي جئت به ولكن فيهم قوم قليل لهم نيّة وبصيرة، وعامتهم ليس لهم نيّات ولا بصائر، ولا بقاء لهم مع السيف، وليس لهم سلاح ولا كراع، ولكنهم قد خندقوا عليهم وحصّوا! فقال مسلم: ولكننا نردم عليهم خندقهم ونقطع عنهم مشربهم! فلم يرجع منهم مع مسلم غير مروان وابنه عبد الملك، وكان قد أصابه الجدرى فخلفه بذى خشب.

وجمع عبد الله بن حنظلة أهل المدينة عند المنبر فقال لهم: تبايعوني على الموت! وإلا فلا حاجة في بيعتكم! فبايعوه على الموت، ثم صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال لهم: أيّها الناس! إنكم إنما خرجتم غضباً لدينكم، فأبّلوا إلى الله بلاءً حسناً ليجب لكم به جنته ومغفرته، ويحلّ بكم رضوانه، واستعدّوا بأحسن عدّتكم، وتأهبوا بأكمل أهبتكم، فقد أخبرت أنّ القوم قد نزلوا بذى خشب ومعهم مروان بن الحكم، والله إن شاء مهلكه بنقضه العهد والميثاق (ما أعطاه) عند منبر رسول الله (ص). فصايح الناس بسبّه والنيل منه، فرفع عبد الله يديه إلى السماء وقال: اللهم إنا بك واثقون وعليك متوكّلون، وإليك ألجانا ظهورنا! ونزل. وكان صائماً ولا يزيد على شربة من سويق يفطر عليها إلى مثلها في غد، ولا يبيت إلا في المسجد الشريف ١٥٢.

ص: ٦٥

وقعة الحرّة

١٥١. تاريخ الطبري ٤٨٥: ٥ - ٤٨٦ عن الكلبي، عن الأزدى، عن ابن كره الأموى.

ولما انتهى الجيش إلى المدينة عسكر بالحرّة ١٥٣ وخرج أهلها لحربه وعليهم عبد الله بن حنظلة الأنصاري الأوسي (على الأنصار) وعبد الله بن المطيع العدوي القرشي (على قريش) ١٥٤.

فلما نزل مسلم المرّي أرسل إلى أهل المدينة، قال لهم: إنّ أمير المؤمنين! يقرأ عليكم السلام ويقول لكم:

أنتم الأهل والعشيرة، فاتّقوا الله واسمعوا وأطيعوا، فإنّ لكم عندى فى عهد الله وميثاقه عطاءين فى كلّ سنة: عطاء فى الصيف وعطاء فى الشتاء! ولكم عندى عهد الله وميثاقه أن أجعل سعر الحنطة عندكم كسعر الحنطة عندنا (فى الشام) وكان عمرو بن سعيد قد أخذ عطاءهم واشترى به لنفسه عبيداً فقال لهم: وأمّا العطاء الذى ذهب به عمرو بن سعيد فعلى أن أخرجه لكم!

فقالوا له: لقد خلعنا يزيد كما نخلع نعالنا أوعمائنا ١٥٥.

فقال لهم: يا أهل المدينة! إنّ أمير المؤمنين يزيد بن معاوية! يزعم أنّكم الأهل، فأنا أكره إهراق دمائكم (ولذا) فإنّى أوجّلكم ثلاثاً، فمن ارعوى وراجع الحقّ قبلنا منه، وانصرفت عنكم إلى هذا الملحد الذى بمكة! وإن أبيتم كُنّا قد أعدرنا إليكم!

ولما مضت الأيام الثلاثة ناداهم: يا أهل المدينة! قد مضت الأيام الثلاثة فما تصنعون؟ أتسالمون أم تحاربون؟ قالوا: بل نحارب! قال: بل ادخلوا فى الطاعة

ص: ٦٦

ونجعل حدّاً وشوكتنا على هذا الملحد الذى قد جمع إليه المراق والفساق من كلّ أوب!

فقالوا لهم: يا أعداء الله، والله لو أردتم أن تجوزوا إليهم ما تركناكم حتّى نقاتلكم، أنحن ندعكم أن تأتوا بيت الله الحرام وتخيفوا أهله وتلحدوا فيه وتستحلّوا حرمة! لا والله لا نفعل ١٥٦!

قتال يوم الحرّة

فأقبل مسلم المرّي من الحرّة بجمعه إلى طريق العراق حتّى ضرب فسطاطه هناك، ثمّ أوقف خمسمئة من حاملى الأسلّة الرجال دونه، وكان له غلام رومىّ شجاع كان صاحب رايته. ووجّه بخيله نحو ابن حنظلة، فحمل ابن حنظلة فى الرجال الذين معه عليهم حتّى انتهوا إلى ابن عقبة، فنهض برجاله فى وجوههم وصاح بهم فانصرفوا إلى قتال شديد.

١٥٣ . الإمامة والسياسة ٢: ١١١ وصحّف بالجرف!

١٥٤ . مروج الذهب ٦٩: ٣.

١٥٥ . الإمامة والسياسة ١٠: ٢.

١٥٦ . تاريخ الطبرى ٤٨٧: ٥ عن الكلبي، عن أبي مخنف.

وكان مع الفضل بن العباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب الهاشمي عشرون فارساً فقاتل بهم قتالاً شديداً، ثم قال لابن حنظلة: مر الفرسان معك ليقفوا معي فإذا حملت فليحملوا فوالله لا أنتهي حتى أبلغ مسلم المرى. فأمر ابن حنظلة رجلاً أن ينادي في الخيل بذلك، فنادى فيهم وجمعهم إلى الفضل الهاشمي، فلما اجتمعت إليه الخيل حمل بهم على أهل الشام فكشفهم. ثم قال لهم: احمِلُوا أُخْرَى، ثم حمل وحمل معه أصحابه حتى بلغوا الخمسمائة الرجالة جاثين على ركبهم شارعين أسنتهم نحو القوم، يقدمهم الغلام الروميّ حامل راية ابن عقبة، فمضى الفضل الهاشمي نحو حامل الراية وعلى رأسه المغفر، فكان الفضل يظنه مسلم المرى، فضرب بسيفه على مغفره فقطّ المغفر وقلق هامته، ونادى: خذها وأنا ابن عبد المطلب! قتلت طاغية القوم وربّ الكعبة!

ص: ٦٧

وبادر مسلم المرى فأخذ رايته بيده ونادى أهل الشام بالملام وقال لهم:

شدّوا مع هذه الراية، ثم مشى برايته وشدّت رجاله أمامه.

وقال عوانة بن الحكم: بل كان مسلم المرى لا زال مريضاً على سريريه، وأمرهم فحملوه ووضعوه في الصفّ أمام فسطاطه، فلما حمل عليه الفضل الهاشمي وأصحابه وانتهوا إلى سريريه نادى ابن عقبة: أين أنتم يا بني الحرائر! اشجروه بالرماح، فطعنوه بالرماح حتى سقط. هذا وبينه وبين أطناب مسلم المرى نحو من عشرة أذرع، وقتل معه رجال كثير من أهل المدينة فيهم إبراهيم بن نعيم العدوي وزيد بن عبد الرحمان بن عوف.

ثم ركب مسلم المرى فرسه وأخذ يسير في أهل الشام ويحرّضهم، وأمر الخيل أن تقدم على ابن حنظلة، فأقبلت خيل مسلم المرى ورجاله نحو ابن حنظلة الغسيل ورجاله، فإذا أقدمت الخيل على الرجال ثاروا في وجوههم برماحهم وسيوفهم، فتنفر خيولهم وتحجم. فأمر ابن عقبة الحصين بن نمير السكوني أن ينزل بجنده من أهل حمص، فمشى براياتهم إليهم، ثم أمر مسلم المرى عبد الله الأشعري أن يدنو برماته الخمسمائة نحو ابن حنظلة الغسيل وأصحابه، فأخذوا ينضحونهم بنبالهم.

فنادى ابن الغسيل: من أراد التعجّل إلى الجنّة فليزِم هذه الراية، فقام إليه المستميتون منهم، فاقتتلوا أشدّ قتال ساعة، وأخذ يقدّم بنيه أمامه واحداً فواحداً حتى قتل ثمانيتهم بين يديه، وهو يقاتلهم بسيفه حتى قتل هو وأخوه لأُمّه محمّد بن ثابت ابن قيس بن شماس خطيب الأنصار، ومعهما محمّد بن عمرو بن حزم الأنصاري.

وانهزم الناس، وأخذ محمّد بن سعد بن أبي وقاص يقاتلهم حتى غلبت الهزيمة فذهب مع الناس ١٥٧.

ص: ٦٨

ولما دارت رحا الموت بين الفريقين توارى عبد الله بن المطيع العدوي وسئل عن ذلك فقال: رأيت ما رأيت من غلبة أهل الشام، وصنع بني حارثة الذي صنعوا من إدخالهم علينا (كما يلي) وولى الناس ... وعلمت أنّه لا يضرّ عدوي مشهدي (حضورى) ولا ينفعهم ولّتى (فرارى) فتواريت، ثم لحقت بابن الزبير ١٥٨.

١٥٧. تاريخ الطبرى ٤٨٧: ٥ - ٤٩١ عن الكلبي، عن أبي مخنف وغيره.

١٥٨. الإمامة والسياسة ٢٢٠: ١ وقال: وكان معنا يوم الحرّة ألفا رجل ذو حفاظ.

اقتحام خندق المدينة

وهكذا ذكر الطبري خبر الحرّة بلا اختراق للخندق، بينما اختزل الدينوري خبر القتال في الحرّة إلى خبر اختراق الخندق عليهم فقال: لما انتهوا إلى المدينة عسكروا بالحرّة، ثمّ مشى رجال منهم فأطافوا بالمدينة من كلّ ناحية فلا يجدون مدخلا، والناس متلبّسون السلاح قد قاموا على أفواه الخنادق، فجعل أهل الشام يطوفون بها والناس يرمونهم بالنبل والحجارة من فوق الآكام والبيوت حتّى جرحوا منهم وفي خيلهم.

فخرج مروان إلى رجل من بنى حارثة في ضيعته فقال له: افتح لنا طريقاً وأنا أكتب بذلك إلى أمير المؤمنين (يزيد) وأضمن لك عنه شطر ما كان بذل لأهل المدينة من العطاء وتضعيفه. فرغب فيما بذل له وقبل ما ضمن له عن يزيد، وفتح له طريقاً، فاقتحمت الخيل المدينة ١٥٩ ولذا كان بنو حارثة آمنين ما قتل أحد منهم، وكان قصرهم أماناً لمن أراد أهل الشام أن يؤمنوه، وكلّ من نادى باسم الأمان لأحدهم أمتوه ثمّ ذبوا عنه حتّى يبلغوه قصر بنى حارثة، فأجير يومئذ رجال كثير ونساء، لم يزلوا في قصرهم حتّى انقضت الثلاث ١٦٠.

ص: ٦٩

وكان ابن حنظلة في ناحية الطورين لما جاءه خبر دخولهم المدينة، فأقبل إليهم، وكان عبد الله بن مطيع العدوي في ناحية ذناب فأقبل إليهم، فاجتمعوا بمن معهم حيث اقتحم عليهم أهل الشام، فاقتتلوا حتّى عاينوا الموت؛ والنساء والصبيان يصيحون ويبكون على قتلاهم.

وجعل مسلم المرّى ينادى: من جاء برأس رجل فله كذا وكذا يغرى بهم قوماً لا دين لهم، حتّى جاءهم ما لا طاقة لهم به، وظهروا على أكثر المدينة.

وكان على بشر بن حنظلة الغسيل درعان، فلما هزم القوم طرحهما ثمّ جعل يقاتلهم حاسراً حتّى ضربه شاميّ بسيفه على منكبه فوق قتيلاً، فلما قتل ابن حنظلة الأمير صار أهل المدينة كالنعم شروداً بلا راع يقتلهم الشاميون في كلّ وجه.

وأقبل محمّد بن عمرو بن حزم الأنصاري فارساً يقاتل جريحاً فيحمل على كردوس من أهل الشام فيفضّ جماعتهم، فاجتمع جمع من أصحاب الرماح وحملوا عليه حملة واحدة وطعنوه برماحهم حتّى مال قتيلاً، فلما قتل انهزم باقي الناس في كلّ وجه، ودخل القوم المدينة تجول خيولهم فيها يقتلون وينهبون!

وقيل لعبد الله بن زيد بن عاصم: لو علم القوم باسمك وصحبك لم يهيجوك بأذى فلو أعلمتهم! فقال: لا أفلح من ندم، لا والله لا أبرح حتّى اقتل ولا أقبل لهم أماناً! وكان أصلع حاسراً، فضربه شاميّ بفأس على رأسه فسقط قتيلاً صائماً ١٦١.

ص: ٧٠

١٥٩. الإمامة والسياسة ٢: ٢١١، وأشار إليه خليفة في تاريخه: ١٤٩، واليعقوبي ٢: ٢٥٠.

١٦٠. المصدر السابق ٢: ٢١٣.

١٦١. الإمامة والسياسة ٢: ٢١١ - ٢١٣.

نهب المدينة وإباحتها

وأول دور انتهبت والحرب قائمة: دور بنى عبد الأشهل، فما تركوا فى المنازل من أثاث ولا حلى ولا فراش إلا نقض صوفه، حتى إنهم كانوا يذبحون الدجاج والحمام!

ودخل عشرة منهم دار محمد بن مسلمة الأنصارى فتصايحت النسوة، فسمعهنّ زيد بن محمد ففرع لهنّ ومعه رجلان من أهله حتى قتل جميع الشاميين، ثمّ أقبل نفر آخرون منهم فقاتلوهم أيضاً حتى ضربه أربعة منهم بسيوفهم فى وجهه فقتلوه بعد أن قتل أربعة عشر رجلاً منهم.

ولزم خدره أبو سعيد الخدرى فهتكوا ستره وسألوه: من أنت أيّها الشيخ؟

قال: أنا أبو سعيد الخدرى صاحب رسول الله (ص)! قالوا: ما زلنا نسمع عنك، فبحظّك أخذت فى ترك قتالنا وكفّك عنّا ولزوم بيتك، ولكن أخرج إلينا ما عندك! قال: والله ما عندى مال. فضربوه حتى تنفوا لحيته ثمّ أخذوا كلّ ما وجدوه فى بيته حتى الصواع والحمام!

ولزم سعيد بن المسيّب المسجد فكان لا يخرج منه إلا ليلاً، وأمن. وخرج جابر بن عبد الله الأنصارى وهو يومئذٍ أعمى إلى بعض زقاق المدينة وهو يقول:

تعس من أخاف الله ورسوله! فسئل: ومن أخاف الله ورسوله؟! قال: سمعت رسول الله (ص) يقول: من أخاف المدينة فقد أخاف ما بين جنبى! فسمعه شامىّ فحمل عليه بسيفه ليقتله، - وكان مروان بن الحكم حاضراً - فترامى عليه مروان وأجاره وأدخله منزله وأغلق عليه بابه، فسلم، وأسروا كثيراً فغلّوهم ١٦٢.

ص: ٧١

وأنهبها ثلاثاً فقتل الناس، وفضحت النساء، ونهبت الأموال ١٦٣.

وقال اليعقوبى: وأباح مسلم المرى المدينة لجنده فلم يبق بها كثير أحد نجا من القتل، وحتى حملت الأبقار لا يعرف لمن ١٦٤. وروى البيهقى عن الحسن البصرى أنّه ذكر الحرّة فقال: والله ما كاد ينجو منهم أحد، ونهبت المدينة؛ واقتضّ فيها ألف عذراء، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون ١٦٥.

ودخل شامىّ على امرأة ابن أبى كبشة الأنصارى، قالت: لقد بايعت معه رسول الله (ص) يوم الشجرة على ألا أزنّى ولا أسرق ولا أقتل ولدى، ولا آتى ببهتان أفتريه. وكانت قد نفست حديثاً بصبيّ، فقال الشامى لها: هل من مال؟

١٦٢. الإمامة والسياسة ٢١٣: ١، ٢١٤، وانظر تحريف خبر الخدرى فى تاريخ خليفة: ١٤٩ واعجب!

١٦٣. الإمامة والسياسة ١٠: ٢.

١٦٤. تاريخ اليعقوبى ٢٥٠: ٢.

١٦٥. دلائل النبوة للبيهقى ٤٧٥: ٦، وتاريخ الخلفاء للسيوطى: ٢٤٩.

قالت: لا والله ما تركوا لى شيئاً! فقال لها: والله لتخرجنّ إلىّ شيئاً أو لأقتلنّك وصبيك هذا! فقالت له: ويحك إنّ ولد ابن أبي كبشة الأنصارى صاحب رسول الله ... فاتق الله! ثمّ التفتت إلى الصبي وهى ترضعه وقالت له: يا بني! والله لو كان عندى شيء لافتديتك به. وكان الصبيّ فى حجرها وتديها فى فمه، فأخذ برجله وجذبه من حجرها وضرب به الحائط فانثر دماغه على الأرض! ثمّ خرج من البيت ولكنه اسودّ وجهه نصفياً، وصار يضرب به المثل ١٦٦.

أعداد القتلى فى الحرّة:

قال المسعودى: وكانت وقعة عظيمة، قتل فيها خلق كثير من الناس، من بنى هاشم وسائر قريش والأنصار وغيرهم من سائر الناس. فممن قتل من آل أبي طالب: اثنان: جعفر بن محمد (ابن الحنفية) بن عليّ وعبد الله بن جعفر بن أبي طالب (كذا!) وهو وهم) ومن بنى هاشم: الفضل بن العباس بن ربيعة، وحمزة بن

ص: ٧٢

عبد الله بن نوفل، والعباس بن عتبة بن أبي لهب. ومن سائر قريش بضع وتسعون رجلاً، ومثلهم من الأنصار، ومن سائر الناس ممن أدركه الإحصاء: أربعة آلاف ١٦٧.

ويبدو أنّ أقدم قائمة بتسميتهم هى قائمة الليثى العصفري البصرى (م ٢٤٠ هـ) وهذا بدأ بينى هاشم وبدأ منهم بعيد الله بن جعفر كما مرّ، وهو وهم، ثمّ سمى سائر قريش حتّى قال: فجميع من أصيب من قريش سبعة وتسعون رجلاً، ثمّ سمى الأوس ثمّ الخزرج حتّى قال: فجميع من أصيب من الأنصار مائة وثلاثة وسبعون رجلاً! وجميع من أصيب من قريش والأنصار: نحو ثلاثمائة رجل ١٦٨ واكتفى بهذا.

وزاد المسعودى ثانياً عن الواقدي، قال: قتل عبد الله بن حنظلة الغسيل الأنصارى الأوسى فى عدّة من المهاجرين والأنصار وأبنائهم ومواليهم وحلفائهم وغيرهم من قريش نحو من سبعمائة رجل، ومن سائر الناس من الرجال والنساء والصبيان! نحو من عشرة آلاف ... فكان ذلك من أعظم الأحداث فى الإسلام وأجلّها وأفضعها رزاً بعد قتل الحسين بن عليّ (ع) ١٦٩.

وقال الدينورى: فبلغ عدّة قتلى الحرّة يومئذ من قريش والمهاجرين والأنصار ووجوه الناس ألفاً وسبعمائة، ومن سائر الناس عشرة آلاف، سوى النساء والصبيان ١٧٠.

ص: ٧٣

١٦٦ . الإمامة والسياسة ٢: ١٥١ .

١٦٧ . مروج الذهب ٦٩: ٣ - ٧٠ .

١٦٨ . تاريخ ابن الخياط: ١٥٠ - ١٥٥ .

١٦٩ . التنبيه والإشراف: ٢٤٤ .

١٧٠ . الإمامة والسياسة ٢: ٢٤٥ .

وقال ثانياً: وذكروا أنه قتل يوم الحرّة من أصحاب النبي (ص) ثمانون رجلاً حتّى لم يبق بدرى منهم بعد ذلك أبداً، وقتل من قريش والأنصار سبعمائه، ومن سائر الناس من التابعين والعرب والموالي عشرة آلاف ١٧١.

وقال ثالثاً: قال الزهرى: بلغ القتلى يوم الحرّة من قريش والأنصار ومهاجرة العرب ووجوه الناس سبعمئة، ومن سائر الناس من الأخلاط والموالي والعبيد عشرة آلاف، واصيب نساء وصبيان. وقتل بها من أصحاب النبي ثمانون رجلاً ولم يبق بدرى بعد ذلك. وكان قدومهم المدينة لثلاث بقين من ذى الحجة سنة ثلاث وستين، فانتهبوها ثلاثاً حتّى رأوا هلال المحرم فأمسكوا ١٧٢.

وقال رابعاً: عن محمد بن عمرو بن حزم: قتل بضعة وسبعون رجلاً من قريش منهم ابنان لعبد الله بن جعفر، وبضعة وسبعون رجلاً من الأنصار منهم خمسة أو أربعة من صلب زيد بن ثابت الأنصارى، ومن سائر الناس نحو من أربعة آلاف ١٧٣. والأخير أولى.

وفى الجزرى: كان فى من قتل يوم الحرّة: ابنان لزينب بنت أبى سلمة المخزومية (بنت أم سلمة) فحملاً مقتولين فوضعا بين يديها، فاسترجعت وقالت:

والله إنّ المصيبة فيهما علىّ لكبيرة، وهى علىّ فى هذا أكبر من ذاك؛ لأنّه جلس فى بيته فدخل عليه فقتل مظلوماً! وأمّا الآخر فإنّه بسط يده وقاتل، فلا أدري على ما هو ١٧٤؟

ص: ٧٤

وقالوا: لقد مكث النوح على أهل الحرّة فى الدور سنة لا يهدؤون! وقال الأعرج: كان الناس قبل الحرّة لا يلبسون المصبوغ (الأسود) من الثياب فلمّا قتل الناس بالحرّة استحبوا أن يلبسوها ١٧٥.

ص: ٧٥

كتاب ابن عقبة إلى ابن معاوية

١٧١ . المصدر السابق ٢١٦ : ١ .

١٧٢ . الإمامة والسياسة ٢٢٠ : ١ ، وعن الزهرى كذلك فى تاريخ ابن الوردى ١٦٥ : ١ .

١٧٣ . الإمامة والسياسة ١٠ : ٢ .

١٧٤ . عنه فى قاموس الرجال ٢٤١ : ١٢ برقم ١١٣ ، وتحريفه فى تاريخ خليفة: ١٤٩ .

١٧٥ . الإمامة والسياسة ٢٢٠ : ١ .

مرّ عن الدينوري أنّه خالف المعروف في تسمية قتال أهل المدينة بالحرّة، فلم يذكر في الحرّة إلا نزول جيش الشام، ثمّ إحاطتهم بخندق المدينة ثمّ اقتحامه بدلالة رجل من بنى حارثة، وانفرد - فيما نجد - بذكر كتاب لمسلم المرّى إلى أميره يزيد مع هذا الرجل الحارثي، وفيه أيضاً لم يذكر إلا مثل ذلك: «لعبد الله يزيد بن معاوية أمير المؤمنين! من مسلم بن عقبة، سلام عليك يا أمير المؤمنين! ورحمة الله وبركاته، فإنّي أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو. أمّا بعد تولّى الله حفظ أمير المؤمنين! والكفاية له: فإنّي أخبر أمير المؤمنين! أبفاه الله:

أتّى خرجت من دمشق ونحن على التبعئة التي رأى أمير المؤمنين! يوم فارقنا بالعافية، فلقينا أهل بيت أمير المؤمنين! بوادي القرى فرجع معنا مروان بن الحكم، وكان لنا عوناً على عدوّنا، وإنّا انتهينا إلى المدينة فإذا أهلها خندقوا عليها الخنادق، وأقاموا على أنقابها الرجال بالسلاح، وأدخلوا ماشيتهم وما يحتاجون لحصارهم سنة! فيما يقولون.

وإنّا أعذرنا إليهم وأخبرناهم بعهد أمير المؤمنين! وما بذل لهم، فأبوا، ففرقت أصحابي على أفواه الخنادق: فولّيت الحصين بن نمير ناحية الذناب وما والاها، ووجّهت جيش دلجة على الموالى (كذا) إلى ناحية بنى سلمة، ووجّهت عبد الله ابن مسعدة إلى ناحية بقيع الغرقد، وكنت - ومن معي من قوّاد أمير المؤمنين ورجاله في وجوه بنى حارثة (ثمّ) بطريق فتحه لنا رجل منهم بما دعاه مروان بن الحكم إلى صنع أمير المؤمنين! وما تضمّن له عنه من قرب المكانة وجزيل العطاء وإيجاب الحقّ وقضاء الذّمام، وقد بعثت به إلى أمير المؤمنين! وأرجو من

ص: ٧٦

الله أن يلهم خليفته وعبد عوفان ما أولى من الصنع وأسدّى من الفضل! وكان من محمود مقام مروان بن الحكم وجميل مشهده وسديد بأسه وعظيم نكايته لعدو أمير المؤمنين! ما لا أخال ذلك ضائعاً عند إمام المسلمين وخليفة ربّ العالمين إن شاء الله! فأدخلنا الخيل عليهم حين ارتفع النهار من ناحية بنى عبد الأشهل ... وسلّم الله رجال أمير المؤمنين! فلم يصب أحد منهم بمكروه! ولم يقم لهم عدوّهم من ساعات نهارهم أربع ساعات، فما صلّيت الظهر - أصلح الله أمير المؤمنين - إلا في مسجدهم! بعد القتل الذريع والانتهاز العظيم! وأوقعنا بهم السيوف وقتلنا من أشرف لنا منهم! وأتبعنا مدبرهم! وأجهزنا على جريحهم! وانتهبناهم ثلاثاً كما قال أمير المؤمنين! أعزّ الله نصره، وجعلت دور بنى الشهيد المظلوم عثمان بن عفّان في حرز وأمان!

فالحمد لله الذي شفى صدرى من قتل أهل الخلاف القديم والنفاق العظيم! فطالما عتوّاً وقديماً ما طغوا.

وكتبت إلى أمير المؤمنين! وأنا في منزل سعيد بن العاص مدنفأ مريضاً ما أرانى إلا لما بى، وما أبالى متى متّ بعد يومى هذا! وكتب لهلال المحرم سنة ثلاث وستين».

جاءه الكتاب وعبد الله بن جعفر لا زال عنده بدمشق، فأرسل إليه وعنده ولده معاوية بن يزيد، فأقرأهما الكتاب، فاسترجع ابن جعفر وأكثر، فقال له يزيد:

ألم أجبك إلى ما طلبت وأسعفتك فيما سألت، فبذلت لهم العطاء وأجزلت لهم الإحسان، وأعطيت العهود والمواثيق على ذلك؟!!

فقال عبد الله بن جعفر: فمن هنا استرجعت وتأسّفت عليهم إذ اختاروا البلاء على العافية والفاقة على النعمة، ورضوا بالحرمان دون العطاء!

ص: ٧٧

وبكى ابنه معاوية فقال له: وما بكأوك يا بني؟! قال: أبكى على من قتل من قريش! وإنما قتلنا بهم أنفسنا! فقال يزيد: هوذا قتلتم بهم نفسى وشفيتها ١٧٦!.

ص: ٧٨

أخذه البيعة ليزيد

روى خليفة، قال: ثم دعا الناس الباقين إلى البيعة على أنهم خول ليزيد بن معاوية! يحكم فى أموالهم وأهليهم ودمائهم ما شاء! حتى أتى بعبد الله بن زمعة (القرشى الأسدى من قوم ابن الزبير) وكان من قبل من أصفياء أصدقاء يزيد، فقال له المرى: بايع على أنك خول لأمير المؤمنين! يحكم فى مالك وأهلك ودمك! قال: أبايعك على أنى ابن عم أمير المؤمنين! يحكم فى دمي وأهلى ومالى! قال: اضربوا عنقه! وكان مروان حاضراً فوثب وضمه إليه وقال لمسلم: يبايعك على ما أحببت! قال: لا والله! لا أقبلها إياه أبداً، ثم قال لجلاوزته: إن تنحى مروان وإلا فاقتلوهما جميعاً! فتركه مروان فضربوا عنقه!

ثم أتى بابنه يزيد بن عبد الله بن زمعة (وكان عبد الله زوج زينب بنت أم سلمة زوج النبى، فيزيد ابن بنتها) فقال له مسلم: بايع وقال: أبايعك على كتاب الله وسنة نبيه! فأمر بقتله! فقتلوه ١٧٧!

وعاد بنو أمية إلى المدينة. وقال ابن قتيبة: وانتقل مسلم من منزله (بالحرّة) إلى قصر بنى عامر فى دومة (من المدينة) ودعا من بقى من أهل المدينة للبيعة ١٧٨، وكان بنو أمية أول من دعاهم إلى بيعة يزيد، وأولهم مروان بن الحكم، ثم سائر أكابرهم ١٧٩.

وأتى بعمر بن عثمان بن عفان (وكان كاضماً غيظه عليه لوفائه بحلفه لأهل المدينة) ولا يعرفه من حضره من أهل الشام، فقال لهم: تعرفون هذا؟ قالوا: لا،

ص: ٧٩

قال: هذا الخبيث ابن الطيب: هذا عمرو بن عثمان أمير المؤمنين! ثم قال له: هيه يا عمرو! إذا ظهر أهل المدينة قلت: أنا رجل منكم! وإن ظهر أهل الشام قلت: أنا ابن أمير المؤمنين عثمان! (وكانت أم عمرو دوسية) فقال: وإن أم هذا كانت

١٧٦ . الإمامة والسياسة ٢١٧: ١، ٢١٨.

١٧٧ . تاريخ خليفة بن الخياط الأموى الهوى: ١٤٩.

١٧٨ . الإمامة والسياسة ١٠: ٢.

١٧٩ . المصدر السابق ٢١٤: ١.

تدخل الجعل في فيها! ثم تقول لأبيه: يا أمير المؤمنين حاجيتك! ما في في؟ وفي فيها ما أساءها! ثم أمر مسلم أن تنتف لحيه عمرو فتتفوها! ثم خلى سبيله ١٨٠.

قال ابن قتيبة: بايع عمرو بن عثمان ثم ذهب إلى أم سلمة زوج النبي (ص) (وكانت حية يومئذ) وقال لها: أرسلني معي ابن بنتك يزيد بن عبد الله بن زمعة (القرشي الأسدي وكأنه كان لاجئاً مستجيراً بجدته أم سلمة) فجاء به إلى مسلم المرى.

فلما تقدم يزيد قال له مسلم: تباع لعبد الله يزيد أمير المؤمنين! على أنكم ممّا أفاء الله عليه بأسيايف المسلمين! خول له فإن شاء وهب وإن شاء أعتق وإن شاء استرق! فقال يزيد: لأننا أقرب إلى أمير المؤمنين منك! فقال مسلم: والله لا تستقبلها أبدا!

وكان مسلم قد أكرم عمرو بن عثمان هذه المرة فأجلسه معه على سريريه فقال لمسلم: أنشدك الله! فأني أخذته من أم سلمة بعهد الله وميثاقه أن أردّه عليها! فركضه مسلم برجله فرماه من سريريه! وأمر بقتل يزيد ١٨١.

ولعل مروان كان حاضراً فوثب وضمه إليه فكان ما مر من الخبر السابق.

ثم أتى بمعقل بن سنان الأشجعي حامل لوائهم يوم فتح مكة، وكان معقل على الاستراحة إلى مسلم المرى قد طعن بعض الطعن على يزيد قبل هذا، فلما أدخل عليه قال له: يا معقل! أعطشت؟ قال: نعم، أصلح الله الأمير! قال لهم:

ص: ٨٠

حيسوا له شربة من سويق اللوز الذي زودنا به أمير المؤمنين! فلما شربها قال له: رويت؟ قال: نعم، قال مسلم: أما والله لا تبولها أبدا! ما كنت لأدعك بعد كلام سمعته منك تطعن به على إمامك، فقدّم فضربت عنقه ١٨٢.

ثم أتى بعبد الله بن الحارث مغلولاً، فقال له مسلم: أنت القاتل! اقتلوا سبعة عشر رجلاً من بني أمية لا تروا شراً أبدا! قال: قد قتلها، ولكن لا يسمع لأسير أمر، أرسل يدي وقد برئت مني الذمة، إنما نزلت بعهد الله وميثاقه، وأيم الله لو أطاعوني وقبلوا مني ما أشرت به عليهم، ما تحكمت أنت فيهم أبدا! فأمر به فضربت عنقه ١٨٣.

ثم أمر بمحمد بن أبي الجهم وجماعة من وجوه قريش والأنصار من خيار الصحابة والتابعين ... فجعل مروان يعتذر إلى القرشيين منهم يقول: والله لقد أساءني قتل من قتل منكم!

١٨٠ . تاريخ الطبري ٤٩٤: ٥.

١٨١ . الإمامة والسياسة ١٠: ٢.

١٨٢ . وقال ثانياً: أتاه منه رجل من قومه (أشجع) وقالوا له: اذهب بنا إلى الأمير نبايعه. قال:

قد قلت له قولاً أتخوف منه! قالوا: لا والله لا يصل إليك أبدا! فلما بلغوا باب قصره أدخلوا معقلاً وأغلقوا الباب دون قومه فحبسهم خلفه. ثم ساق الخير نحواً ممّا مرّ وفيه:

وكانت عليه جبة فجعل يمزقها لتلا يلبسوها! فيعلم أن الفصل في المحرم لسنة (٦٣) لم يكن صيفاً قائضاً وحاراً.

١٨٣ . الإمامة والسياسة ٢١٤: ١، ونسبها في ١٠: ٢ إلى محمد بن أبي الجهم.

فقال له قريش: أنت والله الذى قتلتنا، ما عذرک الله والناس، لقد خرجت من عندنا وقد حلفت لنا عند منبر رسول الله (ص) لتردّهم عنّا فإن لم تستطع لتمضين ولا ترجع معهم، فرجعت ودلت على العورة وأعنت على الهلكة، فالله لك بالجزاء.

فقال مروان للمرى: قد والله شفيتنى من دماء هؤلاء القوم إلا ما كان من قريش! فإنّك أفنيته وأثخنيتها! فقال مسلم: والله لا أعلم عند أحد غشاً لأمير

ص: ٨١

المؤمنين إلا سألت الله أن يسقيني دمه! فقال مروان: إنّ عند أمير المؤمنين! عفواً لهم وحلما عنهم ليس عندك ١٨٤! وفي اليعقوبى: ثم أخذ الناس على أن يبايعوا على أنّهم عبيد يزيد بن معاوية، فكان الرجل من قريش يؤتى به فيقال له: بايع أنّك عبد قنّ ليزيد، فيقول: لا. فتضرب عنقه ١٨٥.

وقال المسعودى: بايع من بقى من أهلها على أنّهم قنّ ليزيد! والقنّ: العبد الذى ملك أبواه. والذى ملك فى نفسه دون أبويه فهو عبد مملكة ١٨٦ وقال:

وبايع الناس على أنّهم عبيد ليزيد، ومن أبى ذلك أمر على السيف ١٨٧.

ص: ٨٢

الإمام السجّاد ومسرف بن عقبة

قال ابن قتيبة: لم يكن أحد من بنى هاشم نصب للحرب، ولزموا بيوتهم فسلموا، إلا ثلاثة منهم تعرّضوا للقتال فأصيبوا. وقبل أن يرحل مسلم بن عقبة عن المدينة (لشهر صفر) سأل عن على بن الحسين (ع) أحاضر هو؟ ف قيل: نعم (ف قيل لعلى) فأتاه على بن الحسين مع ابنه (?) فرحب وسهل، وقرّبهم، وقال: إنّ أمير المؤمنين! أوصانى بك.

فقال على بن الحسين: وصله الله وأحسن جزاءه! ثم انصرف عنه ١٨٨.

١٨٤ . الإمامة والسياسة ٢١٥: ١.

١٨٥ . تاريخ اليعقوبى ٢٥٠: ٢ - ٢٥١.

١٨٦ . التنبيه والإشراف: ٢٦٤.

١٨٧ . مروج الذهب ٧٠: ٣.

١٨٨ . الإمامة والسياسة ٢١٨: ١.

ولم يتحقق اليعقوبى فى النقل فقال: أتاه علىّ بن الحسين (عليهما السلام) فقال: علام يريد يزيد (كذا بلا لقب) أن أبايعك؟! قال: علىّ أنك أخ وابن عمّ! فقال:

وإن أردت أن أبايعك علىّ أنى عبد قنّ فعلت! فقال: ما أجشّمك هذا! فلما رأى الناس ذلك قالوا: هذا ابن رسول الله بايعه علىّ ما يريد فبايعوه علىّ ما أراد ١٨٩!

بينما جاء فى المسعودى: كان علىّ بن الحسين السجّاد (ع) قد لاذ بالقبر (قبر رسول الله) وهويدعو، فأتى به إلى المسرف وهو محتاط عليه يبرأ منه ومن آبائه! ولكنه لما أشرف عليه ورآه ارتعد وقام له وأقعدته إلى جانبه وقال له: سلنى حوائجك، فلم يسأله فى أحد ممّن قدّم إلا شفعه فيه، ثمّ انصرف عنه!

ف قيل لمسلم: رأيناك تسبّ هذا الغلام وسلفه فلما أتى به إليك رفعت منزلته؟!

ص: ٨٣

فقال: ما كان ذلك لرأى منى! لقد ملئ قلبى رعباً منه!

وقيل لعلىّ (ع): رأيناك تحرّك شفتيك فما الذى قلت؟ قال: قلت: «اللهم ربّ السماوات السبع وما أظللن، والأرضين السبع وما أقللن، وربّ العرش العظيم، ربّ محمد وآله الطاهرين، أعوذ بك من شرّه وأدراً بك فى نحره، وأسألك أن تؤتيني خيره وتكفينى شرّه» ١٩٠.

هذا ما ذكره أوّلًا، ثمّ قال ثانياً: وبايع من بقى علىّ أنّهم قنّ ليزيد ... غير علىّ بن الحسين بن علىّ (عليهم السلام) لأنّه لم يدخل فيما دخل فيه أهل المدينة. وعلىّ بن عبد الله بن العباس فإنّ أخواله من كندة فى جيش مسلم منعوه ١٩١. وقد مرّ عن الطبرى عن الكلبي عن الأزدي عن حبيب بن كره الراوى الأموى: أن يزيد استوصى المرى به خيراً وقال له: فإنّه لم يدخل فى شيء ممّا دخلوا فيه. وقد كان علىّ بن

الحسين لا يعلم بشيء ممّا أوصى به يزيد ١٩٢ فلا ينافى ما رواه المسعودى من دعائه وإجابته (ع).

وأفاد المفيد: أنّه (ع) بلغه توجّه مسرف بن عقبة إلى المدينة فحفظوا عنه دعاء فى ذلك وذكره أكثر ممّا مرّ ثمّ قال: فقدم مسرف بن عقبة المدينة وقيل: لا يريد غير علىّ بن الحسين (ع) فسلم منه وأكرمه وحباه ووصله ١٩٣.

وعبر عن الخبر الحلبي بقوله: أنهى إليه (ع) أن مسرفاً استعمل على المدينة وأنّه يتوعّده! فجعل يكثر من الدعاء لما اتّصل به عن المسرف. ثمّ ذكر الدعاء ثمّ قال: فلما قدم المسرف المدينة (كذا) اعتنقه وقبّل رأسه وجعل يسأل عن حاله

١٨٩ . تاريخ اليعقوبى ٢: ٢٥١.

١٩٠ . مروج الذهب ٧٠: ٣-٧١.

١٩١ . التنبيه والإشراف: ٢٦٤.

١٩٢ . تاريخ الطبرى ٤٨٥: ٥، وانظر التعليق السابق عليه.

١٩٣ . الإرشاد ١٥١: ٢-١٥٢.

وحال أهله وعن حوائجه، وأمر أن تقدّم له دابّته وعزم عليه أن يركبها فركب وانصرف إلى أهله ١٩٤.

وأفاد المفيد أيضاً بأن: جاء الحديث من غير وجه: أن مسرف بن عقبة لما قدم المدينة (كذا) أرسل إلى عليّ بن الحسين عليهما السلام فأتاه! فلما صار إليه قرّبه وأكرمه وقال له: وصّاني أمير المؤمنين! ببرّك وتمييزك من غيرك! فجزّاه خيراً! ثمّ قال: أسرجوا له بغلتي، وقال له: انصرف إلى أهلك فإنّي أرى أن قد أفزعناهم! وأتعبناك بمشييك إلينا، ولو كان بأيدينا ما نقوى به على صلتك بقدر حقّك لوصلناك! فقال له عليّ بن الحسين (عليهما السلام): ما أعذرني للأمير (أي ما أقبلني لقبول عذره) ثمّ ركب.

فقال المرّى لجلسائه: هذا الخير لا شرّ فيه! مع موضعه من رسول الله ومكانه منه ١٩٥. وروى الطبري عن الكلبي عن عوانة، قال: لما أتى بعليّ بن الحسين (ع) إلى مسلم قال: من هذا؟! قالوا: هذا عليّ بن الحسين. فقال: أهلاً ومرحباً، ثمّ أجلسه على طنفسه على السرير ثمّ قال: إن أمير المؤمنين! أوصاني قبلاً بك وهو يقول لك: إن هؤلاء الخبثاء شغلوني عنك وعن صلتك! ثمّ قال له:

لعلّ أهلك فزعوا؟! قال: إي والله! فأمر بدابّته فاسرجت فردّه عليها ١٩٦.

ولعلّه مختصر الخبر السابق فيه عن الكلبي عن أبي مخنف، وهو الوحيد المتضمّن لذكر من أتى به (ع)، وفيه: أن مروان ومعه ابنه عبد الملك أراد أن يشكر له (ع) إيواؤه أهلهم، فجاء بعليّ بن الحسين يمشي بينه وبين ابنه عبد الملك حتّى جلسوا عنده كذلك، ثمّ دعا مروان بماء ليشربوا منه فيتحرّموا به منه فأتى به له فشرب منه يسيراً ثمّ ناوله عليّاً (ع) ولكنّه لمّا أمسك بالقدح ليشرب منه قال له مسلم: لا تشرب من شرابنا! فأمسك لا يشربه ولا يضعه، فقال له: إنك إنّما جئت (كذا) تمشي بين هؤلاء لتأمن عندي! والله لو كان هذا الأمر إليهما

لقتلتك! ولكنّ أمير المؤمنين أوصاني بك ... فذلك نافعك عندي! ثمّ قال له: فإن شئت فاشرب شرابك وإن شئت دعونا لك بغيره. فشربها، ثمّ قال له: إليّ ها هنا. فأجلسه معه ١٩٧. وهو كما ترى أجمع الأخبار.

وهنا - قال المقرّم - يسأل عن قعود السجّاد (ع) عن المشاركة مع الثائرين الناقمين على يزيد، ويجيب عنه ١٩٨، وأكثر منه تحليلاً وتفصيلاً السيد الحسينيّ الجلالى ١٩٩.

١٩٤. مناقب آل أبي طالب ١٧٨: ٤ وصحّف بالمشرف!

١٩٥. الإرشاد ١٥٢: ٢.

١٩٦. تاريخ الطبري ٤٩٤: ٥.

١٩٧. تاريخ الطبري ٤٩٣: ٥ عن الكلبي، عن عوانة، عن أبي مخنف، وفيه: وأخبرني (يزيد) أنّك كاتبته! وأراها زيادة من عوانة الأموى النزعة، منفرد به وبلا إجابة.

١٩٨. حياة الإمام زين العابدين: ٣٦٧ - ٣٦٩.

ولمّا فرغ مسلم المرمّى من أمر المدينة خلف عليها روح بن زبابغ الجذامي، ثمّ شخص بمن معه من جنده إلى مكّة ٢٠٠.

خوارج البصرة

مع تمرّد ابن الزبير بمكّة وابن الغسيل بالمدينة، تمرّد مرداس بن أدية من البصرة فخرج على ولاية ابن زياد بها في أربعين رجلاً، فبعث إليهم ابن زياد جيشاً عليهم عبد الله بن حصن الثعلبي، فقتله الخوارج في أصحابه وهزمهم، فبعث إليهم جيشاً آخر عليهم عبّاد بن أخضر فقاتلهم على شاطئ ميسان فقتلهم أجمعين.

فخرج بعده نافع بن الأزرق في نحو من خمسمائة سُموا الأزارقة، فخرج إليهم ابن عبيس في ألفين، والتقوهم في موضع يدعى دستواء، فتقاتلوا، فقتل الأميران من العسكرين وأمساو فأمسكوا، ووصلهم من اليمامة أمداد ورأس

ص: ٨٦

الخوارج الزبير بن ماحوز، فهزموا أهل البصرة وساروا إلى المدائن، ثمّ غلبوا على الأهواز وفارس، وجبوا الأموال ٢٠١.

مسير ابن النمير إلى ابن الزبير:

انتهى مسلم المرمّى من أمر المدينة مع آخر ذى الحجّة من آخر السنة الثالثة والستين، إلى أواسط شهر المحرم من أوّل السنة الرابعة والستين، ثمّ خرج منها بجنده إلى مكّة متفرّغاً لأمر ابن الزبير.

قال خليفة: سار بالناس نحو مكّة، حتّى إذا خرج من الأبواء ثقل بالأوباء والأدواء، ولمّا عرف أنّ الموت نازل به دعا الحصين بن نمير الكندي السكوني فقال له: قد دعوتك وما أدري أقدمك فأضرب عنقك أو أستخلفك على الجيش! قال: أصلحك الله، سهمك فأرّم بي حيث شئت!

قال: إنك أعرابي جلف جاف، وإنّ هذا الحيّ من قريش لم يمكنهم أحد من اذنيه إلا غلبوه على رأيه! فسر بهذا الجيش، فإذا لقيت القوم فإياك أن تمكنهم من أذنيك، لا يكوننّ إلا الوقاف ثمّ التقاف ثمّ الانصراف ٢٠٢.

وقال اليعقوبي: لمّا صار في ثنية المشلل احتضر فأحضر الحصين بن نمير وقال له:

يا برذعة الحمار! لولا (وصية) حبيش بن دلجة القيني لما وليتكم! فإذا قدمت مكّة فلا يكوننّ عملك إلا الوقاف ثمّ التقاف ثمّ الانصراف! ثمّ قال: اللهمّ إن عذبتني بعد طاعتي لخليفتك يزيد بن معاوية وقتل أهل الحرّة! فإنّي إذن لشقيّ! ثمّ خرجت نفسه، فدفن هناك. وتقدّم الحصين بهم إلى مكّة.

ص: ٨٧

١٩٩. في جهاد الإمام السجّاد: ٦٧ - ٧٢.

٢٠٠. تاريخ الطبري ٤٩٦: ٥ عن أبي مخنف.

٢٠١. تاريخ ابن الخياط البصري: ١٥٩ - ١٦٠.

٢٠٢. تاريخ ابن الخياط البصري: ١٥٨، وقال فيه: لعنه الله ولا رحمه! هذا وهو معدود في الصحابة!

وجاءت أمّ ولد ليزيد بن عبد الله بن زمعة فنبشت قبره وأخرجته وصلبته، وجاءه ناس فرجموه! وبلغ الخبر الحصين بن نمير فرجع ودفنه، ودفن معه جماعة من أهل ذلك الموضع، وقيل: لم يدع أحدا منهم ٢٠٣! فأثبت جدارته! وكان ذلك في منتصف شهر محرم لسنة (٤٤هـ-).

حصار الحصين على مكة

وسمع ابن الزبير بإقبال ابن نمير إليه، فأحكم مراصد مكة وجعل عليها المقاتلين. ونزل ابن نمير على مكة فأرسل خيلاً إلى أسفلها، ونصب عليها العرّادات والمجانيق، وفرض على أصحابه أن يرموا مكة كل يوم بعشرة آلاف صخرة! وبدأ الحصار للعشرين من المحرم، فحاصروهم بقية المحرم وصفر وشهرى الربيع يعدون للقتال ويروحون ٢٠٤.

وتغلّب الحصين على مكة تدريجاً حتى نصب مجانيقه على جبل قعيقان وعلى جبل أبي قبيس، فأشكل على الطائفين، وكان طول الكعبة في السماء ثمانى عشرة ذراعاً، فأسند ابن الزبير ألواحاً من الساج إلى البيت وألقى عليها فرشاً وقطائف فكانوا يطوفون تحت تلك الألواح، فكان إذا وقع عليها الحجر نبا عن البيت، وكان الطائفون إذا سمعوا صوت الحجر على الفرش والقطائف يكبرون.

وكان ابن الزبير قد ضرب فسطاطاً في ناحية المسجد فكلما جرح أحدهم حمل إلى ذلك الفسطاط.

ص: ٨٨

وكان مع ابن الزبير من وجوه قريش: أخوه المنذر بن الزبير وأخوان آخران، ومصعب بن عبد الرحمان بن عوف، والمسور بن مخرمة بن نوفل، وعبد الله بن المطيع العدوى، والمختار بن أبي عبيد الثقفي في آخرين منهم ٢٠٥، وكان ابن نمير قد غلب على مكة إلا المسجد، وهبت رياح، فقال المختار: والله إننى لأجد النصر فى هذه الرياح فاحملوا عليهم، فحملوا عليهم وقتل المختار رجلاً وقتل ابن المطيع آخر حتى أخرجوهم من مكة.

وفى الثالث من ربيع الأول وقعت النيران على الكعبة فاحترقت الفرش والقطائف والخشب وأستار الكعبة وتساقطت إلى الأرض وانصدع الحجر الأسود فالتحمت الحرب مرة ثانية عند باب بنى شيبه، فقتل المنذر بن الزبير واثنتان من إخوته، ومصعب بن عبد الرحمان بن عوف والمسور بن مخرمة ٢٠٦.

وفى اليعقوبى: وأراد ابن الزبير أن يغضب المسلمون للكعبة لذلك لما قال له أصحابه: نطفئ النار؟ منعهم! وكان ابن الزبير قد نصب عبد الله بن عمير الليثى للقضاء بمكة، فكان إذا تواقف الفريقان قام على الكعبة ونادى بأعلى صوته:

٢٠٣. تاريخ اليعقوبى ٢: ٢٥١.

٢٠٤. الإمامة والسياسة ١٢: ٢.

٢٠٥. الإمامة والسياسة ١٣: ٢-١٤، وفى المسعودى: كان المختار بن أبي عبيد الثقفي داخلاً فى جملة ابن الزبير منضافاً إلى بيعته على شرائط شرطها عليه: ألا يخالف له رأياً ولا يعصى له أمراً، كما فى مروج الذهب ٧١: ٣.

٢٠٦. الإمامة والسياسة ١٤: ٢.

يا أهل الشام! هذا حرم الله الذي كان مأمنًا في الجاهلية يأمن فيه الطير والصيد، فاتّقوا الله، فيجيبه الشاميون: الطاعة الطاعة! الكرّة الكرّة! ولمّا أحرّقوا الكعبة قالوا: اجتمعت الحرمة والطاعة فغلبت الطاعة الحرمة ٢٠٧!

ص: ٨٩

وقال المسعودي: تواردت أحجار المجانيق والعرّادات على البيت ملفوفة بخرق الكتان مغمّسة بالنفط مشعلة بالنار، فاحترقت البنية وانهدمت الكعبة وذلك يوم السبت لثلاث خلون من شهر ربيع الأول من السنة المذكورة، ووقعت صاعقة فأحرقت من أصحاب المجانيق أحد عشر رجلًا، وقيل أكثر من ذلك ٢٠٨.

وحاول الواقدي أن ينسب الحريق إلى إيقاد النار من قبل الزبيريين أنفسهم ٢٠٩.

هلاک يزيد وتبدّد الجنود

كان ابن الزبير قبل حريق البيت العتيق يجلس بأصحابه في فسطاطه، واحترق فسطاط بلاطه مع احتراق المطاف، فأخذوا يجلسون في ناحية حجر إسماعيل يحتمون بالبيت أو بما بقي منه، وكان الشاميون لا يتركون أن يرموهم بالنبال، ووقعت نبلة بين يدي الزبير فأخذوها ووجدوها مكتوبة كذا: مات يزيد بن معاوية يوم الخميس لأربع عشرة ليلة خلت من ربيع الأول.

فلما قرأها ابن الزبير قام يناديهم: يا أهل الشام! يا مستحلّي حرم الله! يا محرقى بيت الله! علام تقتاتلون وقد مات طاغيتكم يزيد بن معاوية ٢١٠؟!

ووافق هذا الخبر سائر الأخبار في سبق خبر موت يزيد إلى ابن الزبير دون ابن النمير بلا ذكر كيفية وصوله إليه، وإنّما جاء في خبر عوانة: أنّه أخذ يناديهم:

ص: ٩٠

علام تقتاتلون وقد هلك طاغيتكم؟! وهم لا يصدّقونه. وكان لابن النمير مصاهرة مع ثابت بن قيس النخعي الهمداني الكوفي، وكان يلتقى به عند معاوية، فقدم هذا من الكوفة إلى مكّة فأخبره بهلاك يزيد، فصدّقه.

ثمّ بعث ابن النمير إلى ابن الزبير قال له: موعد ما بيننا وبينك الليلة الأبطح.

٢٠٧. تاريخ يعقوبى ٢٥١: ٢-٢٥٢.

٢٠٨. مروج الذهب ٧١: ٣، ٧٢ وقال وليزيد مثالب كثيرة: من شرب الخمر والفسق والفجور وسفك الدماء، وهدم البيت وإحراقه، ولعن الوصى، وقتل ابن بنت الرسول، وغير ذلك ممّا قد ورد فيه الوعيد باليأس من غفرانه، كوروده فيمن جحد توحيدده وخالف رسله. والنفط كما سيأتى إنّما هو من الحجاج نقلًا من البصرة وليس من الحصين نقلًا من الشام أو المدينة.

٢٠٩. انظر خبره في الطبرى ٤٩٨: ٥ وقارن بما قبله من خبر الكلبي عن عوانة. وانظر نحو ذلك في الإمامة والسياسة ١٤: ٢.

٢١٠. الإمامة والسياسة ١٤: ٢-١٥.

فالتقيا، فقال له الحصين: إن يك هذا الرجل قد هلك فأنت أحقّ الناس بهذا الأمر! فهلمّ فلنبايعك ثمّ أخرج معي إلى الشام، فإنّ هذا الجند الذين معي هم وجوه أهل الشام وفرسانهم، فوالله لا يختلف عليك اثنان، وتؤمن الناس، وتهدر هذه الدماء التي كانت بيننا وبينك والتي كانت بيننا وبين أهل الحرّة.

فقال ابن الزبير: أنا اهدر تلك الدماء! أما والله لا أرضى أن أقتل بكلّ رجل منهم عشرة! وأخذ الحصين يكلمه سرّاً وهو يجهر جهراً: لا والله لا أفعل! فقال له الحصين: قبح الله من يعدّك بعد هذه داهياً أو أديباً، قد كنت أظنّ أنّ لك رأياً، ألا أراني أكلّمك سرّاً وتكلمني جهراً وأدعوك إلى الخلافة وتعدني القتل والهلكة!

ثمّ قام وانصرف إلى جمعه ... وأقبل بهم نحو المدينة وهو يقول: من أين نجد هنا علفاً لدوابنا؟! فاستقبله عليّ بن الحسين (ع) ومعه شعير وعلف رطب، فسلمّ على الحصين وقال له: هذا علف عندنا فاعلف منه دابّتك! ثمّ أمر له بما كان من علف معه وعنده!

واجترأ أهل المدينة والحجاز على جند الشام وهم ذلّوا حتّى كان لا ينفرد رجل منهم إلا أخذوا بلجام دابّته ونكسوه عنها! فكانوا يجتمعون ولا يفترقون خوفاً. وخاف بنو أميّة فقالوا لهم: لا تبرحوا حتّى تحملونا معكم إلى الشام، ففعلوا، ومضوا حتّى بلغوا الشام، وقد أوصى يزيد بالبيعة لابنه معاوية ٢١١.

ص: ٩١

وفى اليعقوبي: توفّي يزيد بموضع يقال له حوّاين (من بلاد حمص) وحمل إلى دمشق وصلى عليه ابنه معاوية بن يزيد (وله عشرون سنة) وله ثلاثة إخوة: خالد وأبو سفيان وعبد الله. وبلغ الخبر إلى مكّة وذاع في العسكر فانكسرت شوكتهم، وأرسل الحصين بن نمير إلى ابن الزبير أن نلتقى الليلة على الأمان. فالتقيا، فقال له الحصين: إنّ يزيد قد مات وابنه صبيّ، فهل لك أن أحملك إلى الشام فليس به أحد! فأبايع لك فليس يختلف عليك اثنان؟!

فرفع ابن الزبير صوته: لا والذي لا إله إلا هو، أو نقتل بقتلى الحرّة أمثالهم من أهل الشام! فقال له الحصين: من زعم أنّك داهية فهو أحمق! أقول لك ما هو لك سرّاً؛ وتقول لي ما هو عليك علانية! ثمّ انصرف ٢١٢ بجنوده نحو المدينة ثمّ الشام.

موت يزيد واستخلاف معاوية وموته:

قال خليفة: في ليلة البدر من شهر ربيع الأول من سنة (٦٤) مات يزيد بن معاوية بحوّاين من بلاد حمص، وهو ابن ثمان وثلاثين سنة، وصلى عليه واستخلفه ابنه معاوية بن يزيد مريضاً وهوابن عشرين سنة، إلى أربعين يوماً

ص: ٩٢

٢١١. تاريخ الطبري ٥٠٢: ٥-٥٠٣ عن الكلبي عن عوانة. وجاء في الإمامة والسياسة: حتّى إذا كان بعسفان تفرّقوا .. وانصرف الجيش إلى الشام مفلولا، وأصاب منهم أهل المدينة حين مروا بهم ناساً كثيراً فحبسوهم بالمدينة حتّى قدم عليهم مصعب بن الزبير فأخرجهم إلى الحرّة ف ضرب أعناقهم وهم أربع مائة وأكثر! الإمامة والسياسة ١٢: ٢ منفردا به.

٢١٢. تاريخ اليعقوبي ٢٥٢: ٢-٢٥٣ وقال: كان سعيد بن المسيّب يسمّى سنّي يزيد بن معاوية بالشؤم: ففي السنة الأولى قتل الحسين بن عليّ وأهل بيت رسول الله! وفي الثانية: استباح حرم رسول الله وانتهكت حرمة المدينة! وفي الثالثة: سفكت الدماء في حرم الله وحرّقت الكعبة. هذا، وقد لفق الواقدي على أبي جعفر الباقر (ع) أنّه قال: أوّل من كسى الكعبة الديباج يزيد بن معاوية! كما في تاريخ الخلفاء للسيوطي: ٢٥٠، وانظر عن ابن عساكر قبله عجباً.

أوشهرًا ونصفًا ٢١٣ إلى آخر شهر ربيع الآخر. وروى البلاذري: أنه خرج يتصيد بحواريين وهو سكران، وحمل قرده على أتان وركب يطاردها فسقط فاندقت عنقه فمات ٢١٤.

وقال المسعودي: هلك يزيد بحواريين من أرض دمشق مما يلي قارا والقطيبة في طريق حمص .. وكان أأ دم شديد الأدمة عظيم الهامة، بوجهه أثر جدري يبين، يبادر بلذته ويجاهر بمعصيته؛ ويستحسن خطأه، ويهون الأمور على نفسه في دينه إذا صحت له دنياه. وكتب له كاتب أبيه سرجون بن منصور الرومي وآخرون ... وبويع لابنه معاوية بن يزيد لأربعين يوماً. وكان رجلاً ربعة نحيفاً به صفار، وكتب له كاتب أبيه سرجون الرومي ٢١٥.

وكان ابن زياد لم يرض بمعاوية بن يزيد فلم يدعُ إليه، وكان بالبصرة فخطب الناس ونعى إليهم يزيد وقال: اختاروا لأنفسكم. فبادر الأحنف بن قيس التميمي وقال له: نحن بك راضون حتى يجتمع الناس! وشكرهم ابن زياد فقال: أغدو على أعطيائكم. فوضع ديوان العطاء وأعطى ٢١٦.

ثم أرسل رسولاً إلى الكوفة يدعوهم إلى مثل ما فعل أهل البصرة، فحصبوه وأبوا عليه، فلمّا بلغ ذلك أهل البصرة خالفوه كذلك فهاجت بها فتنة على ابن زياد ٢١٧.

وإلى ما بعد (٤٥) يوماً من هلاك يزيد؛ أي في آخر شهر ربيع الآخر تأخر لحوق ابنه معاوية بأبيه.

ص: ٩٣

قال المسعودي: ولما حضرته الوفاة اجتمعت إليه بنو أمية فقالوا له: اعهد إلى من ترى من أهل بيتك! فقال: لا والله ما ذقت حلاوة خلافتكم فكيف أتقلد وزرها وتتعجلون أنتم حلاوتها وأتعجل مرارتها؟! اللهم إني برىء منها ومتخل عنها، اللهم إني لا أجد نفراً كأهل الشورى فأجعلها إليهم، ينصبون لها من يرونها أهلاً لها.

وكانت أمه ابنة خال أبيه: أم هاشم بنت أبي هاشم بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس واقفة تسمعه فقالت له: ليت أني خرقة حيضة ولم أسمع منك هذا الكلام!

فقال لها: يا أمّاه! وليتني كنت خرقة حيض ولم أتقلد هذا الأمر، أتفوز بنو أمية بحلاوتها وأبوء أنا بوزرها ومنعها عن أهلها؟! كلّا إني لبرىء منها ٢١٨!

٢١٣. تاريخ خليفة: ١٥٨.

٢١٤. قاموس الرجال ١١٤: ١١.

٢١٥. التنبيه والإشراف: ٢٦٤ - ٢٦٥. وعد ابن قتيبة ليزيد اثني عشر ابناً وأربع بنات.

المعارف: ٣٥١ وذكرهم الطبري عن الكلبي ٥٠٠: ٥.

٢١٦. تاريخ ابن الخياط البصري: ١٦٠.

٢١٧. تاريخ الطبري ٥٠٣: ٥.

إلا أن ابن قتيبة قال: جمع الناس فخرج إليهم، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال لهم: أيها الناس! إنني نظرت لكم فيما صار إلي من أمركم وتقلدته من ولايتكم، فوجدت فيما بيني وبين ربي أنه لا يسعني أن أتقدم على قوم فيهم من هو خير مني وأحقهم بذلك وأقوى على ما تقلدته، فاخترتوا مني إحدى خصلتين:

إما أن أخرج منها واستخلف عليكم من أراه رضا لكم ومقنعا، ولكم على الله أن لا آلوكم نصحا في الدين والدنيا.

وإما أن تختاروا لأنفسكم وتخرجوني منها.

قال: فخافت بنو أمية أن تزول الخلافة منهم فقالوا له: ننظر في ذلك يا أمير المؤمنين ونستخير الله، فأمهلنا. فقال لهم: لكم ذلك وعجلوا عليّ.

فلم يلبثوا بعدها إلا أياما حتى طعن، فدخلوا عليه فقالوا: استخلف على الناس من تراه لهم رضا. فقال لهم: عند الموت تريدون ذلك؟! لا والله لا أتزودها، ما سعدت بحلاوتها فكيف أشقى بمرارتها؟! فهلك ولم يستخلف أحدا ٢١٩.

ص: ٩٤

هذا، وانفرد اليعقوبي بخطبة أخرى تختلف كل الاختلاف عما سلف، قال:

خطب فقال:

أما بعد حمد الله والثناء عليه، أيها الناس! فإننا قد بلينا بكم وبليتم بنا، فما نجهل كراحتكم لنا وطعنكم علينا! ألا وإن جدّي معاوية بن أبي سفيان نازع الأمر من كان أولى به منه في القرابة برسول الله وأحق في الإسلام، سابق المسلمين وأول المؤمنين وابن عم رسول رب العالمين وأبا بقيّة خاتم المرسلين! ركب منكم ما تعلمون وركبتم ما لا تنكرون، حتى أتته منيته وصار رهنا بعمله.

ثم قلّد أبي، وكان غير خليق للخير! فركب هواه! واستحسن خطاه، وعظم رجاؤه، فأخلفه الأمل وقصر عنه الأجل، فقلّت منعته وانقطعت مدّته، وصار في حفرته رهنا بذنبه وأسيرا بجرمه! وإن أعظم الأمور علينا علمنا بسوء مصرعه وقبح منقلبه، وقد قتل عترة الرسول، وأباح الحرمه، وحرّق الكعبة!

فما أنا المتقلّد أمورك ولا المتحمّل تبعاتكم! فشأنكم أمركم! فوالله لئن كانت الدنيا مغنما لقد نلنا منها حظّا، وإن تكن شرا فحسب آل أبي سفيان ما أصابوا منها! وكان مروان حاضرا فناداه: سنّها فينا عمريّة!

فقال: ما كنت أتقلّدكم حيّا وميتا، ومتى صار يزيد بن معاوية مثل عمر؟! ومن لي برجال مثل رجال عمر ٢٢٠؟!

أجل، هذا ما قاله اليعقوبي.

وقريب منه بل أقرب إلى التصديق ما رواه الورّام بن أبي فرّاس المالكي الحلبي (٦٠٥ هـ) في مجموعته: أنّه لما نزع معاوية بن يزيد نفسه من الخلافة قام خطيباً فقال:

ص: ٩٥

أيّها الناس! ما أنا الراغب في التأمر عليكم، ولا بالآمن من كرهتكم، بل بلينا بكم وبليتم بنا، ألا إنّ جدّي معاوية نازع الأمر من كان أولى بالأمر منه في قدمه وسابقته: عليّ بن أبي طالب، فركب جدّي منه ما تعلمون، وركبتم معه ما لا تجهلون، حتّى صار رهين عمله وضجيع حفرتة (تجاوز الله عنه).

ثمّ صار الأمر إلى أبي، ولقد كان خليقاً ألا يركب سنه، إذ كان غير خليق بالخلافة، فركب ردعه واستحسن خطاه، فقلّت مدّته وانقطعت آثاره وخمدت ناره! ولقد أنسانا الحزن به الحزن عليه! فإنّا لله وإنّا إليه راجعون! ثمّ أخفت يترحم على أبيه! ثمّ قال:

وصرت أنا الثالث من القوم، الزاهد في ما لدى أكثر من الراغب، وما كنت لأتحمل آثامكم، شأنكم وأمركم فخذوه، ومن شئتم ولايته فولّوه!

فقام إليه مروان بن الحكم وقال له: يا أبا ليلى! أفسنّ عمر سيّئة؟!

فقال له: يا مروان! أتخدعني عن ديني! اثنتي برجال كرجال عمر أجعلها شوري.

ثمّ قال: واللّه إن كانت الخلافة مغنماً لقد أصبنا منها حظاً، ولئن كانت شراً فحسب آل أبي سفيان ما أصابوا منها. ثمّ نزل، فلمّا دخل ...

قالت له أمّه: ليتك كنت حيضة! فقال: وأنا وددت ذلك ولم أعلم أن لله ناراً يعذب بها من عصاه وأخذ غير حقّه ٢٢١!

وهذا كما ترى أنسب به وأقرب إلى تصديق صدوره من مثله في تلك البيئة والجوّ المحيط.

قال المسعودي: ثمّ قبض وهو ابن اثنتين وعشرين سنة، وتقدّم للصلاة عليه الوليد بن عتبة بن أبي سفيان على أمل أن يكون له الأمر بعده، ولكنّه لمّا كبر الثانية طعن أيضاً فسقط قتيلاً!

ص: ٩٦

وتقدّم أخوه عثمان بن عتبة بن أبي سفيان فصلّى عليه فقالوا له: نبايعك؟! قال: على ألا اباشر قتالاً ولا احارب! فأبوا عليه، فلحق بابن الزبير ٢٢٢.

وقال ابن قتيبة: فلمّا دفن معاوية بن يزيد وسوّى عليه التراب، وبنو أميّة حول قبره، قال مروان: أما واللّه يا بني أميّة إنّّه لأبو ليلى، والملك بعد أبي ليلى لمن غلبا ٢٢٣ وإنّما كنّاه بأبي ليلى؛ لأنّ العرب كانت تكتّى به المستضعف، قال الشاعر:

٢٢١. تنبيه الخواطر: ٢٩٩ - ٣٠٠.

٢٢٢. مروج الذهب ٧٣: ٣.

إني أرى فتنةً هاجت مرآجلها

والملك بعد أبي ليلى لمن غلبا ٢٢٤ وكان مؤدبه عمر بن نعيم العنسي المقصوص، فأخذه المروانيون وقالوا له: أنت علّمت معاوية الصغير ذلك! ولقنته إياه وصددته عن الخلافة، وزينت له حبّ عليّ بن أبي طالب وأولاده، وحملته على ما وسمتنا به من الظلم، وحسنت له البدع حتى نطق بما نطق وقال ما قال! فقال المقصوص: والله ما فعلت؛ ولكنه كان مطبوعاً مجبولاً على حبّ عليّ. فدفنوه حيّاً! ٢٢٥.

ص: ٩٧

أحوال البلاد بعد يزيد

وما دعا إليه مروان من الشورى هو ما كان يدعو إليه ابن الزبير حتّى بعد موت يزيد إلى ثلاثة أشهر ٢٢٦ ومال إليه من دمشق الضحّاك بن قيس الفهري ومعه القيسيون، فاستخلفه ابن الزبير على الشام ٢٢٧ وكان النعمان بن بشير الأنصاري في حمص ومال إليه، وبقنّسرين والعواصم زفر بن الحارث الكلابي، وبفلسطين ناتل بن قيس الجذامي، وبمصر عبد الرحمان بن جحدم الفهري. وبقي بالأردن حسّان بن بجدل الكلبي ٢٢٨ وفيّا لمصاهرته لمعاوية والأمويين.

وفي البصرة وإن كان الأحنف التميمي تمّ على الرضا باين زياد حتّى يروا اجتماع الناس، لكنّ بنى الرياح بناحية المربد من بنى تميم البصرة وعليهم سلمة بن ذؤيب الرياحي ارتاح للدعوة إلى ابن الزبير في شهر جمادى الآخرة، فتنحّى ابن زياد من دار الإمارة إلى دار مسعود بن عمرو الأزدي وأقام عنده أربعين يوماً أو شهرين أو ثلاثة أشهر، وقام الأحنف التميمي ببني تميم فحمى دار ابن زياد، وبعث إلى بيت المال والديوان والسجن فحصّنها، واجتمع أهل البصرة ليؤمّروا عليهم أميراً، فاجتمعوا على عبد الله بن الحارث بن نوفل بن عبد المطلب، وأمّه بنت أبي سفيان بن حرب ... فأقرّه ابن الزبير أربعين يوماً، ثمّ كتب إلى أنس بن مالك الأنصاري أن يكون لهم إمام الصلاة، لشهر رمضان سنة (٦٤ هـ) ولحق ابن زياد بالشام ٢٢٩.

٢٢٣. الإمامة والسياسة ١٣: ٢.

٢٢٤. مروج الذهب ٧٢: ٢.

٢٢٥. حياة الحيوان ٨٩: ١، مادة أوز. والبدء والتاريخ ١٧: ٦، سمط النجوم ١٠٢: ٣، تاريخ مختصر الدول: ١١١، جواهر المطالب ٢٦١: ٢.

٢٢٦. تاريخ خليفة: ١٦٠.

٢٢٧. الإمامة والسياسة ١٥: ٢.

٢٢٨. تاريخ اليعقوبي ٢٥٥: ٢.

٢٢٩. تاريخ خليفة: ١٦٠ - ١٦١.

إعلان البيعة لابن الزبير، ولمروان:

مرّ الخبر أنّ ابن الزبير كان يدعو إلى أن يعود الأمر شورى بين الأمّة، حتّى بعد موت يزيد إلى أكثر من ثلاثة أشهر، بل إلى سبع أو تسع خلون من رجب حيث بويع له بالخلافة ٢٣٠، وكان واليه على الشام بدمشق الضحّاك بن قيس في ستين ألفاً ٢٣١ من القيسيّة.

وقام روح بن زبناغ الجذامي في رؤوس قريش وأمّية وأشرافهم يقول لهم:

كان الملك فينا أهل الشام، أفينتنقل ذلك إلى الحجاز؟ لا نرضى بذلك! فتوافقوا على ثانی أبناء يزيد وهو خالد وهو حدث السنّ، فجاءوا إليه وقالوا له أن ينتصب للأمر، فتردّد وقال: سأنظر في ذلك!

فتوافقوا ثانية على عمرو بن سعيد الأشدق وجاءوا إليه وقالوا له: يا أبا أمّية! انتصب للأمر! فوعدهم القبول، ولكنهم انصرفوا فأعرضوا عنه!

فلما أصبح واجتمع الناس خرج إليهم عبد العزيز بن مروان وقام فحمد الله وأثنى عليه ثمّ قال: ما أحد أولى بهذا الأمر من مروان بن الحكم؛ إنّه لكبير قريش وشيخها! وأفرطها عقلاً وكمالاً! ودينياً وفضلاً! والذي نفسي بيده لقد شاب شعر ذراعيه من الكبر! فصدّقه الجذاميون، وكان خالد بن يزيد حاضراً فقال: أمر قضى بلبيل ٢٣٢!

وعقبّ اليعقوبى عقوبة ابن الزبير لمروان وبنى أمّية بإخراجهم ثانية من المدينة إلى ما بعد عودة جنود ابن نمير، قال: إنّ ابن الزبير أخذ مروان بالخروج من المدينة، وكان ابنه عبد الملك مصاباً بالجدري، فقال له مروان: كيف

أخرجك وأنت على هذا الحال؟ فقال له: لقّنى في القطن! فخرجوا، ثمّ علم ابن الزبير بالخطأ فوجّه يردّهم ففاتوه إلى دمشق وقد مات معاوية.

واجتمع الناس بالجابية بجانب دمشق يتناظرون في الأمر ... وكان روح بن زبناغ الجذامي يميل إلى مروان، فقام خطيباً فقال: يا أهل الشام! هذا مروان بن الحكم شيخ قريش والطالب بدم عثمان! والمقاتل لعلّى بن أبي طالب يوم الجمل ويوم صفّين! فبايعوا الكبير واستنّبوا للصغير، ثمّ لعمر بن سعيد! فتبايعوا كذلك.

وإنّما اجتمعوا في الجابية (بين دمشق وطبرية) لأن الضحّاك بن قيس كان قد تغلّب على دمشق ومعه أهلها

٢٣٠. تاريخ خليفة: ١٦٠.

٢٣١. المصدر السابق: ١٦١.

٢٣٢. الإمامة والسياسة ١٥: ٢-١٦.

٢٣٣. تاريخ اليعقوبى ٢٥٥: ٢-٢٥٦. وانظر التنبيه والإشراف: ٢٦٦ و ٢٦٧.

وقال خليفة: كان أهل الشام قد بايعوا ابن الزبير ما خلا أهل الجابية ومن كان من بنى أمية ومواليهم ومنهم ابن زياد، فهؤلاء بايعوا بالجابية مروان ابن الحكم ومن بعده لخالد بن يزيد، وذلك للنصف من ذى القعدة ٢٣٤.

وقال اليعقوبى: فلما عقدوا البيعة جمعوا من كان فى ناحيتهم وتناظروا أى بلد يقصدون، واتفقوا أن يقصدوا دمشق. واستمد الضحّاك الفهرى بدمشق فأمدّه النعمان ابن بشير الأنصارى من حمص بشرحبيل بن ذى الكلاع فى جند حمص، وأمدّه زفر ابن الحارث الكلابى من قنّسرين والعواصم بقيس بن طريف الهلالى فى جند العواصم، وتلاقوا فى مرج راهط ٢٣٥.

ثم أتوا إلى مروان بن الحكم فأستأذنوا عليه ودخلوا إليه وقالوا له: يا أبا عبد الملك! انتصب للملك! فأبدى القبول، فقال له روح بن زبناغ: إنّ معى أربعمئة رجل من جذام، وسأمرهم أن يبادروا غدا إلى المسجد، فيقوم ابنك عبد العزيز فيخطبهم ويدعوهم إليك، فيصدّقه الجذاميون، فيظنّ الناس أن أمرهم واحد.

ص: ١٠٠

٢٣٦

فتوافقوا على ذلك.

قال خليفة: وكان مع مروان ثلاثة عشر ألفاً، والضحّاك فى ستين ألفاً، فأقاموا يقتتلون كل يوم حتى عشرين يوماً. وكان ابن زياد مع مروان فقال له: إنّ الضحّاك فى فرسان قيس، ولن ننال منهم ما نريد إلا بمكيده! فاسألهم المودعة واكفف عن القتال وأعدّ الخيل، فإذا كفّوا فارمهم بها. فمشى السفراء بينهم حتى كفّ الضحّاك عن القتال، ثم شدّ عليهم مروان بخيله، ففزعوا إلى راياتهم فى غير تعبئة، فقتل جماعة من فرسان قيس والضحّاك بن قيس، وفيهم ثلاثة من أبناء زفر بن الحارث الكلابى ٢٣٧ وقتل خلق من أصحابهم وهرب من بقى منهم.

وبلغ الخبر النعمان بن بشير فى حمص فخرج هارباً بأهله وولده وثقله، فتبعه قوم من باهلة وحمير إلى البرية فقتلوه بها واحتزّوا رأسه ووجّهوا به إلى مروان بن الحكم (قتله خالد بن خلى الكلاعى).

وهرب زفر بن الحارث الكلابى وتبعه خيل، حتى لجأ إلى حصن قرقيس ٢٣٨.

٢٣٤. تاريخ خليفة: ١٦١.

٢٣٥. تاريخ اليعقوبى ٢٥٦: ٢، ومرج راهط: موضع من غوطة دمشق فى شرقها بعد مرج عذراء مقتل ومدفن حجر بن عدى الكندى وأصحابه الشهداء، كما فى المعجم.

٢٣٦. يوسفى غروى، محمد هادى، عصر الإمام السجاد، سياسياً وإجتماعياً، جلد ١، المجمع العالمى لاهل البيت (عليهم السلام) - قم - إيران، چاپ: ١، ١٤٣٦ هـ.ق.

٢٣٧. تاريخ خليفة: ١٦١، وفى التنبيه والإشراف: ٢٦٦: كان الفهرى فى ٣٠ ألفاً ومروان فى ١٣ ألفاً رجالة.

٢٣٨. تاريخ اليعقوبى ٢٥٦: ٢.

ودخل مروان دمشق فاتحاً، وأشار عليه أصحابه أن يتزوج امرأة يزيد أم خالد ليكسره، فخطبها وتزوجها ٢٣٩ ودخل دار معاوية بن أبي سفيان ٢٤٠.

وبعد عودة جنود ابن النمير عن مكة وقد هدموا أطراف الكعبة، بعدهم بشهرين في شهر جمادى الآخرة سنة (٦٤ هـ) هدم ابن الزبير الكعبة حتى ألصقها

ص: ١٠١

بالأرض. وكان الحجر الأسود لما أصابه الحريق تصدّع بثلاث قطع، فشدّه ابن الزبير بالفضّة وجعله في داره.

فقال له ابن عباس: اضرب حوالى الكعبة الخشب لا يبقى الناس بغير قبلة! ثم خرج هو من مكة إعظاماً للمقام بها! وفعل ابن الزبير ما قال له.

فلما بلغ ابن الزبير بالهدم إلى قواعد إبراهيم أدخل الحجر في البناء ورفع.

وروى عن خالته عائشة زوج النبي أنّها قالت: قال لى رسول الله: يا عائشة إن بدأ لقومك أن يهدموا الكعبة ثم يبنوها فليصيروا لها بابين ولا يرفعوها عن الأرض. وكان لباب الكعبة الأول مصراع واحد، فجعل ابن الزبير لها بابين من الأرض شرقياً وغريباً بمصراعين بطول إحدى عشرة ذراعاً، وكان ارتفاع الكعبة ثمانى عشرة ذراعاً فجعلها تسعاً وعشرين ذراعاً! وكساها كسوة قباطية (مصرية سوداء) ودهن داخلها بالخلوق والطيب، وأمر أن يحفر فى الأحجار موضع الحجر الأسود، وأراد قطع النزاع فأمر ابنه عبّاداً أن يأتى بالحجر ظهراً إذا صلى بالناس فيضعه فى موضعه، ثم صلى بالناس وكان يوماً شديداً الحرّ، فجاء عبّاد بالحجر وشق الصفوف حتى صار إلى موضع الحجر، وطول ابن الزبير صلاته حتى وضعه ثم وقف على رأس أبيه وكبر، فسلم ابن الزبير! فلما رأت قريش ذلك غضبت وقالت: والله أهكذا فعل رسول الله! ولقد حكّمته قريش فجعل لكل القبائل نصيباً ٢٤٢.٢٤١

ص: ١٠٣

حوادث السنة الخامسة والستين وثورة التوابين

استخلاف مروان لعبد الملك

٢٣٩. الإمامة والسياسة ١٦: ٢.

٢٤٠. تاريخ ابن الوردي ١٦٦: ١.

٢٤١. تاريخ اليعقوبى ٢٦٠: ٢ وفيه كما مرّ نسب البابين من الأرض إلى خالته عائشة عن النبي (ص)، وفي تاريخ الخلفاء للسيوطى: ٢٥٣ ت: نسب إدخال بيت أذرع من الحجر إلى ذلك، وقال: وهو الخليفة، ومروان باغ عليه، كما قاله الذهبي.

٢٤٢. محمد هادى يوسفى الغروى، موسوعة التاريخ الاسلامى ٢٧٨: ٦ - ٢٨٢.

ما أن استقر الأمر لمروان - من دون العراقيين ومصر والحجاز - وخرج من السنة (٦٤٠ هـ) ودخل في سنة (٦٤٥ هـ) وقد كسر رقيبه خالد بن يزيد بزواجه بأم خالد، لم يعبأ به حتى جدّد البيعة لنفسه ولابنه بعده عبد الملك ثم ابنه الآخر عبد العزيز ٢٤٣ غير آبه بعمرو بن سعيد الأشدق. ثم وجّه ابن زياد إلى العراق في سبّين ألفاً في شهر ربيع الأوّل ٢٤٤.

استيلاؤه على فلسطين ومصر

ثمّ أراد استرداد مصر إلى طاعة المروانية من أميّة، وكان لدى خالد بن يزيد سلاح لأبيه يزيد فقال له مروان: أعرنى سلاحاً كان عندك، فأعاره إيّاه، فخرج إلى مصر ٢٤٥ من فلسطين، وكان مروان أرسل عليها روح بن زبابغ الجذامي فوجد ناتل بن قيس الجذامي قد تغلّب عليه وأخرجه، فحاربه مروان فهرب إلى ابن الزبير ٢٤٦.

ص: ١٠٤

وخرج إلى مصر فقاتلهم وأسر منهم ناساً كثيراً فافتدوا أنفسهم منه بأموال استعان بها ٢٤٧. وكانت مصر قد دانت لابن الزبير، فكانت لمروان معهم حروب عظيمة قُتل فيها خلق كثير من الفريقين، إلى أن أخرجوا عامل ابن الزبير عبد الرحمان بن جحدم الفهري عنهم ٢٤٨، ودخلها فصالحه أهلها وأطاعوه. واغتال الفهريّ عامل ابن الزبير، وقتل أكيدر بن حمام اللخمي، ثمّ استعمل عليها ابنه عبد العزيز وانصرف ٢٤٩.

دخلها في أوّل شهر ربيع الثاني، فمكث بها أكثر من شهرين، وخرج في جمادى الثانية (٦٤٥ هـ) ٢٥٠.

ووجّه مروان حبيش بن دلجة القيني إلى الحجاز لمحاربة ابن الزبير بدءاً بالمدينة، وكان عليها لابن الزبير جابر بن الأسود بن عوف الزهري، وعلى البصرة لابن الزبير الحارث بن عبد الله المخزومي، فلمّا توجه القينيّ إلى المدينة كتب ابن الزبير

٢٤٣. تاريخ خليفة: ١٦٢.

٢٤٤. تاريخ خليفة: ١٦٣ وفيه: ربيع الآخر، وينافى ما يأتي.

٢٤٥. الإمامة والسياسة ١٧: ٢.

٢٤٦. تاريخ يعقوبى ٢٥٦: ٢ - ٢٥٧.

٢٤٧. الإمامة والسياسة ١٧: ٢.

٢٤٨. التنبيه والاشراف: ٢٦٩.

٢٤٩. تاريخ يعقوبى ٢٥٧: ٢.

٢٥٠. تاريخ خليفة: ١٦٢.

إلى الحارث بالبصرة أن يوجّه بجيش إلى جيش الشام مع القينى، فلقى أهل البصرة حبيشاً وجيشه فقاتلوهم فقتلوهم، وكان فيهم الحجاج بن يوسف الثقفى مع أبيه يوسف بن الحكم فأفلتا مع من شرد منهم ٢٥١.

ص: ١٠٥

بداية وثبة التوابين عن تقصيرهم فى شأن الحسين (ع)

الكوفة بعد موت يزيد

كان يزيد قد جمع لابن زياد العراقيين؛ الكوفة والبصرة، فكان يتردد بينهما كل ستة أشهر ويستنيب فى الأخرى، وفى أوائل سنة (٦٤ هـ) فى منتصف شهر ربيع الأول حين هلاك يزيد كان ابن زياد بالبصرة وخليفته على الكوفة عمرو بن حريث المخزومى، فلما رضى البصريون بإمارته حتى يجتمع أمر الناس، أرسل وافدين من قبله إلى الكوفة: عمرو بن مسمع وسعيد بن القرحة المازنى التميمى، ليعلما أهل الكوفة بما صنع أهل البصرة ويسألانهم له مثلها حتى يصطلح الناس على أحد.

فجمع عمرو بن حريث الناس ثم حمد الله وأثنى عليه ثم قال لهم: إن هذين الرجلين قد أتياكم من قبل أميركم يدعوانكم إلى أمر يجمع الله به كلمتكم ويصلح به ذات بينكم، فاسمعوا منهما واقبلوا عنهما.

فقام عمرو بن مسمع فحمد الله وأثنى عليه (ونعى إليهم يزيد) وذكر اجتماع رأى أهل البصرة على تأمير عبيد الله بن زياد حتى يرى الناس رأيهم فيمن يولون عليهم وقال: وقد جئناكم لنجمع أمرنا وأمركم فيكون أميرنا وأميركم واحدا، فإنما الكوفة من البصرة والبصرة من الكوفة! وقام ابن القرحة فقال مثل صاحبه. فقام يزيد بن الحارث بن رويم الشيبانى - من قواد ابن زياد فى قتل الحسين (ع) - فقال: الحمد لله الذى أراحنا من ابن سمية، لا ولا كرامة! أو: حصبهما وقال لهما: أنحن نبايع لابن مرجانة! لا ولا كرامة! ثم حصبهما الناس بعده، فأمر عمرو الشرطة أن يذهبوا به إلى السجن، فقام بنو بكر بن وائل وعاقوهم عنه وانطلقوا به إلى أهله. وصعد عمرو المنبر فحصبوه، فدخل داره.

واجتمع ناس فى المسجد، قالوا: نؤمر رجلاً إلى أن يجتمع الناس على خليفة، ثم توافقوا على عمر بن سعد! فمضى محمد بن الأشعث الكندى إلى ابن

ص: ١٠٦

سعد فجاء به حتى أضعده المنبر! وجاء الخبر إلى همدان فاجتمع نساؤهم وخرجن مع رجال منهم متقلدين سيوفهم، وهنّ يندبن ويبكين حسيناً (ع) حتى دخلوا المسجد وأطافوا بابن سعد وابن الأشعث فأخذ يقول: جاء غير ما كنّا عليه! وانصرفوا. وإنما كان ابن الأشعث وكندة تقوم بأمر ابن سعد؛ لأن أمه منهم فهم أخواله.

ثمّ اجتمع جمع من أهل الكوفة على عامر بن مسعود الجمحي، وكتبوا بذلك إلى ابن الزبير فأقرّه.

وعاد الوافدان إلى البصرة فأعلموا الناس الخبر، فقال رجال منهم فيما بينهم: أهل الكوفة يخلعونهم وأنتم تولّونه وتبايعونه؟! فوثب الناس على ابن زياد فخافهم وخرج من قصره مستجيراً بدار مسعود بن عمرو شيخ الأزدي بالبصرة، فأجاره ومنع الناس عنه ثلاثة أشهر، ثمّ استخلف مسعود بن عمرو على البصرة وشايعه رجال منهم إلى الشام ٢٥٢.

فصلّى بالكوفة عامر الجمحي إلى ثلاثة أشهر، ثمّ قدم عليهم للصلاة والحرب عبد الله بن يزيد الأنصاري، وعلى الخراج: إبراهيم بن محمد بن طلحة التيمي ٢٥٣ بعد أن بويع ابن الزبير بالخلافة لسبع أوتسع خلون من شهر رجب ٢٥٤.

وفي أيام عامر بن مسعود الجمحي جمع أهل الرى برئاسة البرجان، والرى من ثغور الكوفة، فوجّه عامر الجمحي - باسم ابن الزبير - جيشاً بإمرة محمد بن عمير بن عطارد فهزمه البرجان، فوجّه بعده آخر بإمرة عتاب بن ورقاء التيمي الرياحي فهزموا المتمردين وقتلوا البرجان ٢٥٥.

ص: ١٠٧

أوائل أقاويل الشيعة بالكوفة

كانت لسليمان بن صرد الخزاعي صحبة مع النبي (ص)، ثمّ كان هو والمسيّب بن نجبة الفزاري، وعبد الله بن سعد بن نفيل الأزدي، وعبد الله بن وال التيمي، ورفاعة بن شدّاد البجلي، من خيار أصحاب عليّ (ع) ومعهم أناس من وجوه «الشيعة» وخيارهم. وقد عرفنا اجتماعهم في دار سليمان الخزاعي بعد موت معاوية ونزوح الحسين (ع) إلى مكة، وتداعيتهم إلى أن يكتبوا إليه باقتدائهم به في إباء بيعه يزيد ودعوته إليهم ليبايعوه ويتابعوه.

وعليه فمن الطبيعي ما رواه أبو مخنف الأزدي عن عبد الله بن عوف الأزدي: أن أولئك «الشيعة» بعد قتل الحسين (ع) إلى جانبهم ولم ينصروه، تلاقوا فيما بينهم بالندم والتلاوم! وأنهم أخطؤوا خطأ كبيراً بدعوتهم إياه لنصرته ثمّ تركهم إجابته لذلك! وأنّ عليهم في ذلك الإثم والعار! وأنّ ذلك لا يغسل عنهم إلا بقتال قاتليه أو يُقتلوا في سبيل ذلك. وكان من الطبيعي أن يعودوا للاجتماع في دار سليمان الخزاعي، فاجتمعوا إليه ٢٥٦.

وإنّ منهم من كان تائباً ليس من خذلانه وترك نصرته للحسين (ع)، بل من نصرته عليه كحميد بن مسلم الأزدي، حيث يروى عنه أبو مخنف الأزدي قال: واللّه لقد كنت شاهداً معهم ذلك اليوم وإنّا يومئذ لأكثر من مائة رجل من وجوه

٢٥٢. تاريخ الطبري ٥٢٤: ٥ - ٥٢٥.

٢٥٣. المصدر السابق ٥٣: ٥.

٢٥٤. تاريخ خليفة: ١٦٠.

٢٥٥. تاريخ ابن الخياط: ١٦٢.

٢٥٦. تاريخ الطبري ٥٥٢: ٥.

«الشيعة» وفرسانهم في دار سليمان الخزاعي ٢٥٧ سنة قتل الحسين (ع) سنة إحدى وستين ٢٥٨ وجلّهم في نحو الستين من أعمارهم، كما يأتي آنفاً، وكان يوم الجمعة ٢٥٩.

ص: ١٠٨

مؤتمر امراء التوابين الخمسة

فلما اجتمعوا بدأ الكلام المسيب بن نجبة: فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على نبيه (وآله) ثم قال:

«أما بعد، فإننا قد ابتلينا بطول العمر والتعرض لأنواع الفتن، فنرغب إلى ربنا ألا يجعلنا ممن يقول لهم غدا: أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ ٢٦٠ وقد قال أمير المؤمنين (علي (ع)): «العمر الذي أعذر الله فيه إلى ابن آدم (أى قطع به عذره): ستون سنة» وليس فينا رجل إلا وقد بلغه.

وقد كنّا مغرمين بتزكية أنفسنا وتقريظ «شيعتنا» حتّى بلا الله أخبارنا فوجدنا كاذبين في موطنين من مواطن ابني ابنه نبينا صلى الله عليه (وآله) وسلّم ٢٦١.

وقد بلغتنا قبل ذلك كتبه وقدمت علينا رسله، وأعذر إلينا (قطع عذرنا) يسألنا نصره، عوداً وبدءاً وعلانية وسراً! فبخلنا عنه بأنفسنا حتّى قتل إلى جانبنا، لا نحن نصرناه بأيدينا ولا جادلنا عنه بالسنتنا، ولا قويناه بأموالنا ولا طلبنا له النصره من عشائرنّا! فما عذرنا إلى ربنا وعند لقاء نبينا (ص) وقد قتل فينا ولده وحببيه وذريته

ونسله! لا والله لا عذر! دون أن تقتلوا قاتله والمؤلّبين عليه أو تقتلوا في طلب ذلك، فعسى ربنا أن يرضى عنّا عند ذلك، وما أنا بعد لقائه بآمن من عقوبته!

أيّها القوم! ولّوا عليكم رجلاً منكم فإنّه لا بدّ لكم من أمير تفزعون إليه وراية تحفون بها. أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم». ومن دون اقتراح لأمير خاصّ.

ثمّ بادر رفاعه بن شدّاد البجلي فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبيّ (ص) ثمّ قال:

أمّا بعد، فإنّ الله قد هداك لأصوب القول، ودعوت إلى أرشد الأمور:

ص: ١٠٩

دعوت إلى التوبة من الذنب العظيم وإلى جهاد الفاسقين، فمسموع منك مستجاب لك مقبول قولك.

٢٥٧ . المصدر السابق ٥٥٤: ٥.

٢٥٨ . المصدر السابق ٥٥٨: ٥.

٢٥٩ . المصدر السابق ٥٥٤: ٥.

٢٦٠ . فاطر: ٣٧.

٢٦١ يعنى موقفهم مع الحسن (ع) ثمّ موقفهم من الحسين (ع).

وقلت: «وَلَوْ عَلَيكُمْ رَجُلًا مِنْكُمْ تَفْزَعُونَ إِلَيْهِ وَتَحْفَوْنَ بِرَأْيِهِ» وذلك رأى رأيناه مثل الذى رأيت، فإن تكن أنت ذلك الرجل تكن عندنا مرضياً وفينا منتصّحاً وفي جماعتنا محبوباً. وإن رأى أصحابنا ولينا هذا الأمر «شيخ الشيعة» صاحب رسول الله، وذا السابقة والقِدَم سليمان بن صرد، المحمود فى بأسه ودينه والموثوق بحزمه، أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم.

ثم تكلم عبد الله بن وال التيمى فذكر المسيب بن نجبة بفضلته ثم سليمان بن صرد بسابقتها، والرضا بتوليته. ثم تكلم عبد الله بن سعد بنحوه.

فقال المسيب بن نجبة: أصبتم ووقفتم، وأنا أرى مثل الذى رأيتم فولوا أمركم سليمان بن صرد ٢٦٢.

ص: ١١٠

بيان سليمان الخزاعى

فلما ولوا عليهم سليمان بن صرد تكلم فقال: «أثنى على الله خيراً وأحمد آلاءه وبلاءه، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسوله. أما بعد، فإننى والله لخائف ألا يكون آخرنا (آخر أمرنا) فى هذا العصر - الذى نكدت فيه المعيشة، وعظمت فيه الرزية، وشمل فيه الجور أولى الفضل من هذه الشيعة - إلى ما هو خير! فإننا كنا نمد أعناقنا إلى قدوم «آل نبينا» ونمنّهم النصر، ونحتّمهم على القدوم، فلما قدموا ونينا وعجزنا! وادّهنّا وتربّصنا وانتظرنا ما يكون! حتى قتل فينا ولد نبينا وسلالته وعصارتة! وبضعة من لحمه ودمه! إذ جعل يستصرخ فلا يُصرخ ويسأل النصف فلا يُعطاه! اتّخذ الفاسقون غرضاً للنبل، ودريةً للرماح حتى أقصدوه، وعدوا عليه فسلبوه ٢٦٣.

ألا فانهضوا! فقد سخط ربكم! ولا ترجعوا إلى الحلائل والأبناء حتى يرضى الله! وما أظنه راضياً دون أن تتاجزوا من قتله أوتبيدوا! ألا لا تهابوا الموت! فوالله ما هابه امرؤ قط إلا ذل! كونوا كالأولى من بنى إسرائيل إذ قال لهم نبيهم: إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ ٢٦٤ فما فعل القوم؟ جتوا على الركب ومدوا الأعناق، ورضوا بالقضاء حين علموا أنه لا ينجيهم من عظيم الذنب إلا الصبر على القتل! فكيف بكم لو قد دُعيتم إلى مثل ما دعوا إليه؟! اشحذوا السيوف وركبوا الأسنة وأعدوا لهم ما استطعتم من قوةٍ ومن رباط الخيل ٢٦٥ حتى تدعوا حين تدعون وتستنفرون».

فقام خالد بن سعد بن نفيل أخو عبد الله وقال: أمّا أنا فوالله لو أعلم أن قتلى

٢٦٢. تاريخ الطبرى ٥٥٢: ٥ - ٥٥٣.

٢٦٣. ولم يتكلم بسلب بناته ونسائه وسبيهن!

٢٦٤. البقرة: ٥٤.

٢٦٥. الأنفال: ٦٠.

ص: ١١١

نفسى يخرجنى من «ذنبى» ويرضى ربى لقتلتها! ولكن هذا أمر به قوم كانوا قبلنا ونهينا عنه، فاشهد الله ومن حضر من المسلمين أن كل ما أصبحت أملكه - سوى سلاحى الذى أقاتل به عدوى - صدقة على المسلمين! أقويهم به على قتال الفاسطين!

فلما تصدق خالد بن سعيد الأزدى بما له على المسلمين قال له سليمان:

أبشر بجزيل ثواب الله للذين لأنفسهم يمهّدون. فقام حنش بن ربيعة الكناني وقال: وأنا أشهدكم على مثل ذلك.

فقال سليمان: من أراد شيئاً من مثل هذا فليأت بماله إلى عبد الله بن وال من تيم بكر وائل، فإذا اجتمع عنده كل ما أردتم إخراجهم من أموالكم جهّزنا به ذوى الخلّة والمسكنة من أشياعكم ٢٦٦.

فلم يزل القوم فى جمع آله الحرب والاستعداد للقتال ودعاء الناس من «الشيعه» وغيرهم فى السر إلى الطلب بدم الحسين (ع)، فكان يجيبهم النفر بعد النفر والقوم بعد القوم ٢٦٧.

خطبة عبيد الله المزنى

وكان من أبلغ دعائهم فى منطقته ووعظه: عبيد الله بن عبد الله المزنى، وكان إذا اجتمع إليه جمع من الناس يبدأ بحمد الله والثناء عليه والصلاة على رسول الله (ص) ثم يقول:

«أما بعد، فإن الله اصطفى محمداً بنبوته على خلقه، وخصه بالفضل كله، وأعزكم باتّباعه وأكرمكم بالإيمان به، فحقن به دماءكم المسفوكه، وأمن به

ص: ١١٢

سبلكم المخوفة: وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ٢٦٨.

فهل خلق ربكم فى الأولين والآخرين أعظم حقاً على هذه الأمة من نبّيها؟! وهل «ذريّة» أحد من النّبیین والمرسلين أو غيرهم أعظم حقاً على هذه الأمة من «ذريّة» رسولها؟! لا والله ما كان ولا يكون!

لله أنتم، ألم تروا ويبلغكم ما اجترم إلى ابن بنت نبّيكم! أما رأيتم انتهاك القوم حرمة؟ واستضعافهم وحدته! وترميلهم إياه بالدم وجرحهم إياه على الأرض! لم يرقبوا فيه ربهم ولا قرابته من الرسول، اتّخذوه للنبل غرضاً، وغادروه للضباع جزراً (ذبيحاً) فلله عينا من رأى مثله! ولله حسين بن على ماذا غادروا به ذا صدق وصبر، وذا أمانة ونجدة وحزم! ابن «أول

٢٦٦. تاريخ الطبرى ٥٥٤: ٥ - ٥٥٥.

٢٦٧. تاريخ الطبرى ٥٥٨: ٥.

٢٦٨. آل عمران: ١٠٣.

المسلمين» إسلاماً وابن بنت رسول ربّ العالمين، قلّت حماته وكثرت حوله عداته، فقتله عدوّه و «خذله وليّه» فويل للقاتل وملامة للخاذل.

إنّ الله لم يجعل لقاتله حجّة «ولا لخاذله معذرة» إلا أن ينصح لله في «التوبة» فيجاهد القاتلين وينابذ القاسطين، فعسى الله عند ذلك أن يقبل «التوبة» ويقبل العثرة.

إنّا ندعوكم إلى كتاب الله وسنّة نبيّه، و «الطلب بدماء أهل بيته» وإلى جهاد المحلّين والمارقين، فإن قتلنا فما عند الله خير للأبرار، وإن ظفرنا «رددنا هذا الأمر إلى أهل بيت نبينا» ٢٦٩.

ص: ١١٣

فلما مات يزيد بن معاوية

لم يزل هؤلاء على هذا حتّى مات يزيد لأربع عشرة ليلة مضت من شهر ربيع الأوّل سنة أربع وستين.

فجاء جماعة من «الشبيعة» إلى سليمان الخزاعي وقالوا له: قد مات هذا الطاغية، والأمر الآن ضعيف، فإن شئت وثبنا على عمرو بن حريث فأخرجناه من القصر - وكان خليفة ابن زياد بالكوفة - ثمّ أظهرنا الطلب بدم الحسين (ع) وتتبّعنا قتلته «ودعونا الناس إلى أهل هذا البيت» المستأثر عليهم و «المدفوعين عن حقّهم» فأكثروا من هذا القول ومثله.

فقال لهم سليمان الخزاعي: إنّي قد نظرت فيما تذكرون فرأيت أن قتل الحسين هم أشرف أهل الكوفة، وفرسان العرب هم المطالبون بدمه، ومتى علموا ما تريدون وأنهم هم المطلوبون كانوا هم أشدّ عليكم. ونظرت في من تبعني منكم فعلت أنّهم لو خرجوا لم يدركوا «تأرهم» ولم يشفوا أنفسهم ولم ينكوا في عدوّهم وكانوا لهم جزرا (ذبائح)، ولكن بثّوا دعائكم في المصر فادعوا إلى أمركم هذا «شيعتكم» وغيرهم، فإنّي أرجو أن يكون الناس اليوم حيث هلك هذا الطاغية أسرع إلى أمركم استجابة منهم قبل هلاكه.

فخرجت طائفة منهم دعاء يدعون الناس، فاستجاب لهم ناس كثير بعد هلاك يزيد بن معاوية، أضعاف من كان استجاب لهم قبل ذلك ٢٧٠، ولم يزل أصحاب سليمان يدعون «شيعتهم» وغيرهم من أهل مصرهم، حتّى كثر تبعهم، وكان الناس بعد هلاك يزيد أسرع إلى اتباعهم منهم قبل ذلك ٢٧١.

بلا تضمين لتعيين موعد لو ثبتهم في هذا الخبر كما مرّ، ونجد الأجل لأوّل شهر ربيع الآخر لسنة خمس وستين في رسالة سليمان إلى سعيد بن حذيفة بن

ص: ١١٤

البمان بلا تاريخ لها، ولعلّها كانت نحو سنة قبل الموعد وبعد موت يزيد في أواخر ربيع الآخر لسنة (٦٤هـ) فإليك نصّها:

٢٦٩. تاريخ الطبري ٥٥٩: ٥ - ٥٦٠، وهذه الخاتمة هي المبرر الشرعي الوحيد لعلمهم لو كان بإذن إمامهم يومئذ.

٢٧٠. تاريخ الطبري ٥٥٩: ٥.

٢٧١. المصدر السابق ٥٦٠: ٥.

كان حذيفة بن اليمان الأنصاري عاملاً على المدائن حتى أوائل عهد الإمام عليّ (ع)، وقتل ابنه سعيد شهيداً بصفين مع الإمام (ع)، وكان أخوه سعد بعد بالمدائن. وكان بها أقوام من أهل الكوفة قد أعجبته فتوطنوا بها، وكانوا في حين توزيع العطاء وتقسيم الأرزاق يعودون إلى الكوفة فيأخذون حقوقهم ويعودون إلى أوطانهم في المدائن ٢٧٢.

فكتب سليمان الخزاعي كتابين نسخة واحدة، بعث بواحدة مع ظبيان بن عماره السعدي التميمي إلى المثنى بن مخزبة العبدى (البصري) فكتب إليه المثنى: أمّا بعد، فقد قرأت كتابك، وأقرأته إخوانك، فحمدوا رأيك واستجابوا لك، فنحن موافوك للأجل الذي ضربت وفي الموطن الذي ذكرت، والسلام عليك، وكتب في أسفل الكتاب أربعة أبيات من شعر الحماسة ٢٧٣.

وبعث بنسخة أخرى منه مع عبد الله بن مالك الطائي إلى سعد بن حذيفة بن اليمان، وفيه:

بسم الله الرحمن الرحيم، من سليمان بن صرد إلى سعد بن حذيفة ومن قبله من المؤمنين، سلام عليكم.

أمّا بعد؛ فإنّ الدنيا قد أدبر منها ما كان معروفاً، وأقبل منها ما كان منكراً، وأزعم الترحال عباد الله الأخيار، وباعوا قليلاً من الدنيا لا يبقى بجزيل مثوبة عند

ص: ١١٥

الله لا تفنى ٢٧٤.

إنّ أولياءكم من إخوانكم و «شيعه آل نبيكم» نظروا لأنفسهم فيما ابتلوا به من أمر ابن بنت نبيهم، الذي دعى فأجاب ودعا فلم يجب، وأراد الرجعة فحُبس، وسأل الأمان فمُنِع، وترك الناس فلم يتركوه، وعدوا عليه فقتلوه ثمّ سلبوه وجرّوه ظلماً وعدواناً، وغرّة بالله وجهلاً. وبعين الله ما يعملون وإلى الله يرجعون و سَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ٢٧٥.

فلما نظروا إخوانكم وتدبروا عواقب ما استقبلوا رأوا أن قد أخطؤوا بخذلان الزكيّ الطيّب، وإسلامه وترك مواساته والنصر له خطأ كبيراً، ليس لهم منه مخرج ولا «توبة» دون قتل قاتليه أو قتلهم، حتى تفنى على ذلك أرواحهم، وقد جدّ إخوانكم فجّدوا، وأعدّوا واستعدّوا.

وقد ضربنا لإخواننا أجلاً يوافوتنا إليه، وموطناً يلقوننا فيه:

٢٧٢ . تاريخ الطبرى ٥٥٧: ٥.

٢٧٣ . المصدر السابق ٥٥٨: ٥.

٢٧٤ . اقتباس من الخطبة: ١٨٢ فى نهج البلاغة.

٢٧٥ . الشعراء: ٢٢٧.

فأما الأجل فغرة شهر ربيع الآخر سنة خمس وستين، وأما الموطن الذى تلقوننا فيه: فالنخيلة.

أنتم الذين لم تزالوا لنا «شيعة» وإخواناً، ألا وقد رأينا أن ندعوكم إلى هذا الأمر الذى أراد الله به إخوانكم فيما يزعمون، ويظهرون لنا أنهم «يتوبون» وإنكم جدراء بتطلاب الفضل والتماس الأجر، و «التوبة» إلى ربكم من الذنب، ولو كان فى ذلك حز الرقاب وقتل الأولاد واستيفاء الأموال وهلاك العشائر.

ما ضرَّ «أهل عذراء» (حجراً وأصحابه) الذين قُتلوا أن يكونوا اليوم أحياء عند ربهم يرزقون، شهداء قد لقوا الله صابرين محتسبين، فأثابهم ثواب الصابرين.

ص: ١١٦

وما ضرَّ إخوانكم المقتلين صبراً المصلين ظلماً، والممثل بهم والمعتدى عليهم ألا يكونوا أحياء مبتلين بخطاياكم، قد خير لهم فلقوا ربهم ووفاهم الله أجرهم إن شاء الله!

فاصبروا- رحمكم الله- على البأساء والضراء وحين البأس وتوبوا إلى الله عن قريب، فوالله إنكم لأحرياء ألا يكون أحد من إخوانكم صبر على شىء من البلاء إرادة ثوابه، إلا صبرتم التماس الأجر فيه على مثله، ولا يطلب رضا الله طالب بشىء من الأشياء إلا طلبتم رضا الله به ولو أنه القتل!

إنَّ التقوى أفضل الزاد فى الدنيا، وما سوى ذلك يبور ويفنى، فلتعزف عنها أنفسكم، ولتكن رغبتكم فى دار عاقبتكم، وفى جهاد عدو الله وعدوكم وعدو «أهل بيت نبيكم» حتى تقدموا على الله «تائبين» راغبين.

أحياناً الله وإياكم حياةً طيبةً، وأجارنا وإياكم من النار، وجعل مناينا قتلًا فى سبيله على يدى أبغض خلقه إليه وأشدّهم عداوةً له، إنَّه القدير على ما يشاء، والصانع لأوليائه فى الأشياء، والسلام عليكم.

ولما قرأ سعد بن حذيفة الكتاب بعث إلى «الشيعة» بالمداين فقرأه عليهم، ثم حمد الله وأثنى عليه ثم قال:

أما بعد؛ فإنكم قد كنتم مجتمعين مزمعين على نصر الحسين وقتال عدوه، فلم يفجأكم شىء قبل قتله، والله مثيبكم على حسن النية، وعلى ما أجمعتم عليه من النصر، بأحسن المثوبة. وقد بعث إخوانكم يستنجدونكم ويستمدونكم، ويدعونكم إلى الحق، وإلى ما ترجون لكم به عند الله أفضل الأجر والحظ، فماذا تريدون وماذا تقولون؟!

فقالوا بأجمعهم: رأينا فى ذلك مثل رأيهم، فنجيهم ونقاتل معهم!

فقال: استعدوا للعدو وأعدوا له الحرب، ثم نسير وتسيرون ٢٧٦.

ص: ١١٧

واختار المختار أن يعود للديار

عرفنا فى أخبار خروج مسلم بن عقيل: أنّ المختار بن عبيد الثقفى خرج برايةً لنصرته، وكان عمرو بن حريث المخزومى يحمل رايةً أمان لابن زياد، فدعا المختار إليه وأجاب المختار فشتر عينه ابن زياد وحبسه. وكان عبد الله بن عمر قد بايع ليزيد وكان هو زوج اخت المختار: صفية، فبعث المختار ابن عمّه زائدة بن قدامة الثقفى إلى ابن عمر يسأله أن يكتب إلى يزيد ليكتب إلى ابن زياد بإطلاقه، ففعل وأطلقه ابن زياد ولكنه أخرج من الكوفة، فخرج إلى مكة.

فروى الطبرى عن الكلبي عن أبي مخنف عن عباس بن سهل بن سعد الساعدي، وكان مع ابن الزبير، وتواعد مع المختار الثقفى فى حجر إسماعيل بعد العتمة، فالتقى به وذهب به إلى منزل ابن الزبير فقال له المختار:

إني قد جئتكم لأبايعكم على ألا تقضى الأمور دوني وإذا ظهرت استعنت بي على أفضل عملك! ولا أبايعكم أبداً إلا على هذه الخصال! فقال له ابن الزبير:

فلما سألته! فبسط يده فبايعه ٢٧٧ وأقام معه خمسة أشهر، فلما رآه لا يستعمله جعل لا يقدم عليه أحد من الكوفة إلا سأله عن حالهم.

فممن قدم مكة يريد عمرة رمضان هاني بن أبي حية الوادعي الهمداني فسأله المختار عن حال الناس، فأخبره أنهم تواصلوا واتسقوا على طاعة ابن الزبير، ولكن طائفة من أهل مصر لو كان لهم رجل يجمعهم على رأيهم لأكل بهم الأرض إلى يوم ما! فقال المختار: أنا والله لهم! أنا أجمعهم على أمر الحق

ص: ١١٨

وأنفى بهم ركب الباطل وأقتل بهم كل جبار عنيد! أما وإنني لا أدعو إلى الفتنة وإنما أدعو إلى الهدى والجماعة! ثم ركب رواحله وخرج نحو الكوفة ٢٧٨.

ودخل المختار الكوفة

قدم المختار الكوفة يوم الجمعة النصف من شهر رمضان (٦٤ هـ - ٢٧٩) فمرّ بمسجد السكون وجبّانة كندة فسلم عليهم وقال لهم: أبشروا فقد أتاكم ما تحبون من النصر والفلج! ثم أقبل حتى مرّ بمسجد بنى ذهل وبنى حجر فوجدهم قد راحوا إلى الجمعة.

٢٧٧. تاريخ الطبرى ٥٧٥: ٥.

٢٧٨. المصدر السابق ٥٧٧: ٥ - ٥٧٨. ولا يصح ما أرسله المسعودي فى مروج الذهب ٧٣: ٣:

أنه قالها لابن الزبير فأرسله إلى الكوفة لذلك!

٢٧٩. تاريخ الطبرى ٥٦٠: ٥.

فَأَقْبَلَ حَتَّى مَرَّ بِنَبِيِّ بَدَاءَ مِنْ كِنْدَةَ فَوَجَدَ مِنْهُمْ عَبِيدَةً بَنَ عَمْرُو شَاعِرًا شَجَاعًا وَأَشَدَّهُمْ حُبًّا لِعَلَى (ع) وَلَكِنَّهُ لَا يَصْبِرُ عَنِ الشَّرَابِ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ الْمَخْتَارُ ثُمَّ قَالَ لَهُ:

يَا أَبَا عَمْرُو! إِنَّكَ عَلَى رَأْيٍ حَسَنٍ لَنْ يَدْعَ اللَّهُ مَعَهُ مَائِثًا إِلَّا غَفَرَهُ وَلَا ذَنْبًا إِلَّا سَتَرَهُ! أَبَشِّرْ بِالنَّصْرِ وَالْيَسْرِ وَالْفَلَاحِ! فَقَالَ عَبِيدَةُ: بِشَرِّكَ اللَّهُ بِخَيْرٍ، فَهَلْ تَفْسِّرُهُ لَنَا؟ قَالَ:

نَعَمْ، اللَّيْلَةُ فِي رَحْلِي! فَالْقَنَى فِي رَحْلِي، وَبَلَغَ أَهْلَ مَسْجِدِكُمْ هَذَا عَنِّي: أَنَّهُمْ قَوْمٌ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَهُمْ عَلَى طَاعَتِهِ، يَقْتُلُونَ الْمُحَلِّينَ، وَيَطْلُبُونَ بَدْمَاءَ أَوْلَادِ النَّبِيِّينَ، وَيَهْدِيهِمْ لِلنُّورِ الْمُبِينِ! ثُمَّ قَالَ: أَيْنَ الطَّرِيقُ إِلَى بَنِي هِنْدٍ؟ فَدَعَى عَبِيدَةُ بِفَرَسِهِ وَرَكِبَهُ وَمَضَى مَعَهُ إِلَى بَنِي هِنْدٍ إِلَى مَنْزِلِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ كَثِيرٍ فَقَالَ لَهُ: الْقَنَى أَنْتَ وَأَخُوكَ اللَّيْلَةَ فَإِنِّي قَدْ أَتَيْتُكُمْ بِكُلِّ مَا تَحِبُّونَ. ثُمَّ مَضَى إِلَى بَابِ الْفِيلِ فَأَنَاحَ رَاحِلَتَهُ وَدَخَلَ الْمَسْجِدَ فَقَامَ إِلَى جَنْبِ سَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ فَصَلَّى النَوَافِلَ

ص: ١١٩

حَتَّى أَقِيَمَتِ الصَّلَاةُ فَصَلَّى (بِصَلَاةِ عَامِرِ بْنِ مَسْعُودِ الْجَمْحِيِّ) ثُمَّ صَلَّى النَوَافِلَ حَتَّى صَلَّى الْعَصْرَ ثُمَّ انْصَرَفَ حَتَّى مَرَّ عَلَى حَلْقَةِ هَمْدَانَ فَقَالَ لَهُمْ: أَبَشِّرُوا فَإِنِّي قَدْ قَدِمْتُ عَلَيْكُمْ بِمَا يَسُرُّكُمْ. ثُمَّ مَضَى حَتَّى نَزَلَ دَارَهُ.

وَأَتَاهُ (أَيُّ الْمَخْتَارِ) عَبِيدَةُ بْنُ عَمْرُو الْبَدْيِ الْكَنْدِيُّ وَإِسْمَاعِيلُ بْنُ كَثِيرٍ مِنْ بَنِي هِنْدٍ فَسَأَلَهُمَا عَنْ حَالِ «الشَّيْعَةِ».

فَقَالَا لَهُ: إِنَّهُمْ قَدْ اجْتَمَعُوا لِسُلَيْمَانَ بْنِ صَرْدِ الْخَزَاعِيِّ فَهُوَ لَا يَلْبِثُ كَثِيرًا حَتَّى يَخْرُجَ.

فَحَمَدَ اللَّهُ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَصَلَّى عَلَى النَّبِيِّ (ص) ثُمَّ قَالَ: أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ «الْمَهْدِيَّ ابْنَ الْوَصِيِّ»: مُحَمَّدَ بْنَ عَلِيٍّ (ابْنَ الْحَنْفِيَّةِ) بَعَثَنِي إِلَيْكُمْ أَمِينًا وَوَزِيرًا وَمُنْتَخَبًا وَأَمِيرًا، وَأَمَرَنِي بِقِتَالِ الْمُلْحِدِينَ وَالطَّلَبِ بِدَمَاءِ أَهْلِ بَيْتِهِ، وَالدَّفْعِ عَنِ الضَّعَفَاءِ.

ثُمَّ أَخَذَ يَبْعَثُ إِلَى «الشَّيْعَةِ» فيقول لهم: إِنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ مِنْ قِبَلِ «وَلِيِّ الْأَمْرِ» وَمَعْدِنِ الْفَضْلِ، وَ «وَصِيِّ الْوَصِيِّ وَالْإِمَامِ الْمَهْدِيِّ» بِأَمْرِ فِيهِ الشِّفَاءُ وَكُشْفُ الْغَطَاءِ وَقَتْلُ الْأَعْدَاءِ وَتَمَامُ النِّعَمَاءِ! فَأَنَا إِنَّمَا أَعْمَلُ عَلَى مِثَالِ قَدْ مَثَلُ لِي وَأَمْرٌ قَدْ بَيَّنَّ لِي، فِيهِ عِزٌّ وَلِيكُمْ وَقَتْلُ عَدُوِّكُمْ وَشِفَاءُ صُدُورِكُمْ، فَاسْمَعُوا مِنِّي قَوْلِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي، ثُمَّ أَبَشِّرُوا وَتَبَاشَرُوا، فَإِنِّي لَكُمْ بِكُلِّ مَا تَأْمَلُونَ خَيْرٌ زَعِيمٌ. وَإِنَّ سُلَيْمَانَ بْنَ صَرْدٍ يَرْحَمُنَا اللَّهُ وَإِيَّاهُ إِنَّمَا هُوَ يَابِسٌ مِنَ الْهَزَالِ لَيْسَ بِذِي تَجَرِبَةٍ لِلْأُمُورِ وَلَا لَهُ عِلْمٌ بِالْحُرُوبِ، فَهُوَ إِنَّمَا يَرِيدُ أَنْ يَخْرِجَكُمْ فَيَقْتُلَ نَفْسَهُ وَيَقْتُلَكُمْ! ٢٨٠!

وَبَعْدَ قُدُومِ الْمَخْتَارِ إِلَى الْكُوفَةِ بِثَمَانِيَةِ أَيَّامٍ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ لَثَمَانِ بَقِيْنَ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ سَنَةِ أَرْبَعٍ وَسِتِّينَ قَدَّمَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ يَزِيدَ الْأَنْصَارِيُّ الْخَطْمِيَّ مِنْ قِبَلِ ابْنِ الزُّبَيْرِ أَمِيرًا عَلَى الْكُوفَةِ لِحَرْبِهَا وَثَغْرِهَا، وَمَعَهُ إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنُ طَلْحَةَ بْنِ عَبِيدِ اللَّهِ التَّيْمِيُّ الْأَعْرَجُ أَمِيرًا عَلَى جَزِيَةِ الْكُوفَةِ وَخَرَايِجِهَا ٢٨١.

ص: ١٢٠

ابن زياد إلى العراق، والكوفة

وفي شهر ربيع الأول توجه مروان إلى مصر، ووجه ابن زياد في سبّين ألفاً إلى العراق ٢٨٢، وكان سليمان الخزاعي قد وعد أصحابه لأول شهر ربيع الثاني.

وكان يزيد بن الحارث بن رويم الشيباني من قوادم ابن زياد، ولكنه أول من أعلن رفض فرض إمرة ابن زياد بعد موت يزيد، ولما سمع الناس يتحدثون بخروج «الشيعة» مع الخزاعي لثار الحسين (ع) خاف على نفسه، فأتى إلى عبد الله بن يزيد الأنصاري عامل ابن الزبير في الكوفة وقال له: إن الناس يتحدثون أن «الشيعة» ستخرج عليك مع سليمان بن صرد ... وقد اجتمع له أمره فهو خارج في هذه الأيام ... وإنني أخاف إن أقررت حتى يخرج عليك أن تشتد شوكته ويتفاقم أمره.

قال عبد الله: حدثني ماذا يريد هؤلاء الناس؟ قال: يذكر الناس أنهم يطلبون بدم الحسين بن علي (ع).

قال: فأنا قتلت الحسين! لعن الله قاتل الحسين!

وكان عبد الله بن يزيد أمير الحرب والتغور، وكان ابن زياد قد توجه إلى العراق وبلغ خبره إلى ابن يزيد الأنصاري أنه على مسيرة ليلة من جسر منبج في تغور الشام إلى العراق، وعزم أن يجعل بأس التوابين على الأمويين، ولم يكن أخبر عامل ابن الزبير على خراج الكوفة: إبراهيم بن محمد بن طلحة بشيء، حتى خرج وصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

أما بعد، فقد بلغني: أن طائفة من أهل هذا المصر أرادوا أن يخرجوا علينا، فسألت عن الذي دعاهم إلى ذلك ما هو؟ فقل لي: زعموا أنهم يطلبون بدم الحسين بن علي (ع).

ص: ١٢١

وقد دُلْتُ على أماكنهم وأمرت بأخذهم وأن أبدأهم قبل أن يبدؤوني! فأبيت ذلك وقلت: إن قاتلوني قاتلتهم وإن تركوني لم أطلبهم، وعلام يقاتلونني! فوالله ما أنا قتلت حسيناً ولا أنا ممّن قاتله، بل لقد أصبت بمقتله رحمة الله عليه! ورحم الله هؤلاء القوم، وإن هؤلاء القوم آمنون، فليخرجوا ولينتشروا ظاهرين ليسيروا إلى من قاتل الحسين، وأنا لهم ظهير!

هذا ابن زياد قاتل الحسين، وقاتل خياركم وأماثلكم قد توجه إليكم، عهد العاهد به على مسيرة ليلة من جسر منبج، فقتاله والاستعداد له أولى وأرشد من أن تجعلوا بأسكم بينكم فيقتل بعضكم بعضاً ويسفك بعضكم دماء بعض، فيلقاكم ذلك العدو غداً وقد رققتم، وتلك أمنية عدوكم.

إنه قد أقبل إليكم أعدى خلق الله لكم؛ من ولّي عليكم هو وأبوه سبع سنين (كذا) لا يُقْلَعان عن قتل أهل العفاف والدين. هو الذي قتلكم ومن قبله أتيتم، والذي قتل من تتأرون بدمه (الحسين) قد جاءكم فاستقبلوه بحدكم وشوكتكم، واجعلوها به ولا تجعلوها بأنفسكم، إنّي لم آلكم نصحا. جمع الله لنا كلمتنا وأصلح لنا أئمتنا!

وكان عامل ابن الزبير على خراج الكوفة: إبراهيم بن محمد بن طلحة بن عبيد الله التيمي حاضراً وغير مشاور في الأمر، فأبى وقام وقال: أيها الناس! والله لو استقيننا (أو: استيقننا) أن قوماً يريدون الخروج علينا لنأخذنّ الوالد بولده والمولود بوالده والحميم بالحميم والعريف بما في عرافته، حتى يدينوا للحقّ ويذلّوا للطاعة! والله لئن خرج علينا خارج لنقتلنه! فلا يغرنكم مقالة هذا المداهن المودع عن السيف والغشم (الظلم).

وكان ثاني أمراء التوابعين: المسيّب بن نجبة الفزاري حاضراً فوثب إليه قاطعاً عليه منطقه وقال له: يا ابن «الناكثين» أنت تهدّدنا بسيفك وغشمك! أنت والله أذلّ من ذلك! وإنّا لا نلومك على بغضنا وقد قتلنا أباك (محمدًا) وجدك (طلحة بن

ص: ١٢٢

عبيد التيمي في الجمل بالبصرة) والله إنّي لأرجو ألا يخرجك الله من بين ظهرانيّ أهل هذا المصر حتّى يتلّثوا بك جدك وأباك!

ثمّ التفت إلى الأمير عبد الله بن يزيد الأنصاري وقال له: وأمّا أنت - أيها الأمير - فقد قلت قولاً سيديداً، وإنّي والله لأظنّ من يريد هذا الأمر مستنصحاً لك قابلاً لقولك.

فقال إبراهيم التيمي: إي والله! ليقتلنّ وقد أدهنّ ثمّ أعلن!

وكان ثالث أمراء التوابعين؛ عبد الله بن وال حاضراً أيضاً فقام وقال لمحمد:

يا أخا بني تيم بن مرّة! ما اعتراضك فيما بيننا وبين أميرنا! فوالله ما أنت علينا بأمر ولا لك علينا سلطان! إنّما أنت أمير الجزية! فأقبل على خراجك؛ ولعمر الله لئن كنت مفسداً فما أفسد أمر هذه الأمة إلا والدك وجدك «الناكثان» فكانت عليهما دائرة سوء!

ثمّ أقبل عبد الله بن وال على عبد الله بن يزيد وقال له: أمّا رأيك - أيها الأمير - فوالله إنّنا لنرجو أن تكون به عند العامّة محموداً، وأن تكون عند من عنيت مقبولا. فنزل الأنصاري ودخل إلى دار الإمارة.

وخرج أصحاب سليمان الخزاعي بعد هذا يتجهّزون ويجاهرون بذلك.

ومشى شبت بن ربيع اليربوعي ويزيد بن الحارث الشيباني فيما بين الأنصاري وإبراهيم التيمي فأصلحوا بينهما ٢٨٣.

ص: ١٢٣

خروج التوابعين إلى النخيلة

كان الشيخ سليمان الخزاعي قد أعدّ لمن تابعه وبايعه ديواناً، فكانوا ستة عشر ألفاً ٢٨٤ وكان واعداهم هلال ربيع الثاني في معسكر الكوفة بالنخيلة. وحين أراد هو الشخصوخ إليهم بعث إلى وجوه أصحابه فخرج معهم حتّى أتى المعسكر فدار معهم في الناس فوجد قلة في عدّتهم (ألفين)!

فبعث حكيم بن منقذ الكندي والوليد بن غصين الكناني كلّاً في خيل إلى الكوفة يناديان بها: يا لثارات الحسين! حتّى يبلغا المسجد الأعظم.

وسمعهما من بنى كثير من الأزدي عبد الله بن خازم لم يكن قد استجاب لهم من قبل، فوثب ودعا بسلاحه وأمر بإسراج فرسه ولبس ثيابه، وكانت امرأته سهلة بنت سبرة من أجمل النساء فقالت له: ويحك أجننت! قال: لا والله ولكنّي سمعت داعي الله فأنا مجيبه! أنا مطالب بدم هذا الرجل (الحسين) حتّى أموت أويقضى الله من أمرى ما هو أحبّ إليه! وكان له ابن منها يدعى عزرة، فقالت له: وإلى من تدع بنيك هذا؟ قال: إلى الله وحده لا شريك له، اللهم إنّي أستودعك أهلي وولدي، اللهم احفظني فيهم. وخرج ليلحق بهم، وقعدت امرأته تبكيه.

وطاف أولئك في الكوفة حتّى وصلوا المسجد بعد العتمة وفيه ناس يصلّون، فنادوا: يا لثارات الحسين! وكان فيهم أبو عزرة القابضي فنادى معهم:

يا لثارات الحسين! أين جماعة القوم؟ قيل: بالنخيلة. فخرج إلى أهله فأخذ سلاحه ودعا بفرسه ليركبه، فجاءته ابنته الرّوّاغ وقالت له: يا أبة! ما لي أراك قد

ص: ١٢٤

تقلّدت سيفك ولبست سلاحك؟ قال لها: يا بنيّة! إنّ أباك يفرّ من ذنبه إلى ربّه! فأخذت تنتحب وتبكي، وجاءه أصهاره وبنو عمّه فودّعهم ثمّ خرج فلحق بهم.

فلم يصبح سليمان الخزاعي حتّى أتاه مثل عسكره البارحة (أى صاروا أربعة آلاف)! فدعا بديوانه لينظر فيه إلى عدّة من بايعه فوجدهم ستة عشر ألفاً فقال: سبحان الله! ما وافانا من ستة عشر ألفاً إلا أربعة آلاف! وكان حميد بن مسلم الأزدي حاضراً فقال له: كنت عند المختار قبل ثلاث ليال فسمعت نفراً من أصحابه يقولون: قد كملنا ألفى رجل! فهو يثبّط الناس عنك! فقال سليمان: وهب أنّه كان ذلك فهل قعد عنّا عشرة آلاف! أما هؤلاء بمؤمنين! أمّا يخافون الله! أمّا يذكرون الله وما أعطونا من أنفسهم من العهود والمواثيق لينصروا وليجاهدوا!

فأخذ يبعث ثقات أصحابه إلى من تخلف عنه يذكّره الله وما أعطوه من أنفسهم إلى الثالث من ربيع الثاني، فخرج إليه نحو من ألف رجل ٢٨٥ (أى كانوا خمسة آلاف شخص من ستة عشر ألفاً).

في الكوفة أو إلى الشام

مرّ الخبر أنّ عبد الله بن يزيد الأنصاري أمير الكوفة لابن الزبير، كان قد علم باتجاه ابن زياد في ستين ألفاً إلى العراق، فلما أنذره يزيد بن الحارث بن رويم الشيباني بأمر التوابعين، ألقى إليهم الخبر ليصرفهم عن الكوفة فيصرف بهم شرّ جيش الشام وينتصر بهؤلاء على أولئك.

وكان من امراء التوابعين: عبد الله بن سعد بن نفيل الأزدي وكأنّه كان حاضراً في خطبة الأنصاري ومتأثراً بكلامه، وأشار بذلك على سليمان الخزاعي وقيل منه

ص: ١٢٥

ذلك سليمان وأجمع على المسير إلى ابن زياد. ولكنّه لعله لما رأى أنّ من حضر ممّن بايع لا يصل إلى ثلث العدد بدا له في ذلك، فدخل مع بعض أصحابه على سليمان الخزاعي في معسكر النخيلة ورؤوس أصحابه جلوس عنده وحوله، فقال له:

إنّي قد رأيت رأياً (جديداً) إن يكن صواباً فالله وفق، وإن لم يكن صواباً فمن قبلي، وإنّي ما آلوكم ونفسي نصحاً، صواباً كان أو خطأ: إنّما خرجنا نطلب بدم الحسين، وقتلته الحسين كلّهم بالكوفة، منهم عمر بن سعد ٢٨٦- وكان في الأيام التي كان سليمان معسكراً بالنخيلة لا يبيت إلا مع الأمير في قصر دار الإمارة! مخافة أن يأتيه القوم في داره وبيته وهو قايلاً لا يعلم فيقتل ٢٨٧- ورؤوس الأرباع وأشرف القبائل، فأني نذهب هاهنا (إلى الشام) وندع الأوتار؟!

فأبى سليمان وقال: لكنّي ما أرى لكم ذلك، فإنّ الذي عبأ الجنود إلى صاحبكم (الحسين ع) وقال: لا أمان له عندي حتّى يستسلم فأمضى فيه حكماً: هذا الفاسق ابن الفاسق: ابن مرجانة عبيد الله بن زياد، فسيروا إلى عدوكم على اسم الله، فإن يظهركم الله عليه رجونا أن يكون من بعده أهون شوكة منه، ورجونا أن يدين لكم من وراءكم من أهل مصركم في عافية! فتنتظرون إلى كلّ من شرك في دم الحسين فتقاتلونه ولا تظلموا، وإن تستشهدوا فإنّما قاتلتكم المحلّين، وما عند الله خير للأبرار والصديقين! والله لو قاتلتكم غداً أهل مصركم ما عُذِمَ رجل أن يرى رجلاً قد قتل أخاه وأباه وحميمه! أو رجلاً لم يكن يريد قتله! فاستخيروا الله وسيروا ٢٨٨.

ص: ١٢٦

ليس للدنيا خرجنا، فلا ننتظر

وقام المسيّب الفزاري إلى سليمان وقال له: رحمك الله، إنّه لا ينفعك الكاره، ولا يقاتل معك إلا من أخرجته النيّة (الصادقة) فلا تنتظرن أحداً وأسرع في أمرك.

فقام سليمان في الناس متوكّناً على قوسه العربيّة وقال لهم: أيّها الناس؛ من كان إنّما أخرجته إرادة وجه الله وثواب الآخرة فذلك «منّا ونحن منه» ورحمة الله عليه حيّاً وميتاً! ومن كان إنّما يريد الدنيا وحرثها فوالله ما تأتي فيئاً نستفيئه، ولا

٢٨٦ . المصدر السابق ٥٨٥: ٥ - ٥٨٦ عن أبي مخنف.

٢٨٧ . المصدر السابق ٥٨٧: ٥ عن أبي مخنف.

٢٨٨ . تاريخ الطبري ٥٨٦: ٥ عن أبي مخنف.

غنيمه نغناها إلا رضوان الله رب العالمين، وما معنا من ذهب ولا فضة ولا خز ولا حرير، ما هي إلا سيوفنا في عواتقنا ورماحنا في أكفنا، وزاد قدر البلغة إلى لقاء عدونا، فمن كان ينوى غير هذا فلا يصحبنا!

فقام للكلام صخير بن حذيفة المزني فقال: آتاك الله رشدك ولّفاك حجّتك؛ والله الذي لا إله غيره ما لنا خير في صُحبة مَنْ الدنيا نيتُه وحمّته! ثم التفت إلى الناس وقال لهم: أيّها الناس، إنّما أخرجتنا «التوبة» من «ذنبتنا» والطلب بدمٍ من نبينا (ص)، ليس معنا دينار ولا درهم، وإنّما نُقدّم على حدّ السيوف وأطراف الرماح! وسكت.

فتنادى الناس من كلّ جانب: إنّنا لا نطلب الدنيا وليس لها خرجنا ٢٨٩!

ص: ١٢٧

محاولات أمير الكوفة

مرّ الخبر أنّ عبد الله الأنصاري هو الذي وجّه التّوابين إلى جيش الشام، وفوجئ إبراهيم التيمي بذلك فاتّهمه بالمداهنة والموادعة، وكأنّه بدا له فاقتنع بوجهة نظر الأمير، واليوم لمّا بلغهما خروجهم إلى المعسكر وتهيؤهم للشخص إلى الشام بثلاث عددهم المتوقّع خمسة آلاف لأكثر من خمسين ألفاً، وقد بلغهما إقبال ابن زياد نحو العراق، نظر الأميران في ذلك فرأيا أن يأتيهم فيعرضا عليهم الإقامة فيكونوا يداً واحدة! وإلا فيعبّئوا معهم جيشاً يجبر لهم قلة عددهم فيكثروا.

فبعثنا إليهم سويد بن عبد الرحمان يقول لهم عنهما: إنّنا نريد أن نجيبك الآن لأمر عسى أن يجعل الله فيه صلاحاً لك ولنا. وقبّل ذلك سليمان، وقال لرفاعة البجلي: قم فأحسن تعبئة الناس فإنّ هذين بعثنا بكذا، ثمّ دعا رؤوس أصحابه ليكونوا حوله، وجاء الأمير الزبيرى الأنصاري في أشراف أهل الكوفة والشُرط وكثير من مقاتليهم، ولكنّه استثنى منهم الرجال المعروفين بالمشاركة في دم الحسين (ع) وقال لهم: لا تصحبني إليهم مخافة أن ينظروا إليهم فيبدؤوا بهم، وعلى رأسهم عمر بن سعد حيث كان معه في القصر مخافة أن يأتيه القوم في داره وبيته فيقتل، واستناب بصلاة الظهر إن أبطأ خليفة ابن زياد: عمرو بن حريث المخزومي المعزول! وتبعه إبراهيم التيمي في جماعة من أصحابه.

فلمّا انتهيا إليه دخلا عليه، فحمد الله عبدُ الله وأثنى عليه ثمّ ذكر الحديث:

«إنّ المسلم أخو المسلم لا يخونه ولا يغشّه» ثمّ قال: وأنتم إخواننا وأهل بلدنا وأحبّ أهل المصر إلينا، فلا تفجعونا بأنفسكم ولا تستبدّوا علينا برأيكم! ولا تنقصوا عددنا بخروجكم من جماعتنا. أقيموا معنا حتّى نتيسّر وننتهي، فإذا علمنا

ص: ١٢٨

أنّ عدونا قد شارف بلدنا خرجنا إليهم بجماعتنا، وقال إبراهيم مثله، وانتظرا جواب سليمان.

فحمد الله سليمان الخزاعي وأثنى عليه ثم قال لهما: إنني علمت أنكما قد محضتما في النصيحة، واجتهدتما في المشورة، وقد خرجنا لأمر ونحن نسأل الله العزيمة على الرشد والتسديد لأصوبه، ولا نرانا إلا شاخصين إن شاء الله.

فقال عبد الله الأنصاري: فأقيموا حتى نعبئ معكم جيشاً كثيفاً فتلقوا عدوكم بجمع كثيف وحداً! يخوفهم بقلّة عددهم.

فقال سليمان: نتصرفون عنا ونرى رأينا فيما بيننا وسيأتيكم ذلك إن شاء الله.

فعرضا عليه أن يقيم معهما حتى يلقوا جموع أهل الشام معاً، فيخصّاه وأصحابه بخراج جوخي!

فقال لهما: إننا ليس للدنيا خرجنا! فانصرفا عنهم بجمعهما إلى الكوفة.

وقد مرّ أنّهم كانوا قد كتبوا إلى «الشيعة» بالمدائن والبصرة، ولم يأتهم هؤلاء للموعد، فحاول ناس من أصحاب سليمان أن يلتزموا بانتظارهم.

فأبى سليمان كذلك وقال لهم: لا تلتزموا (انتظارهم) فإنني لا أراهم أقعدهم ولا خلفهم إلا سوء العدة وقلّة النفقة، فأقاموا ليتيسروا ويتجهّزوا فيلحقوا بكم وبهم قوة، وما أسرع القوم في آثارك، فإنني لا أراهم إلا سيسرعون إليكم لو قد انتهى إليهم خبركم ومسيركم ٢٩٠.

ص: ١٢٩

خطبة سليمان ورحيلهم إلى كربلاء

ثم قام سليمان في الناس خطيباً (الجمعة)، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

أما بعد، أيها الناس! فإن الله قد علم بما تنوون وما خرجتم تطلبون، وإنّ للدنيا تجاراً وللآخرة تجاراً؛ فأما تاجر الآخرة فساع إليها منتصب (متعب) بتلابها، لا يشتري بها ثمناً، لا يرى إلا قائماً وقاعداً وراكعاً وساجداً، لا يطلب ذهباً ولا فضة ولا دنياً ولا لذة. وأما تاجر الدنيا، فمكبّ عليها راتع فيها لا يبتغي بها بدلاً.

فعليكم - يرحمكم الله - في وجهكم هذا بطول الصلاة في جوف الليل، وبذكر الله كثيراً على كل حال، وتقربوا إلى الله بكل خير قدرتم عليه، حتى تلقوا هذا العدو والمُحِلَّ «القاسط» فتجاهدوه؛ فلن تتوسّلوا إلى ربكم بشيء هو أعظم عنده ثواباً من الجهاد والصلاة، فإنّ الجهاد سنام العمل.

جعلنا الله وإياكم من العباد الصالحين المجاهدين، الصابرين على اللأواء.

وإنّا مدلجون الليلة من منزلنا هذا إن شاء الله، فادلجوا.

وفى عشية الجمعة لخمس مضيّن من شهر ربيع الآخر سنة (٦٥ هـ) دعا سليمان: حكيم بن منقذ أن ينادى فى الناس بالرحيل وألا يبيتنّ أحد حتّى نبلغ دير الأعور، فنادى بذلك وارتحل أكثر من معه وتخلّف كثير منهم! وباتوا بدير الأعور، متّجهين إلى كربلاء فى طريقهم إلى الشام.

ثمّ سار حتّى نزل منزل أقساس مالك على شاطئ الفرات، وهناك استعرضهم، فتبيّن تخلّف نحو ألف رجل! فقال سليمان لهم: ما أحبّ أن كان

ص: ١٣٠

معكم من تخلّف عنكم و لو خرّجوا فيكم ما زادوكم إلّا خبالاً ٢٩١ و لكنّ كره الله أنبعائهم فنبتطهم ٢٩٢ وخصكم بفضله فاحمدوا ربكم.

وخرجوا من منزل أقساس مساءً فأصبحوا فى كربلاء ٢٩٣.

زيارة التوّار لقبر أبى الأحرار

لما انتهى الناس إلى قبر الحسين (ع)، معلوماً، صاحوا صيحة واحدة وبكوا حتّى ما رئى يوم كان أكثر باكياً منه، بكوا كلّهم وتمنّى جلّهم أنّه لو كان أصيب معه، تقدّمهم شيخهم سليمان وقد ناهز أو جاوز الثمانين من السنين رافعاً يديه إلى ربّه لدى قبر وليّه باكياً داعياً:

«اللهمّ ارحم حسيناً الشهيد ابن الشهيد، المهدى! بن المهدى، والصديق ابن الصديق: اللهمّ إنّنا نشهدك أنّا على دينهم وسبيلهم، وأعداء قاتليهم وأولياء محبّيهم» (الولاية والبراءة).

ونادوا صيحة واحدة تائبين: «يا ربّ إنّنا قد «خذلنا» ابن بنت نبيّنا، فاغفر لنا ما مضى منّا، وتب علينا، إنّك أنت التوّاب الرحيم. وارحم حسيناً وأصحابه الشهداء الصديقين. وإنّا نشهدك - يا ربّ - أنّا على «مثل ما قتلوا عليه» فإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكوننّ من الخاسرين».

ثمّ انصرف سليمان وأصحابه عن القبور ونزلوا، فأقاموا عنده يومهم ذلك وليلتهم يصلّون ويبكون ويتضرّعون ويستغفرون، وما انفكوا يترحمون عليه وعلى أصحابه، حتّى صلّوا الفجر عند القبر.

ص: ١٣١

٢٩١ . التوبة: ٤٧.

٢٩٢ . التوبة: ٤٦.

٢٩٣ . تاريخ الطبرى ٥٨٨: ٥، ٥٨٩ عن أبى مخنف.

ثم أمر سليمان الناس بالمسير، فكانوا لا يمضون حتى يأتوا قبره فيقوموا ويترحموا عليه ويستغفروا له ولأصحابه الشهداء ثم يركبوا، ولقد كان ازدحامهم على قبره أكثر من ازدحام الناس على الحجر الأسود!

ووقف الأمراء عند قبره: سليمان الخزاعي والمسيب بن نجبة وعبد الله بن وال التيمي، والمثنى بن مخربة العبدى، فكلما دعا له قوم وترحموا عليه قال لهم سليمان والمسيب: الحقوا بإخوانكم رحمكم الله! حتى بقوا فى نحو ثلاثين رجلاً من أصحابهم، فأحاطوا بالقبر ...

فقال سليمان مودعاً: الحمد لله الذى لو شاء لأكرمنا بالشهادة مع الحسين! اللهم إذ حرمتناها معه فلا تحرمناها فيه بعده!

وقال المسيب: وأنا برىء من قتلهم ومن كان على رأيهم (أى أعدائهم وقتليهم)، وإياهم أعادى وأقاتل.

وقال عبد الله بن وال التيمي: أما والله إننى لأظنّ حسيناً وأباه وأخاه أفضل أمة محمد (ص) وسيلة عند الله يوم القيامة، أفما عجبتم لما ابتليت به هذه الأمة منهم! إنهم قتلوا اثنين وأشفوا بالثالث على القتل ٢٩٤.

وقال المثنى بن مخربة العبدى وهو من الرؤساء الأشراف: إن الله جعل هؤلاء الذين ذكرتم بمكانهم من نبيهم أفضل ممن هو دون نبيهم، وقد قتلهم قوم نحن منهم براء ولهم أعداء! وقد خرجنا من الديار والأهلين والأموال لاستئصال من قتلهم! فوالله لو أن القتال فيهم بمغرب الشمس أو منقطع التراب فإنه يحقّ علينا طلبه حتى ناله؛ فإن ذلك هو الغنم وهى الشهادة التى ثوابها الجنة!

فقالوا له: صدقت وأصبت ووقفت. ثم سار سليمان من موضع قبر الحسين وساروا معه. وكان رجال من أحيائهم خرجوا معهم يشايعونهم حتى انتهوا إلى

ص: ١٣٢

قبر الحسين، ثم انصرفوا عنه ولزموا الطريق، فعاد هؤلاء المشايعون إلى أحيائهم بالكوفة ٢٩٥، وكانهم عنوا زيارة قبر الحسين (ع) ثم عادوا.

كتاب الأمير الخطمي وجواب الخزاعي

وسار سليمان الخزاعي من كربلاء فأخذ على الحصاصة إلى الأنبار، ثم الصدد، ثم القيّارة. وبدأ للأمير الزبيرى على الكوفة عبد الله بن يزيد الأنصارى الخطمي أن يكتب إلى سليمان فيردّهم إلى اجتماع كلمتهم، فدعا بالمحلّ الطائى وبعثه بكتابه فلحقهم بمنزل القيّارة، فتقدّم سليمان أصحابه حتى سبقهم ثم وقف وأشار إلى الناس فوقفوا له، ليقرأ عليهم كتاب الوالى، فإذا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله بن يزيد إلى سليمان بن صرد ومن معه من المسلمين، سلام عليكم، أمّا بعد،

٢٩٤. يلوّح بجرح الحسن (ع) فى سابات المدائن، وأشفوا أى قربوا من قتله، فخير قتله مسموما لم يكن معروفا معلوما، وإلا فهو مقتول كأيّيه وأخيه، وإنّما الفرق فى الآلة القتالة.

فإن كتابي هذا إليكم كتاب ناصح .. إنه بلغني أنكم تريدون المسير بالعدد اليسير إلى الجمع الكثير؛ وإنه من يرد أن ينقل الجبال عن مراتبها تكلّ معاولة، وينزع وهو مذموم العقل والفعل! يا قومنا لا تطمعوا عدوكم في أهل بلادكم، فإنكم خيار كلكم، ومتى ما يصبكم عدوكم ويعلم أنكم أعلام مصركم يطعمهم ذلك فيمن وراءكم، يا قومنا إنهم إن يظهروا عليكم يرجؤكم أو يعيدوكم في ملتهم ولن تفلحوا إذا أبداً ٢٩٦.

يا قوم! إن أيدينا وأيديكم اليوم واحدة، وإن عدونا وعدوكم واحد، ومتى تجتمع كلمتنا نظهر على عدونا، ومتى تختلف تهن شوكتنا على من خالفنا! يا

ص: ١٣٣

قومنا لا تستغشوا نصحي ولا تخالفوا أمرى وأقبلوا حين يقرأ عليكم كتابي، أقبل الله بكم إلى طاعته وأدبر بكم عن معصيته، والسلام.

فلما قرئ الكتاب على سليمان وأصحابه التفت إليهم وسألهم: ما ترون؟

فقالوا: قد أبینا هذا عليكم وعليهم ونحن في أهلنا ومصرنا، فالآن إذ وطنا أنفسنا على الجهاد وخرجنا ودنونا من أرض عدونا (نعود)؟! ما هذا برأى! فماذا ترى؟ أخبرنا برأىك!

فقال: لا أرى أن تنصرفوا عما جمعكم الله عليه من الحق وأردتم به من الفضل، إنا وهؤلاء مختلفون؛ إن هؤلاء لو ظهروا دعونا إلى الجهاد مع ابن الزبير! ولا أرى الجهاد مع ابن الزبير إلا ضللاً! وإنا إن نحن ظهروا «رددنا هذا الأمر إلى أهله» وإن أصبنا فعلى نيأتنا «تائبين» من ذنوبنا! إن لنا شكلاً وإن لابن الزبير شكلاً.

ثم ساروا إلى هيت حتى نزلوها فكتب سليمان جواب أمير الكوفة: بسم الله الرحمن الرحيم، للأمر عبد الله بن يزيد من سليمان بن سرد ومن معه من المؤمنين، سلام عليك، أما بعد، فقد قرأنا كتابك وفهمنا ما نويت، فنعم - والله - الوالي ونعم الأمير، ونعم أخوال العشيرة. أنت - والله - من نأمنه بالغيب ونستنصحه في المشورة ونحمده على كل حال، إنا سمعنا الله عز وجل يقول في كتابه: إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ... ٢٩٧ فالقوم استبشروا ببيعتهم التي بايعوا، إنهم قد «تابوا» من عظيم جرمهم، وقد توجهوا إلى الله وتوكلوا عليه ورضوا بما قضى الله ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير ٢٩٨.

ص: ١٣٤

موقف قلعة قرقيسيا

٢٩٦ . الكهف: ٢٠.

٢٩٧ . التوبة: ١١١ - ١١٢.

٢٩٨ . الممتحنة: ٤، الطبرى ٥٩٠: ٥ - ٥٩٣ عن أبي مخنف.

قرقيسياء القديمة تسمى اليوم البصرة في سورية عند مصب نهر الخابور على الفرات، وكان عامل الأمويين عليها زفر بن الحارث الكلابي وله أبناء كبار.

ومرّ الخبر أنّه كان مع سعيد بن العاص الأشدق في التفرّق بعد موت معاوية بن يزيد وقتل في معركة راهط أبناءه وفرّ بمن تبقى معه إلى قرقيسياء فتحصّن فيها.

ووجه مروان ابن زياد إلى العراق قائلاً: إن غلبت على العراق فأنت أميرها ٢٩٩ وكانّه فتح عليه باب التجنيد من الشام فاستخدم ستّة من الأمراء: الحصين بن نمير السكوني، وشرحبيل بن ذي الكلاع، وأدهم بن محرز الباهلي، وأبا مالك بن أدهم، وربيعة بن مخارق الغنوي، وجبلّة بن عبد الله الخثعمي، وبلغ خبرهم إلى زفر بن الحارث الكلابي في قرقيسياء: أنّهم فارقوا الرقّة إلى العراق في حدّ حديد وعدد كثير من مثل الشوك والشجر ٣٠٠! وكانّه لم تبلغه أخبار الثوّار التوّابين فتحصّن منهم وهم بحاجة إلى الزاد.

وزفر من كندة وهي من مضر ومنها فزارة ومنهم المسيّب، فدعاه سليمان وقال له: إلق ابن عمّك هذا فقل له: إنّنا لسنا إياه نريد وإنّما صمدنا لهؤلاء المحليّين! فليُخرج لنا سوقاً.

فخرج المسيّب حتّى انتهى إلى باب قرقيسياء فناداهم: افتحوا، ممّن تتحصّنون؟ وعرف نفسه.

ص: ١٣٥

وكان من أبناء زفر الباقيين: الهذيل، أتى أباه وقال له: هذا رجل حسن الهيئة يستأذن عليك، وسألناه: من هو؟ قال: المسيّب بن نجبة. فقال زفر: أي بني! أما تدري من هذا؟ هذا من إذا عدّ عشرة من أشراف مضر فهو أحدهم، بل هو فارس مضر الحمراء كلّها! وهو بعد رجل ناسك له دين، إذن له.

فدخل المسيّب إليه فأجلسه إلى جانبه ولاطفه في مساءله أحواله، فقال المسيّب: ما اعترينا إلى شيء إلا أن تعيننا على هؤلاء القوم الظلمة المحليّين، فأخرج لنا سوقاً، فإنّا لا نقيم بساحتكم إلا يوماً أو بعض يوم. فدعا زفر ابنه فأمره

أن يضع لهم سوقاً، وأمر للمسيّب بفرس وألف درهم! فقال المسيّب: أما الفرس فإنّي أقبله لعلّي احتاج إليه إن ضلّ فرسي أو غمز تحتى، وأما المال فوالله ما له خرجنا ولا إياه طلبنا!

وأمر زفر ابنه أن يسأل عن وجوه أهل العسكر، فسمّى له بعد سليمان والمسيّب: عبد الله بن سعد بن نفيل، وعبد الله بن وال، ورفاعة بن شدّاد، وسمّى له أمراء أرباع الكوفة، فبعث إلى المسيّب بعشرين جزورا وإلى سليمان مثل ذلك وإلى كلّ واحد من الرؤساء الثلاثة بعشر جزائر وطعام وعلف كثير، وأخرج للعسكر عيراً عظيمة وشعيراً كثيراً مع غلمانهم، وقال غلمانهم: هذه عير فاجتزروا منها ما أحببتهم، وهذا شعير فاحتملوا منه ما أردتم، وهذا دقيق فتزوّدوا منه ما أطقتهم!

واخرجت لهم الأسواق والأعلاف والطعام، فتسوّقوا، ولكنّهم لم يحتاجوا إلى شراء شيء من هذه الأسواق التي وضعت لهم، وقد كفّوهم اللحم والدقيق والشعير، إلا أن يشتري الرجل سوطاً أو ثوباً، وظلّ القوم مخصّبين ذلك اليوم لم يحتاجوا إلى شيء.

وفي غداة غد لما أرادوا الرحيل خرج إليهم زفر ليشايهم فساير سليمان وأخبره خبر خروج جيش الشام من الرّقة إليهم وقال: وأيم الله لقلّ ما رأيت رجالاً هم أحسن هيئة ولا عدّة، ولا أخرى بكلّ خير من الرجال معك! ولكنّه قد بلغني أنّه قد أقبلت إليكم عدّة لا تحصى كثرة!

ص: ١٣٦

فأجابه سليمان: على الله توكلنا وعليه فليتوكل المتوكلون. فقال زفر:

فإن شئتم فتحنا لكم مدينتنا فتدخلونها فيكون أمرنا واحداً وأيدينا واحدة.

وإن شئتم نزلتم هنا على باب مدينتنا ونخرج فنعسكر إلى جانبكم، فإذا جاء العدو قاتلناهم جميعاً؟

فأجابه سليمان: قد أردنا أهل مصرنا (الكوفة) لمثل ما أردت وذكروا مثل ما ذكرت، وبعد ما فصلنا كتبوا به إلينا فلم يوافقنا، فليسنا فاعلين!

فقال زفر: فاقبلوا ما أشير به عليكم: إنّ القوم قد فصلوا من الرّقة فبادروهم إلى مدينة عين الورد فاجعلوها في ظهوركم ويكون الماء والريّساق ٣٠١ في أيديكم، وأنتم آمنون ممّا بين مدينتكم ومدينتنا! فاطبوا المنازل الساعة إلى عين الورد، فإنّ القوم يسيرون سير العساكر، فتأهبوا لها من يومكم هذا وإنّي أرجو أن تسبقوهم إليها؛ وإن بدرتم إلى عين الورد فلا تقاثلوهم في فضاء، فإنّهم أكثر منكم، فلا آمن أن يحيطوا بكم فلا تقفوا لهم فإنّه ليس لكم مثل عددهم، فإن استهدفتهم لهم لم يلبثوا أن يصرعوكم، ولا تصفّوا لهم حين تلقونهم، فإنّي لا أرى معكم رجالاً بل كلّكم فرسان، وهم بالرجال والفرسان، فالفرسان تحمي رجالها والرجال تحمي فرسانها، وأنتم ليس لكم رجال تحمي فرسانكم، فالقوهم في الكتائب والمقانب، بثوها ما بين ميمنتهم وميسرتهم، واجعلوا مع كلّ كتيبة كتيبة إلى جانبها، فإن حُمل على إحدى الكتيبتين ترجّلت الأخرى فنفسّت عنها الخيل والرجال، ومتى ما شاءت كتيبة ارتفعت، ومتى ما شاءت انحطّت. ولو كنتم في صفّ واحد فزحفت إليكم الرجال فدفعتم عن الصفّ انتفض فكانت الهزيمة!

فقال له سليمان: نعم المنزول به أنت! أكرمت النزول وأحسنّت الضيافة ونصحت في المشورة؛ وأننوا عليه كثيراً ودعوا له فوقف وودّعهم.

ص: ١٣٧

ثم جدّوا في المسير حتّى جعلوا كلّ مرحلتين مرحلة واحدة يمرّون بالمدن مروراً حتّى بلغوا بلدة ساعا، فنزل سليمان بها وعبّأ كتائبه كما أمره زفر، ثم ارتحل حتّى بلغ عين الورد سابقاً القوم إليها فنزل في غربيها، فاطمأنّوا واستراحوا وأراحوا

خيولهم، وأقاموا بها خمسة أيام لا يبرحون منها ٣٠٢. ويبدو أنهم بلغوها في منتصف جمادى الأولى ٣٠٣؛ أى فى أربعين يوماً من تاريخ خروجهم من النخيلة: ٥ ربيع الآخر، بلا ذكر لعلّة التأخير.

خطبة الخزاعى فى عين الورد

ثمّ قام فيهم سليمان الخزاعى فحمد الله وأثنى عليه، ثمّ ذكر آيات الله فى السماء والأرض والجبال والبحار، وذكر آلاء الله ونعمه، وذكر الدنيا فزهد فيها وذكر الآخرة فرغب فيها، ثمّ قال: أمّا بعد، فقد آتاكم الله بعدوكم الذى دأبتم فى المسير إليه آناء الليل والنهار، تريدون فيما تظهرون «التوبة النصوح» ولقاء الله معذرين، جئتموهم أنتم فى ديارهم وحيزهم، فإذا لقيتموهم فاصدقوهم واصبروا «إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ» ولا يوليئهم امرؤ دبره «إِلَّا مَتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مَتَحِيزًا إِلَى فِتْنَةٍ» ولا تقتلوا مديراً ولا تجهزوا على جريح، ولا تقتلوا أسيراً من أهل دعوتكم إلا أن يقاتلكم بعد أسره، أو يكون من قتلة إخواننا بالطف رحمة الله عليهم، فإنّ هذه كانت سيرة أمير المؤمنين على بن أبى طالب فى أهل هذه الدعوة.

ثمّ قال سليمان: فإنّ أنا قتلت فأمير الناس المسيّب بن نجبة، فإن أصيب المسيّب فأمير الناس عبد الله بن سعد بن نفيل، فإن قتل عبد الله بن سعد فأمير

ص: ١٣٨

الناس عبد الله بن وال، فإن قتل عبد الله بن وال فأمير الناس رفاعه بن شدّاد. رحم الله امرأ صدق ما عاهد الله عليه.

ثمّ دعا المسيّب بن نجبة وندب له أربعمئة فارس معه وقال له: سر حتّى تلقى أوّل عسكر من عساكرهم فشنّ الغارة عليهم، فإذا رأيت ما تحبّه، وإلا انصرف فى أصحابك إلينا، وإياك أن تنزل أو تدع أحداً من أصحابك ينزل أو يستقتل، آخر ذلك إلا ألا تجد بداً منه ٣٠٤.

غارة المسيّب الفزارى

عسكروا فى غربى عين الورد خمسة أيام، ثمّ بعث الخزاعى الفزارى فى أربعمئة فارس ليغيّر على أوّل عساكر الشام ثمّ يعود إلى عين الورد، ويبدو أن ذلك كان فى العشرين من جمادى الأولى أى بعد ٤٥ يوماً من خروجهم من الكوفة. فساروا يومهم وليلتهم وفى السحر هوّموا تهويمة ثمّ صلّوا الصبح، ثمّ بعث عبد الله بن عوف فى مائة وعشرين وقال له: انظروا أوّل من تلقون فاتونى به (أو بخبره). ثمّ بعث ابن عمّه أبا الجويرية العبدى كذلك، ثمّ حنش بن ربيعة الكناني كذلك، وبقى الفزارى فى مئة منهم.

٣٠٢. تاريخ الطبرى ٥٩٣: ٥-٥٩٦ عن أبى مخنف.

٣٠٣. المصدر السابق ٥٩٨: ٥ عن أبى مخنف.

٣٠٤. تاريخ الطبرى ٥٩٦: ٥ عن أبى مخنف.

فالتقى عبد الله بن عوف بأعرابي من بني تغلب (النصارى؟) وبينما هم يُسائلونه إذ لحقهم الفزاري، فأتوه به، وتقالوا بكونه من تغلب بأنهم سيغلبون، فقال الفزاري: وإن هذا الفأل لهو الفأل الحسن وقد كان رسول الله (ص) يعجبه الفأل. ويبدو أن الأعرابي كان على خبر عن جيش الشام، فسأله الفزاري: كم بيننا وبين أدناهم منا؟ قال: أدنى عسكر من عساكرهم منك عسكر ابن ذى الكلاع على رأس ميل! فتركوه.

ص: ١٣٩

وخرجوا مسرعين وهم مائتان، فأشرفوا عليهم وهم غارون، فحملوا على جانب منهم، فما قاتلوا إلا قليلاً، واصيب منهم رجال وجرح كثير منهم، ثم خرجوا من عسكرهم وخلّوه وانهزموا، فأخذوا بعض دوابهم وما خفّ عليهم، وصاح بهم الفزاري: الرجعة فانصرفوا، فانصرفوا.

وبلغ خبرهم إلى ابن زياد خلفهم فسرّح إليهم الحصين بن نمير السكوني في اثني عشر ألفاً حتى نزل بهم ٣٠٥.

معركة التوابين في عين الوردة

عاد الفزاري بالأربعمائة إلى الثلاثة آلاف والأربعمائة مع سليمان الخزاعي، فأعاد سليمان نظامهم، فجعل الفزاري في يساره، وعبد الله بن سعد على يمينته، ووقف هو في القلب، لثمان بقين من جمادى الأولى ٣٠٦.

وجاءهم الحصين السكوني الكندي الشامي الحمصي وعلى يمينته جبلة بن عبد الله، وربيعة بن المخارق الغنوي على يسارته، ثم زحف إليهم، فلما دنوا منهم دعوهم إلى اجتماع الكلمة على طاعة (مروان بن الحكم) ٣٠٧ فأبى ذلك التوابون.

ودعاهم التوابون إلى أن يخلعوا (مروان بن الحكم) وعبيد الله بن زياد ويدفعوه إليهم ليقتلوه ببعض من قتل من إخوانهم (لا بالحسين (ع) فهو، دونه!)

فإذا فعلوا ذلك عادوا إلى بلادهم (العراق) فيخرجون من فيه من آل ابن الزبير «ليردوا هذا الأمر (الحكم) إلى أهل بيت النبي» الذين آتاهم الله من قبلهم بالنعمة والكرامة! فأبوا.

ص: ١٤٠

أقول: لا نجد فيما بأيدينا إلا أن عبد الله بن سعد في يمينه التوابين فبدؤوا القتال فحملوا على ربيعة الغنوي في ميسرة أهل الشام فهزمهم، مع أنهم كانوا ثلاثة أضعاف التوابين، ولم يكن عبد الله بن سعد في القلب ولا القائد العام، ولا ذكر أمر من سليمان، نعم كان التوابون بلا شك أكثر اندفاعاً وحماساً. وحملت ميسرة التوابين بإمرة الفزاري على جبلة بن عبد الله في

٣٠٥. تاريخ الطبري ٥٩٧: ٥ - ٥٩٨ عن أبي مخنف، عن حميد بن مسلم.

٣٠٦. تاريخ الطبري ٥٩٨: ٥، الموافق للرابع من كانون الثاني (٦٨٥ م).

٣٠٧. في خبر الطبري عن الكلبي عن أبي مخنف عن حميد بن مسلم الأزدي: عبد الملك بن مروان. ولا يصح، لموت مروان في رمضان القادم.

ميمينه الشام، وحمل سليمان فى القلب على جماعتهم فهزموهم حتى اضطروهم إلى معسكرهم من خلفهم، وما زال أهل العراق قاهرين حتى مساء الأربعاء فانصرفوا.

وكان شرحبيل بن ذى الكلاع فى ثمانية آلاف ٣٠٨ وكان الحصين السكونى ادعى أنه على جماعتهم جميعاً، وأبى شرحبيل وقال: ما وليت على! ثم تكاثبا إلى ابن زياد ينتظران أمره، وكان ابن ذى الكلاع على رأس ميل من عسكر ابن نمير ٣٠٩ ولم ينصره! وبلغ خبره إلى ابن زياد فبعث إليه يشتمه ويقول له: إنما عملت عمل الشباب الأغمار تضيع عسكرك ومسالحك! سر إلى الحصين بن نمير حتى توافيه، وهو على الناس. فجاءه بجمعه، فتكاملوا عشرين ألفاً إلا من أصيب منهم يوم أمس ٣١٠.

وعبر الخبر عن شهد قتال التوابين والشاميين فى اليوم الثانى: الخميس، قال: فغدوا علينا وغاديناهم فقاتلناهم. ولعله يعنى أن الشاميين بدؤوهم، ويقول: قتالاً لم ير الشيب والمرد مثله قط، يومنا كلاً. وإنما حجزت الصلاة (للظهر والعصر) بيننا وبين القتال، حتى أمسينا، فتحاجزنا؛ وقد أكثروا فينا الجراح، وأفشيناهنا فيهم. وفى أول النهار فى هذا اليوم الثانى من القتال جرح أبو الجويرية العبدى

ص: ١٤١

(البصرى) فلزم رحله، وكان يحث الناس على القتال.

ومثله فى عمله كان صخير بن حذيفة المرمى، ففى مساء اليوم الثانى الخميس ليلة الجمعة كان يدور الليل كله فى التوابين ويقول لهم: عباد الله أبشروا بكرامة الله ورضوانه، فوالله إنه لحق لمن ليس بينه وبين الراحة من إبرام الدنيا وأذاها ودخول الجنة ولقاء الأحبة إلا فراق هذه النفس الأمارة بالسوء، حق له أن يكون سخيّاً بفراق نفسه ومسروراً بلقاء ربه!

وفى اليوم الثالث يوم الجمعة أيضاً يظهر أن الحصين السكونى هو الذى بدأ فخرج إليهم فى عشرة آلاف، فاقتتلوا قتالاً شديداً إلى ارتفاع الضحى، ثم تكاثر أهل الشام على العراقيين وتعطفوا عليهم من كل جانب.

فلما رأى سليمان ذلك نزل ونادى: من أراد «التوبة» من ذنبه و «الوفاء» بعهدة والبكور إلى ربه فإلى يا عباد الله! فنزل معه ناس كثير، فكسر جفن سيفه فكسروا جفون سيوفهم ومشوا معه فقاتلوهم، ونزل سائر الرجال يشتدون مصليتين سيوفهم وقد كسروا جفونها، فقاتلوهم فقتلوا من أهل الشام مقتلة عظيمة، وأكثروا الجراح فيهم.

فلما رأى الحصين ذلك أمر رماته يرمونهم بنبالهم، وفيهم يزيد بن الحصين السكونى رعى سليمان بسهم - وهو فى التسعين من عمره - فوقع.

٣٠٨. تاريخ الطبرى ٥٩٨: ٥ عن أبى مخنف.

٣٠٩. المصدر السابق ٥٩٧: ٥ عن أبى مخنف.

٣١٠. مر أن ابن الخياط بلغ بهم إلى ستين ألفاً، واكتفى ابن الأعمم بعشرين ألفاً، ورجحه الدكتور بيضون فى كتابه: سليمان بن صرد: ١٤٨، ووصف الأول بأنه احتوى على كثير من المبالغة، وهذا صحيح.

فأخذ الراية المسيب الفزاري وقال له: رحمك الله يا أخي! فقد صدقت و «وفيت» بما عليك، وبقي ما علينا. ثم شدّ بالراية فقاتل ساعة ثم رجع، ثم شدّ بها فقاتل ثم رجع، وهكذا حتى قتل رحمه الله.

ولما قتل المسيب أخذ الراية عبد الله بن سعد بن نفيل الأزدي ثم قال:

أخوى فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ٣١١ وأقبل معه الأزديون فالتفوا حول رايته!

ص: ١٤٢

وخرج المثنى بن مخزبة العبدى البصرى من البصرة بثلاثمائة رجل وبلغ خروجه إلى سعد بن حذيفة بن اليمان بالمدائن، فخرج سعد من المدائن بمائة وسبعين رجلاً قبل أن يصلها العبدى البصرى بخمس ليال، وقدّم منهم ثلاثة على آثار الكوفيين ليبشروهم بخروجهم إليهم ويخبروهم بمجيء أهل البصرة إليهم أيضاً. فانتهوا إليهم وأخبروهم! ثم قاتلوا معهم حتى قتلوا ونجى أحدهم.

وحمل عليهم ربيعة الغنوى فى مسيرتهم على التوابين حملة منكراً فقاتلوا قتالاً شديداً، حتى اختلف هو وعبد الله بن سعد بضربتين، ثم اعتنق كل صاحبه فوقعا إلى الأرض واضطربا، وطعن ابن أخى ربيعة عبد الله بن سعد بطعنة فى نحره فقتله رحمه الله. وحاول خالد بن سعيد أخوعبد الله بن سعيد أن يقتل قاتل أخيه فقتل رحمه الله. وبقيت راية عبد الله بن سعد لا أحد لها، فأمسكها عبد الله بن خازم الكثيرى ثم أخذها منه عبد الله بن وال التيمى، وذلك عند العصر.

ثم نادى عبد الله بن وال: من أراد الحياة التى ليس بعدها موت، والراحة التى ليس بعدها نصب، والسرور الذى ليس بعده حزن، فليقترب إلى ربّه بجهاد هؤلاء المحلّين، فالروح إلى الجنّة. ثم شدّ عليهم فشدّوا معه فكشفوهم، ثم تعطف أولئك عليهم من كلّ جانب، وشدّ عليهم أدهم الباهلى فى خيله ورجاله فقتل عبد الله بن وال التيمى رحمه الله ٣١٢.

ورفع الراية رفاعه، واستشهد آخرون

لما قُتل عبد الله بن وال قال الوليد الكناني لرفاعة بن شدّاد: أمسك رايته؛ قال: لا أريدها! فقيل له: مالك؟ قال: ارجعوا بنا لعل الله يجمعنا لشرّ يوم لهم!

فوثب عليه عبد الله بن عوف الأحمر وقال له: والله لئن انصرفت ليركبن أكثافنا، فلا نبليغ فرسخاً حتى نهلك من عند آخرنا، فإن نجا منا ناج أخذه

ص: ١٤٣

الأعراب وأهل القرى فتقربوا إليهم به فيقتل صبراً! أنشدك الله ألا تفعل ذلك، وهذه الشمس قد طفلت للمغيب، وهذا الليل قد غشنا، ونحن الآن ممتنعون فنقاتلهم على خيولنا هذه، فإذا غسق الليل ففى أوله نركب خيولنا فنرمى بها حتى نصبح، فنسير ونحن على مهل، العشرة والعشرون معاً، ويحمل الرجل منا جريحه وينتظر صاحبه، ويعرف الناس الوجه الذى

يأخذون فيتبع فيه بعضهم بعضا، ولو كان الذى ذكرت لم يعرف رجل وجهه لا أين يذهب ولا أين يسقط، فلا نصيح إلا ونحن بين مقتول ومأسور!

فقال له رفاعه البجلي: فإنك نعم ما رأيت.

وأخذ أهل الشام يتنادون: إن الله قد أهلكهم! فأقدموا عليهم فأفرغوا منهم قبل الليل.

فأخذوا يقدمون عليهم فقاتلوهم حتى العشاء قتالاً شديداً.

وقام كريب بن زيد الحميرى فجمع إليه رجالاً من حمير وهمدان فى جماعة إن كانت أقل من مئة رجل فقلما تنقص، فقال لهم: عباد الله! إنه قد بلغنى أن طائفة منكم يريدون أن يرجعوا إلى ما خرجوا منه إلى دنياهم، وإن هم ركنوا إلى دنياهم رجعوا إلى خطاياهم؛ فأما أنا فوالله لا أولئى هذا العدو ظهري حتى أرد موارد إخواني؛ فروحوا إلى ربكم، فوالله ما فى شىء من الدنيا خلف من رضا الله و «التوبة» إليه. فقالوا له: رأينا مثل رأيك.

فمضى برايته حتى دنا من جموع ذى الكلاع الحميرى، فسأل عنهم فأخبروه أنهم من حمير، فعرض عليهم الأمان، فأجاب كريب: إننا كنا آمنين فى الدنيا وإنما خرجنا نطلب أمان الآخرة؛ ثم قاتلوا حتى قتلوا رحمهم الله.

وكان صخير بن حذيفة المزنى من المحرضين على القتال، والآن مشى فى ثلاثين رجلاً من مزينة وقال لهم: لا تهابوا الموت فى الله فإنه لائقكم، ولا ترجعوا إلى الدنيا التى خرجتم منها إلى الله فإنها لا تبقى لكم، ولا تزهّدوا فيما رغبتم فيه من ثواب الله فإن ما عند الله خير لكم! فأجابوه فمضى بهم فقاتلوا

ص: ١٤٤

حتى قتلوا رحمهم الله. ثم أمسى المساء وباء أهل الشام بغضب من الله ورسوله إلى معسكرهم ٣١٣.

وارتفع رُفاعه بالباقيين ليلاً

ولما أمسى المساء ورجع أهل الشام إلى معسكرهم، أمر رفاعه أن يدفع كل جريح إلى قومه، ثم أمر أبا الجويرية العبدى (البصرى) فى سبعين فارساً معه أن يستروهم من خلفهم ويحملوا لهم كل حمل ساقط. ثم أمر بالرحيل ليلة الخامس والعشرين من جمادى الأولى، فسار بهم الليل كله حتى أصبح فى التّنينير على شاطئ الخابور، فهنا عبره بهم ثم قطع الجسر، ثم قطع سائر الجسور حتى بلغوا إلى خارج قرقيسياء، وعلم زفر بن الحارث الكلابى بهم فأرسل إليهم أن أقيموا عندنا ما أحببتكم فلکم المواساة والكرامة! فأقاموا ثلاثاً، فأرسل إليهم من لديه من الأطباء! ومن الطعام والعلف مثل ما بعث فى المرة الأولى، ثم زوّدهم بما أحبوا من الطعام والعلف.

وأصبح الحصين السكونى فبعث إليهم فوجدهم قد ذهبوا، فأسرع العودة بجيشه.

وكان المثنى بن مخزبة العبدى البصرى قد وصل بالثلاثمائة معه إلى قرية صندوداء، وتقدّمه سعد بن حذيفة بن اليمان بالمائة والسبعين معه إلى بلدة هيت، فأخبره الأعراب بما لقي التوابون فعاد سعد إلى المثنى فى صندوداء فأخبره، ثم أقاموا حتى دنا منهم رفاعه، فاستقبلوه بالسلام والبكاء، وأقاموا معهم يوماً وليلة يتناعون إخوانهم ويبيكونهم، ثم انصرف أهل المدائن إليها، وأهل البصرة إليها، وعاد أهل الكوفة إليها.

ص: ١٤٥

وكان مروان حياً ولكنه كان قد بايع لابنه عبد الملك لما بعده، فلما بلغه خبر مصير «التوابين» سعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد، فإن الله قد أهلك من رؤوس أهل العراق ملقح فتنه ورأس ضلالة: سليمان بن صرد! ألا وإن السيوف قد تركت رأس المسبب بن نجبة خذاريق! ألا وقد قتل الله من رؤوسهم رأسين عظيمين ضالين مضلين: عبد الله بن سعد أخا الأزدي! وعبد الله بن وال أخا بكر بن وائل؛ فلم يبق بعد هؤلاء أحد عنده دفاع ولا امتناع ٣١٤!

ص: ١٤٦

أواخر أخبار مروان

انصرف مروان من مصر إلى الأردن وعليها حسّان بن بجدل الكلابى خال يزيد بن معاوية ومعه بنوكلاب، فلما وصل مروان إلى الصنبرة ٣١٥ بلغه أن حسّان بن بجدل لم يزل على بيعه عمرو بن سعيد الأشدق، فأحضره وقال له:

بلغنى أنك بايعت عمرو بن سعيد؟ فأنكر ذلك، فقال له: فبايع لعبد الملك ثم بعده لعبد العزيز بن مروان ٣١٦.

فقال له مالك بن هبيرة اليشكرى: إنه ليست لك فى أعناقنا بيعه، ولا نقاتل إلا عن عرض الدنيا! فإن تكن لنا على ما كان لنا معاوية ويزيد نصرناك! وإن تكن الأخرى فوالله ما قريش عندنا إلا سواء.

وكان حسّان رئيس قحطان وسيدها بالشام، وكان لهم من الشروط على معاوية وابنه يزيد وابنه معاوية بن يزيد: أن يكون لهم الأمر والنهى وصدر المجلس، فما يكون من حلّ وعقد إلا عن مشورتهم ورأى منهم! وأن يفرض لألفى رجل منهم لكل رجل ألفين ألفين! وإن مات حسّان قام ابنه أو ابن عمه مقامه! فرضى مروان بذلك، فانقاد حسّان لمروان ٣١٧! وقام فى

٣١٤. تاريخ الطبرى ٦: ٥، وهو المصدر المتوفّر على أكثر أخبار التوابين من كتاب «أخبار التوابين بعين الورد» لأبى مخنف، واختصر المسعودى ذكرهم فى أربع صفحات وصرّح بالنقل عن كتابه بهذا الاسم، فى مروج الذهب ٩٣: ٣-٩٦، وأكثر عن الطبرى ابن نما الحلّى (ق ٧-٥) فى رسالته: ذوب النصار فى شرح أخذ النار. ونقلها المجلسى فى بحار الأنوار ٣٤٦: ٤٥-٣٨٦ وفيها تخطيط.

٣١٥. كذا فى اليعقوبى ٢٥٧: ٢، وفى مروج الذهب ٨٨: ٣: الصنبرة على ميلين من طبرية من الأردن.

٣١٦. تاريخ اليعقوبى ٢٥٧: ٢.

٣١٧. مروج الذهب ٨٦: ٣.

الناس ودعاهم إلى بيعه عبد الملك بن مروان بعد مروان وبيعه عبد العزيز بن مروان بعد عبد الملك، فبايعوهما ولم يخالفه أحد في ذلك ٣١٨.

قال ابن قتيبة: ثم لما قدم الشام من مصر قال له خالد بن يزيد بن معاوية:

ص: ١٤٧

أردد إلى السلاح الذي أخذته. فأبى عليه مروان، فألح خالد عليه، وكان مروان فاحشاً سبباً، فقال له: يا ابن الربوخ! يا ابن الرطبة! فعاد خالد إلى أمه وأخبرها بما قال له. ثم لبث مروان بعد ما قال لخالد ذلك ليالي ثم جاء إلى أم خالد فرقد عندها، فأمرت جواريتها فطوين عليه الدواشك (الفرش) حتى قتلته، ثم خرجن يشققن جيوبهن ويصرخن: يا أمير المؤمنين ٣١٩!

وقال اليعقوبي: إن خالدًا لما أخبرها مغضباً قالت له: والله لا يشرب البارد بعدها! ثم صيرت له سمًا في لبن فلما دخل إليها سقته منه، أو: وضعت وسادة على وجهه حتى قتلته، قيل: قبل أن يبرح من الصنبرة في الأردن، وقيل: بل بدمشق وبها دفن ٣٢٠.

وقال المسعودي: دخل خالد على أمه وشكى إليها ما قاله له، وقبّح لها تزوجها بمروان! فقالت له: لا يعيبك بعدها! فمنهم من قال: إنها وضعت وسادة على متنفسه وقعدت عليها حتى مات، ومنهم من قال: إنها أعدت له لبناً مسموماً فلما دخل عليها ناولته إياه فشرب، فلما استقر في جوفه وقع وجود بنفسه وأمسك لسانه!

وحضره ولده وفيهم عبد الملك فجعل مروان يشير إلى أم خالد أنها قتلتها، وجعلت أم خالد تقول: بأبي أنت وأمي يوصيكم بي! حتى هلك في أول شهر رمضان سنة (٦٥ هـ) وله ٦٣ سنة ٣٢١، وخالفه عمرو بن سعيد الأشدق فشرط له عبد الملك ألا يقطع شيئاً دونه ولا ينفذ أمراً إلا بمحضه، وأن يستخلفه بعده، فبايعه على ذلك ٣٢٢!

ص: ١٤٨

جيش حُبَيْش إلى المدينة

٣١٨ . المصدر السابق ٨٨: ٣ - ٨٩.

٣١٩ . الإمامة والسياسة ١٧: ٢.

٣٢٠ . تاريخ اليعقوبي ٢٥٧: ٢.

٣٢١ . مروج الذهب ٨٩: ٣.

٣٢٢ . الإمامة والسياسة ١٧: ٢.

قال ابن قتيبة: ثم إنَّ عبد الملك بعث حبيش بن دلجة القيني في سبعة آلاف رجل إلى المدينة (في حكم ابن الزبير) فدخلها بلا مقاومة حتَّى جلس على المنبر الشريف، فدعا بخبز ولحم! فأكل وهو على المنبر؛ ثمَّ طلب ماءً ليتوضَّأ، فتوضَّأ وهو على المنبر!

ثمَّ أرسل إلى جابر بن عبد الله الأنصاري فدعاه، فلمَّا جرى به إليه قال له:

تبايع لعبد الملك أمير المؤمنين بالخلافة، عليك بذلك عهد الله وميثاقه وأعظم ما أخذ الله على أحد من خلقه بالوفاء، فإن خالفت فأهرك الله دمك على الضلالة!

فقال له جابر بن عبد الله: إنَّك أطوق لذلك مني! ولكني أبيعه على ما بايعت عليه رسول الله (ص) يوم الحديبية: على السمع والطاعة. فبايعه.

ثمَّ أرسل إلى عبد الله بن عمر، فلمَّا جرى به قال له: تبايع لعبد الملك أمير المؤمنين على السمع والطاعة؟

فقال ابن عمر: إذا اجتمع الناس عليه بايعت له إن شاء الله. فاقتنع القينيَّ منه بذلك.

ثمَّ خرج ابن دلجة من يومه ذلك إلى الربذة، وذلك في رمضان من سنة خمس وستين.

وكتب ابن الزبير إلى عباس بن سهل الساعدي بالمدينة أن يجهز الناس ثمَّ يسير بهم إلى ابن دلجة وأصحابه، فسار بهم حتَّى لقيهم بالربذة في شهر رمضان.

وكتب ابن الزبير إلى والي البصرة الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة أن يمدَّ عباس بن سهل بجيش، فأمدّه بتسعمئة رجل، فساروا حتَّى انتهوا إلى الربذة.

فبات أهل المدينة والبصرة ليلتهم يقرؤون القرآن ويصلُّون حتَّى أصبحوا، وبات جيش الشام بالخمور والمعازف حتَّى أصبحوا، ثمَّ غدوا إلى القتال، فقتل

ص: ١٤٩

حبيش ومن معه من أهل الشام، ولجأ خمسمائة منهم إلى جبل عمود بالربذة، وأحاط بهم عباس بن سهل حتَّى ينزلوا على حكمه، فنزلوا على حكمه فضرب أعناقهم أجمعين، وكان فيهم أبو الحجاج يوسف بن الحكم الثقفي (فهرج).

ثمَّ رجع ابن سهل إلى المدينة فجدد البيعة لابن الزبير فبايعوا، وسار أهل البصرة إلى مكة، فبعث ابن الزبير ابنه حمزة بن عبد الله عاملاً عليهم وهو شابٌّ فاستحقره أهل البصرة، فبعث إليهم أخاه مصعب بن الزبير فقال لهم: يا أهل البصرة! لا يقدم عليكم أحد إلا لقبتموه، وأنا ألقب لكم نفسي: أنا القصاب ٣٢٣!

ص: ١٥٠

٣٢٣. الإمامة والسياسة ١٨: ٢-١٩، وذكر يعقوبى ٢٥٦: ٢ جيش القيني وقتلهم عامَّة، وقال: وأفلت منهم يوسف الثقفي وابنه الحجاج، ولكنَّه قال: أرسلهم

روى الطبرى عن أبى مخنف، قال: لما خرج سليمان بن صرد إلى الجزيرة (جزيرة ابن عمر - الموصل) شعر عمر بن سعد وأصحابه بالشر من المختار بعد سليمان، واجتمع إليه لذلك شبت بن ربيع التميمي ويزيد بن الحارث بن رويم الشيباني واتفقوا على أن يأتوا الخطمي الأمير الزبيرى على الكوفة فيشيروا عليه بذلك. فأتوا إليه وقالوا له: إن سليمان بن صرد إنما خرج يقاتل عدوكم ويذلهم لكم وقد خرج عن بلادكم، وإن المختار أشد عليكم من سليمان، فهو إنما يريد أن يشب عليكم فى مصركم! فسيروا إليه وخذلوه فى السجن حتى يستقيم أمر الناس.

وقبل الأميران الزبيريان: عبد الله بن يزيد الخطمي وإبراهيم بن محمد بن طلحة التيمي مشورة ابن سعد وأصحابه، ولكنهم لم يروا إرسال الشرط عليه، بل خرجوا إليه فى جمع من الناس حتى أحاطوا بداره وطلبوه، فلما خرج إليهم قال له إبراهيم التيمي: يا ابن عبيد! ما أنت وما يبلغنا عنك؟! قال: أعوذ بالله من غش كغش أبيك! ما الذى بلغك عنى إلا باطل! فالتفت التيمي إلى الخطمي وقال له:

شدّه كتافاً ومشّه حافياً! فقال الخطمي: سبحان الله! ما كنت لأفعل هذا برجل لم يظهر لنا حرباً ولا عداوة، وإنما أخذناه على الظن، فما كنت لأحفيه ولا لأمشيه! فأتى ببغلة دهما ليركبها، فقال إبراهيم لعبد الله الخطمي: ألا تشد عليه القيود؟

ص: ١٥١

فقال: كفى له بالسجن قيداً ٣٢٤.

هذا، وقد مر الخبر عن حميد بن مسلم الأزدي: أنه سمع نقرأ من أصحاب المختار يقولون: قد كملنا ألفى رجل ٣٢٥ وذلك قبل خروج التوابين من الكوفة.

وعاد رفاعه بن شداد البجلي بفلول التوابين إلى الكوفة وإذا بالمختار محبوس ٣٢٦.

ونقل أبو مخنف قولاً آخر عن أبى زهير العيسى: إن المختار لم يحبس قبل وصول فلول التوابين مع ابن شداد البجلي من عين الورد، فكتب إليه يقول: أما بعد، فمرحبا بالعصب الذين أعظم الله لهم الأجر حين انصرفوا، ورضى انصرفهم حين

٣٢٤. تاريخ الطبرى ٥٨٠: ٥ - ٥٨١ عن أبى مخنف.

٣٢٥. المصدر المتقدم: ٥٨٤ عن أبى مخنف.

٣٢٦. المصدر المتقدم ٦٠٥: ٥ عن أبى مخنف.

قفّلوا. أما وربّ البنية التي بنى؛ ما خطا خاطٍ منكم خطوة، ولا ربا ربوة إلا كان ثواب الله له أعظم من مُلك الدنيا. إنّ سليمان قد قضى ما عليه وتوفاه الله، فجعل روحه مع أرواح الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين، ولم يكن بصاحبكم الذي به تنصرون!

إنّى أنا الأمير المأمور! والأمين المأمون! وأمير الجيش وقاتل الجبارين، والمنتقم من أعداء الدين، والمقيد من الأوتار! فأعدّوا واستعدّوا، وأبشروا واستبشروا. أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه (ص)، وإلى الطلب بدماء «أهل البيت» والدفع عن الضعفاء، وجهاد المحلّين، والسلام.

قال العباسي: وتحدّث الناس بهذا من أمر المختار حتّى بلغ ذلك إلى أميرى الكوفة فخرجوا في الناس إلى دار المختار فأخذه وحسّاه ٣٢٧ وهو أولى ممّا مضى.

ويبدو أنّ المختار كان مقيداً في حبسه بلا منع عن زيارته أحياناً، وممنّ زاره هو حميد بن مسلم الأزدي بعد عودته مع فلول التوابين، دخل إليه مع يحيى ابن

ص: ١٥٢

٣٢٨

أبى عيسى، قال: فرأيتُه مقيداً، وسمعتُه يقول: أما وربّ البحار، والنخيل والأشجار، والمهامم والقفار، والملائكة الأبرار، والمصطفين الأخيار، لأقتلنّ كلّ جبار بكلّ لدن خطّار ومهندّ بتّار، في جموع من الأنصار ... حتّى إذا أقمت عمود الدين ورأيت شعب صدع المسلمين وشفيت غليل صدور المؤمنين وأدركت ثار النبيّين، لم يكبر على زوال الدنيا، ولم أحفل بالموت إذا أتى!

قال الراوى يحيى: وكنا كلّما زرناه في السجن يردّد علينا هذا القول ٣٢٩ فلم يكن ممنوعاً عن ذلك! ويكرّر الطبرى خبر الكتاب فيقول: جاء بالكتاب سيحان بن عمرو الليثى العبدى وجمع له رفاعه بن شدّاد البجلي وأخاه عبد الله، وأحمر بن شميّط الأحمسي وعبد الله بن كامل ويزيد بن أنس، وقرأه عليهم، فاتفقوا أن يبعثوا إليه ابن كامل وقالوا له: قل له: قد قرأنا كتابك، ونحن حيث يسرّك، فإن شئت أن نأتيك حتّى نخرجك فعلنا!

فأتى عبد الله بن كامل إلى المختار في السجن، فأخبره بما أرسل إليه به.

٣٢٧. المصدر السابق ٦٠٦: ٥ عن أبى مخنف.

٣٢٨ يوسفى غروى، محمدهادى، عصر الإمام السجاد، سياسيا و إجتماعيا، ١جلد، المجمع العالمى لاهل البيت (عليهم السلام) - قم - ايران، چاپ: ١، ١٤٣٦

٥.ق.

٣٢٩. تاريخ الطبرى ٥٨١: ٥- ٥٨٢ عن أبى مخنف، ويروى أيضاً عنه قريباً منه فى ٧: ٦.

فسر المختار باجتماع «الشيعة» له ولكنه قال له: لا تريدوا هذا؛ فإنني أخرج في أيامي هذه ٣٣٠. فلم يكن يمنع عنه! بل روى الكلبي عن أبي مخنف: أن رفاعه بن شداد وعبد الله بن شداد وأحمر بن شميطة الأحمسي ويزيد بن أنس الأسدي والسائب بن مالك الأشعري أخذوا يبائعون الناس للمختار وهو لا يزال في السجن، فلم يزل يكثر أصحابه ويقوى ويشدد أمره ٣٣١.

ص: ١٥٣

وأطلق المختار بكفالة وتحليف

ولمرة ثانية توصل المختار إلى الخروج من حصار الأشرار بالتوسل بصهره عبد الله بن عمر زوج أخته صفية الثقفية، فكتب إليه: أما بعد، فإنني قد حبست مظلوماً، وظنّ بي الولاة ظنوناً كاذبة؛ فكتب فيّ يرحمك الله إلى هذين الظالمين كتاباً لطيفاً، عسى الله أن يخلصني من أيديهما بلطفك وبركتك ويمنك! والسلام عليك. وبعث به مع غلامه زربي.

فكتب عبد الله بن عمر إلى الأميرين الزبيريين: أما بعد، فقد علمتما الذي بيني وبين المختار بن أبي عبيد من الصهر، والذي بيني وبينكما من الود؛ فأقسمت عليكما بحق ما بيني وبينكما لما خليتما سبيله، حين تنظران في كتابي هذا، والسلام عليكما ورحمة الله.

وعاد زربي غلام المختار إليه بكتاب صهره ابن عمر، فبعث به إلى الأميرين الزبيريين، فلما أتاهما كتاب ابن عمر دعوا للمختار بكفلاء يضمنونه، فأتاهما ناس كثير من أصحاب المختار، فضمنه عشرة من أشرافهم معروفين وترك سائرهم، فلما ضمنوه دعوا به، فلما حضر حلفاء بالله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة الرحمن الرحيم، ألا يبيغها غائلة ما كان لهما سلطان! ولا يخرج عليهما! فإن هو فعل ذلك فعليه ألف بدنة ينحرها لدى رتاج الكعبة، ٣٣٢ وأن يصبح مواليه كلهم أحراراً إناثاً وذكوراً، فحلف لهما بذلك، ثم خرج من عندهما إلى داره.

وسمع يقول: أما حلفي لهم بالله؛ فإنه إذا حلفت على يمين ثم رأيت ما هو خير منها، فإنه ينبغي لي أن أدع ما حلفت عليه وأتى الذي هو خير وأكفر عن

ص: ١٥٤

يميني، وخروجي عليهم خير من كفى عنهم، وأما عتق ممالئكي؛ فوالله لوددت أنه قد استتب لي أمري ثم لم أملك مملوكاً أبداً، وأما هدى ألف بدنة؛ فهو أهون عليّ من بصة! وما ثمن ألف بدنة فيهلني!

٣٣٠. تاريخ الطبري ٧: ٦-٨، وسمى الخبر معهم: سعد بن حذيفة بن اليمان، ولم يكن معهم في الكوفة بل عاد إلى المدائن، وكذلك المتن العبدى البصرى، وعاد إلى البصرة.

٣٣١. تاريخ الطبري ٩: ٦ عن أبي مخنف.

٣٣٢. موسوعة التاريخ الاسلامي ٣٣٨: ٦.

وأخذت «الشيعة» تختلف إليه وتجتمع عليه حتى اتفق رأيهم على الرضا به ٣٣٣، وذلك قبل شهر رمضان من سنة (٦٥هـ - ٦٦هـ).

فدعا ابن الزبير أخاه مصعباً وعبد الله بن المطيع العدوي والحارث بن عبد الله المخزومي، فبعث أخاه على المدينة، وابن المطيع العدوي على الكوفة، والحارث المخزومي على البصرة، فقدم ابن المطيع العدوي الكوفة يوم الخميس لخمس بقين من شهر رمضان سنة خمس وستين ٣٣٤.

أول خطبة لابن المطيع في الكوفة

مرّ في الخبر أن ابن مطيع العدوي وصل الكوفة أميراً يوم الخميس، ففي آخر جمعة من شهر رمضان خطبهم للجمعة فقال لهم: أمّا بعد؛ فإنّ أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير بعثني على مصركم وثغوركم، وجباية فينكم، وألا أحمل فضل فينكم عنكم إلا برضا منكم، وبوصية عمر بن الخطاب .. وبسيرة عثمان بن عفان التي سار بها في المسلمين

فأراد أن يقوم إليه يزيد بن أنس الأسدي فسبقه السائب بن مالك الأشعري فقال للعدوي:

أمّا أمر ابن الزبير (كذا بلا لقب لإمرة) إياك ألا تحمل فيننا عنّا إلا برضانا، فإنّا نشهدك أنا لا نرضى أن تحمل فيننا عنّا، وأن يقسم إلا فينا .. وألا يسار فينا إلا بسيرة عليّ بن أبي طالب التي سار بها في بلادنا هذه حتى هلك «رحمة الله عليه»!

ص: ١٥٥

ولا حاجة لنا في سيرة عثمان في أنفسنا ولا في فيننا؛ فإنّها كانت أثره وهوى! ولا في سيرة عمر بن الخطاب في فيننا! وإن كانت أهون السيرتين ضرراً علينا!

فقام يزيد بن أنس الأسدي وقال: صدق السائب بن مالك وبر! رأينا مثل رأيه وقولنا مثل قوله!

فقال ابن مطيع: نسير فيكم بكلّ سيرة أحببتموها وهويتموها! ثمّ نزل.

وكان ابن مطيع قد اختار لشرطته إياس بن مضارب العجلي، وأمره بالشدة على المريب.

فجاء ابن إياس إلى ابن مطيع وقال له: إنّ السائب بن مالك من رؤوس أصحاب المختار، وإنّ عيوني قد أتوني وأخبروني أنّ أمر المختار قد استجمع له فكأنّه قد وثب بالكوفة، فلست آمنه، فابعث إليه فليأتك، فإذا جاءك فاحبسه في سجنك حتى يستقيم أمر الناس ٣٣٥.

استحضار المختار:

٣٣٣. تاريخ الطبري ٨: ٦-٩ عن أبي مخنف.

٣٣٤. المصدر السابق ٩: ٦-١٠ عن أبي مخنف.

٣٣٥. تاريخ الطبري ١٠: ٦-١١، عن أبي مخنف.

فاستحضر ابن المطيع زائدة بن قدامة الثقفي وضمَّ إليه الحسين بن عبد الله الهمداني ليستحضرا المختار إلى الأمير، فذهبا إليه فإذا على باب داره أصحابه وفي داره منهم جمع كثير، ودخلا إليه وقالوا له: أجب الأمير، فأمر بإسراج فرسه ودعا بشيابه ليذهب معهما، فلما رأى ذلك زائدة قرأ قول الله تعالى: وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يُقَتِّلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ... ٣٣٦ وكان المختار قد لبس ثيابه فألقاها وجلس وقال: إنني لأجد قفقهة (رجفة) شديدة ما أراني إلا قد وعكت ألقوا على القטיפه! وارجعا أنتما إلى ابن مطيع (كذا بدون لقب الأمير)

ص: ١٥٦

فأعلماه حالي التي أنا عليها. قالوا: فأقبلنا إلى ابن مطيع فأخبرناه بشكواه وعلته فصدقنا، ولها عنه ٣٣٧.

حنفي يتحرى إذن ابن الحنفية:

في منزل سعر بن أبي سعر الحنفي التميمي اجتمع جمع من أشرفهم منهم عظيم الشرف عبد الرحمان بن شريح الشبامي الهمداني، والأسود بن جراد الكندي وسعيد بن منقذ الثوري وقدامة بن مالك الجشمي، وتقدم مقدمهم الشبامي الهمداني فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد، فإن المختار يريد أن يخرج بنا، وقد بايعناه ولا ندري أرسله إلينا ابن الحنفية أم لا؟ فانهمضوا بنا إلى ابن الحنفية لنخبره بما قدم به علينا وبما دعانا إليه، فإن رخص لنا في أتباعه أتبعناه، وإن نهانا عنه اجتنبناه، فوالله ما ينبغي أن يكون شيء من أمر الدنيا أثر عندنا من سلامة ديننا!

قالوا له: أرشدك الله! فقد أصبت ووقفت، اخرج بنا إذا شئت. فأجمع رأيهم أن يخرجوا في تلك الأيام (أيام موسم الحج) وخرجوا حتى قدموا على ابن الحنفية يقدمهم إمامهم وخطيبهم الشبامي الهمداني، فقالوا له: إن لنا إليك حاجة (وكان عنده ناس) فقال: أفسر هي أم علانية؟ قالوا: بل سر. فمكث قليلاً ثم قام فتنحى جانباً ودعاهم، فقاموا إليه.

فبدأ ابن شريح الشبامي فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد، فإنكم «أهل بيت» خصكم الله بالفضيلة وشرفكم بالنبوة، وعظم حقكم على هذه الأمة، فلا يجهل حقكم إلا مغبون الرأي مخسوس النصيب.

ص: ١٥٧

وقد أصبتم بحسين «رحمة الله عليه» عظمت مصيبة، اختصصتم بها بعد ما عمَّ بها المسلمون!

وقد قدم علينا المختار بن أبي عبيد «يزعم لنا أنه قد جاءنا من تلقائكم» وقد دعانا إلى كتاب الله وسنة نبيه (ص) والطلب بدماء «أهل البيت» والدفع عن الضعفاء، فبايعناه على ذلك، ثم إننا رأينا أن نأتيك فنذكر لك ما دعانا إليه وندبنا له، فإن أمرتنا باتباعه أتبعناه، وإن نهيتنا عنه اجتنبناه.

فلما فرغ حمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي (ص) ثم قال: أما بعد، فأما ما ذكرتم مما خصنا الله به من فضل؛ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم فله الحمد.

وَأَمَّا مَا ذَكَرْتُمْ مِنْ مُصِيبَتِنَا بِحُسَيْنٍ؛ فَهِيَ مُلَحْمَةٌ كُتِبَتْ عَلَيْهِ وَكَرَامَةٌ أَهْدَاهَا اللَّهُ إِلَيْهِ، رَفَعَ بِمَا كَانَ مِنْهَا دَرَجَاتٍ قَوْمٍ عِنْدَهُ وَوَضَعَ بِهَا آخِرِينَ، وَكَانَ ذَلِكَ فِي الذِّكْرِ الْحَكِيمِ؛ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدْرًا مَقْدُورًا!

وَأَمَّا مَا ذَكَرْتُمْ مِنْ دَعَاءٍ مِنْ دَعَائِكُمْ إِلَى الطَّلَبِ بِدِمَائِنَا؛ فَوَاللَّهِ لَوُدِدْتُ أَنَّ اللَّهَ انتَصَرَ لَنَا مِنْ عَدُوِّنَا بِمَنْ شَاءَ مِنْ خَلْقِهِ! أَقُولُ قَوْلِي هَذَا وَاسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ.

فَخَرَجُوا مِنْ عِنْدِهِ وَهُمْ يَقُولُونَ: قَدْ قَالَ: لَوُدِدْتُ أَنَّ اللَّهَ انتَصَرَ لَنَا مِنْ عَدُوِّنَا بِمَنْ شَاءَ مِنْ خَلْقِهِ! وَلَوْ كَرِهَ لِقَالٍ: لَا تَفْعَلُوا. فَقَدْ أَذِنَ لَنَا. فَلَمْ يَكُنْ غَيْرَ شَهْرٍ وَزِيَادَةٍ شَيْءٍ حَتَّى أَقْبَلُوا عَلَى رِوَاحِلِهِمْ وَتَوَافَقُوا عَلَى أَنْ يَدْخُلُوا عَلَى الْمُخْتَارِ رَأْسًا فَيُبَشِّرُوهُ بِأَنَّهُمْ أَمَرُوا بِنَصْرَتِهِ ٣٣٨.

المختار يبشّر الأنصار:

دَخَلَ هَؤُلَاءِ النَّفَرِ عَلَى الْمُخْتَارِ، وَكَانَ قَدْ عَرَفَهُمْ أَنَّهُمْ رَحَلُوا إِلَى الْحِجَازِ لِلتَّيَبُّتِ فِي أَمْرِهِ، فَلَمَّا رَأَوْهُمْ سَأَلَهُمْ: مَا وَرَاءَكُمْ؟ فَقَالُوا: قَدْ أَمَرْنَا بِنَصْرَتِكَ! (كَذَا)

ص: ١٥٨

فَقَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ! أَنَا أَبُو إِسْحَاقَ! اجْمَعُوا إِلَيَّ «الشَّيْعَةَ». فَجَمَعَ لَهُ مِنْ كَانَ قَرِيبًا مِنْهُ، فَلَمَّا اجْتَمَعُوا قَالَ لَهُمُ الْمُخْتَارُ:

يَا مَعْشَرَ «الشَّيْعَةِ»! إِنَّ نَفَرًا مِنْكُمْ أَحَبُّوا أَنْ يَعْلَمُوا مُصَدِّقَ مَا جِئْتُ بِهِ، فَارْحَلُوا إِلَى «إِمَامِ الْهُدَى» وَالنَّجِيبِ الْمَرْضِيِّ ابْنِ خَيْرٍ مِنْ طُشِيِّ وَمَشِيِّ ٣٣٩، حَاشَا النَّبِيَّ الْمُجْتَبَى، فَسَأَلُوهُ عَمَّا قَدِمْتَ بِهِ عَلَيْكُمْ، فَنَبَّأَهُمْ أَنَّ: وَزِيرَهُ وَظَهِيرَهُ! وَرَسُولَهُ وَخَلِيلَهُ وَأَمْرَكَمُ بِاتِّبَاعِي وَطَاعَتِي (كَذَا) فِيمَا دَعَوْتُكُمْ إِلَيْهِ مِنْ قِتَالِ الْمُحَلِّينَ، وَالطَّلَبِ بِدِمَاءِ «أَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّكُمْ» الْمُصْطَفِينَ.

فَلَمَّا سَكَتَ قَامَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ شَرِيحِ الشَّيْبَامِيِّ الْهَمْدَانِي فَحَمْدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ: أَمَّا بَعْدُ، «يَا مَعْشَرَ الشَّيْعَةِ»! فَإِنَّا قَدْ كُنَّا أَحَبِّينَا أَنْ نَسْتَشِيبَ لَأَنْفُسِنَا خَاصَّةً وَلْجَمِيعِ إِخْوَانِنَا عَامَّةً، فَقَدِمْنَا عَلَى «الْمُهَدِيِّ» ابْنِ عَلِيٍّ (ع) فَسَأَلْنَاهُ عَنْ حَرْبِنَا هَذِهِ وَعَمَّا دَعَانَا إِلَيْهِ الْمُخْتَارُ، فَأَمَرْنَا بِمُظَاهَرَتِهِ وَمُؤَاوَزَتِهِ وَإِجَابَتِهِ إِلَى مَا دَعَانَا إِلَيْهِ (هَكَذَا بِتَخْصِيصِ الْعَامِّ مِنْ كَلَامِ ابْنِ الْحَنْفِيَّةِ) فَأَقْبَلْنَا طَيِّبَةً أَنْفُسِنَا مَنْشُرَةً صُدُورُنَا، قَدْ أَذْهَبَ اللَّهُ مِنْهَا الشُّكَّ وَالْغُلَّ وَالرَّيْبَ، وَاسْتَقَامَتْ لَنَا بَصِيرَتُنَا فِي قِتَالِ عَدُوِّنَا. فَلْيَبْلُغْ ذَلِكَ شَاهِدُكُمْ غَائِبُكُمْ وَاسْتَعْدُّوا وَتَأَهَّبُوا. ثُمَّ سَكَتَ وَجَلَسَ وَقَامَ مِنْ كَانَ مَعَهُ مِنْهُمْ وَصَدَّقَهُ بِنَحْوِ كَلَامِهِ.

فَاسْتَجْمَعَتْ لَهُ «الشَّيْعَةُ» وَحَدَّثَتْ عَلَيْهِ ٣٤٠ بِفَضْلِ فَعْلِ الشَّيْبَامِيِّ الْهَمْدَانِي.

ص: ١٥٩

وَدَعَتْ هَمْدَانُ سَيِّدَهَا إِبْرَاهِيمَ:

٣٣٨. تاريخ الطبري ١٢: ٦-١٤ عن أبي مخنف.

٣٣٩. جاء هذا الوصف لابن الحنفية وأبيه علي (ع) عن لسان المختار فيما جاء في رجال الكشي: ١٢٦، الحديث ٢٠٠، عن الباقر (ع) ليونس بن يعقوب وأبي بصير، وفيه: أَنَّ الْمُخْتَارَ كَتَبَ إِلَى ابْنِ الْحَنْفِيَّةِ بِذَلِكَ. وَفَسَّرَ الْخَبَرَ الطُّشِيُّ بِالْحَيَاءِ. وَلَا يَخْفَى أَنَّ ذَلِكَ يَعْنِي الْقَوْلَ بِأَفْضَلِيَّةِ عَلِيٍّ (ع) بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ (ص).

٣٤٠. تاريخ الطبري ١٤: ٦-١٥ عن أبي مخنف.

كان ابن شريح من شبام همدان الذي شبّ لتأكيد أمر المختار بادعاء تأييد ابن الحنفية له، ويغلب على ظني أن شبام همدان شاءت إلى جانبها النخع من همدان من خلال فتاها الشريف إبراهيم بن الأشتر النخعي، وإن كان الشعبي الهمداني ينسب اقتراح دعوته على المختار إلى عبد الله بن شداد وعبد الله بن كامل وأحمر بن شميطة الأحمسي ويزيد بن أنس الأسدي أنهم توافقوا فيما بينهم أن يقترحوا على المختار دعوة ابن الأشتر، فقالوا له: إن أشرف أهل الكوفة سيجتمعون على قتالك مع ابن مطيع العدوي، فإن جامعنا على أمرنا إبراهيم بن الأشتر رجونا القوة على عدونا بإذن الله، وألا يضرنا خلاف من يخالفنا؛ فإنه فتى بئيس (قوى البأس) وابن رجل شريف بعيد الصيت، وله عشيرة ذات عز وعدداً.

فقال لهم المختار: فالفوه فادعوه، وأعلموه الذي أمرنا به (كذا) من الطلب بدم الحسين (ع) وأهل بيته.

قال الشعبي الهمداني: فخرجوا إليه وأنا فيهم وأبى شراحيل بن عبد، ومقدمهم يزيد بن أنس الأسدي، فلما دخلوا عليه تقدّم الأسدي فقال: إنا قد أتيناك في أمر نعرضه عليك ندعوك إليه، فإن قبلته كان خيراً لك، وإن تركته فقد أدبنا إليك النصيحة، ونحب أن يبقى عندك مستورا، إنما ندعوك إلى أمر قد اجتمع عليه رأى الملاء من «الشيعه» إلى كتاب الله وسنة نبيه (ص)، والطلب بدماء «أهل البيت» وقتال المحلّين والدفع عن الضعفاء! وسكت.

ثم تكلم أحمر بن شميطة الأحمسي فقال: إن أباك كان سيّد الناس، وفيك منه خلف إن رعيت حق الله، وقد دعوناك إلى أمر إن أجبتنا إليه عادت لك منزلة أبيك في الناس.

ص: ١٦٠

فقال لهم إبراهيم الأشتر: فإني أجيبكم إلى ما تدعونني إليه من الطلب بدم الحسين وأهل بيته على أن تولّوني الأمر!

فقالوا له: أنت أهل لذلك ولكن لا سبيل إلى ذلك فهذا المختار قد جاءنا من قبل «المهدي» (?) وهو الرسول المأمور بالقتال. فسكت ولم يجيبهم.

فانصرفوا من عنده إلى المختار فأخبروه بجوابه ٣٤١.

أمر ابن الحنفية لابن الأشتر؟!

كان ابن الحنفية قد كتب قبل هذا إلى ابن الأشتر، باسمه واسم أبيه: محمّد بن عليّ (ع)، وكان المختار كان قد عرف ذلك وعلم أنّه لو يواجه بكتاب منه إلى ابن الأشتر بدعوته ليكون مع المختار لأجاب، فكتب له كتاباً جاء فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، من محمّد «المهدي» إلى إبراهيم بن مالك الأشتر، سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو. أمّا بعد؛ فإني قد بعثت إليكم بوزيري وأميني، ونجيبتي الذي ارتضيته لنفسى، وقد أمرته بقتال عدوي والطلب بدماء أهل بيتي، فانهض معه بنفسك وعشيرتك ومن أطاعك؛ فإنك إن نصرتنى وأجبت دعوتي وساعدت وزيري، كانت لك بذلك أعنة الخيل، وكلّ مصر ومنبر وثغر ظهرت عليه فما بين الكوفة إلى أقصى بلاد الشام، وعلىّ الوفاء بذلك على عهد الله! فإن فعلت ذلك نلت به عند الله أفضل الكرامة! وكانت لك عندي بذلك فضيلة.

وإن أبيت هلك! هلاكاً لا تستقيله أبداً! والسلام عليك!

وبعد ثلاثة أيام (من الدعوة السابقة) دعا المختار بضعة عشر رجلاً من وجوه أصحابه ليلاً وأخبرهم بأمره، وفيهم شراحيل بن عبد الشعبي وابنه عامر وإليه دفع

ص: ١٦١

الكتاب، ولم يعلمهما بما يريد، وتقدمهم يسير بهم ويقدم بيوت الكوفة قدماً حتى وقف على باب إبراهيم بن الأشتر فاستأذن لهم عليه، فأذن لهم فدخلوا عليه.

فبدأ المختار كلامه فحمد الله وأثنى عليه وصلى على محمد ثم قال: أما بعد، فإن معنا كتاباً إليك من «المهدي» محمد بن أمير المؤمنين «الوصي» وهو خير أهل الأرض اليوم! وابن خير أهل الأرض قبل اليوم بعد أنبياء الله ورسله، وهو يسألك أن تنصرنا وتؤازرنا، فإن فعلت اغتبطت، وإن لم تفعل فهذا الكتاب حجة عليك، وسيغني الله محمداً «المهدي» وأوليائه عنك. ثم قال لعامر الشعبي: ادفع إليه الكتاب، فدفعه إليه مختوماً، فدعا بالمصباح وفضّ خاتمه وقرأه، فلما قضى إبراهيم قراءة الكتاب قال للمختار: لقد كتبتُ إلى ابن الحنفية قبل اليوم ولقد كتب إليّ، فما كان يكتب إلا باسمه واسم أبيه! فقال المختار: إن ذلك زمان وهذا زمان!

وكان المختار قد أخبر بذلك جماعة أصحابه بأمر الكتاب، وقال لهم إبراهيم: فمن يعلم أن هذا كتاب ابن الحنفية إلى؟ فشهد كلهم بذلك إلا الشعبي وأباه! فعند ذلك قام إبراهيم عن صدر فراشه وأخذ بيد المختار فأقامه وأجلسه عليه وقال له: ابسط يدك ابايحك! فبسط المختار يده فبايعه إبراهيم، ثم دعا لهم بشراب من عسل وفواكه فأكلوا وشربوا ثم نهضوا، فخرج ابن الأشتر مع المختار راكباً حتى أبلغه رحله، ومعه من قومه عبد الرحمن بن عبد الله النخعي.

ولما كان الكتاب بيد عامر الشعبي وهو لم يشهد مع الشاهدين بصحة نسبة الكتاب ولا حظ ذلك ابن الأشتر، فلما أراد إبراهيم الرجوع إلى رحله أخذ بيد الشعبي وقال له: انصرف معنا، ومضى به مع أبيه حتى دخل رحله ثم قال له: يا شعبي! إنني قد حفظت عليك أنك لم تشهد ولا أبوك بالكتاب، أفترى هؤلاء شهدوا على حق؟!

وكان الشعبي يتهم القوم في شهادتهم، ولكنه كان يرى رأيهم ويحبّ تمام الأمر للمختار ويعجبه الخروج (والثورة) فلم يعلمه بما في نفسه وقال له: إنهم قد

ص: ١٦٢

شهدوا بذلك وهم فرسان العرب ومشيوخ مصر وسادة القراء! ولا أرى مثل هؤلاء يقولون إلا حقاً! فقال له ابن الأشتر: فاكتب لي بأسمائهم فإنني لست أعرف كلهم. ثم دعا بدواة وصحيفة فكتب له الشعبي: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما شهد به السائب بن مالك الأشعري، ويزيد بن أنس الأسدي، وأحمر بن شميطة الأحمسي، ومالك بن عمرو النهدي و... شهدوا: أن محمد بن عليّ كتب إليّ إبراهيم بن الأشتر يأمره بمؤازرة المختار ومظاهرتة على قتال المحلّين، والطلب بدماء «أهل البيت». وشهد بشهادة هؤلاء نفر: عبد الرحمن بن عبد الله النخعي وشراحيل بن عبد الشعبي الفقيه! وابنه عامر ٣٤٢!

ثم دعا إبراهيم إخوانه وعشيرته ومن أطاعه إلى ما هو عليه، وأقبل يروح في كلّ عشية عند المساء إلى المختار فيمكث عنده حتّى تصوّب النجوم ثمّ ينصرف إلى أهله، حتّى اجتمع رأيهم على أن يخرجوا ليلة الخميس لأربع عشرة من ربيع الأول سنة ستّ وستين ٣٤٣ أي بعد سنة من ليلة هلاك يزيد.

مقابلة قوآت الكوفة:

لعلّ اجتماع آراء أنصار المختار على مختارهم في خروجهم ليلة الخميس القابل، كان في أوائل الأسبوع، وكان ابن المطيع قد أطاع ابن عمر فأطلق المختار، وكان قد جعل على شرطته في الكوفة إياس بن مضارب العجلي فاطّلع على الخبر وأتى إلى ابن المطيع وقال له: إنّ المختار خارج عليك إحدى ليلتين (كذا).

ففي يوم الاثنين جمع ابن المطيع رؤساء الأسباع، فعين عبد الرحمن بن سعيد العبدى لجبّانة السبيع وقال له: اكفني قومك لا اوتين من قبلك، وأحكم أمر

ص: ١٦٣

الجبّانة التي قبلك لا يحدثنّ بها حدث فأوليك العجز والوهن! وعيّن كعب بن أبي كعب الخثعمي لجبّانة بشر، وعيّن زحر بن قيس الكندي لجبّانة كندة، وعيّن شمر بن ذى الجوشن الكلابي الضبابي لجبّانة سالم، وعيّن عبد الرحمن بن مخنف بن سليم الأزدي لجبّانة الصائديين الهمدانيين، وعيّن يزيد بن الحارث بن رويم الشيباني لجبّانة مراد، وأوصى كلّ رجل منهم أن يكفيه قومه وأن يحكم الوجه الذي وجّهه فيه فلا يؤتى من قبله، وعيّن شيث بن ربيع اليربوعي التميمي إلى السبخة، وقال له: إذا سمعت صوت القوم فوجّه نحوهم. فخرج هؤلاء إلى أماكنهم يوم الاثنين فنزلوا منازلهم ٣٤٤.

قال حميد بن مسلم الأزدي: فلمّا كان عند غروب الشمس من يوم الاثنين قام إبراهيم بن الأشتر فأذنّ ثمّ استقدم فصلّى بنا المغرب، فلمّا اشتدّ الظلام بعد المغرب خرج بنا يريد المختار ٣٤٥ وخرجت معه من منزله بعد المغرب ليلة الثلاثاء ونحن معه كتيبة نحو من مئة، علينا الدروع قد سترناها بالأقبيّة، ونحن متقلدوا السيوف في عواتقنا ليس معنا سلاح سواها. فلمّا مررنا بدار سعيد بن قيس وجزناها إلى دار اسامة قلنا لإبراهيم: مرّ بنا على دار خالد بن عرفطة ثمّ امض بنا إلى بجيلة نمرّ في دورهم حتّى نخرج إلى المختار.

وكان إبراهيم فتى حدثاً شجاعاً لا يكره أن يلقاهم فقال: واللّه لأمرنّ على دار عمرو بن حريث إلى جانب القصر وسط السوق! ولأرعبنّ به عدونا ولأرينّهم هوانهم علينا! فأخذ بنا على دار هبار ثمّ أخذ بنا ذات اليمين على دار عمرو بن حريث حتّى إذا جاوزها ألفينا إياس بن مضارب في الشرط عليهم أسلحتهم، فقال لنا: من أنتم وما أنتم؟! فقال له إبراهيم: أنا إبراهيم بن الأشتر. قال إياس:

ص: ١٦٤

٣٤٣. المصدر السابق ١٨: ٦.

٣٤٤. تاريخ الطبري ١٨: ٦-١٩ عن أبي مخنف.

٣٤٥. المصدر السابق ١٨: ٦.

وما هذا الجمع معك؟ وما تريد؟ وقد بلغني أنك تمرّ كلّ عشية هاهنا! فما أنا بتاركك حتّى آتى بك الأمير فيرى فيك رأيّه! قال إبراهيم: لا أبا لغيرك خلّ سبيلنا! قال: كلّاً واللّه لا أفعل.

وكان مع إياس رجل من همدان يقال له أبو قطن ومعه رمح طويل، فقال له ابن الأشر: يا أبا قطن ادن منّي، فدنا أبو قطن من إبراهيم، فتناول إبراهيم رمحه من يده وقال: إنّ رمحك هذا لطويل! ثمّ حمل به على إياس فطعنه في ثغرة نحره فصرعه، وأمر رجلا من قومه أن ينزل إليه فيحتزّ رأسه، فنزل إليه واحتزّ رأسه وحمله معه، وتفرّق أصحابه راجعين إلى القصر! واخبروا بذلك ابن مطيع، وكان ابن مطيع قد بعث راشد بن إياس العجلي على جند في الكناسة، فبعث إليه الليلة وجعله مكان أبيه على الشرطة! وبعث مكانه إلى الكناسة سويد بن عبد الرحمن المنقرى التميمي ٣٤٦.

يالثارات الحسين (ع):

وأقبل إبراهيم بن الأشر تلك الليلة ٣٤٧ حتّى دخل عليه (على المختار) وقال له: إنّنا اتّعدنا للخروج الليلة القابلة ليلة الخميس، وقد حدث أمر لا بدّ من الخروج الليلة! فقد عرض لى إياس بن مضارب في الطريق ليحبسني فقتلته، وهذا رأسه مع أصحابي على الباب.

فقال المختار: بشرك الله بخير! فهذا أوّل الفتح إن شاء الله، فهو طير (تفوّل) صالح ٣٤٨!

ص: ١٦٥

وكان قد بايع المختار حتّى ذلك النهار اثنا عشر ألفا ٣٤٩! وكان قد تواعد معهم لليلة الخميس، وأن يشعل لذلك النيران في القصب في سطح داره وينادي مناديه بشعار الأنصار في بدر: يا منصور أمت، ويالثارات الحسين (ع).

فالتفت هنا المختار إلى سعيد بن منقذ وقال له: يا سعيد! قم فأشعل النيران في هراي القصب، وارفعها للمسلمين، وأنت يا عبد الله بن شدّاد! قم فناد:

يا منصور أمت، وأنت يا سفيان بن ليلى ويا قدامة بن مالك فنادوا: يالثارات الحسين (ع) ودعا بدرعه وسلاحه فلبسها.

ويظهر أنّ ابن الأشر كان يبايع للمختار، فقال له: لو أنّي خرجت بمن معي من أصحابي حتّى آتى قومي فيأتيني من بايعني منهم، ثمّ سرت بهم في نواحي الكوفة داعياً بشعارنا، فيخرج إلينا من أراد الخروج معنا، ويأتيك منهم من يقدر، فإذا فرغت من هذا الأمر عجّلت إليك في الخيل والرجال؟

قال المختار: فاعجل في ذلك، وإياك أن تسير فتقاتل أحداً إلا أن يبدأك أحد بقتال ٣٥٠.

٣٤٦. تاريخ الطبري ١٩: ٦-٢٠ عن أبي مخنف.

٣٤٧. الخبر عن حميد بن زياد وفيه اضطراب، فقد مرّ أنّ خروج ابن الأشر هذا كان مساء الاثنين ليلة الثلاثاء، وهنا قال: ليلة الأربعاء وهذا الثاني هو الأولى.

٣٤٨. تاريخ الطبري ٢٠: ٦ عن أبي مخنف.

٣٤٩. تاريخ الطبري ٢٣: ٦ عن أبي مخنف.

٣٥٠. تاريخ الطبري ٢٠: ٦-٢١ عن أبي مخنف.

إبراهيم يجمع من بايع ويقا تل بهم:

فخرج إبراهيم من عنده فى كتيبته حتّى أتى قومه النخع من همدان فاجتمع إليه جلّ من كان بايعه، فسار بهم فى سكك الكوفة طويلاً من الليل حتّى انتهى إلى مسجد السّكون من كنده، وكان عليها زحر بن قيس الجعفى (الكندى) فقال إبراهيم: من صاحب الخيل فى جبّانة كنده؟ فقبل له: زحر بن قيس، فقال:

ص: ١٦٦

انصرفوا بنا عنهم. وعجلت إليه خيل منهم بلا أمير ولا قائد، فقال إبراهيم: اللهمّ إنّك تعلم أنّا غضبنا «لأهل بيت» نبيك، وثرنا لهم، فانصرنا عليهم، وتمّم لنا دعوتنا! فلمّا انتهى إليهم هو وأصحابه شدّ عليهم بهم فكشفوهم حتّى دخلوا جبّانة كنده، وركب بعضهم بعضاً، كلّما لقيهم دخل طائفة منهم فى زقاق، فقال لأصحابه:

انصرفوا عنهم، فانصرفوا يسرون.

حتّى انتهوا إلى جبّانة اثير، فوقف فيها ونادى أصحابه بشعارهم، وكان فيها على الخيل سويد بن عبد الرحمن المنقرى التميمى، فبلغه مكانهم فسار بجمعه إليهم، فلم يشعر ابن الأشتر إلا وهم معه فى الجبّانة، فلمّا رأى ابن الأشتر ذلك قال لأصحابه: يا شرطه الله! انزلوا، فإنّكم أولى بالنصر من الله من هؤلاء الفساق الذين خاضوا فى دماء «أهل بيت» رسول الله (ص). ثمّ شدّ إبراهيم عليهم بأصحابه فضربوهم حتّى أخرجوهم إلى الصحراء منهزمين يركب بعضهم بعضاً! ولم يزل يهزمهم حتّى أدخلهم كناسة الكوفة. ثمّ قال لأصحابه: سيروا بنا إلى صاحبنا حتّى نكون على علم من أمره فإنّنى لا آمن أن يؤتى، وحتّى يؤمن الله وحشته بنا ويزداد هو وأصحابه بصيرة وقوّة إلى قواهم وبصيرتهم، ويعلم هو أيضاً ما كان من عائننا.

ثمّ أقبل إبراهيم حتّى مرّ بمسجد الأشعث الكندى ثمّ مضى حتّى وصل إلى دار المختار ٣٥١.

أوائل قتال المختار:

استجاب لشعار المختار من أنصاره أحمر بن شميّط الأحمسى ويزيد بن أنس الأسدى فى جموع ممّن بايعه. وجاءه من قبل السبخة شبت بن ربعى اليربوعى التميمى، فعبّا المختار له يزيد بن أنس الأسدى، وجاءه حجّار بن أبجر

ص: ١٦٧

العجلى فجعل المختار فى وجهه أحمر بن شميّط الأحمسى، فبينما هم كذلك وإذا بإبراهيم جاءهم من قبل دار الإمارة، فبلغ أصحاب الحجّار أنّ إبراهيم جاءهم من ورائهم فتفرّقوا فى الأزقة والسكك، وجاء قيس بن طهفة النهدى من أصحاب المختار فى مئة رجل منهم فحمل على أصحاب شبت بن ربعى حتّى خلّوا لهم الطريق فاجتمعوا بأصحاب المختار، فخرج المختار بهم حتّى نزل فى ظهر دير هند ممّا يلى بستان زائدة فى السبخة.

وكان فى جبّانة بشر من قبل ابن مطيع: كعب بن أبى كعب الخثعمى، وكان فى جبّانة بشر الشاكريون من همدان، وقد اجتمعوا فى دورهم يخافون أن يظهروا فى الميدان لقرب كعب الخثعمى منهم، فخرج أبو عثمان النهدى من أصحاب المختار فنادى فى بنى شاكر فأخرجهم إلى المختار، فلمّا بلغ الخثعمى أن شاكرًا تخرج أقبل يسير حتّى نزل بالميدان وأخذ عليهم

بأفواه سككهم وطرقهم، فنادى النهدي في أصحابه: يالثرات الحسين! يا منصور أمت، يا أيها الحي المهتدون! ألا إن أمير آل محمد ووزيرهم قد خرج فنزل دير هند، وبعثني إليكم مبشراً وداعياً، فاخرجوا إليه يرحمكم الله! فخرجوا من دورهم يتداعون: يالثرات الحسين! ثم ضاربوا الخنعمى حتى خلى لهم الطريق فأقبلوا إلى المختار حتى نزلوا في عسكره.

وكان مائتان من خنعم قد بايعوا المختار فخرج بهم الليلة عبد الله بن قراد الخنعمى، فعرض لهم كعب الخنعمى، ولما عرفهم أنهم قومه خلى لهم الطريق حتى لحقوا بالمختار فنزلوا في عسكره.

وكان على جبانة السبيع من قبل ابن مطيع: عبد الرحمن بن سعيد، واجتمع من جمع المختار من شبام إلى جبانة مراد فبعث إليهم عبد الرحمن: أن إذا كنتم تريدون اللحاق بالمختار فلا تمروا بي في جبانة السبيع! فلحقوا بالمختار من طريق آخر.

ص: ١٦٨

حتى توفي إليه من اثني عشر ألفا كانوا بايعوه: ثلاثة آلاف وثمانمائة رجل! اجتمعوا له قبل الفجر فعبأهم حتى أصبح ٣٥٢. استعداد الوالى ومقابلة المختار:

نادى المنادون: ألا برئت الذمة من رجل لم يحضر المسجد الليلة (السحر قبل الفجر) فاجتمع الناس في المسجد. وكان ابن مطيع قد جعل على الشرطة بعد إياس ابنه راشد العجلي فبعثه إلى المختار في أربعة آلاف من الشرط، وبعث شيب بن ربيع في ثلاثة آلاف، قبل أن يصلى بهم!

ولما أصبح المختار استقدم في غلس الفجر فصلّى بهم فقرأ في الأولى بعد الفاتحة «النّازعات» وفي الثانية «عبسَ وَ تَوَلَّى» وكان فصيحاً في قراءته.

فلما انصرفوا سمعوا أصواتاً مرتفعة فيما بين بنى سليم وسكة البريد، فقال المختار لمن حوله: من يعلم لنا ما هؤلاء؟ وكان فيهم من الموالى أبو سعيد الصيقل فقال: أنا. فقال المختار: فألق سلاحك وادخل فيهم كأنك من النظار ثم ائتني بخبرهم.

قال الصيقل: فدنوت منهم فإذا مؤذّنهم يقيم للصلاة ثم تقدّم شيب فصلّى فقرأ بعد الحمد «إِذَا زُلْزِلَتْ» وفي الثانية بعد الحمد «وَالْعَادِيَات» فقال له بعضهم:

لو قرأت سورتين أطول! فقال: ترون الديلم ٣٥٣ قد نزلت بساحتكم وتقولون: لو قرأت سورة البقرة وآل عمران ٣٥٤! وكانوا ثلاثة آلاف.

قال الصيقل: فعدت إلى المختار، فلما أتته أناه معى سعر الحنفى من قبل جبانة مراد وفيها راشد بن إياس فأخبر المختار بخبر راشد وأخبرته بخبر شيب،

٣٥٢. تاريخ الطبرى ٢٢: ٦-٢٣ عن أبى مخنف.

٣٥٣. ممّا يدل على كثرة الموالى فى عسكر المختار.

٣٥٤. يلاحظ أن المقروء بعد الحمد لهم سور لا آيات منها.

ص: ١٦٩

فسرَّحَ للراشد إبراهيم بن الأشتر في ستمائة فارس وستمائة راجل، وبعث نعيم بن هبيرة الشيباني - أخا مصقلة - في ثلاثمائة فارس وستمائة راجل لمقابلة شبت التميمي، وقال لهما: لا ترجعا إليَّ حتَّى تظهرا أو تقتلا!

وقدَّم المختار أمامه يزيد بن أنس الأسدي في تسعمائة إلى موضع مسجد شبت ٣٥٥.

نكسة الشيباني:

قال الصيقل: توجه نعيم بن هبيرة الشيباني ومعه سر الحنفي التميمي وأنا معهم إلى شبت بن ربيعي التميمي، فجعل الشيباني الحنفي التميمي على الخيل ومشى هو بالرجالة، فقاتل الأشعث ومن معه قتالاً شديداً حتَّى أشرقت الشمس وانبسطت فhezهم، ثم نادى شبت بن ربيعي أصحابه: يا حماة السوء! بئس فرسان الحقائق أنتم! أمن «عبيدكم» تهربون! فأبت إليه جماعة منهم فشدَّ بهم على نعيم الشيباني وصبر هذا له فقتل، وانهزم أصحابه وتفرقوا، واسر منهم سر الحنفي وخليد مولى ابن محدوج والراوى الصيقل.

قال الصيقل: وكان خليد مولى ابن محدوج وسيماً جسيماً وكان قد اعتق فكان يبيع إداماً من السمك يسمي الصحن، فلمَّا احضر عند شبت قال له: يا ابن (كذا)! كان جزاء من أعتقك أن تعدو بسيفك عليه تضرب رقابه! اضربوا عنقه! فقتل.

ص: ١٧٠

قال الصيقل: ورأى الربيعي التميمي سعراً الحنفي التميمي في الأسرى فعرفه فناداه: أنت أخو بني حنيفه (من تميم)؟! قال: نعم، قال: ويحك قبح الله رأيك! ما أردت من أتباعك هؤلاء «السبائية» ٣٥٦ دعوا هذا. فتركوه. قال الصيقل:

فقلت في نفسي: قتل المولى وترك العربي، فلو عرفني أني مولى قتلني.

فلما عرضت عليه سألتني: من أنت؟ أعربي أنت أو مولى؟! قلت: لا بل عربي من آل زياد بن خصفة! فقال: بخ بخ ذكرت الشريف المعروف! الحق بأهلك! قال الصيقل: وكانت لي بصيرة في قتال القوم فقلت في نفسي: والله لآتين أصحابي فلاواسينهم بنفسي، ففتح الله العيش بعدهم! فأتيتهم وقد سبقني إليهم سر الحنفي وخبر مقتل نعيم بن هبيرة الشيباني وهزيمة أصحابه، وأقبل الأشعث بخيله إلى المختار، فدخل من ذلك على أصحاب المختار أمر خطير! وجاء شبت حتَّى أحاط بالمختار وأصحابه، وجاء يزيد بن الحارث بن رويم في ألفين من قبل ابن مطيع حتَّى وقفوا في أفواه سكك جرير. فولَّى المختار على خيله يزيد بن أنس، وهو التزم الرجالة ٣٥٧.

حملة شبت ومقابلته:

٣٥٥. تاريخ الطبري ٢٤: ٦، والصيقل أبو سعيد من الموالى بالكوفة.

٣٥٦. لعلَّ هذا أقدم خبر جاءت فيه هذه النسبة «السبائية» تعبيراً بالتهالك في حبِّ عليٍّ وأبنائه.

٣٥٧. تاريخ الطبري ٢٥: ٦-٢٦ عن أبي مخنف.

روى أبو مخنف الأزدي عن الحارث بن كعب الأزدي الوالبى وكان مع يزيد بن أنس فى خيل المختار، قال: قال لنا يزيد بن أنس: يا معشر «الشيعة» قد كنتم تقتلون، وتقطع أيديكم وأرجلكم، وتسمل أعينكم، وترفعون على جذوع النخل فى حبّ «أهل بيت» نبيكم، وأنتم مقيمون فى بيوتكم وطاعة عدوكم! فما

ص: ١٧١

ظنكم إن ظهر عليكم اليوم هؤلاء القوم؟! إذا- واللّه- لا يدعون منكم عيناً تطرف، وليقتلنكم صبراً! ولترون منهم فى أولادكم وأزواجكم وأموالكم ما الموت خير منه! واللّه لا ينجيكم منهم إلا الصبر والصدق، والطعن الصائب فى أعينهم، والضرب المتدارك على هامهم! فتيسروا للشدة وتهيؤوا للحملة، فإذا حرّكت رايتى مرتين فاحملوا. قال الحارث: فتهيأنا وانتظرنا أمره.

وفى هذه الأثناء ...

حملات إبراهيم النخعي:

توجّه إبراهيم بن الأشتر إلى راشد بن إياس وكان فى أربعة آلاف من مراد، فقال النخعي لأصحابه: لا يهولنكم كثرة هؤلاء، فواللّه لربّ رجل خير من عشرة، كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله واللّه مع الصّابرين ٣٥٨ ثم سرح إليهم خزيمه بن نصر العبسى فى خيله، والتزم هو بالرجالة ورايته بيد مزاحم بن الطفيل، وقال له: امض برايتك وازدلف بها قدماً قدماً! وبدأ القتال واشتدّ، وبصر خزيمه العبسى براشد بن إياس فحمل عليه فطعنه فقتله ونادى: قتلت راشداً وربّ الكعبة. فانهزم أصحابه، وتراجع عنهم خزيمه العبسى وإبراهيم النخعي.

وبعث إبراهيم النعمان بن أبى الجعد إلى المختار بشيراً بقتل راشد والفتح للمختار.

وسرح ابن مطيع حسان بن فائد العبسى فى ألفين ليعترض طريق النخعي ليردّه عن أصحاب ابن مطيع فى السبخة، وبلغ خبره النخعي فقدم خزيمه العبسى فى خيله، والتزم هو بالرجالة، فلم يلبث جمع حسان العبسى دون أن انهزموا بلا

ص: ١٧٢

قتال؛ وخلفهم أميرهم حسان العبسى وعثر به فرسه فوق وقع وآمنه خزيمه العبسى وطلب فرسه وحمله عليه وقال له: الحق بأهلك!

وكان على أفواه سكك الكوفة نحو السبخة يزيد بن الحارث بن رويم، فلما أقبل النخعي نحوهم أقبل يزيد ليصدّهم عن الحملة على شبت وأصحابه، فقال النخعي لخزيمه العبسى: أغن عناً يزيد بن الحارث، وصمد هو فى بقيّة أصحابه نحو شبت، فلما أقبل نحوهم أخذ شبت وأصحابه ينكصون رويداً رويداً، وحمل إبراهيم عليهم، وحمل عليهم يزيد بن أنس، فانكشفوا حتّى انتهوا إلى أبيات الكوفة. ولكنّ يزيد بن الحارث كان قد وضع رماة فوق البيوت على أفواه السكك، فلما أقبل المختار بجمعه إليهم رماهم أولئك الرماة بالنبال فصدّوهم عن دخول الكوفة من هناك.

فمضى المختار من السبخة إلى الجبانة إلى بيوت منفردة شاذة من أحمس وبارق ومزينة فنزل عند بيوتهم ومسجدهم، فاستقبلوهم بالماء. وقال المختار:

نعم مكان المقاتل هنا ٣٥٩!

خطبة ابن مطيع وحملة النخعي:

وقال عمرو بن الحجاج الزبيدي لابن مطيع: أيها الرجل! لا يسقط في خلدك، ولا تلق بيدك (إلى التهلكة)، اخرج إلى الناس فاندبهم إلى عدوك فاغزهم! فإن الناس كثير عددهم وكلهم معك إلا هذه الطاغية التي خرجت على الناس! والله مخزيبها ومهلكها! وأنا أول منتدب، فاندب معي طائفة ومع غيري طائفة!

ص: ١٧٣

فخرج ابن مطيع وقام خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس! إن من أعجب العجب عجزكم عن عصبه منكم قليل عددها! خبيث دينها! ضالة مضلة! اخرجوا إليهم فامنعوا منهم حريمكم! وقاتلوا عن مصركم وامنعوا منهم فينكم! وإلا فوالله ليشاركنكم في فينكم من لا حق له فيه! (الموالي) فوالله لقد بلغني أن فيهم خمسمائة من محرريكم وأميرهم منهم! وإنما ذهاب عزكم وسلطانكم وتغير دينكم حين يكثرون هؤلاء (الموالي)! ثم سكت ونزل ٣٦٠.

وبعث عمرو بن الحجاج في ألفي رجل، فخرج على أصحاب المختار من سكة الثوريين الهمدانيين، فدعا المختار يزيد بن أنس فأمره أن يصمد لعمرو بن الحجاج، فمضى نحوه، وبعث المختار إلى إبراهيم أن لا تقم على ابن الحجاج واطوه، فطواه إبراهيم وانبعث المختار خلفه، فمضوا جميعاً حتى انتهى المختار إلى مصلى خالد بن عبد الله فوقف، وأمر إبراهيم أن يمضي على وجهه حتى يدخل الكوفة من الكناسة، فمضى نحوها.

وأقبل شمر بن ذى الجوشن في ألفين: فسرح المختار إليه سعيد بن منقذ الهمداني، وبعث إلى إبراهيم أن امض على وجهك واطوه. واقف سعيد الهمداني شمرأً، وطواه إبراهيم حتى انتهى إلى سكة شبت، وإذا نوفل بن مساحق بن مخرمة القرشي في ألفين أو خمسة آلاف.

فلما أقبل ابن الأشر بأصحابه قال لهم: انزلوا. فنزلوا، فقال لهم: قربوا خيولكم بعضها من بعض ثم امشوا إليهم بسيوفكم.. فإن هؤلاء لو قد وجدوا حر السيوف انصفقوا عن ابن مطيع انصفاق المعزى عن الذئب. وكان ابن الأشر قد تمنطق بحاشية برد أحمر، ورفع أسفل قبائه فادخله في منطقتة، وكان قد ستر درعه تحت قبائه، ثم قال لأصحابه: شدوا عليهم فدى لكم عمي وخالي! ثم

ص: ١٧٤

٣٥٩. تاريخ الطبري ٢٧: ٦- ٢٩ عن أبي مخنف.

٣٦٠. تاريخ الطبري ٢٨: ٦ عن أبي مخنف، عن يحيى بن هانئ بن عروة المرادي، وكان مع الناس في المسجد وليس مع المختار وأصحابه.

هجم عليهم فما لبثهم حتى هزمهم يركب بعضهم بعضا، وانتهى ابن الأشر إلى ابن مساحق فأخذ بلجام فرسه ورفع سيفه إليه فأنشده الله فخلّى سبيله! ثم ساروا في آثارهم حتى دخلوا السوق والمسجد وحصروا القصر على ابن مطيع ٣٦١.

حصر ابن مطيع في القصر:

لجأ الأمراء إلى الأمير الزبيرى ابن مطيع العدو القرشى في دار الإمارة، إلا عمرو بن حريث المخزومي حيث خرج خارج الكوفة، وجاء المختار حتى نزل جانب السوق، وولى ابن الأشر لحصار القصر من بابه إلى المسجد، وولى يزيد بن أنس سكة دار الروميين وراء دار الإمارة إلى بنى حذيفة، وولى أحمر بن شميظ الأحمسى ما يلي دار أبى موسى الأشعرى ودار عمارة بن عقبة بن أبى معيط الأموى. ومكث ابن مطيع في القصر يرزق أصحابه الدقيق ٣٦٢.

وفي العشيّ أشرف من القصر عبد الله الليثى على أصحاب المختار يشتمهم، فرماه أبو نمران مالك النهدي بسهم قطع جلده حلقه ٣٦٣.

ولما اشتدّ الحصار قام شيب إلى ابن مطيع وقال له: والله ما عندك ومن معك غناء عنك ولا عن أنفسهم، فانظر لهم ولنفسك! فقال ابن مطيع: أشيروا علىّ برأيكم. فقال شيب: خذ من هذا الرجل أمانا لنا ولنفسك! فكره ذلك ابن مطيع وقال: هذا والأمور مستقيمة لأمير المؤمنين بالحجاز والبصرة! فقال شيب:

فتخرج من حيث لا يشعر بك حتى تنزل منزلاً بالكوفة عند من تتق به حتى تخرج فتلق بصاحبك! وكان عنده أسماء بن خارجة الفزارى وعبد الرحمان بن سعيد بن قيس الهمداني وعبد الرحمان بن مخنف الأزدي وآخرون فقال لهم:

ص: ١٧٥

فما ترون في هذا الرأي؟ قالوا: ما نرى إلا ما أشار به عليك. فقال: فرويدا حتى نمسى.

فلما أمسى اليوم الثالث من الحصار دعاهم فذكر الله بما هو أهله وصلى على نبيه ثم قال:

أما بعد، فقد علمت الذين صنعوا هذا من هم! وإنما هم أرادلكم وسفهاؤكم وأخسأؤكم وطغامكم ما عدا الرجل أو الرجلين! وإن أشرافكم وأهل الفضل منكم لم يزلوا سامعين مطيعين مناصحين، وأنا مبلغ ذلك صاحبي! ومعلمه طاعتكم وجهادكم وعدوكم حتى كان الله الغالب على أمره.

وقد كان من رأيكم وما أشرت به علىّ ما قد علمتم، وقد رأيت أن أخرج الساعة ... وجزاكم الله خيرا، وليأخذ كل امرئ منكم حيث أحبّ.

ثم خلّى القصر وخرج من نحو درب الروميين إلى دار أبى موسى الأشعرى!

٣٦١. تاريخ الطبرى ٢٩: ٦- ٣٠ عن أبى مخنف.

٣٦٢. تاريخ الطبرى ٣١: ٦ عن أبى مخنف.

٣٦٣. المصدر السابق ٣٢: ٦ عن أبى مخنف.

وبعده فتح أصحابه باب القصر وطلبوا الأمان فآمنهم على أن يبايعوه فخرجوا وبايعوه، فدخل المختار القصر ليلاً فبات فيه ٣٦٤.

خطبة المختار وبيعته وعطاؤه:

وأصبح الناس في المسجد، وخرج المختار إليهم فصعد المنبر، فقال:

الحمد لله الذي وعد وليه النصر وعدوه الخسر، وجعله فيه إلى آخر الدهر، وعداً مفعولاً وقضاءً مقضياً وقد خاب من افتري! أيها الناس! إنه رفعت لنا راية ومدت لنا غاية، فقبل لنا في الراية: أن ارفعوها ولا تضعوها، وفي الغاية: أن اجروا إليها ولا تعدوها. فسمعنا دعوة الداعي ومقالة

ص: ١٧٦

الواعي، فكم من ناع وناعية لقتلى في الواعية! وبُعداً لمن طغى، وأدبر وعصى، وكذب وتولى.

ألا فادخلوا أيها الناس بايعوا بيعة الهدى، فلا- والذي جعل السماء سقفاً مكفوفاً والأرض فجاجاً سبلاً- ما بايعتم بعد بيعة على بن أبي طالب وآل على بيعة أهدى منها! ثم سكت ونزل.

ودخل دار الإمارة ودخل عليه الناس وأشرافهم، فبسط لهم يده فبايعوه وهو يقول لهم:

تبايعوني على كتاب الله وسنة نبيه والطلب بدماء «أهل البيت» وجهاد المحلّين، والدفع عن «الضعفاء» وقتال من قاتلنا وسلم من سالمنا والوفاء ببيعتنا لا نقيلكم ولا نستقيلكم! فإن قال الرجل: نعم، بايعه. وجعل المختار يميني الناس ويستجرو مودتهم ويحسن سيرته جهده!

وأصاب المختار في بيت مال الكوفة تسعة آلاف ألف (ملايين) درهماً، وكان أصحابه الذين قاتل بهم وحصر ابن مطيع في القصر ثلاثة آلاف وثمانمائة رجل، فأعطى كل رجل خمسمائة درهم، وبعد ما أحاط بالقصر أتاه من أصحابه (الذين بايعوه من قبل) ستة آلاف! فأقاموا معه تلك الأيام الثلاثة حتى دخل القصر، فأعطى كل واحد منهم مائتين مائتين، واستقبل الناس بخير ومناهم العدل وحسن السيرة.

واستعمل على شرطته عبد الله بن كامل الشاكري (الهمداني) وعلى حرسه أبا عمرة كيسان مولى بني عرينة. وجاءه ابن كامل فأخبره أن ابن مطيع في دار أبي موسى الأشعري، فلما أمسى المختار بعث إلى ابن مطيع بمائة ألف درهم! وقال له: إنني قد شعرت بمكانك، وقد ظننت أنه لم يمنعك من الخروج إلا أنه ليس في يديك ما يقويك على الخروج فتجهز بهذه واخرج ٣٦٥.

ص: ١٧٧

٣٦٤. تاريخ الطبري ٣١: ٦ عن أبي مخنف.

٣٦٥. تاريخ الطبري ٣٢: ٦-٣٣ عن أبي مخنف.

وولّى على توابع الكوفة:

كان عبد الله بن الزبير ولّى على الموصل محمد بن الأشعث بن قيس الكندي فى إمارة إبراهيم بن محمد بن طلحة التيمى، وعبد الله بن يزيد الأنصارى على الكوفة، وابن الأشعث مستقلاً عنهما، ولكنه فى إمارة ابن مطيع أمره ابن الزبير بالسمع والطاعة لابن مطيع ومكاتبته، غير أن ابن مطيع لا يقدر على عزله. فبعث المختار على الموصل عبد الرحمان بن سعيد بن قيس الهمداني، فلما قدم هذا من قبل المختار أميراً على الموصل تنحى له ابن الأشعث مع أشراف قومه إلى تكريت، ثمّ شخص إلى الكوفة فبايع المختار ودخل فيما دخل فيه أهل بلده!

وكان سعد بن حذيفة بن اليمان بالمداين فبعثه على حلوان وأرسل إليه معه ألفى فارس، وجعل له فى كلّ شهر ألف درهم، وأمره بإقامة الطرق وقتال الأكراد المتمردّين فى الطرق، ثمّ كتب إلى عمّاله على الجبال يأمرهم أن يحملوا أموال كورهم إلى سعد بن حذيفة.

وبعث حبيب بن منقذ الثورى الهمداني على بهقباد الأسفل، ومحمد بن كعب بن قرظّة على بهقباد الأوسط، وقدامة النصرى مولى ثقيف على بهقباد الأعلى، وبعث محمد بن عمير بن عطار على آذربايجان، وعقد لعم إبراهيم: عبد الله بن الحارث النخعي أخى الأشتر على أرمينية ٣٦٦.

ومدحه الشعراء:

كان عبد الله بن همّام الجشمى من هوازن بالكوفة عثمانىّ الرأى والهوى وشاعراً، وسمع يوماً أبا عمره كيسان مولى عرينة يعيّر عثمان بن عفّان وينال منه،

ص: ١٧٨

فرفع عليه السوط وقنّعه بها، فلما أصبح اليوم رئيس حرس المختار على رأسه اعتزل ابن همّام، بل اختفى حتّى طلب الأمان له عبد الله بن شدّاد الجشمى، فأمنه المختار، فجاء إليه بقصيدة مديح قال فيها:

وفى ليلة المختار ما يذهل الفتى	ويلهيه عن رود الشباب شموع
دعا «يالثارات الحسين» فأقبلت	كتائب من «همدان» بعد هزيع
ومن «مذحج» جاء الرئيس «ابن مالك»	يقود جموعاً عبّيت بجموع
ومن «أسد» وافى «يزيد» لنصره	بكلّ فتى حامى الذمار منيع
وجاء «نعيم» خير «شيبان» كلّها	بأمر لدى الهيجاء أحدّ جميع
وما «ابن شميّط» إذ يحرض قومه	هناك بمخدول ولا بمضيع

ولا «قيس نهد» لا ولا «ابن هوازن»
وكلّ أخو إخباتة وخشوع
وسار «أبو النعمان» لله سعيه
إلى «ابن إياس» مصحراً لوقوع
بخیل عليها يوم هيجا دروعها
وأخرى حسوراً غير ذات دروع
فكرّ الخيول كرهة ثقفتهم
وشدّ بأولاها على ابن مطيع
فحوصر في «دار الإمارة» بائياً
بذل وإرغام له وخضوع
فمنّ وزير «ابن الوصي» عليهم
وآب الهدى حقاً إلى مستقره
وكان لهم في الناس خير شفيع
وبخير إياب آبه، ورجوع
إلى الهاشمي المهتدي المهتدي به
فنحن له من سامع ومطيع

فقال المختار لأنصاره: قد أئني عليكم وأحسن التناء فأحسنوا له الجزاء.

فقال يزيد بن أنس الأسدي: إن كان أراد بقوله ثواب الله فما عند الله خير له، وإن كان إنما اعتري أموالنا بهذا القول فوالله ما في أموالنا ما يسعه! قد كانت بقيت من عطائي بقيّة قويّت بها إخواني. وقال أحمر بن شميطة الأحمسي لابن

ص: ١٧٩

همّام: يا ابن همّام! إن كنت أردت بهذا القول وجه الله فاطلب ثوابك من الله، وإن كنت اعتريت به رضا الناس وطلب أموالهم فاكدم الجندل! فوالله ما من قال قولاً لغير الله وفي غير ذات الله بأهل أن ينحلّ ولا يوصل!

وكان قيس بن طهفة النهدي صهراً للأشعث بن قيس حاضراً فقال لابن همّام: فإنّ لك عندي فرساً ومطرفاً، وكذلك قال له عبد الله بن شدّاد الجشمي الذي استأمن له.

وقال المختار لهم: إذا قيل لكم خير فاقبلوه، وإن قدرتم على مكافأة فافعلوه وإن لم تقدروا فتتصلّوا، واتّقوا لسان الشاعر فإن شره حاضر وقوله فاجر! وسعيه بائر وهو بكم غداً غادر! وقد آمنّاه وأجرناه.

ثمّ قام إبراهيم النخعي فانصرف بالشاعر إلى منزله وأعطاه فرساً ومطرفاً وألف درهم ٣٦٧!

وكان المختار أول أمره يجلس للناس ضحياً وعصراً يقضي بينهم، ثمّ استقضى شريح القاضي، فأخذ أنصار المختار يذمّونه ويسندون إليه: أنّه عثمانى الرأى والهوى، فقد عزله على (ع) عن القضاء، وهو ممّن شهد على حجر بن عدى، ولم يبلغ عن هانئ بن عروة ما أرسله به، فلمّا سمع شريح بذلك تمارض ٣٦٨.

وروى المعتزلى: أنَّ المختار قال لشريح: ماذا قال لك أمير المؤمنين يوم كذا؟ وكان قد قضى قضاء نقمها عليه (ع)، فقال له: والله لأنفنيك إلى بانقيا (من قرى اليهود على فرات الكوفة) شهرين تقضى بين اليهود! ثم قُتِل (ع) قبل أن يفعل ذلك. فقال شريح للمختار: إنه قال لى كذا. فقال له المختار:

ص: ١٨٠

لا والله لا تقعد حتى تخرج إلى بانقيا تقضى بين اليهود! فسيّره إليها، فقضى بين اليهود شهرين ٣٦٩.

شرحبيل الهمداني إلى المدينة:

مرَّ أنَّ المختار لما أطلع على ملجأ ابن مطيع العدوى الأمير الزبيرى على الكوفة فى دار أبى موسى الأشعرى، جهّزه بمائة آلاف درهم ليخرج منها، وبذلك لم يهدم الجسر بينه وبين ابن الزبير نفسه.

واخبر المختار أنَّ عبد الملك بن مروان قد بعث عبد الملك بن الحارث الأموى إلى وادى القرى من الحجاز، فرأى أن يظاهر لابن الزبير بمناصرته فكتب إليه: أمّا بعد، فقد بلغنى أنَّ عبد الملك بن مروان قد بعث إليك جيشاً، فإن أحببت أن أمدك بمدد أمددتك.

فكتب ابن الزبير إليه: أمّا بعد، فإن كنت على طاعتي .. فإذا أتتني بيعتك صدقت مقالك وكففت جنودى عن بلادك! وعجل علىّ بتسريح الجيش الذى أنت باعته، فلست أكره أن تبعث الجيش إلى بلادى، ومرهم فليسيروا إلى من بوادى القرى من جند ابن مروان فليقاتلوهم، والسلام.

فدعا المختار شرحبيل بن ورس الهمداني وجعل معه سبع مائة رجل من العرب وألفين وثلاثمائة تمام الثلاثة آلاف من الموالى! وقال له: سر إلى المدينة، فإذا دخلتها فاكتب إلىّ بذلك حتى يأتيك أمرى!

فروى أبو مخنف عن إسماعيل بن نعيم وكان معهم قال: كان المختار يريد أن يبعث أميراً على المدينة من قبله ويأمر ابن ورس أن يمضى إلى مكة فيحاصر ابن الزبير ويقاتله!

ص: ١٨١

وخاف ابن الزبير من ذلك فبعث إلى المدينة عباس بن سهل بن سعد الساعدي فى ألفين وأمره أن يستنفر من قدر عليه من الأعراب فى طريقه (حتى يتكامل ثلاثة آلاف) وقال له: إن رأيت القوم على طاعتي فاقتل منهم، وإلا فكايدهم حتى تهلكهم!

وأقبل ابن ورس الهمداني حتى انتهى إلى ماء الرقيم (?) وقد هلكوا من قلّة الزاد معهم. وكان ابن ورس أخبر بقدوم جند ابن الزبير إليهم فعبأ أصحابه فجعل لخياله ميمنة وعليها سلمان بن حمير الثورى الهمداني، وميسرة فحسب، وعليها عياش بن جعدة الجدلى. وأقبل ابن سهل حتى لقي ابن ورس بالرقيم وقد تعباً، وجاء عبّاس فى أصحابه وهم منقطعون إعياء على

غير تعبئة، فوجد ابن ورس على الماء وقد عبأ أصحابه تعبئة القتال، فدنا فسلم عليه ثم عرض عليه أن يخلو معه فخلا به وقال له: رحمك الله أأست في طاعة ابن الزبير؟ قال ابن ورس: بلى! قال عباس: فإن كنت في طاعة ابن الزبير فقد أمرني أن أسير بك وبأصحابك إلى عدونا الذي بوادي القرى، فإن ابن الزبير حدثني أنه إنما أشخصكم صاحبكم إليهم.

فقال ابن ورس: ما امرت بطاعتك، وما أنا بمتبعك دون أن أدخل المدينة ثم أكتب إلى صاحبي فيأمرني بأمره! فقال عباس: فأريك فاعمل بما بدا لك، فأما أنا فأني سائر إلى وادي القرى!

وحيث رأى قلعة زادهم بعث عباس إلى كل عشرة منهم شاة، وبعث إلى ابن ورس بنوق وجزر فأهداها له وبعث بدقيق وغنم مسلخة، فذبحوا واشتغلوا بها واختلطوا على الماء وتركوا تعبئتهم واستأنموا.

ولما رأى عباس ما هم فيه من الانشغال، جمع من رجاله ألفاً من ذوى البأس والنجدة ثم أقبل بهم إلى فسطاط ابن ورس! فلما رآهم ابن ورس مقبلين إليه أخذ ينادى في أصحابه: يا شرطة الله! قاتلوا المحلّين أولياء الشيطان الرجيم وقد غدروا وفجروا! فلم يتواف إليه منهم حتى مائة رجل! بل بقي في سبعين من أهل

ص: ١٨٢

الحفاظ من أصحابه فقتلوا، وانصرف نحو من ثلاثمائة رجل مع سلمان بن حمير الهمداني وعياش بن جعدة الجدلي، ثم رفع العباس راية أمان لأصحاب ابن ورس، فأتوها إلا أولئك الأربعمائة تقريباً، فأمر بقتلهم جميعاً!

فقتلوا إلا نحواً من مائتي رجل كره بعض من دفعوا إليهم لقتلهم فخلوا سبيلهم فرجعوا فماتوا في الطريق جوعاً وعطشاً!

ورجع من رجع منهم إلى المختار فأخبروه خبرهم فقام خطيباً فقال: ألا إن الفجار الأشرار قتلوا الأبرار الأخيار، وقد كان أمراً مائتياً وقضاءً مقضياً.

ثم لم يقطع الطمع وأراد القود فكتب إلى ابن الحنفية كتاباً قال فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد، فأني كنت بعثت إليك جنداً! ليذلو لك الأعداء! وليحوزوا لك البلاد! فساروا إليك حتى إذا أظلوا على طيبة لقيهم جند الملحد! فخدعهم بالله وغرّهم بعهد الله، فلما اطمأنوا إليهم ووثقوا بذلك منهم وثبوا عليهم فقتلوهم، فإن رأيت أن أبعث إلى أهل المدينة من قبلى جيشاً كثيفاً وتبعث إليهم من قبلك رسلاً ليعلم أهل المدينة أنني في طاعتك وإنما بعثت الجند إليهم عن أمرى! فافعل، فإنك ستجد عظمهم أعرف بحقكم وأراف بكم «أهل البيت» منهم بآل الزبير الظلمة الملحدين، والسلام عليك. ثم دعا صالح بن مسعود الخنعمي فبعث الكتاب معه.

فكتب ابن الحنفية إليه: أما بعد، فإن كتابك لما بلغني قرأته وفهمت تعظيمك لحقي وما تنوى من سرورى. وإن أحب الأمور كلها إلى ما أطيع الله فيه، فأطع الله ما استطعت فيما أعلنت وأسررت. واعلم أنني لو أردت لوجدت الناس إلى سراعاً والأعوان لى كثيراً، ولكنني أعتزلهم وأصبر حتى يحكم الله لى وهو خير الحاكمين. وناولته لصالح بن مسعود الخنعمي رسول المختار وقال له: قل له فليتيق الله وليكفف عن الدماء!

ص: ١٨٣

فلما قدم صالح الخثعمي بكتاب العبد الصالح إلى المختار أظهر للناس أنه قد أمره بأمر يجمع البر واليسر ويضرح الكفر والغدر ٣٧٠. وحيث لم يحصل منه على مختاره انتهز الفرصة التالية لذلك.

فضيق ابن الزبير على ابن الحنفية:

اعتزل ابن الحنفية تمرّد المدينة على يزيد وبنى أمية، ولجأ إلى جوار بيت الله الحرام هو وأهله وبقايا بني هاشم، وطمع ابن الزبير في بيعتهم له فكرهوا البيعة لمن لم تجتمع عليه الأمة كما قالوا.

ولعلّ رسل ابن الزبير وعيونه أخبروه بأخبار المختار عن ابن الحنفية ورسله وكتبه واحتساب جيش المختار إلى تلك الديار على ابن الحنفية، وعدم مقاطعته وتبرّيه من المختار جهاراً، بل مراجعة سبعة عشر رجلاً من وجوه أهل الكوفة إلى ابن الحنفية دون ابن الزبير؛ لذلك حبس ابن الحنفية ومن معه من أهل بيته وأولئك السبعة عشر رجلاً من وجوه أهل الكوفة، في حظيرة زمزم، وتوعّدهم بالقتل والإحراق! وأعطى الله عهداً إن لم يبايعوا أن ينقذ فيهم ما توعّدهم به وضرب لهم أجلاً لذلك، وجعل عليهم حراساً يحرسونهم.

فأشار بعض من كان مع ابن الحنفية عليه: أن يبعث إلى المختار ومن بالكوفة رسولاً يعلمهم حاله ومن معه وما توعّدهم به ابن الزبير. ونام الحراس على باب زمزم، فكتب ابن الحنفية كتاباً إلى المختار وأهل الكوفة يعلمهم حاله وحال من معه وما توعّدهم به ابن الزبير من القتل والحرق بالنار! ويسألهم ألا يخذلوه - كما خذلوا الحسين وأهل بيته (عليهم السلام) - واختار لذلك ثلاثة أشخاص من الكوفيّين معه فأرسلهم بالكتاب في نومة الحراس.

ص: ١٨٤

وأفلت هؤلاء حتّى قدموا على المختار فدفعوا إليه الكتاب، وحيث أضر الكتاب السابق ولم يیده لأصحابه أظهر هذا وقرأه عليهم مجتمعين وقال:

هذا كتاب «مهديكم وصريح أهل بيت نبيكم» وقد تركوا محضوراً عليهم كما يحظر على الغنم! ينتظرون القتل والتحريق بالنار في آناء الليل وتارات النهار! ولست أبا إسحاق إن لم أنصرهم نصراً مؤزراً، وإن لم أسرب إليهم الخيل في إثر الخيل كالسيل يتلوه السيل، حتّى يحلّ بآبن الكاهليّة الويل! وإذن فقد ناصبه العداء علناً وجهاراً.

ثمّ كتب إلى ابن الحنفية بتوجيه الجنود إليه، وأرسله مع الطفيل بن عامر ومحمد بن قيس.

ثمّ وجّه أبا عبد الله الجدلي في سبعين راكباً من أهل القوة، ثمّ لحقه عمير بن طارق في أربعين راكباً، ثمّ يونس بن عمران في أربعين راكباً، ثمّ وجّه ظبيان ابن عمارة التميمي ومعه أربعمائة! ثمّ أبا المعتمر في مائة، ثمّ هاني بن قيس في مائة. فمضى الجدلي حتّى نزل ذات عرق، ثمّ لحقه عمير بن طارق في أربعين، ويونس بن عمران في أربعين فتّموا مائة وخمسين، فسار بهم حتّى دخلوا المسجد الحرام وهم يحملون «الكافر كوبات» ٣٧١ وينادون: «بالثارات الحسين» حتّى انتهوا إلى زمزم.

٣٧٠. تاريخ الطبري ٧٢: ٦-٧٥ عن أبي مخنف.

٣٧١. كلمة مركّبة من العربية: الكافر، والفارسية: كوب: أي آلة ضرب الكفار (المكّوار).

هذا، وقد بقي من أجلهم يومان وقد أعدوا عليهم الحطب ليحرقوهم! فطردوا الحرس وكسروا أعواد زمزم ليخرجوهم، فقال ابن الزبير: أتחסبون أنني مخلّ سبيلهم دون أن يبايع ويبايعوا! فأجابه الجدلي: إى وربّ الركن والمقام وربّ الحلّ والحرام لتخليّن سبيله أو لنجالدّنك بأسيافنا جلادا يرتاب منه

ص: ١٨٥

المبطلون! فقال ابن الزبير: واللّه ما هؤلاء إلا أكلة رأس! واللّه لو أذنت لأصحابي ما مضت ساعة حتّى تقطف رؤوسهم! فقال قيس بن مالك: أما واللّه إنّي لأرجو إن رمت ذلك أن يوصل إليك قبل أن ترى فينا ما تحب!

ثمّ قدم أبو المعتمر فى مائة، وهانئ بن قيس فى مائة، وطبيان بن عماره فى مائتين ومعه أموال إلى ابن الحنفية، فدخلوا المسجد وكبروا ونادوا: «يالثارات الحسين»، فلمّا رأهم ابن الزبير خافهم.

فأخرجوا ابن الحنفية ومن معه إلى «شعب على» وهم يسبون ابن الزبير ويستأذنون ابن الحنفية لحربه وهو يأبى عليهم، حتّى اجتمع مع ابن الحنفية فى الشعب أربعة آلاف رجل، فقسّم ذلك المال فيهم ٣٧٢.

ابن الزبير فى كلام اليعقوبى:

واختصر اليعقوبى الخبر فقال: وجّه إليهم المختار عبد الله الجدلي فى أربعة آلاف راكب، فقدم مكّة وكسر حجرة زمزم وقال لابن الحنفية: دعنى وابن الزبير! فقال: لا أستحلّ من قطع رحمه ما استحلّ منى! وذكر عبد الله بن العباس مع أربعة وعشرين رجلاً من بنى هاشم فى حجرة زمزم.

وقال: وتحامل ابن الزبير على بنى هاشم تحاملاً شديداً ونصب لهم العداوة والبغضاء حتّى بلغ ذلك منه أن ترك فى خطبته الصلاة على محمّد (وليس آل محمّد) فقليل له: لم تركت الصلاة على النّبى؟! فقال: إنّ له أهيل سوء يشترئون لذكره ويرفعون رؤوسهم إذا سمعوا به.

بل بلغ ابن الحنفية أنّ ابن الزبير قام خطيباً فنال من علىّ (ع)، فدخل المسجد الحرام ومعه من يحمل رحلاً وضعه له فقام عليه فحمد الله وأثنى عليه

ص: ١٨٦

وصلّى على محمّد ثمّ قال: شاهت الوجوه! يا معشر قريش! أيدكر علىّ بين أظهركم (بسوء) وأنتم تسمعون فلا تغضبون؟! ألا إن عليّاً كان سهماً صائباً من مرامى الله لأعدائه، يضرب وجوههم ويهوّعهم مآكلهم ويأخذ بحناجرهم! ألا وإنّا على نهج من حاله وليس علينا فى مقادير الأمور حيلة و سيّعلم الذين ظلّموا أىّ منقلب ينقلبون.

فبلغ قوله ابن الزبير فقال: هذا عذر بنى الفواطم فما بال ابن «أمّة» بنى حنيفة! وبلغ ذلك محمّداً فقال: يا معشر قريش! وما يميّزنى من بنى الفواطم؟! أليست فاطمة ابنة رسول الله حليّة أبى وأمّ إخوتى؟! أوليست فاطمة بنت أسد بن هاشم جدّتى

أم أبي؟! أليست فاطمة بنت عمرو بن عائذ جدّة أبي وأمّ جدتي؟! أما والله لولا خديجة بنت خويلد بن أسد لما تركت عظماً في «أسد» إلا هشمته! فإنّي «بتلك التي فيها العيوب بصير» ٣٧٣.

ابن الزبير في كلام المسعودي:

والمسعودي نقل عن كتاب النوفلي بسنده عن الديّال بن حرملة قال: كنت في من استنفرهم أبو عبد الله الجدلي من أهل الكوفة من قبل المختار، فنفرنا معه في أربعة آلاف فارس، وقبل دخول مكة قال لنا أبو عبد الله: هذه خيل عظيمة وأخاف أن يبلغ ابن الزبير الخبر فيعجل على بني هاشم فيأتي عليهم! فانتدبوا معي. قال: فانتدبنا معه جريدة خيل في ثمانمائة فارس، فما شعر ابن الزبير إلا والرايات تخفق على رأسه! فجئنا إلى بني هاشم فإذا هم في الشعب (كذا) فاستخرجناهم، فقال لنا ابن الحنفية: لا تقاتلوا إلا من قاتلكم.

ثمّ نقل عن النوفلي بسنده عن حمّاد بن سلمة قال: كان عروة بن الزبير إذا جرى ذكر بني هاشم وحصرهم في الشعب (كذا) وجمعه لهم الحطب

ص: ١٨٧

لتحريقهم، يعذر أخاه ويقول: إنّه إنّما أراد إرهابهم ليدخلوا في طاعته كما فعل عمر بن الخطاب ببني هاشم لما تأخّروا عن بيعه أبي بكر، فإنّه أحضر الحطب ليحرق عليهم الدار ٣٧٤! ثمّ علّق المسعودي عليه قال: وهذا خبر لا يحتمل ذكره هنا، وقد أتينا على ذكره في كتابنا في مناقب «أهل البيت وأخبارهم» المترجم بكتاب «حدايق الأذهان».

قال: وخطب ابن الزبير فقال: قد بايعني الناس ولم يتخلف عن بيعتي إلا هذا الغلام (كذا!) محمّد بن الحنفية، والموعود بيني وبينه أن تغرب الشمس ثمّ اضرم عليه داره ناراً! فدخل ابن عبّاس على ابن الحنفية وقال له: يا بن عم! إنّي لا آمنه عليك فبايعه! فقال: سيمنعه عنّي حجاب قويّ! فوافاهم أبو عبد الله الجدلي في خيله وقد كادت الشمس أن تغيب ٣٧٥ ممّا يدلّ على بيعه ابن عبّاس له! وأنّه لم يكن في الحصار خلافاً لليعقوبي العبّاسي كما مرّ! يزعم إباءه البيعة لابن الزبير!

ثمّ نقل عن النيمري البصري: امتناع ابن الزبير عن الصلاة على النبيّ (ص) وقال: لا يمنعي أن أصلي عليه إلا أن تشمخ رجال بآنافها! وحدّد المدّة فقال:

خطب أربعين يوماً (أو أربعين جمعة) لا يصلّي على النبيّ.

وفيه عنه عن سعيد بن جبير أن ابن الزبير قال لابن عبّاس: إنّي لأكتم بغضكم «أهل هذا البيت» منذ أربعين سنة!

٣٧٣. تاريخ يعقوبي ٢٦١: ٢-٢٦٢، والآية ٢٢٧ من سورة الشعراء.

٣٧٤. مروج الذهب ٨٦: ٣ من الطبعتين الأولى في الميمية، والثانية في دار السعادة لسنة (١٩٤٨ م). كما نقل المعتزلي عن مروج الذهب في شرح نهج البلاغة ١٤٧: ٢٠، ووثقه المحقّق المصري محمّد أبو الفضل إبراهيم عن الطبعتين السابقتين، في حين تغيّرت العبارة في ط. يوسف أسعد داغر في بيروت لسنة (١٩٦٥ م) هكذا: كما اربى بنو هاشم وجمع لهم الحطب لإحراقهم إذ هم أبوا البيعة فيما سلف! فهذا من موارد التحريف المعاصر في عصر النور!

٣٧٥. مروج الذهب ٧٦: ٣-٧٧.

وفيه عن كتاب النوفلى قال: خطب ابن الزبير فنال من على! فبلغ ذلك ابنه محمد بن الحنفية فجاء ووُضع له كرسى فعلاه وقال: يا معشر قريش! شاهت

ص: ١٨٨

الوجه! أينقص على وأنتم حضور! إنّ علياً كان سهماً صائباً من مرامي الله على أعدائه، يقتلهم لكفرهم ويهوّعهم مآكلهم، فنقل عليهم فرموه بقرفة الأباطيل ...

فقال ابن الزبير: عذرت بنى الفواطم يتكلّمون فما بال «ابن الحنفية»! فقال له محمد: يا ابن أمّ رومان! وما لى لا أتكلّم؟! أليست فاطمة ...

وفيه عنه أيضاً بسنده قال: خطب ابن الزبير فقال: ما بال أقوام يفتون فى «المتعة» وينتقصون حوارى الرسول وأمّ المؤمنين عائشة! ما بالهم أعمى الله قلوبهم كما أعمى أبصارهم يعرض بالبن عباس وكان قد فقد بصره ويقوده غلامه، فقال له: يا غلام! اصمدنى فصمده فلما قاربه تمثّل:

قد أنصف القارة من رامها

إنّا إذا ما فئة نلقاها

نردّ أولاهنا على أخراها

أمّا قولك فى «المتعة» (يعنى متعة الحج) فسل امك تخبرك؛ فإن أول متعة سطح مجمرها لمجر سطح بين امك وأبيك.

وأمّا قولك: «أمّ المؤمنين» فبنا سميت أمّ المؤمنين وبنا ضرب عليها الحجاب!

وأمّا قولك: حوارى رسول الله، فقد لقيت أباك فى الزحف وأنا مع إمام هدى، فإن يكن على ما أقول فقد كفر بقتالنا! وإن يكن على ما تقول فقد كفر بهربه عنا!

فانقطع ابن الزبير، ثم دخل على أمّه أسماء بنت أبى بكر فسألها فقالت:

صدق!

وفيه عنه أيضاً بسنده عنها قالت: لما قدمنا فى حجة الوداع مع رسول الله (ص) أمر من لم يكن معه هدى أن يحلّ، فأحللت ولبست ثيابى وتطيبت وجلست إلى جنب الزبير، فقال: قومى عنى أخاف أن أثب عليك! فهذا الذى أراد ابن عباس ٣٧٦.

ص: ١٨٩

وهذا لا ينافي ما مرَّ من استظهار أن ابن عباس كان قد بايع ابن الزبير كرهاً أو إكراهاً، كما لا ينافي ذلك أن يضيق ابن الزبير به ذرعاً من مجادلاته هذه بالحق فيحمله ذلك على إخراجه عن مكة إلى الطائف إخراجاً قبيحاً كما في اليعقوبي حيث قال:

وكتب إليه ابن الحنفية: أما بعد، فقد بلغني أن عبد الله بن الزبير سيترك إلى الطائف. فرفع الله بك أجراً واحتطّ عنك وزراً. يابن عمّ! إنما يتلى الصالحون، وتعدّ الكرامة للأخيار، ولو لم نؤجر إلا فيما نحبّ وتحبّ لقلّ الأجر، فاصبر فإن الله قد وعد الصابرين خيراً، والسلام ٣٧٧.

واعتمد المسعودي هنا على خبر عمر بن شبة النميري البصري بسنده عن سعيد ابن جبير قال: وجرى بينهم (بينهما) خطب طويل فخرج ابن عباس من مكة! خوفاً على نفسه! فنزل الطائف حتى توفي هناك ٣٧٨.

واليعقوبي وإن أعقب خبر إخراج ابن عباس لخبر إخراج ابن الحنفية إلى ناحية رضوى، لكنّه لمّا أعقب ذلك بخبر رسالة ابن الحنفية إلى ابن عباس كأنه سلّم بتأخر إخراج ابن الحنفية، وهو الصحيح؛ لما سيأتى من إثارته للمختار على أخذ الثار من قتلة الحسين (ع) وهو بمكة.

ص: ١٩٠

وقعة الموصل الأولى

كان مروان، أو ابنه عبد الملك، قد جهّز ابن زياد بستين ألف مقاتل، وجعل له ما غلب عليه في طريقه إلى العراق، وأمره إذا ظفر بالكوفة أن ينهاها ثلاثة أيّام، كما فعل قبل يزيد بالمدينة!

وكانت قبائل قيس عيلان مع الضحّاك بن قيس الفهري، ولما قاتل مروان وقتله مروان وهزم قيساً معه، بقيت قيس مخالفة لمروان وعلى ابنه عبد الملك من بعده، فلما فرغ ابن زياد من أمر التوابعين بعين الورد عاد مشغلاً بقبائل قيس عن العراق سنة تامة! ثمّ وجّه خيله إلى الموصل.

وكان على الموصل من قبل المختار عبد الرحمن بن سعيد قيس الهمداني، فلما وجّه ابن زياد خيله إليه انحاز إلى تكريت وكتب إلى المختار: أما بعد، أيّها الأمير! فإني أخبرك أن عبيد الله بن زياد قد دخل أرض الموصل، وقد وجّه قبلي خيله ورجاله، وأنا انحزت إلى تكريت حتى يأتيني رأيك وأمرك، والسلام عليك.

فأجابه المختار: أما بعد، فقد بلغني كتابك وقد أصبت بانحيازك إلى تكريت، فلا تبرحنّ مكانك حتى يأتيك أمرى إن شاء الله، والسلام عليك.

٣٧٧. تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٦٢.

٣٧٨. مروج الذهب ٨٠: ٣.

ثم دعا يزيد بن أنس الأسدي فقال له: اخرج إلى الموصل حتى تنزل بأدانيها. فقال له يزيد:

سرح معي ثلاثة آلاف فارس أنتخبهم، وخلصني والثغر الذي أتوجه إليه، فإن احتجت إلى الرجال فسأكتب إليك. فقال المختار: فاخرج فانتخب من أحببت على اسم الله. فخرج وانتخب ثلاثة آلاف فارس، فجعل على ربع المدينة النعمان بن عوف الأزدي، وعلى ربع تميم وهمدان عاصم بن قيس الهمداني، وعلى مذحج وأسد ورقاء بن عازب الأسدي، وعلى ربع ربيعة وكندة سعرا الحنفي التميمي.

ص: ١٩١

ثم خرج من الكوفة وخرج المختار والناس يشايعونه إلى دير أبي موسى ثم قال له: إذا لقيت عدوك فلا تناظرهم وإن أمكنتك الفرصة فلا تؤخرها، وليكن في كل يوم خبرك عندي، وإن احتجت إلى مدد فاكتب إليّ، مع أنني ممدك ولو لم تستمد فإنه أشدّ لعضدك وأعزّ لجندك وأرعب لعدوك. فقال يزيد: لا تمدني إلا بدعائك فكفي به مددا! وقال للناس: ايم الله لن لقيتهم ففاتني النصر فإنه لا تفتني الشهادة إن شاء الله، فاسألوا الله لي الشهادة!

وكتب المختار إلى عبد الرحمن بن سعيد: أما بعد، فخل بين البلاد وبين يزيد، والسلام عليك.

فخرج يزيد بالناس حتى بات في سورا، ثم غدا بهم حتى بات بالمدائن فشكا إليه بعض من معه شدة سيره، فأقام بالمدائن يوماً وليلة أخرى (ثالثة) ثم خرج بهم إلى أرض جوحى ثم إلى الراذانات ثم إلى أرض الموصل فنزل إلى قرية بنات تلي، فبلغ خبره ابن زياد وأخبرته عيونه أن معه ثلاثة آلاف، فقال ابن زياد: فأنا أبعث إلى كل ألف ألفين، ثم دعا ربيعة بن المخارق الغنوي فبعثه في ثلاثة آلاف أوّلًا، ثم مكث يوماً ثم بعث خلفه عبد الله بن حملة الخثعمي في ثلاثة آلاف، وسبقه ربيعة إلى قرية بنات تلي.

وأصبح يزيد بن أنس الأسدي مريضاً، فجعل ورقاء بن عازب الأسدي على الخيل، وعبد الله بن ضمرة العذري على ميمنته، وسعراً الحنفي على ميسرته، ثم أمرهم أن يحملوه على حمار ويمسكوه من جنبه، فجعل يقف على الأرباع ويقول لهم: يا شرطه ازلّه! اصبروا تؤجروا، وصابروا عدوكم تظفروا، فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً ٣٧٩ فإن هلك فأميركم ورقاء بن

ص: ١٩٢

عازب الأسدي، وإن هلك فأميركم عبد الله بن ضمرة، فإن هلك فأميركم سعرا الحنفي. ثم أمرهم أن يضعوا له سريراً فيضعوه عليه بين الرجال، ثم قال لهم:

قدموني في الرجال وبرزوا لهم بالعراء ثم إن شئتم فقاتلوا عن أميركم أو إن شئتم ففروا، فهزمهم، وحمل ورقاء بن عازب الأسدي بخيله فهزمهم وبقي قائدهم ابن المخارق وقد فارقه أصحابه وهو نازل يناديهم، وحمل عليه عبد الله بن ورقاء الأسدي وعبد الله بن ضمرة العذري فقتلاه، فلم يرتفع الضحى حتى هزموهم وحووا معسكرهم ٣٨٠.

وكان من مخاريق ابن المخارق هذا لقومه أن قال لهم: يا أهل الشام! إنكم إنما تقاتلون «العبيد الأباقي» وقوماً قد خرجوا من الإسلام وتركوه! «لا ينطقون العربية» وليست لهم بقية ٣٨١!

وعادوا في عيد الأضحى:

مرّ الخبر أن ابن زياد زوّد ابن المخارق بثلاثة آلاف، وأعقبه بعده بيوم بثلاثة آلاف آخرين مع عبد الله بن حملة الخثعمي فكان بعده بمسيرة ساعة، فروى أبو مخنف عن أبي كبشة عمرو القيني الشامي أنه كان مع ابن المخارق، فلما انهزموا على مسيرة ساعة من قرية بنات تلي قال: التقينا بعسكر ابن حملة الخثعمي، فردنا معه حتى نزل في بنات تلي مواجهاً لعسكر يزيد بن أنس الأسدي الكوفي، فبتنا ليلة عيد الأضحى متحارسين حتى أصبحنا فصلينا الصبح، ثم تعبنا، فجعل على يمينته الزبير بن خزيمة الخثعمي وعلى يسارته ابن اقيصر القحافي الخثعمي

ص: ١٩٣

والتزم هو بالخييل والرجال، واقتتلنا قتالاً شديداً فتطاردت الخيلان في أوّل النهار ثم انصرفوا لصلاة الزوال، ثم خرجوا فهزم الكوفيون الشاميين هزيمة قبيحة وقتلوا منهم قتلاً ذريعاً. ونزل ابن حملة الخثعمي ينادي أصحابه، فحمل عليه رجل من خثعم الكوفة فقتله، وحووا معسكرهم وما فيه، وأسروا منهم ثلاثمائة أسير، أتوا بهم إلى يزيد الأسدي وهو في مقدّمات السكرات، فأخذ يؤمّي بقتلهم فقتلوهم كلّهم، ثم ما أمسى حتى مات، فصلّى عليه ورقاء الأسدي ودفنه.

ثم إن ورقاء الأسدي دعا رؤوس الأرباع وفرسان أصحابه فقال لهم: يا هؤلاء! إنما أنا رجل منكم ولست بأفضلكم رأياً، فأشيروا عليّ؛ فإن ابن زياد قد جاءكم في جند أهل الشام الأعظم! إنّه قد بلغني أنّه قد أقبل إلينا في ثمانين ألفاً من أهل الشام، وبجالتهم وفرسانهم وأشرافهم، ولا أرى لنا ولكم بهم طاقة على هذه الحال، وقد مات أميرنا يزيد بن أنس وتفرقت عنا طائفة منّا! فلو انصرفنا اليوم من تلقاء أنفسنا قبل أن نلقاهم وقبل أن نبلغهم، فيعلموا أنّنا إنّما ردّنا عنهم هلاك صاحبنا فلا يزالوا لنا هائبين ... وإنّا إن لقيناهم اليوم كنّا مخاطرين، فإن هزمنا اليوم لم تكن تنفعنا هزيمتنا إياهم قبل اليوم! فقالوا: نعم ما رأيت، انصرف رحمك الله، فقرر الانصراف بهم، وانصرفوا.

وترامت الأخبار بانصرافهم إلى إسحاق بن مسعود عامل المختار على المدائن وجوخي، وكان له عين من أنباط السواد فأرسله بخبرهم إلى المختار، فدعا المختار إبراهيم بن الأشتر وعقد له على سبعة آلاف رجل وقال له: سر حتى تلقى جيش ابن أنس الأسدي فارددهم معك حتى تلقى عدوك فتناجزهم القتال ٣٨٢ فأخذ إبراهيم يتجهّز لذلك، في أواخر سنة ست وستين.

ص: ١٩٤

وتلاقى المرجفون في الكوفة:

٣٨١. تاريخ الطبري ٤٢: ٦ عن أبي مخنف، والنص: ليست لهم بقية!

٣٨٢. تاريخ الطبري ٤٢: ٦-٤٣ عن أبي مخنف.

قال أبو مخنف الأزدي: لم يكن فيما أحدث المختار شيء أعظم عليهم من أنه جعل للموالى نصيباً من الفىء! وكان شبت بن ربيع اليربوعي التميمي شيخاً جاهلياً إسلامياً! فلما مات يزيد بن أنس الأسدي وزعموا أنه قد قتل التقى أشراف الكوفة وقالوا: نجتمع في منزل شيخنا شبت! فتواعدوا منزله واجتمعوا وأتوا إليه فصلّى بهم ثم تذكروا فأخذوا يقولون: والله لقد تأمر علينا هذا الرجل بغير رضا منا، ولقد أدنى موالينا فحملهم على الدواب! وأعطاهم وأطعمهم فيتنا! فعصانا عبيدنا! وحرب بذلك أراملنا وأيتامنا! فقال لهم شبت: دعوني حتى ألقاه.

فذهب شبت وجمع معه جمعاً والتقى بالمختار وذاكره ما أنكره أصحابهم، فذكر «المماليك» فقال المختار: فأنا أردّ عليهم عبيدهم ومماليكهم. فذكر له «الموالى» فقال: عمدت إلى موالينا وهم فيء أفاءه الله علينا مع هذه البلاد جميعاً! فأعتقنا رقابهم نأمل الأجر و «الشكر» فلم ترض لهم بذلك حتى جعلتهم شركاءنا في فيتنا!

فقال المختار لهم: إن أنا تركت لكم مواليككم ورددت فيئكم فيكم، فهل تقاتلون أنتم معي بني أمية وابن الزبير وتعطوني على الوفاء بذلك عهد الله وميثاقه وما أطمئن إليه من الإيمان؟ فقال شبت: ما أدري، حتى أخرج إلى أصحابي فأذاكرهم ذلك. وخرج فلم يرجع إليه.

بل أجمع على قتاله هو وشمر بن ذي الجوشن الكلبي، ومحمد بن الأشعث الكندي، والتحق بهم عامل المختار على الموصل عبد الرحمن بن سعيد بن قيس الهمداني، وتوافقوا على دعوة كعب الخثعمي فذهبوا إليه وتكلم شبت فقال في عيب المختار: إنه تأمر علينا بغير رضا منا، وزعم أن «ابن الحنفية» بعثه إلينا، وقد علمنا أن ابن الحنفية لم يفعل! وأطعم «موالينا» فيتنا! وأخذ «عبيدنا» فحرب بهم أراملنا ويتامنا! وأظهر هو و «سبيته» البراءة من «أسلافنا» الصالحين! وأخبره

ص: ١٩٥

باجتماع رأيهم على قتاله وسأله أن يجيبهم إلى ذلك، فرحب بهم كعب وأجابهم إليه.

وتوافقوا على دعوة عبد الرحمن بن مخنف الأزدي فذهبوا إليه ودعوه فقال لهم: إنكم إن أطعتموني لم تخرجوا. قالوا: لم؟ قال: لأنه مع الرجل شجعانكم وفرسانكم من أنفسكم، وعدّهم، ثم معه «عبيدكم» و «موالیکم» فهو مقاتلكم بشجاعة العرب وعداوة «العجم» و «عبيدكم» و «موالیکم» أشدّ حنقا عليكم من عدوكم. وإن انتظرتموهم قليلاً كفيتموهم بمجىء أهل البصرة (الزبيريين) أو بقدوم أهل الشام (المروانيين) فتكونوا قد كفيتموهم بغيركم ولم تجعلوا بأسكم بينكم! وإن أبيتم إلا أن تخرجوا لم أخذلكم!

فقالوا: نشدك الله أن تخالفنا وأن تفسد علينا رأينا وما قد اجتمعت عليه جماعتنا! قال: فأنا رجل منكم، فإذا شئتم فاخرجوا.

ثم انتظروا حتى يخرج عنهم إبراهيم بن الأشتر، فأهلوا حتى خرج وبلغ سباط المدائن فوثبوا ٣٨٣.

توالت العرب على المختار ومحاورته لهم:

قال أبو مخنف: فخرج عبد الرحمن بن سعيد الهمداني السبيعي في جبانتهم، وسار إليه إسحاق بن محمد بن الأشعث الكندي، وزحر بن قيس الكندي إلى عبد الرحمن في جبانة السبيعي. وخرج كعب الخثعمي في جبانتهم، وسار إليه بشير بن جرير بن عبد الله البجلي في بجيلة، ثم سارت بجيلة وخنعم إلى عبد الرحمن بن مخنف الأزدي في جبانة مخنف. ثم بلغ الذين في جبانة السبيعي:

أن المختار قد عبأ لهم خيلاً، فبعثوا رسلاً إلى الأزدي وبجيلة وخنعم يسألونهم بالله والرحم أن يعجلوا إليهم، فساروا إليهم واجتمعوا. ونزل حجار بن أبحر

ص: ١٩٦

ويزيد بن الحارث بن رويم في ربيعة فيما بين التمارين والسبخة، ونزل شبت بن ربيعي وحسان بن قائد العبسي وربيع بن شروان الضبي في مضر بالكناسة، ونزل عمرو بن الحجاج الزبيدي بمن تبعه من مذحج في جبانة مراد، ودعاه أهل اليمن إليهم فأبى عليهم، ودعوا شمرأ إليهم فقال لهم: لا والله لا أقاتل في سكك ضيقة ونقاتل من وجوه! فإن اجتمعتم في مكان واحد نجعل له مجنبتين ونقاتل من وجه واحد فأنا صاحبكم. ثم خرج إلى جماعة قومه بجبانة بني سلول.

وبذلك أخذ أهل الكوفة على المختار وأنصاره بأفواه السكك، فلم يكن يصل إلى المختار ولا إلى أصحابه حتى من الماء إلا القليل يجيئهم في غفلة عنهم.

وأمر المختار أنصاره بالكف عنهم، وأراد أن يريتهم بمقاولته لهم حتى يسترجع إليه ابن الأشر، فبعث إليهم في ذلك اليوم: أخبروني ماذا تريدون فأني صانع كل ما أحببتهم! فقالوا: فإننا نريد أن تعزلنا! فإنك زعمت أن «ابن الحنفية» بعثك! ولم يبعثك! فأرسل المختار إليهم: فأني أبعث إليه وفداً من قبلي وابعثوا إليه وفداً من قبلكم حتى تتبينوه ثم انظروا في ذلك.

وبعث المختار من يومه رسولا إلى إبراهيم بن الأشر وهو بسباط المدائن: ألا تضع كتابي هذا من يدك حتى ترجع إلي بجميع من معك ٣٨٤.

وعاد أنصار المختار:

خرج رسول المختار عمرو بن توبة بالركض إلى إبراهيم بن الأشر بسباط المدائن حتى بلغه في عصر ذلك اليوم! فلما قرأ كتابه نادى بالناس: أن ارجعوا إلى الكوفة.

ص: ١٩٧

فسار بقية ذلك اليوم حتى أمسى ثم نزل للعشاء، وأراحوا الدواب شيئاً، ثم نادى فيهم فسار الليل كله حتى صلى الصبح في سوار ثم سار حتى صلى عصر غده على باب الجسر، ثم دخل البلد إلى المسجد فبات فيه بأصحابه.

وخرج المختار فصلّى بهم ثم صعد المنبر، ثم نزل إلى السوق - ولم يكن فيه بناء - فعبأ أصحابه فيه.

وكان المختار ذا رأى فكَرِه أن يسير ابن الأشتر إلى قومه من اليمن فلا يبالغ في قتالهم، فقال له: أى الفريقين (من مضر واليمن) أحب إليك أن تسير إليهم؟

قال: أى الفريقين أحببت! فقال المختار: فسر إلى مضر بالكناسة وعليهم شبت بن ربيع ومحمد بن عمير بن عطار، وأنا أسير إلى اليمن، فسار إبراهيم إلى الكناسة، وسار المختار إلى جبانة السبيع ٣٨٥.

ابن الأشتر لمضر والمختار لأهل اليمن:

فمضى ابن الأشتر حتى لقي شبت بن ربيع وحسان بن فائد العبسي وبشرا كثيراً من مضر.

فنادى فيهم إبراهيم: ويحكم! انصرفوا، فوالله ما أحب أن يصاب على يدى أحد من مضر، فلا تهلكوا أنفسكم! فأبوا وقتلوه، فهزمهم وجرح حسان العبسي فاحتل إلى أهله فلما أدخلوه عليهم مات فيهم ٣٨٦. وقتل غيره من مضر بضعة عشر رجلاً ٣٨٧.

وسار المختار إلى جبانة السبيع ولكنه توقف عند دار عمر بن سعد وسرح بين يديه عبد الله بن كامل الشاكري الهمداني، وأحمر بن شميطة الأحمسي

ص: ١٩٨

البجلي وقال له: الزم هذه السكة حتى تخرج من دور قومك ومسجدهم إلى جبانة السبيع، وقال للشاكري الهمداني: الزم هذه السكة حتى تخرج عليهم من دار الأخنس بن شريق الثقفي إلى الفرات، وقال لهما: إن الشامييين (من همدان) أخبروني أنهم يأتونهم من ورائهم.

وبلغ إلى أهل اليمن مسير الرجلين إليهم فاقترعوا هاتين السكتين: فسكة مسجد أحمر وقف فيها عبد الرحمن بن سعيد الهمداني ومعه زحر بن قيس الجعفي وإسحاق بن محمد بن الأشعث الكندي، وسكة الأخنس الثقفي إلى الفرات وقف فيها عبد الرحمن بن مخنف الأزدي وبشير بن جرير البجلي وكعب الخثعمي، وتلاقوا واقتتلوا قتالاً شديداً حتى انكشف أنصار المختار وفلوا والتفاه فلولهم فردهم حتى وقف إلى دار أبي عبد الله الجدلي، فبعث عبد الله بن قراد الخثعمي على أربعمائه فارس وراجل إلى عبد الله بن الكامل مدداً، وبعث مالك بن عمرو النهدي وكان شديد البأس في مائتي فارس إلى أحمر بن شميطة الأحمسي فأمدوه.

واجتمع الشامييون من همدان على رئيسهم أبي القلوص على أن يأتوا أهل اليمن من ورائهم كما وعدوا المختار، حتى خرجوا إلى جبانة السبيع، فاستقبلهم الأعسر الشاكري الهمداني على فم السكة، فحمل عليه أبو الزبير بن كريب والجندي فصرعاه ودخلوا الجبانة وهم ينادون «ياثارات الحسين»! فأجابهم أنصار ابن شميطة: «ياثارات الحسين»، فأخذ بعض الهمدانييين ينادى:

٣٨٥. المصدر السابق ٤٦: ٦-٤٧ عن أبي مخنف.

٣٨٦. تاريخ الطبري ٤٩: ٦ عن أبي مخنف.

٣٨٧. المصدر السابق ٥٦: ٦ عن أبي مخنف.

«يالثارات عثمان!» فقتل.

وكان رفاعه بن شداد البجلي مع قومه بني بجله على المختار! وكان ناسكا قارئاً للقرآن فقدّموه للصلاة بهم، ولكنه لما سمعهم اليوم ينادون: «يالثارات عثمان» قال: لا أقاتل مع قوم يبيعون دم عثمان ما لنا ولعثمان؟! ثم عطف بسيفه عليهم وهو يقول:

أنا ابن شداد على دين عليّ لست لعثمان بن أروى بولي

ص: ١٩٩

وقاتلهم حتى عطفوا عليه فقتلوه عند حمام الماهدان بالسبخة. وارثت بالجراح زحر بن قيس الجعفي، وقتل ابنه الفرات، وقتل عبد الرحمن بن سعيد الهمداني، وارثت بالجراح عبد الرحمن بن مخنف الأزدي وحملوه وقاتل دونه حميد بن مسلم الأزدي الراوي، وقتل عمر بن مخنف الأزدي.

ولجأ خمسمائة منهم إلى دور الوادعيين من همدان، فاستخرجوهم اسراء مكثفين إلى المختار، فتولّى أمرهم رجل من رؤساء أنصار المختار هو عبد الله بن شريك النهدي، فكان يقتل الموالى والعبيد ويخلى العرب! فلما رأى ذلك رجل من موالى بني نهد يدعى درهم رفع ذلك إلى المختار فقال: اعرضوهم عليّ، وانظروا من شهد منهم قتل الحسين فأعلموني به. فشهدوا على نصفهم بذلك فقدّمهم وضرب أعناقهم، ودعا بمن بقي منهم فأخذ عليهم المواثيق ألا يجامعوا عليه عدوًّا، ولا يبيعوه ولا أصحابه غائلة، ثم اعتقهم.

ونادى مناديه: ألا إن من أغلق بابه فهو آمن إلا رجلا شرك في دم «آل محمد» (ص).

وفرّ عمرو بن الحجاج الزبيدي إلى طريق الحجاز فلم يعثر عليه، وأخبر حجار بن أبجر ويزيد بن الحارث بن رويم الشيبانيان بهزيمة أهل اليمن فانصرفا بأصحابهما إلى بيوتهم ٣٨٨ وانجلت الوقعة عن سبعمائة وثمانين قتيلا من الهمدانيين وغيرهم ٣٨٩! بما فيهم المائتان والخمسون من الأسرى ... وكانت الوقعة يوم الأربعاء (لثمان) ليال بقين من ذى الحجة سنة ست وستين ٣٩٠.

ص: ٢٠٠

والشعراء يتبعهم الغاؤون:

٣٨٨. تاريخ الطبري ٤٧: ٦-٥٢ عن أبي مخنف.

٣٨٩. تاريخ الطبري ٥٦: ٦ عن أبي مخنف.

٣٩٠. تاريخ الطبري ٥٧: ٦ عن أبي مخنف، والنص: لست ليال بقين ... ولكنه في: ٨١ يذكر أن ابن الأشر لمّا فرغ من أهل الكناسة والسبيح ما نزل إلا يومين حتى أشخصه إلى الموصل فخرج يوم السبت لثمان بقين من ذى الحجة. فالصحيح العكس، وانظر: ٣٤٠، ح ٢: أي هنا لست.

قتل المختار مائتين وثمانية وأربعين رجلاً من الأسرى الخمسمائة، ممن أعلموه أنه ممن شهد قتل الحسين (ع)، ثم أخذ الموائيق على من بقى من الأسرى فأعتقهم، إلا شاعرهم سراقه بن مرداس البارقي الهمداني فإنه أمر أن يساق معه إلى المسجد ٣٩١.

ثم أقبل إلى القصر، فرفع سراقه صوته يناديه:

امنن على اليوم يا خير معد وخير من حيّا ولّبي وسجد

فبعث به المختار إلى السجن فحبسه ليلة ثم دعاه فأقبل يقول له:

ألا أبلغ أبا إسحاق أنا	نزونا نزوةً كانت علينا
خرجنا لا نرى «الضعفاء» شيئاً	وكان خروجنا بطراً وحيناً
نراهم فى مصافهم قليلاً	وهم مثل الدّبي حين التقينا
برزنا إذ لقينا هم فلماً	رأينا القوم قد برزوا إلينا
لقينا منهم ضرباً طلحفا	وطعناً صائباً حتّى انتنينا
نُصِرْتُ على عدوك كل يوم	بكل كتيبة تنعى «حسيناً»
كنصر محمد فى يوم بدر	ويوم الشعب إذ لاقى حنيناً
فأسجح إذ ملكت، فلو ملكنا	لجرنا فى الحكومة واعتدينا
تقبّل توبتى منى فإنّى	سأشكر إن جعلت النقد دينا

ولما انتهى إلى المختار قال له: أصلحك الله أيها الأمير! سراقه بن مرداس يحلف بالله الذى لا إله إلا هو! لقد رأى الملائكة تقاتل على الخيول البلق بين السماء والأرض! فقال له المختار: فاصعد المنبر وأعلم ذلك المسلمين، فصعد

ص: ٢٠١

فأخبرهم بذلك ثم نزل، فخلا به المختار وقال له: إنى قد علمت أنك لم تر الملائكة، وإنما أردت أن لا أقتلك! فاذهب عني حيث أحببت!

وقد مرَّ أن عبد الرحمن بن مخنف الأزدى ارتث جريحاً فحمل إلى أهله، ثم لحق بأزد البصرة وخرج سائر وجوه الكوفة فلقوا بالبصرة، ولحق بهم سراقه، وهو يقول: ما كنت في أيمن حلفت بها قطَّ أشدَّ اجتهداً ولا مبالغة في الكذب مني في أيمن التي حلفت بها لهم أني رأيت الملائكة تقاتل معهم! ولكنهم عادوا فنسبوا الكذب هذا ونحوه إلى المختار نفسه ٣٩٢. وأعاد ابن الأثير إلى ابن زياد:

روى الطبرى، عن الكلبي، عن أبي مخنف، قال: فرغ المختار من أهل الكناسة والسبييع يوم الأربعاء ٣٩٣ فما استراح ابن الأثير إلا يومين (الخميس والجمعة) فخرج يوم السبت (لست) بقين من ذى الحجة سنة ست وستين ٣٩٤.

وأخرج المختار معه من وجوه أصحابه وفرسانهم وذوى البصائر منهم ممن قد شهد الحروب وجربها، فخرج معه قيس بن طهفة على ربع أهل المدينة، وعلى ربع مذحج وأسد عبد الله بن حية الأسدي، وعلى ربع ربيعة وكندة الأسود بن جراد الكندي، وعلى ربع تميم وهمدان حبيب بن منقذ الثوري الهمداني.

وكان موضع عسكر إبراهيم بموضع حمام أعين، ومنه شخص بعسكره، وخرج معه المختار يشايعه حتى بلغ دير عبد الرحمن بن أم الحكم، ومضى معه

ص: ٢٠٢

إلى قناطر رأس الجالوت فلما صار بين قنطرة دير عبد الرحمن وقناطر رأس الجالوت اكتفى وأراد أن ينصرف راجعاً فوقف ثم قال لابن الأثير: خذ عني ثلاثاً:

خف الله في سرِّ أمرك وعلايته! وعجل السير، وإذا لقيت عدوك فناجزهم، فإن لقيتهم ليلاً واستطعت ألا تصبح حتى تناجزهم! وإن لقيتهم نهاراً فلا تنتظر بهم حتى تحاكمهم إلى الله. ثم قال له: هل حفظت ما أوصيتك به؟! قال: نعم.

قال: صحبك الله. ثم انصرف راجعاً ٣٩٥.

٣٩٢. تاريخ الطبرى ٥٤: ٦-٥٥ عن أبي مخنف.

٣٩٣. تاريخ الطبرى ٥٧: ٦.

٣٩٤. تاريخ الطبرى ٨١: ٦، والنص: لثمان بقين .. بينما ذكر وقعة يوم السبييع: لست بقين ..

فالصحيح العكس. راجع: ٣٣٨ الحاشية: ٣.

٣٩٥. تاريخ الطبرى ٨١: ٦-٨٢ عن أبي مخنف، وفيه خبر كرسى أخرجه معهم فى المشايعة يدعون حوله يستنصرون، فقال إبراهيم: والذي نفسى بيده هذه سنة بنى إسرائيل إذ عكفوا على عجلهم! اللهم لا تؤاخذنا بما فعل السفهاء.. ثم روى الطبرى عن الكلبي عن أبي مخنف الأزدى عن أبي الأشعر موسى بن عامر الجهني: أن الذى صنع ذلك وقال لهم: هذا كرسى على (ع) إنما هو عبد الله بن عوف! وكان يقول: أمرنى به المختار! والمختار يتبرأ منه! (٨٤: ٦-٨٥) ولما بلغ أمره لابن الزبير قال: أين عنه بعض جنادة الأزد (٨٤: ٦) يعنى النّهائين عن المنكرات والبدع! فتكلم الناس فى ذلك فغيب (٨٣: ٦) وعلى هذا فلا يجوز أن ينسب أمره إلى المختار نفسه.

وذكر المسعودى عدد عسكر ابن الأثير فى التنبيه والإشراف: ٢٧٠ قال: سيّره المختار فى اثني عشر ألفاً، فالتقوا بالزاب من أرض الموصل.

ابن الأشتر إلى الموصل:

كان مع النخعيّ المولى أبو سعيد الصيقل فنقل أبو مخنف عنه قال: خرجنا مسرعين لا ننتهي نريد أن نلقى ابن زياد قبل أرض العراق! فتوغّلنا في أرض الموصل، فجعل ابن الأشتر على مقدّمته الطفيل بن لقيط النخعي شجاعاً شديداً، ثمّ ضمّ إليه حميد بن حريث، وضمّ ابن الأشتر إليه أصحابه كلّهم بخيلهم ورجالهم يسير بهم جميعاً لا يفرّقهم ولا يسير إلا على تعبئة، إلا أن في طليعته

ص: ٢٠٣

٣٩٦

ابن لقيط حتى نزل جنب قرية باريشا، بينها وبين مدينة الموصل خمسة فراسخ ٣٩٧ (٢٧ كم).

وكان شريك بن جدير التغلبي من ربيعة مع عليّ (ع) (يوم صفين) وأصيبت عينه معه، ولما انقضت الحرب لحق بيت المقدس وبقي بها عشرين عاماً حتى جاءه خبر قتل الحسين (ع)، فعاهد الله إن قدر يطلب بدم الحسين (ع) فيقتل ابن مرجانة أو يموت دونه! فلما بلغه خروج المختار بطلب دم الحسين (ع) أقبل إليه إلى الكوفة. فاليوم توجه مع ابن الأشتر فجعل على ربيعة، فقال لهم: يا قوم! إنني عاهدت الله على كذا وكذا فمن يبايعني على ذلك؟! فبايعه منهم ثلاثمائة ٣٩٨.

وكانت قبائل قيس مع الضحّاك بن قيس الفهري وحاربوا مروان وهزموا، فكانت كلّها اليوم بالجزيرة، وهم أهل خلاف لمروان وآل مروان، ومع ذلك كان ابن زياد قد استزاد بهم في جنوده.

وجاء ابن زياد حتى نزل قريباً من جند ابن الأشتر على شاطئ نهر الخازر.

وكان زعيم قيس مع ابن زياد عمير بن حباب السلمي، فأرسل إلى ابن الأشتر أنّه يريد لقاءه الليلة، فأرسل إليه ابن الأشتر: إذا شئت فالقني. فأتاه عمير ليلاً وأخبره أن ابن زياد جعله على ميسرته، وبايع ابن الأشتر وواعده أن ينهزم بالناس!

فأراد إبراهيم امتحانه فقال له: ما رأيك أن أخندق على وأتلوم يومين أو ثلاثة؟!

فقال عمير: إنّ الله! وهل يريد القوم إلا هذه! فهو خير لهم! فهم كثير أضعافكم وليس يطيق القليل الكثير في المطاولة، ولكن ناجز القوم، فإنهم قد ملئوا منكم رعباً، وإنهم إن شاموا أصحابك وقتلوه يوماً بعد يوم ومرة بعد مرة أنسوا بهم واجتروا عليهم!

ص: ٢٠٤

٣٩٦ يوسف غروي، محمد هادي، عصر الإمام السجاد، سياسياً وإجتماعياً، ١، جلد، المجمع العالمي لاهل البيت (عليهم السلام) - قم - إيران، چاپ: ١، ١٣٩٦.
٥.ق.

٣٩٧. تاريخ الطبري ٨٦: ٦.

٣٩٨. تاريخ الطبري ٩٠: ٦ - ٩١.

فقال إبراهيم: صدقت فالرأى ما رأيت، والآن علمت أنك مناصحى، أما إن صاحبى أوصانى بهذا وأمرنى به. فقال عمير: إن الشيخ (المختار) قد ضرسته الحروب وقاسى منها ما لم تقاس فلا تعدون رأيه! أصبح فناهض الرجل.

ثم انصرف عمير السلمى، فأذكى ابن الأشتر تلك الليلة حرسه كل الليل ولم يغمض عينه ٣٩٩.

الاستعداد لقتال ابن زياد:

قال الصيقل: لما كان السحر عباً إبراهيم أصحابه وكتب كتابه وأمر أمراءه، فبعث على ميمته سفيان بن يزيد الأزدي، وعلى ميسرته على بن مالك الجشمى، وكانت خيل النخعي قليلة فجعل عليها أخاه لأمه: عبد الرحمن بن عبد الله وضما إليه فى القلب والميمنة، وجعل على رجاله الطفيل بن لقيط النخعي أيضاً.

فلما انفجر الفجر غلّس بسلامة الغداة، ثم خرج فصمهم، ووضع أمراء الأرباع فى مواضعهم، ونزل يمشى ويقول للناس: ازحفوا. فزحف الناس معه على رسلهم رويدا رويدا حتى أشرف على تل عظيم مشرف على القوم وإذا أولئك بعد لم يتحرك أحد منهم.

فدعا بعبد الله بن زهير السلولى فقال له: قرب على فرسك حتى تأتيني بخبر هؤلاء.

فانطلق فلم يلبث إلا يسيرا حتى جاء فقال: قد خرج القوم على دهش وفشل، ولقينى رجل منهم فنادانى: يا «شيعة» أبى تراب؛ يا «شيعة» المختار الكذاب! فقلت له: ما بيننا وبينكم أجل من الشتم.

قال: يا عدو الله! إلى ما تدعوننا؟ قلت له: بالثارات الحسين ابن رسول الله، ادفعوا إلينا عبيد الله بن زياد فإنه قتل ابن رسول الله «وسيد شباب أهل الجنة»

ص: ٢٠٥

حتى تقتله ببعض من قتلهم مع الحسين فإننا لا نراه ندأ للحسين لنرضى به قودا! فإذا دفعتموه إلينا فقتلناه ببعض موالينا جعلنا بيننا وبينكم حكما كتاب الله أو أى صالح شئتم من المسلمين.

فقال: قد جربناكم فى مثل هذا فغدرتم! فقلت: وما هو؟ قال: قد جعلنا بيننا وبينكم حكما فلم ترضوا بحكمهما! فقلت له: إنما كان صلحنا على أنهما إذا اجتمعا على رجل تبعا حكمهما ورضينا به وبايعناه، فلم يجتمعا على واحد.

ثم دعا النخعي بفرسه فركبه وأخذ يمر على أصحاب الرايات يرغبهم فى الجهاد ويحرضهم على القتال يقول:

يا أنصار الدين وشرطه الله و «شيعة الحق» هذا عبيد الله بن مرجانة قاتل الحسين بن على ابن فاطمة بنت رسول الله، حال بينه وبين أبنائه ونسائه و «شيعة» وبين ماء الفرات أن يشربوا منه وهم ينظرون إليه ... ومنعه أن ينصرف إلى أهله ورحله، ومنعه الذهاب فى الأرض العريضة حتى قتله وقتل أهل بيته! فوالله ما عمل فرعون بنجباء بنى إسرائيل ما عمل ابن مرجانة بأهل بيت رسول الله (ص) «الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا» قد جاءكم الله به وجاءه بكم،

فوالله إني لأرجو ألا يكون جمع الله بينكم وبينه في هذا الموطن إلا ليشفى صدوركم بسفك دمه على أيديكم، فقد علم الله أنكم خرجتم غضباً «لأهل بيت نبيكم» ثم رجع حتى نزل تحت رايته ٤٠٠.

ص: ٢٠٦

وقعة نهر الخازر بالموصل:

قال الصيقل: جعل ابن زياد على ميمنته الحصين بن نمير السكوني، وعلى ميسرته عمير بن الحباب السلمي (كما قال من قبل) وعلى الخيل شرحبيل بن ذي الكلاع، وأخذ هو يمشى في الرجالة.

فلما تدانى الصفان حمل الحصين بن نمير في ميمنة أهل الشام على ميسرة أهل الكوفة فقتل قائدها الجشمي، فأخذ رايته ابنه قرّة فقتل أيضاً مع رجال آخرين ثابتين ثم انهزمت الميسرة، فأخذ رايته عبد الله بن ورقاء السلولي واستقبلهم وقال لهم: إلى يا شرطة الله! فأقبل جلهم إليه، فقال لهم: سيروا بنا إلى أميركم فيها هو يقاتل. فأقبل بهم إليه فإذا به هو كاشف عن رأسه يناديهم: يا شرطة الله! إلى أنا ابن الأشر! إن خير فراركم كراركم وليس مسيئاً من أعتب. فتأب إليه أصحابه.

وقد مرّ أنه جعل على ميمنته يزيد بن سفيان، وأن عمير بن حباب السلمي على ميسرة الشام وعده أن ينهزم بهم، فأرسل إبراهيم إلى يزيد أن يحمل على ميسرتهم وهو يرجو أن ينهزم عمير كما ادّعى، بينما ثبت عمير وقاتل قتالاً شديداً!

فلما رأى إبراهيم ذلك قال لأصحابه: أمّا السواد الأعظم فوالله لو قد فضضناه لا نجفل من ترون منهم يمنة ويسرة انجفال طير ذعرت فطارت! ثم حمل فكان يقول لصاحب رايته: انغمس برايتك فيهم. فيقول: جعلت فداك ليس لي متقدّم. فإذا تقدّم شدّ إبراهيم بسيفه فلا يضرب رجلاً إلا صرعه، وجعل إبراهيم يطرد الرجال بين يديه، وإذا حمل برايته شدّ أصحابه شدة واحدة.

قال ورقاء بن عازب: مشينا إليهم حتى إذا دنونا منهم اطّعنّا بالرمح قليلاً ثم صرنا إلى العمد والسيوف فاضطربنا بها ملتباً من النهار .. ثم إن الله هزمهم ومنحنا

ص: ٢٠٧

أكتافهم. فلما رأى عمير بن الحباب هزيمة أصحابه بعث إلى إبراهيم يسأله: أجيئك الآن؟

فقال له: لا تأتيّني حتى تسكن فورة شرطة الله، فإنّي أخاف عليك عاديتهم الآن ٤٠١.

٤٠٠. تاريخ الطبري ٨٧: ٦-٨٨ عن الكلبي عن أبي مخنف عن المولى أبي سعيد الصيقل عن إبراهيم النخعي، وجاء فيه: ومنعه أن يذهب إلى ابن عمه [يزيد] فيصالحه! هذا وقد نقل الطبري عن الكلبي عن أبي مخنف عن عقبة بن سميان غلام الإمام الحسين (ع) ينفي وينكر هذا الكلام عن الحسين (ع) أشد النفي والإنكار، وأنه إنما هو ممّا تقول به الناس تقولاً بالظنون ورجماً بالغيب، فيعلم أن هذا كان قد انطلى على النخعي ومخاطبيه من الكوفيين، وكأنه يبرئ يزيد عن إرادة قتل الإمام (ع)!

٤٠١. تاريخ الطبري ٩٠: ٦، عن أبي مخنف، عن فضيل بن خديج الكندي. وفي ٨١: ٦: أنه ممّن شهد الوقعة. ونقل المسعودي: أن عمير بن الحباب كان في نفسه ما فعل بقومه من مضر وغيرهم من نزار يوم مرج راهط قرب دمشق، فكاتب إبراهيم بن الأشر سرّاً والتقىا وتواطئا. فصاح يومئذ: يا نارات قيس! يا لمضر! يا نزار! فتزاحمت نزار من مضر وربيعه على من كان معهم في جيشهم من أهل الشام من قحطان. مروج الذهب ٩٧: ٣.

وحمل شريك بن جدير التغلبي بالثلاثمائة المبايعين معه على الموت، فجعل يهتك صفوفهم صفًا صفًا بأصحابه، وثار الغبار فلا يسمع إلا وقع السيوف والحديد ٤٠٢، ورأى شريك التغلبي الحصين بن نمير السكوني فحسبه ابن زياد، فتوصل إليه واعتنق كل منهما الآخر ثم نادى التغلبي: اقتلونى وابن الزانية، فقتل الحصين ٤٠٣ ثم توصل إلى ابن زياد وانفرج الناس عنهما وإذا بهما قتيلين ٤٠٤، ورأى ابن الأشر بن زياد على شاطئ نهر الخازر تحت راية منفردة فضربه فقدّه نصفين. فلما انفرج الناس ذكر لأصحابه ذلك وقال لهم: التمسوه، فالتمسوه فإذا هو ابن زياد ٤٠٥.

ص: ٢٠٨

ولما هزم أصحاب ابن زياد تبعهم أصحاب ابن الأشر ففرق منهم فى نهر الخازر أكثر ممن قتل، وغنموا فى معسكرهم من كل شيء ٤٠٦، وحمل ابن الأشر رأس ابن زياد وغيره إلى المختار ٤٠٧.

أخبار الانتصار عند المختار:

اختار المختار من أنصاره السائب بن مالك الأشعري ليخلفه على الكوفة وخرج منها بالناس إلى ساباط المدائن، فلما جاوزه قال لهم: أبشروا فإن شرطه الله قد حسوهم بالسيوف يوماً إلى الليل بنصيبين أو قريباً منها!

ثم دخل المدائن فصعد المنبر وخطبهم يأمرهم بالجدّ وحسن الاجتهاد والرأى والثبات على الطاعة و «الطلب بدماء أهل البيت (عليهم السلام)» إذ جاءه البشير تلو البشير بقتل ابن زياد وهزيمة عسكره وقتل أشراف الشام، فانصرف المختار إلى الكوفة.

وعاد إبراهيم إلى الموصل فبعث أخاه لأمه عبد الرحمن بن عبد الله على نصيبين، وغلب على دارا وسنجار وما والاها من أرض الجزيرة ٤٠٨ وأرمينية وأذربيجان.

٤٠٢. تاريخ الطبرى ٩١: ٦ عن غير أبى مخنف.

٤٠٣. المصدر السابق ٩٠: ٦ عن أبى مخنف.

٤٠٤. المصدر السابق ٩١: ٦ عن غير أبى مخنف.

٤٠٥. تاريخ الطبرى ٩٠: ٦ عن أبى مخنف. وقال فى التنبيه والإشراف ٢٧٠: كان ذلك يوم عاشوراء سنة (٦٧ هـ). وقال يزيد بن المفرغ الحميرى اليمنى فى قتل ابن زياد:

إنّ الذى كان ختاراً بدمته ومات عبداً قتيلاً لله بالزّاب

٤٠٦. تاريخ الطبرى ٩١: ٦.

٤٠٧. مروج الذهب ٩٧: ٣ وزاد: فبعث به المختار إلى ابن الزبير! وهو وهم كما يأتى. وزاد ابن الوردى: وأحرق ابن الأشر جثة ابن زياد وبعث برأسه وعدة من رؤوس أصحابه إلى المختار، وانتقم الله بالمختار للحسين (ع) وإن لم تكن من نية المختار! ثم قال:

قلت: فى الحديث عن النبى (ص): «أن الله قتل يبيحى بن زكريا سبعين ألفاً، ووعدنى أن يقتل بابنى هذا (يعنى الحسين) سبعين ألفاً» وكان كما قال، والله أعلم. ابن الوردى ١٦٧: ١.

ص: ٢٠٩

رأس ابن زياد عند السجّاد (ع):

قال اليعقوبي: ووجه المختار برأس ابن زياد مع رجل من قومه إلى عليّ بن الحسين (ع) وقال له: قف ببابه فإذا رأيت أبوابه قد فتحت ودخل الناس فذاك هو الوقت الذي يوضع فيه طعامه فادخل إليه.

فجاء الرسول إلى باب عليّ بن الحسين (ع) فلمّا فتحت أبوابه ودخل الناس للطعام نادى الرجل بأعلى صوته: يا أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة ومهبط الملائكة ومنزل الوحي! أنا رسول المختار بن أبي عبيد ومعى رأس عبيد الله بن زياد! فصرخت نسوة بنى هاشم، ودخل الرسول فأخرج الرأس، فلمّا رآه عليّ بن الحسين قال: أبعد الله إلى النار. ولم يُر ضاحكاً منذ قتل أبوه الحسين حتّى ذلك اليوم.

وكانت له إبل تحمل له الفاكهة من الشام، فأمر بتلك الفواكه أن تفرّق في أهل المدينة.

وما اختضبت امرأة من بنى هاشم منذ قتل الحسين ولا امتشطت حتّى ذلك اليوم ٤٠٩.

وجاء هذا في خبر الكشيّ عن جارود بن المنذر الزيدى عن الصادق (ع) قال: ما امتشطت فينا هاشميّة ولا اختضبت حتّى بعث إلينا المختار برؤوس الذين قتلوا الحسين (ع).

ثمّ روى عن عمر بن عليّ بن الحسين (ع) أنّه لمّا أتى برأس ابن زياد وعمر بن سعد خرّ ساجداً وقال: الحمد لله الذي أدرك لى ثارى من أعدائي، وجزى الله المختار خيراً.

ص: ٢١٠

وأنّ المختار كان قد أرسل إلى أبيه بعشرين ألف دينار، فقبلها وبنى بها دارهم التي هدمت ودار عقيل بن أبي طالب، ولم يكن قد ظهر من المختار يومئذ ما ظهر منه بعد ذلك ٤١٠.

وسياّتى خبر قتله لعمر بن سعد وإرساله لرأسه إلى ابن الحنفية، فلعلّ عمر بن عليّ بن الحسين (ع) تسامح في عطف اللاحق على السابق.

وجاء مصعب إلى البصرة

ولعلّه تزامن أوقرب من ذلك إرسال ابن الزبير لأخيه مصعب على البصرة بدل الحارث بن عبد الله القباع، لحرب المختار ثمّ لحرب الشام. وكان معه جماعة دخل بهم البصرة مثلثاً حتّى أناخ بباب مسجدها، ورآه الناس فقالوا: أمير أمير، وتسامع

٤٠٨. تاريخ الطبرى ٩١: ٩٢-٩٣.

٤٠٩. المصدر السابق ٢٥٩: ٢.

٤١٠. رجال الكشي: ١٢٧، الحديث ٢٠٢ و ٢٠٣ و ٢٠٤ وفي آخره: وبعد ما أظهر الكلام الذى أظهره (!؟) بعث إليه بأربعين ألف دينار فردّها ولم يقبلها.

به الحارث الأمير السابق فجاء إلى المسجد وإذا بمصعب قد صعد المنبر، فلما دخل الحارث أسفر مصعب عن وجهه فعرّفوه، وقال للحارث: اصعد، فصعد حتّى جلس تحته بدرجة، ثمّ قام مصعب فحمد الله وأثنى عليه ثمّ قرأ الآيات الأوائل من سورة القصص وهويشير بيده إلى الحجاز والشام، ثمّ سمّى نفسه الجزار! ونزل ٤١١.

وخرج أهل الكوفة الذين قاتلوا المختار فهزمهم، فلقحوا بمصعب بن الزبير بالبصرة وكان فيهم شيث بن ربعي اليربوعي التميمي ٤١٢.

ص: ٢١١

وفرّ شمر وهلك

كانّ ذلك كان من مقدّمات الإعداد لحرب المختار أن يلتحق قادة قبائل الكوفة بالبصرة، ولم يكن ذلك ليخفى على المختار، فاختر أن يرسل رئيس حرسه أبا عمرة كيسان مولى بني عرينة إلى جوار قرية يقال لها: الكلثانيّة على شاطئ نهر إلى جانب تلّ، لتكون مسلحة فيما بينه وبين البصرة ٤١٣.

وكان ممّن فرّ شمر بن ذى الجوشن الكلابي بجمع من كلابه معه إلى مصعب بالبصرة، وكان للمختار غلام (فارسي) يدعى (زري) - العمود الذهبي) فتبع شمرًا طامعاً فيه دون أن يستشير المختار، فلما دنا من جماعة شمر قال لهم شمر: اركضوا وتباعدوا عنّي لعلّ العبد يطمع فيّ، وأخذ شمر يستطرد له وأقبل هو يسرع به فرسه حتّى إذا انقطع من أصحابه حمل عليه شمر فدقّ ظهره وقتله، وعاد أصحابه إلى المختار فأخبروه بذلك فقال: أما لو كان يستشيرني لما أمرته أن يخرج له.

ثمّ مضى شمر بأصحابه حتّى نزل قرية سانيديما، ثمّ نزل قرب قرية الكلثانيّة وفيها كتب كتاباً عنوانه: للأمير المصعب بن الزبير من شمر بن ذى الجوشن، وأخذ عبداً من القرية فضربه وحمله كتابه إلى مصعب بالبصرة، فمرّ به أبو الكنود عبد الرحمن ابن عبيد فرأى الكتاب مع العبد وعنوانه لمصعب من شمر، فذهب به إلى أبي عمرة كيسان فسأله عن مكان شمر فأخبرهم به فإذا هو على ثلاثة

ص: ٢١٢

فراسخ منهم فأقبلوا إليه ليلاً، وقد قال لأصحابه إنه يريح هناك ثلاثة أيّام، وإذا بهم أشرفوا عليهم من التلّ وكبروا وأحاطوا بهم، وكان شمر قد اتزر ببرد محقّق، وهو أبرص وقد ظهر بياض كشحيه فوق برده، فأعجلوه أن يلبس ثيابه وسلاحه،

٤١١. تاريخ الطبري ٩٣: ٦ عن التميمي البصري عن المدائني البصري عن الشعبي.

٤١٢. المصدر السابق ٩٢: ٦.

٤١٣. تاريخ الطبري ٥٢: ٦-٥٣ عن أبي مخنف.

وترك أصحابه خيولهم وخرجوا يشتدون على أرجلهم، وأخذ شمر رمحاً وأخذ يطاعنهم به ساعة ثم دخل خيمته وأخذ سيفه وقاتل به حتى قتل ٤١٤.

وتجرد المختار لقتلة الحسين (ع)

وكان كيسان أبا عمرة مولى بنى عرينة عاد إلى رئاسة حرس المختار فرآهم المختار يكلمونه فارتاب منهم، فدعاه المختار وقال له: رأيتهم يكلمونك فما يقولون لك؟ فأسر إليه: أصلحك الله! شقّ عليهم صرفك وجهك عنهم إلى العرب! فقال له: قل لهم: لا يشقّ ذلك عليكم، فأنتم منى وأنا منكم! ثم قرأ من سورة السجدة: إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ ٤١٥ فلما سمعها منه الموالي قالوا: أبشروا فوالله لكأنكم به قد قتلهم ٤١٦.

ولما رأى أن أشرافهم يلتحقون بالبصرة وبلغه أنهم يتهمونه بالكذب بل يسمّونه «الكذاب» قال: ما من ديننا ترك قوم قتلوا الحسين (ع) يمشون أحياء في الدنيا آمنين! بئس «ناصر آل محمد» أنا إذا في الدنيا! أنا إذا الكذاب كما سمّوني! فإني بالله استعين عليهم! الحمد لله الذي جعلني سيفاً ضربه به، ورمحاً طعنهم به، وطالب وترهم والقائم بحقهم، إنه كان حقاً على الله أن يقتل من

ص: ٢١٣

قتلهم، وأن يذلّ من جهل حقهم. فسمّوهم لى ثم اتبعوهم حتى تفنّوهم! فإنه لا يسوغ لى الطعام والشراب حتى اطهر الأرض منهم، وانقضى المصّر عنهم ٤١٧.

وكان من قتلة الحسين (ع): عبد الله بن اسيد الجهني، ومالك بن النسير البدي، وحمل بن مالك المحاربي، وكانوا قد ابتعدوا إلى القادسية ودلّ عليهم عبد الله بن دباس (قاتل محمد بن عمار بن ياسر!) فبعث المختار عليهم من رؤساء أصحابه مالك بن عمرو النهدي، فأتاهم وهم بالقادسية فأخذهم وأقبل بهم حتى أدخلهم عليه عشاء.

فقال لهم المختار: يا أعداء الله وأعداء كتابه وأعداء رسوله وآل رسوله! أين الحسين بن علي؟! أدوا إلى الحسين، قتلتم من امرتم «بالصلاة عليه في الصلاة»؟!!

قالوا: رحمك الله! بعثنا ونحن كارهون، فامنن علينا واستبقنا.

قال المختار: فهلا مننتم على الحسين ابن بنت نبيكم واستبقيتموه وسقيتموه؟!!

ثم قال للبدي: أنت أخذت برنس الحسين؟! قال ابن كامل: نعم، هو هو.

٤١٤. تاريخ الطبري ٥٢: ٦-٥٤ عن أبي مخنف.

٤١٥. السجدة: ٢٢.

٤١٦. تاريخ الطبري ٣٣: ٦ عن أبي مخنف.

٤١٧. تاريخ الطبري ٥٧: ٦.

فقال المختار: اقطعوا يدي هذا ورجليه ودعوه ليضطرب حتى يموت! ففعل به ذلك. وقتل الآخرين ٤١٨.

وأربعة نهبوا خيام الحسين (ع)

ودله سعر الحنفى على أربعة ممن نهبوا خيام الإمام (ع): زياد بن مالك الضبعى وعمران بن خالد العنزى، وعبد الرحمن البجلي، وعبد الله الخولاني، فبعث عليهم عبد الله بن كامل الشاكري الهمداني فأخذهم من قبائلهم وجاء بهم حتى أدخلهم عليه فقال لهم:

ص: ٢١٤

يا قتلة الصالحين! يا قتلة «سيد شباب أهل الجنة»! ألا ترون الله قد أقاد منكم اليوم! لقد جاءكم الورد بيوم نحس! وكانوا أصابوا منه، ثم قال:

أخرجوهم إلى السوق فاضربوا رقابهم، ففعل بهم ذلك ٤١٩.

وثلاثة آخرون من الأزد منهم حميد بن مسلم الأزدي المرادي وعبد الله وعبد الرحمن ابنا صلخب الأزدي، وجاءهم السائب بن مالك الأشعري في خيل فأخذوا الأخوين وفرّ حميد، وأخذوا عبد الله بن وهب الهمداني فانتهبوا بهم إلى المختار فأمر بهم فقتلوا بالسوق.

وآخرا شريكان في قتل عبد الرحمن بن عقيل بن أبي طالب: أبواسماء بشر بن سوط القابضي الهمداني وعثمان بن خالد بن اسير الدهماني الجهني، بعث المختار عليهما عبد الله بن كامل الشاكري الهمداني فأحاط بقواته بعد العصر بمسجد بني دهمان وطلب منهم تسليم عثمان بن خالد، فاستمهلوه وخرجوا مع الخيل في طلبه فوجدوه مع بشر في الجبّانة فأتى بهما إلى ابن كامل فخرج بهما إلى موضع بئر الجعد فضرب أعناقهما، وعاد إلى المختار فأخبره بخبرهما فأمر بإحراق أجسادهما بالنار فاحرقا ثم دفنا ٤٢٠.

وحامل رأس الحسين (ع)

وحمل رأس الحسين (ع) من كربلاء إلى الكوفة: خولى بن يزيد الأصبحي الكندي، وكانت امرأته من الحضرميين يقال لها: العيوف بنت مالك، وحين جاءها برأس الحسين (ع) ناصبت العداء لزوجها، وعاداه من قومه ابن أخي

ص: ٢١٥

٤١٨. تاريخ الطبري ٥٧: ٥٨ - ٥٩ عن أبي مخنف.

٤١٩. تاريخ الطبري ٥٨: ٦ عن أبي مخنف. وعن المدائني في أمالي الطوسي: ٢٤٤، الحديث ١٦، المجلس ٩.

٤٢٠. تاريخ الطبري ٥٩: ٦ عن أبي مخنف.

حجر بن عدى الكندى: معاذ بن هانى بن عدى، فبعث المختار معه مولاه أبا عمرة كيسان صاحب حرسه، فساروا حتى أحاطوا بدار خولى، فلما علم بهم خولى تستر على رأسه بقوصرة للتمر واختبأ فى الخلاء فى داره! فأمر معاذ الكندى أبا عمرة أن يطلبه فى الدار، فخرجت إليهم امرأة خولى فسألوها عنه فقالت بلفظها: لا أدري، وأشارت بيدها إلى الخلاء فى الدار، فوجدوه فيه مستترا بالقوصرة على رأسه فأخرجوه، وكان المختار يسير فى الكوفة فأرسل أبو عمرة إليه رسولا استقبل المختار عند دار بلال فأخبره الخبر، فأقبل نحوهم وردهم حتى قتله إلى جانب أهله، ثم دعا بنار فأحرقه حتى صار رمادا ثم انصرف ٤٢١.

عمر بن سعد الزهرى والأمان!

حدث أبو مخنف عن أبى الأشعر موسى بن عامر قال: كان المختار أول ما ظهر أحسن شيء سيرة وتألفا للناس، وكان من أكرم خلق الله على المختار عبد الله بن جعدة بن هبيرة المخزومي لقربته من على (ع) (كان حفيد أم هانى) فلجأ إليه عمر بن سعد الزهرى وقال له: إني لا آمن هذا الرجل على نفسه، فخذ لى أمانا منه. فأخذ له ذلك وفيه: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا أمان من المختار بن أبى عبيد لعمر بن سعد بن أبى وقاص، إنك آمن بأمان الله على نفسك ومالك وأهلك وأهل بيتك وولدك، لا تؤاخذ بحدث كان منك قديماً، ما سمعت وأطعت ولزمت رحلك وأهلك ومصرى.

ص: ٢١٦

فمن لقي عمر بن سعد من شرطه الله و «شيعه آل محمد» ومن غيرهم من الناس فلا يعرض له إلا بخير. وجعل المختار على نفسه عهد الله وميثاقه ليفين لعمر بن سعد بما أعطاه من الأمان، إلا أن يحدث حدثاً! وأشهد الله على نفسه وكفى بالله شهيدا، وشهد أحمر بن شميطة الهمداني، والسائب بن مالك الأشعري، وعبد الله بن شداد الجشمي وعبد الله بن كامل الشاكري الهمداني.

ثم روى أبو الأشعر موسى بن عامر عن الإمام الباقر (ع): أن المختار فى أمانه لعمر بن سعد لما قال: إلا أن يحدث حدثا، فإنه كان يريد به: إذا دخل الخلاء فأحدث حدثا ٤٢٢.

والموسم الحج فى سنة ست وستين حيث حج جمع من أهل الكوفة إلى مكة والمدينة وعادوا، وكان منهم يزيد بن شراحيل الأنصارى الكوفى وقد زار ابن الحنفية بمكة وتذكروا المختار وخروجه وما يدعو إليه من الطلب بدماء «أهل البيت» فقال محمد بن الحنفية: يزعم أنه «شيعه» لنا وجلساؤه قتلة الحسين (ع) على الكراسى يحدثونه!

فلما قدم الكوفة أتى المختار فسأله: هل لقيت «المهدى» قال: نعم، ونقل له قوله ٤٢٣.

وكان من جلساء المختار الهيثم بن الأسود النخعي الهمداني فسمعه يقول:

٤٢١. تاريخ الطبرى ٥٩: ٦-٦٠ عن أبى مخنف، وعن المدائنى فى أمالى الطوسى: ٢٤٤، الحديث ١٦، المجلس ٩.

٤٢٢. تاريخ الطبرى ٦٠: ٦-٦١ عن أبى مخنف.

٤٢٣. تاريخ الطبرى ٦٢: ٦ عن أبى مخنف.

لأقتلن غداً رجلاً غائر العينين مشرف الحاجبين عظيم القدمين، يسرّ مقتله المؤمنين والملائكة المقربين! ففهم الهيثم أنّ المختار يريد عمر بن سعد، فلما عاد إلى منزله دعا ابنه العريان وقال له: اذهب ليلاً (سراً) إلى عمر بن سعد فأخبره

ص: ٢١٧

بكذا. فلما كان الليل ذهب العريان واستخلى بابن سعد وأخبره الخبر فجزّاه ابن سعد خيراً وقال: كيف يريد بي هذا بعد الذي أعطاني من العهود والمواثيق! ومع ذلك خرج تلك الليلة إلى حمّام له خارج البلد وعليه مولى له، وأخبره بأمانه وما أريد به. فقال له المولى: وأيّ حدث أعظم ممّا صنعت! إنك تركت رحلك وأهلك وأقبلت إلى هاهنا! أرجع إلى رحلك ولا تجعل للرجل عليك سبيلاً! فعاد إلى البلاد، وكأنّه أرسل ابنه حفصاً إلى المختار ليستوثق له.

فعرّف المختار أخباره، وأسرّ إلى أبي عمرة بأمره فيه، فذهب إليه وقال له:

أجب الأمير، فقام عمر في جَبته فعثر بها، فضربه أبوعمرة بسيفه فقتله واحتزّ رأسه وستره بأسفل قبائه حتّى وضعه بين يدي المختار وعنده حفص بن عمر بن سعد، فقال المختار له: أتعرف هذا؟ فاسترجع وقال: نعم، ولا خير في العيش بعده! فقال المختار: صدقت فإنّك لا تعيش بعده، وأمر به فقتل وجعل رأسه إلى رأس أبيه، فلما رآهما المختار قال: هذا بحسين وهذا بعليّ بن الحسين، ثمّ قال: ولا سواء ٤٢٤! واللّه لو قتلت به ثلاثة أرباع قريش ما وفوا أنملة من أنامله!

ثمّ كتب بذلك كتاباً إلى محمّد بن الحنفية ودعا ظبيان بن عمارة التميمي ومسافر بن سعيد الناعطي الهمداني وأرسلهما برأسيهما والكتاب إلى ابن الحنفية وفيه:

بسم الله الرحمن الرحيم إلى «المهدي» محمّد بن عليّ، من المختار بن أبي عبيد. سلام عليك أيّها «المهدي» فإنّي أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أمّا بعد، فإنّ الله بعثني نعمةً على أعدائكم، فهم بين قتيل وأسير، و «طريد وشريد» فالحمد لله الذي قتل قاتليكم ونصر مؤازريكم. وقد بعثت إليك برأس عمر بن سعد وابنه، وقد قتلنا من شرك في دم الحسين وأهل بيته «رحمة الله عليهم» كلّ من قدرنا عليه، ولن يعجز الله من بقى، ولست بمنجم عنهم حتّى لا يبلغني أن

ص: ٢١٨

على أديم الأرض منهم أحداً. فكتب إليّ أيّها «المهدي» برأيك أتبعه وأكون عليه، والسلام عليك أيّها «المهدي» ورحمة الله وبركاته ٤٢٥.

ونأسف لعدم ذكر الخبر جواب ابن الحنفية لنعرف موقفه من ذلك ولا سيّما عنوان «المهدي».

وحرمله بن كاهل الأسدي

٤٢٤. تاريخ الطبري ٦٠: ٦-٦١ عن أبي مخنف، وعن المدائني في أمالي الطوسي: ٢٤٣، الحديث ١٦، المجلس ٩، وفيه: أن أبا عمرة كان قصيراً مدججاً بالحديد ومعه رجلان.

٤٢٥. تاريخ الطبري ٦١: ٦-٦٢ عن أبي مخنف.

كان من حجّاج الكوفة لموسم الحجّ في آخر سنة ستّ وستين للهجرة:

المنهال بن عمرو والأسديّ التابعي، فنقل الإربليّ عن «كتاب دلائل رسول الله».

تأليف أبي العباس عبد الله بن جعفر الحميري عن المنهال الأسديّ قال: حججت فدخلت على عليّ بن الحسين (ع) فقال لي: يا منهال، ما فعل حرملّة بن كاهل الأسديّ؟ - ولأنه أسديّ سأله عن هذا الأسديّ - قال: قلت: تركته بالكوفة حيّاً.

قال: فرفع يديه ثمّ قال: اللهمّ أذقه حرّ الحديد (مرّتين)، اللهمّ أذقه حرّ النار!

قال: فانصرفت إلى الكوفة ... فركبت لأسلم على المختار بن أبي عبيد الثقفي، فركب وركبت معه حتّى أتى الكناسة، وكان قد وجّه في طلب حرملّة بن كاهل، فوقف في الكناسة وقوف منتظر لشيء، فاحضر إليه فقال له: الحمد لله الذي مكّنني منك! ثمّ دعا بالجزّار فقال له: اقطع يديه فقطعهما، فقال له: اقطع رجليه فقطعهما، ثمّ قال: النار النار، فاتى بطن من قصب فجعل حرملّة بينها ثمّ الهب فيها النار حتّى احترق!

فقلت: سبحان الله! سبحان الله! فالتفت إلى المختار وقال: ممّ سبّحت؟

ص: ٢١٩

فقلت له: دخلت على عليّ بن الحسين (ع) فسألني عن حرملّة فأخبرته أنّي تركته حيّاً، فرفع يديه وقال: اللهمّ أذقه حرّ الحديد (مرّتين)، اللهمّ أذقه حرّ النار! فقال المختار: الله الله أسمعت عليّ بن الحسين يقول هذا؟ قلت: الله الله لقد سمعته يقول هذا! فنزل وصلى ركعتين وأطال وسجد وأطال ثمّ رفع رأسه وذهب ومضيت معه حتّى انتهى إلى باب دارى (في بني أسد) فقلت له: إن رأيت أن تكرمني بأن تنزل وتتعدّى عندي؟ فقال لي: يا منهال، تخبرني أن عليّ بن الحسين دعا الله بثلاث دعوات فأجابه الله فيها على يدي ثمّ تسألني الأكل عندك! هذا يوم صوم شكرنا لله على ما وفقني له ٤٢٦.

والطائيّ قاتل العبّاس

كان عدىّ بن حاتم الطائيّ حيّاً بالكوفة، لم يقم مع المختار ولا عليه، وخرج نفر من قومه على المختار يوم جبّانة السبيّ فأسروا فشفع فيهم عدىّ إلى المختار فشفعه وأطلقهم لم يكونوا شركوا في دم الحسين (ع) ولا أهل بيته. ورفع للمختار: أنّ حكيم بن الطفيل الطائيّ كان أصاب صلب العبّاس بن عليّ، فبعث المختار إليه عبد الله بن كامل الشاكريّ الهمدانيّ فأخذه مكتوفاً وأقبل به، فذهب أهله إلى عدىّ بن حاتم فاستغاثوا به فلحقهم في طريقهم وشفع فيه إلى ابن كامل فقال: إنّما ذلك إلى المختار. فمضى عدىّ إلى المختار. فقال من مع الشاكريّ من «الشيعة»: إنّنا نخاف أن يشفع الأمير عدىّ بن حاتم في هذا الخبيث وله من الذنب ما قد علمت، فدعنا نقتله! قال: شأنكم به!

ص: ٢٢٠

٤٢٦. كشف الغمّة ٦: ٣ و ٧٢ و ٧٣، وفي أمالي الطوسي: ٢٣٨ - ٢٣٩، الحديث ١٥، المجلس ٩ بسنده عن المفيد وليس في أماليه عن (دلائل) الحميري أيضاً بسند متصل إلى المنهال. وفي المناقب ١٤٥: ٤.

فلما انتهوا به إلى دار العنزيين، نصبوه مكتوفاً وقالوا له: سلبت ابن عليّ ثيابه! واللّه لنسلمنّ ثيابك وأنت حيّ ترى! فنزعوه ثيابه! ثمّ قالوا له: رميت حسيناً واتّخذته غرضاً لنبلّك وقلت: إنّه لم يضرّه وإنّما تعلّق بسرّباله! فايّم الله لترمينك كما رميته بنبال، يجزيك ما يتعلّق بك منها. فرموه رشقاً واحداً، فأصبح كالقنفذ من كثرة النبال فخرّ ميتاً ٤٢٧.

وقاتل عليّ بن الحسين (ع)

وكان قاتل عليّ بن الحسين الأكبر (ع): مرّة بن منقذ بن النعمان العبدى من عبد القيس، فبعث المختار إليه عبد الله بن كامل الشاكري الهمداني فأتاه حتّى أحاط بداره مع أنصاره ومنهم عبيد الله بن ناجية الشبّامى، فخرج مرّة إليهم ركباً جواده وبيده رمحه وطعن بها الشبّامى فضربه ابن كامل بسيفه على يده اليسرى فجرح ولكنّه أفلت ولحق بمصعب بالبصرة وشلت يده ٤٢٨.

وقاتل عبد الله بن مسلم

وكان زيد بن رقاد الجنبي رمى عبد الله بن مسلم بن عقيل بسهم فأثبت كفّه على جبهته، فنادى اللهمّ إنهم استقلّونا واستذلّونا! اللهمّ فاقتلهم كما قتلونا! وأذلّهم كما استذلّونا! فرماه زيد بسهم آخر فقتله، فكان يقول: جئته ميتاً فلم أزل أنضض سهمى من جبهته حتّى نزعت منها وبقي نصله فيها ما قدرت على نزعه! فبعث المختار إليه عبد الله الشاكري، فلما أتاه ابن كامل داره أحاط بها برجاله واقتحموا عليه فخرج عليهم بسيفه فقال ابن كامل: بالنبال والحجارة،

ص: ٢٢١

فرموه بها، فسقط، فقال ابن كامل: فإن كان حيّاً فأحرقوه، وكان حيّاً فأحرقوه حيّاً ٤٢٩.

صدمات الصّدائى والمختار

وكان عمرو بن صبيح الصّدائى يقرّ أنّه طعن فيهم وجرح دون أن يقتل أحدا منهم، وكان ينام الليل على سطح داره ويضع سيفه تحت رأسه، وبعد ما هدأت العيون صعد إليه عيون المختار فأخذه وسيفه وجاءوا به إلى المختار فحبسه، فلما أصبح قال: ليدخل من شاء أن يدخل، فدخل الناس، فأمر به فجاء به مقيّداً وأوقف إلى جنب ابن كامل الشاكري، وكأنّه أطلقت

٢٢٧. تاريخ الطبرى ٦٢: ٦-٦٣.

٢٢٨. تاريخ الطبرى ٦٤: ٦ عن أبي مخنف.

٢٢٩. المصدر السابق ٦٤: ٦ عن أبي مخنف.

يده فرفع يده ولطم ابن كامل فأخذ ابن كامل بيده وأمسكها وقال للمختار: إنه يزعم أنه قد جرح في «آل محمد» وطعن فمرنا بأمرك فيه. فقال: اطعنوه بالرماح حتى الموت، ففعلوا به ذلك حتى مات ٤٣٠.

فروا فهدمت دورهم

وكان سنان بن أنس النخعي الهمداني يدعى قتل الحسين (ع) فطلبه المختار فوجده قد هرب إلى مصعب بالبصرة، فهدم المختار داره. وكان عبد الله بن عقبة الغنوي قد قتل غلاماً منهم، فطلبه المختار فوجد قد هرب إلى الجزيرة (الموصل) ليلتحق بآل زياد، فهدم داره. وكان عبد الله بن عروة الخثعمي يقول: رميت فيهم باثني عشر سهماً ولكنه كان يدعى أنها كانت ضيعة فانت ولم تصبهم! فطلبه المختار فلحق بمصعب بالبصرة، فهدم داره ٤٣١.

ص: ٢٢٢

ومحمد بن الأشعث وشبث

كان زياد بن سمية لما قتل حجر بن عدى الكندي هدم داره، وكان للأشعث الكندي قرية (يزن آباد) ٤٣٢ إلى جنب القادسية وله بها قصر، فلما هزم محمد بن الأشعث يوم جبانة السبيع خرج من الكوفة إلى قصر أبيه في القرية. وكان من أنصار المختار رجل يدعى حوشب البرسمي ٤٣٣ فدعاه المختار وجعل له من أنصاره مائة رجل وقال له: انطلق إلى ابن الأشعث فستجده إما لاهياً متصيذاً أو قائماً متلبداً! أو خائفاً متلذداً! أو كامناً متغمداً، فإن قدرت عليه فأنتى برأسه!

فخرج حوشب بالمائة معه إلى قصر الأشعث فأحاطوا به وهم يرون أنه فيه، وهو قد خرج منه إلى مصعب بالبصرة، فلما دخلوا القصر علموا أنه قد فاتهم، فأنصرفوا إلى المختار، فبعث من هدم الدار وحمل أنقاضها فبنى بها دار حجر بن عدى الكندي ٤٣٤.

فلما قدم على مصعب أكرمه وأدناه لشرفه، فأخذ يستحثه على الخروج على المختار.

٤٣٠. تاريخ الطبري ٦٥: ٦ عن أبي مخنف.

٤٣١. المصدر السابق.

٤٣٢. المصدر السابق ٩٤: ٦ عن أبي مخنف.

٤٣٣. وفي ٩٤: ٦ عبد الله بن قراد الخثعمي.

٤٣٤. تاريخ الطبري ٦٦: ٦.

ولحق به شبت بن ربيعى اليربوعى التميمى وقد شقَّ قباءه وقطع طرف أذن بغلته وذيلها حتى وقف على باب مصعب وهوينادى: يا غوثاه يا غوثاه!

فدخل بواب مصعب عليه وقال له: إنّ بالباب رجلاً مشقوق القباء من صفته كذا وكذا وينادى: يا غوثاه يا غوثاه! فقال مصعب: لم يكن ليفعل هذا غير شبت بن ربيعى فأدخلوه.

ص: ٢٢٣

ثمّ اجتمع أشراف الكوفة فجاءوه حتى دخلوا عليه فأخبروه بما اجتمعوا له وشكوا إليه ما أصيبوا به من وثوب عبيدهم ومواليهم عليهم مع المختار وسألوه المسير معهم إلى المختار والنصر لهم ٤٣٥.

وعبيد الله بن علىّ (ع)

كان مسعود بن عمرو من بنى نهشل من دارم من تميم، وقد تزوّج علىّ (ع) ابنته ليلى، فكان له منها عبيد الله ٤٣٦ فروى الراوندى عن الباقر (ع) اعتراضاً له على وصيّة أبيه بطاعة الحسن (ع) ٤٣٧ ثمّ كان من المتخلفين عن أخيه الحسين (ع) ٤٣٨.

وكأنّه بعد أن أبعد ابن الزبير ابن الحنفية إلى جبل رضى، قدم على المختار ليختاره بمكان ابن الحنفية صاحباً لأمره! فحكى الزبير بن بكار: أنّ المختار قال له: إنّ صاحب أمرنا منكم ولكنّه رجل لا يعمل فيه السلاح! فإن شئت نجرب فيك السلاح فإن لم يضرّك فأنت صاحبنا ونبايعك! فأبى وخرج من عنده إلى البصرة وعليها مصعب.

وجمع عبيد الله حوله جمعاً ليخرج بهم عليه! فأرسل عليه مصعب من يفرّق جمعه ويعرض عليه الأمان، فقبل الأمان وذهب إليه فلم يزل عنده ٤٣٩.

ص: ٢٢٤

بداية أمر مصعب مع المختار

٤٣٥ . المصدر السابق ٩٤: ٦ عن أبى مخنف.

٤٣٦ . تاريخ أهل البيت: ٩٥.

٤٣٧ . الخرائج والجرائح ١٨٣: ١.

٤٣٨ محمد هادى الیوسفى الغروى، موسوعة التاريخ الاسلامى ٤٠٩: ٦.

٤٣٩ . نسب قريش: ٤٣-٤٤، وانظر قاموس الرجال ٨١: ٧-٨٢.

كان المهلب بن أبي صفرة الأزدي البصري منذ عام (٤٢ هـ-) من قوَّاد جند البصرة في غزوكور سجستان إلى سفوح جبال كابل وسمرقند عام (٥٦ هـ-) ٤٤٠ وكان عامل ابن الزبير على فارس. فلما أكثر الناس على مصعب بالمسير إلى الكوفة كتب مصعب إليه: إنا نريد المسير إلى الكوفة فأقبل إلينا لتشهد أمرنا. وكره المهلب ذلك فاعتلَّ بأمر الخراج وأبطأ عليه.

واستحثَّ ابن الأشعث مصعباً فأعلمه أنَّه لا يشخص دون أن يأتيه المهلب وأمره أن يذهب بكتابه إليه فيقبل به. فذهب محمد بن الأشعث بكتاب مصعب إلى المهلب. فقال له المهلب: أما وجد مصعب يريد غيرك؟! ومثلك يا محمد يأتي يريد! فقال محمد: واللَّهِ ما أنا ببريد أحد! غير أنَّ عبداننا وموالينا غلبونا على أبنائنا وحرمانا ونسائنا!

فحمل المهلب أموالاً عظيمةً وجموعاً كثيراً وهيئةً لم يكن بها أحد من أهل البصرة قبله، وأقبل حتَّى دخل البصرة وأتى باب مصعب ليدخل عليه، ولم يعرفه حاجبه فحجبه فضربه المهلب فكسر أنفه! فدخل إلى مصعب يشكو إليه المهلب ودخل المهلب خلفه، فقال مصعب لحاجبه: عد إلى عملك!

ثمَّ أمر مصعب الناس أن يعسكروا عند الجسر الأكبر ثمَّ جعل مالک بن مسمع على خمس بكر بن وائل، ومالك بن المنذر على خمس عبد القيس، والأحنف بن قيس التميمي على خمس تميم، وزیاد بن عمرو الأزدي على خمس الأزدي، وقيس بن الهيثم على خمس أهل العالية. وجعل المهلب بن أبي

ص: ٢٢٥

صفرة على ميسرته، وعمر بن عبيد الله على ميمنته، وقدم أمامه عباد بن الحصين التميمي على مقدمته ٤٤١.

واستخلف على البصرة عبيد الله بن معمر وخرج منها ٤٤٢.

عبيد الله بن الحر الجعفي

روى المدائني قال: لما قتل عثمان وهاج الهياج بين عليّ (ع) ومعاوية قال عبيد الله بن الحر: إنني أحب عثمان ولأنصرته مبيتاً! فخرج إلى الشام فأقام عند معاوية وكان معه في صفين، ثمَّ لم يزل معه حتَّى قتل عليّ (ع)، فلما قتل قدم الكوفة على إخوانه.

فلما مات معاوية وهاج الهياج على (يزيد اعتزل) فلما مات يزيد بن معاوية وهرب عبيد الله بن زياد وهاجت فتنة ابن الزبير قال: ما أرى قريشاً تنصف. ثمَّ جمع إليه كلَّ خليع من كلِّ قبيلة فكانوا معه سبعمئة فارس! فخرج بهم إلى المدائن على درب الأموال من الجبال (إيران) إلى سلطان العراق، فلم يترك مالا إلا يأخذه فيأخذ منه عطاءه وأعطية أصحابه، ويكتب لصاحب المال براءة بما قبض من المال! ثمَّ جعل يتقصَّى الكور والقرى على مثل ذلك.

٤٤٠. تاريخ خليفة: ١٢٥ و ١٢٦ و ١٣٨.

٤٤١. تاريخ الطبري ٩٤: ٩٤-٩٥.

٤٤٢. المصدر السابق ١١٧: ٩٤.

فلم يزل على ذلك حتى ظهر المختار وبلغه ما يصنع بالسواد، وكان قد ترك امرأته أم سلمة الجعفيّة بالكوفة! فأمر المختار بارتهاؤها رهينة فحبسها. فلما بلغ ذلك إلى عبيد الله أقبل في فتياه حتى دخل الكوفة ليلاً فكسر باب السجن وأخرج امرأته وسائرهم! وبعث المختار عليه من يقاتله فقاتلهم حتى خرج من الكوفة. فأحرق المختار داره، وكانت له ضيعتان بالبداء والجبة فانتبهها الهمدانيون، وكان لعبد الرحمان بن سعيد الهمداني ضياع في ماه فأنهبها وما

ص: ٢٢٦

لهمدان، ولم يترك مالا لهمداني إلا أخذه! ويأتي المدائن فيمر بعمّال جوخي فيأخذ أموالهم ويعود إلى جبال إيران، ولم يزل على ذلك حتى ٤٤٣ خرج مصعب لقتال المختار فالتحق به فيمن لحق به من مخالفي المختار، وتقبّله مصعب ضمنهم، ويبدو أنه كان معه السبعمائة من جنوده.

واستعدّ المختار وخطب

بلغ ذلك المختار فقام في أصحابه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: يا أهل الكوفة، يا أهل الدين وأعداء الحق وأنصار الضعيف و«شيعه» الرسول وآل الرسول! إن الذين بغوا عليكم منكم ثم فروا ذهبوا إلى أشباههم من الفاسقين فاستغواهم عليكم، ليذهب الحق وينتفش الباطل ويقتل أولياء الله، والله لو تهلكون ما يعبد الله في الأرض إلا بالافتراء على الله و«اللعن لأهل بيت نبيه» انتدبوا مع أحمر بن شميطة، وإنكم لو تلقونهم تقتلونهم إن شاء الله.

وكان بعض رؤساء الأرباع بالكوفة ممن كان مع ابن الأشتر رأوه كأنه متهاون بأمر المختار ففارقوه وانصرفوا عنه إلى الكوفة، فاليوم دعاهم المختار وبعثهم مع أحمر بن شميطة، وخرج الأحمر فعسكر في حمّام أعين، وبعث المختار معه جيشاً كثيفاً. وبعث الأحمر على مقدّمته عبد الله بن كامل الشاكري الهمداني إلى المذار بأرض البصرة، وخرج هو خلفه ٤٤٤.

ص: ٢٢٧

أنصار المختار بالمذار

بلغ ابن كامل الشاكري الهمداني المذار، وورد خلفه ابن شميطة، وجاء عسكر مصعب حتى عسكروا قريباً منهم. فجعل الأحمر الشاكري على ميمنته، وعلى الرّجالة كثير بن إسماعيل الكندي، وعلى الخيل رزين عبد بنى سلول، وكيسان مولى عرينة على الموالى وكان كثير منهم على الخيول، وجعل على ميسرته عبد الله بن وهب الجشمي. وكان قد لقي بعض أهل الكوفة من الموالى ما يكرهون، ومنهم هذا الجشمي فأحبّ اليوم إن كانت الدّبره عليهم أن يكون الموالى رجالاً لئلا

٤٤٣. تاريخ الطبري ١: ٢٨ - ٦ - ١٣٠ عن المدائني، وفيه حتى قتل المختار، خطأ، وسيأتي أنّه كان مع مصعب في حرب المختار.

٤٤٤. تاريخ الطبري ٩٥: ٦ - ٩٦ عن أبي مخنف.

ينجوا أحد منهم! فجاء إلى الأحمر وقال له: إنني أخاف إن طورد الموالى ساعة وضربوا وطوعنوا أن يطيروا على متون خيولهم ويسلموك! فإنهم أهل خور! وأنت تمشي فمرهم أن ينزلوا معك، فإنك إن أرجلتهم لم يجدوا بداً من الصبر معك! وظن ابن شميظ أن الجشمي إنما أراد بذلك نصحه ليصبروا ويقاتلوا. فقال لهم: يا معشر الموالى! انزلوا معي فقاتلوا. فنزلوا يمشون مع رايته.

وجاء مصعب وقد جعل على خيله عبّاد بن الحصين، فجاء عبّاد حتى دنا من ابن شميظ وأصحابه فناداهم: إننا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة رسوله وبيعة أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير. فأجابوه: ونحن ندعوكم إلى كتاب الله وسنة رسوله وبيعة الأمير المختار وإلى أن نجعل هذا الأمر شورى في «آل رسول الله» فمن زعم أنه ينبغي له أن يتولّى عليهم جاهدناه! وأمره مصعب أن يحمل عليهم. فحمل عليهم فما زالوا حتى رجع إلى موضعه. فحمل المهلب الأزدى في ميسرته على الشاكري في ميمنة المختار فجال أصحاب الشاكري وثبت هو ومن معه حتى انصرف المهلب إلى مكانه وتوقفوا ساعة.

ص: ٢٢٨

ثم قال المهلب لأصحابه: إن القوم بجولتهم قد أطعموكم فيهم فكروا عليهم كره صادقاً! ثم حمل عليهم حملة منكراً صبروا لها ثم هزموا.

ثم حمل الناس جميعاً على ابن شميظ البجلي ومعه بجلة وخنعم فتنادوا معه الصبر الصبر! فناداهم المهلب: بل الفرار الفرار علام تقتلون أنفسكم مع هؤلاء العبيد؟! ومال بخيله على الرجالة مع ابن شميظ فقاتل حتى قتل، وافترقت الرجالة حوله ثم انهزمت في الصحراء.

فدعا المصعب بعبّاد بن الحصين على الخيل وقال له: خذهم اسراء فاضرب أعناقهم!

وكان محمد بن الأشعث على خيل أهل الكوفة ممن فروا من المختار، فسرحهم مصعب وقال لهم: دونكم ثأركم! فكانوا أشدّ عليهم من أهل البصرة! لا يدركون منهزماً ولا يأخذون أسيراً إلا قتلوه! فأبيدت تلك الرجالة ولم ينج منهم إلا طائفة من أهل الخيل.

وكان معاوية بن قرّة قاضى البصرة يقول: إن دماءهم كانت أحلّ عندنا من الترك والديلم!

وحيث كان المختار قد وعدهم النصر فلمّا بلغ الموالى العجم مع المختار ما لقي إخوانهم قالوا بالفارسيّة: «ابن بار دروغ گفت!»: كذب هذه المرّة ٤٤٥!

مصعب إلى الكوفة

وأقبل مصعب بجيشه حتى بلغ كسكر، ثم حمل الرجال وأثقالهم وضعفاء الناس في السفن، في نهر كان يقال له: نهر خورشاد ثم نهر قوسان ثم إلى الفرات.

وبلغ المختار ذلك فحصّن قصره بحصار له واستعمل على الكوفة عبد الله ابن شدّاد البجلي ثمّ سار بأنصاره حتّى نزل بهم فى السيلحين حيث مجتمع الأنهار نهر السيلحين ونهر الحيرة ونهر القادسيّة ونهر يوسف فسدّ أفواهاها فذهب ماء الفرات فى هذه الأنهار فرست سفن البصريين فى الطين، فخرجوا يمشون، وجاءت خيل منهم فكسروا السدّ الذى عمله المختار. وأقبل المختار حتّى نزل حروراء بينهم وبين الكوفة.

وجعل على ميمنته سليم بن يزيد الكندى، وعلى ميسرته سعيد بن منقذ الثورى الهمداني، وعلى الخيل عمر بن عبد الله النهدي، وعلى الرجال مالك بن عمرو النهدي، وعلى شرطته عبد الله بن قراد الخثعمي، ثمّ بعث اثنين منهم إلى خمسين من أخماس البصرة: فبعث الثورى صاحب ميسرته على بكر بن وائل وعليهم مالك بن مسمع البكرى، وبعث الكندى صاحب ميمنته إلى بنى تميم وعليهم الأحنف بن قيس! وكان على بيت مال المختار عبد الرحمن بن شريح الشبامى فبعثه إلى عبد قيس البصرة وعليهم مالك بن المنذر العبدى، وبعث عبد الله ابن جعدة المخزومى إلى أهل عالية البصرة وعليهم قيس بن الهيثم السلمى، وبعث مسافر بن سعيد الناعطى إلى أزد البصرة وعليهم زياد بن عمرو العتكى.

وأبقى مصعب على خيله عبّاد بن الحصين الحبطى، وجعل على الرّجالة مقاتل بن مسمع البكرى، وعكس أمر الميمنة والميسرة فجعل عليها عمر بن عبيد الله التيمى وجعل المهلب الأزدي على ميمنته، وأبقى محمّد بن الأشعث على أهل الكوفة وبعثه حتّى نزل بينه وبين المختار ميامنا مغرباً، فأرسل المختار إليه السائب بن مالك الأشعرى، ووقف هوفى بقيّة أصحابه ٤٤٦.

حرب مصعب والمختار

وتزاحف الناس ودنا بعضهم من بعض، وبدأ الثورى فى ميسرة المختار على بكر بن وائل البصرة فى ميسرتهم، ومعه الشبامى على عبد قيس البصرة، فقاتلوهم قتالاً شديداً وصبروا لهم، فإذا تراجع الثورى بجمعه حمل الشبامى وبالعكس وربّما حملاً معاً. وبعث المختار إلى ابن جعدة المخزومى أن احمل على من يازئك وهم أهل عالية البصرة، فحمل عليهم فكشفهم حتّى انتهوا إلى المصعب! وأخذ المصعب يرمى بسهامه، ثمّ تجاوزوا. وبعث المصعب على المهلب وهوفى خمسين من أخماس البصرة كثيرى الفرسان والعدد وهم جامون لم يحملوا، فأمرهم المهلب بالحملة على من يليهم، فحملوا حملة منكراً حتّى حطّموا أنصار المختار وكشفوهم، وانقصفوا انقصافاً شديداً كأنّهم أجمّة شبّ فيها حريق!

وكان مالك بن عمرو النهدي على رجالة المختار فأخذ ينادى: أين أهل البصائر والصبر! فتأبّ إلى خمسون منهم عند المساء فكربّهم على محمّد بن الأشعث وأصحابه فقتلوه وعامة أصحابه وقتل مالك.

وانكشفت ميسرة المختار مع الثورى وثبت معه سبعون من قومه فقتلوا.

وانكشفت ميمنة المختار مع سليم الكندى وثبت معه تسعون من قومه فقتلوا.

ومر المختار بأنصاره على مقتل مالك النهدي وابن الأشعث والكوفيين ثم توقف على فم سكة شيب بن ربيع فنزل ونادى: يا معشر الأنصار كروا على الثعالب الرواغة، وحمل على من يليه من أهل البصرة فقاتلهم وهويرد ألا يبرح وقاتل هزيعا من الليل حتى انصرفوا عنه، وقاتل معه تلك الليلة رجال من أهل الحفاظ من أنصاره حتى قتلوا.

ص: ٢٣١

فلما تفرقوا عن المختار قال له أنصاره: أيها الأمير! قد ذهب القوم، فانصرف إلى منزلك بالقصر.

فقال لهم: أما والله ما نزلت وأنا أريد أن أرجع إلى القصر، فأما إذا انصرفوا فاركبوا بنا على اسم الله! فركب وانسحب حتى دخل دار الإمارة بالكوفة ٤٤٧.

مصير عبيد الله بن علي (ع)

مر الخبر: أن المختار لما سمع بعزم مصعب على الخروج إليه، بادر بإرسال جمع من أنصاره مع أحمر بن شميطة البجلي إلى مذار البصرة، وأن مصعبا لما خرج من البصرة إلى المذار في أراضى البصرة قدّم أمامه عبّاد بن الحصين الحبطي التميمي على مقدمته ٤٤٨ ثم لما كرّ توجه إلى حروراء الكوفة لحرب المختار جعل هذا الحبطي التميمي على الخيل ٤٤٩ ثم لم يذكر الخبر له أيّة مقدّمة لجيشه إلى حروراء الكوفة.

وفي خبر الراوندي عن الباقر (ع) أن عبيد الله بن علي (ع) لما لم يسلم له المختار زمام اختياره بعد حصار ابن الحنفية ونفيه إلى جبال رضوى، غضب وذهب إلى مصعب بالبصرة (كذا) فلما خرج مصعب لقتال أهل الكوفة قال له عبيد الله: ولّني قتال أهل الكوفة! فكان على مقدّمة مصعب لما التقوا بحروراء (وليس بالمذار) فلما حجز الليل بينهم أصبحوا ووجدوه في فسطاطه مذبوحاً لا يدرى من قتله! كما قال له أبوه علي (ع): كأنّي بك وقد وجدت مذبوحاً في خيمة ٤٥٠.

ص: ٢٣٢

وعليه فهو مقتول مجهول قاتله وليس أصحاب المختار! وفي حروراء وليس في المذار. هذا ويظهر أنه نسب إليه قبر بالمذار قبل عصر الطوسي، كما حكى ذلك ابن إدريس عن رسالة «المسائل الحائريّات» قال لما سأله السائل عمّا ذكره المفيد في «الإرشاد»: أن عبيد الله قتل مع أخيه الحسين (ع)؟ فأجاب:

٤٤٧. تاريخ الطبرى ١٠٠: ٦ - ١٠١.

٤٤٨. تاريخ الطبرى ٩٥: ٦ عن أبي مخنف.

٤٤٩. المصدر السابق ٩٩: ٦ عن أبي مخنف.

٤٥٠. الخرائج والجرائح ١٨٣: ١.

بأنّه قتله أصحاب المختار بالمدار! وقبره معروف هناك عند أهل تلك البلاد! وزاد ابن إدريس: أنّ قبره هناك ظاهر والخبر بذلك متواتر! وعلّق المحقق: أنّ ذلك لا يوجد في «المسائل الحائريات» للطوسي ٤٥١!

وروى أبو مخنف قال: فلما أصبح المصعب أخذ يسير بمن معه نحو سبخة الكوفة فلاقاه المهلب فقال له: يا له فتحا ما أهنأه لو لم يكن قتل محمد بن الأشعث! قال: صدقت فرحم الله محمداً ثمّ قال له: أعلمت أنّ عبيد الله بن عليّ ابن أبي طالب قد قتل! أما إنّه كان يحبّ أن يرى هذا الفتح ثمّ لا نجعل أنفسنا أحقّ منه بشيء مما نحن فيه! وكأنّه خاف أن يتهم بقتله فقال: أتدرى من قتله؟

إنّما قتله من يزعم أنّه «شيعة» لأبيه! أمّا إنهم قد قتلوه وهم يعرفونه ٢٥٢ فهو له تأكيد على نسبة قتله إلى «الشيعة» وهذه أقدم بادرة بهذا الاتهام، بحرواء الكوفة وليس بمدار البصرة.

ص: ٢٣٣

مصعب وحصار المختار

كان ممّن خرج على المختار في الكوفة عبد الرحمن بن مخنف الأزدي ففرّ إلى مصعب بالبصرة، فلما عزم مصعب على حرب الكوفة دعا عبد الرحمن وقال له: انسلّ إلى الكوفة فادعهم سرّاً إلى بيعتي واستخرج منهم إلى كلّ من قدرت عليه فادّعي أبو مخنف له أنّه انسلّ إلى الكوفة ولكنّه تسترّ ولم يتكلّم بشيء ٢٥٣ فلما وصل مصعب إلى الكوفة خرج إليه جمع من أهل الكوفة وفيهم عبد الرحمان فقال له: ما صنعت فيما كنت وكلّتك به؟ قال: أصلحك الله وجدت الناس صنفين: أمّا من كان له هوى فيك فقد خرج إليك، وأمّا من كان يرى رأي المختار فلم يكن ليدعه ولا ليؤثر عليه أحداً! فلم أبرح بيتي حتّى قدمت. فصدّقه مصعب وبعثه إلى جبانة السبيح، وبعث عبد الرحمان بن محمد بن الأشعث الكندي إلى الكناسة، وبعث عبّاد بن الحصين الحبطي التميمي إلى جبانة كنده، وبعث زحر بن قيس الجعفي إلى جبانة مراد، وكان معه عبيد الله بن الحرّ الجعفي فبعثه إلى جبانة الصائدين من همدان، كلّهم ليقطعوا عن المختار وأصحابه الماء والمادّة!

فأصابهم جهد شديد فكانوا يعطون على القرية الدينار والدينارين، وربّما خرج المختار بجمع من أصحابه فيقاتلون قتالاً ضعيفاً لا نكاية له، فكانوا يصبّون عليهم الماء القذر والحجارة من فوق البيوت! وأحياناً كان يخرج بعض نسائهم إليهم وقد التحفت على ماء وطعام وكأنّها تريد المسجد للصلاة أو تأتي أهلها أو تزور ذات قرابة لها فإذا دنت من القصر دخلته لزوجها أو لحميمها بطعام

ص: ٢٣٤

٢٥١. السرائر الحاوي ٢٥٦: ١.

٢٥٢. تاريخ الطبري ١٠٤: ٦ عن أبي مخنف.

٢٥٣. المصدر السابق ٩٥: ٦ عن أبي مخنف.

وشراب.

وكان إذا اشتدَّ عليهم العطش في قصرهم استقوا من البئر في القصر وأمر بصبِّ عسل فيه ليغيّر طعمه فيشربوا منه، فكان أكثرهم يرتوى منه.

ثمَّ أمر مصعب ليقربوا من القصر، فنزل عبّاد الحبطي التميمي عند مسجد جهينة حتّى مسجد بنى مخزوم فمنع النساء من الوصول إلى القصر. وبعث مصعب زحر بن قيس فنزل عند الحدّادين وباعة الدّواب! وبعث عبيد الله بن الحرّ فنزل عند دار بلال، وبعث حوشب بن يزيد فوقف في فم سكة من زقاق البصريين، ونزل المهلب الأزدي في (جهار سوق - مفترق طرق) خنيس، وجاء عبد الرحمان بن مخنف إلى دار السقاية، وبادر شباب من الكوفة والبصرة إلى السوق.

ثمَّ أقبل هؤلاء الأمراء والرؤوس من كلّ جانب، فلم يكن لأصحاب المختار طاقة عليهم فدخلوا القصر واشتدَّ عليهم الحصار، فكان المختار يقول لهم: انزلوا بنا فلنقاتل. فلا يقبلون ضعفا وعجزا، فكان يقول: أمّا أنا فوالله لا أعطى بيدي ولا احكّمهم في نفسي.

وكان عبد الله بن جعدة بن هبيرة المخزومي مع المختار فلما رأى ذلك تدلّى بحبل من القصر حتّى اختبأ عند إخوانه. وكان معه السائب بن مالك الأشعري صهر أبي موسى الأشعري ومعه ابنه محمد صبيّ أومراهق، فلما أراد المختار الخروج من القصر للقتال قال له:

ماذا ترى؟ قال: الرأي رأيك .. فهنا روى أبو مخنف عن المختار قال: إنّما أنا رجل من العرب، فرأيت ابن الزبير انتزى على الحجاز، ورأيت نجدة الخارجي انتزى على اليمامة ومروان على الشام فلم أكن دونهم فأخذت هذه البلاد فكنت

ص: ٢٣٥

كأحدكم، إلا أنّي قد طلبت بثأر «أهل بيت النبی» إذ نامت العرب عنه فقتلت من شرك في دمائهم وبالغت في ذلك إلى يومي هذا! فاسترجع السائب ٤٥٤.

مصير المختار وأنصاره

روى أبو مخنف قال: لما رأى المختار ما بأصحابه من ضعف وفشل اغتسل وتحنّط وتطيّب، وإنّما تبعه للخروج من القصر تسعة عشر رجلاً. ونادى أصحاب مصعب قال لهم: أتؤمنوني وأخرج إليكم؟ قالوا: لا، إلا على حكمنا. فقال: لا احكّمكم في نفسي أبداً.

ثمَّ ضاربهم بسيفه وضاربوه حتّى قتلوه ومن معه من أصحابه، قتله رجلان أخوان من بنى حنيفة من تميم، عند موضع الزياتين ٤٥٥.

٤٥٤ . تاريخ الطبری ١٠٧: ٦ عن أبي مخنف.

٤٥٥ . تاريخ الطبری ١٠٧: ٦ - ١٠٨ عن أبي مخنف. وأتيا مصعباً برأسه فأعطاها ثلاثين ألف درهم، كما في تاريخ خليفة: ١٦٥ وفيه: دخلا عليه القصر! غلط.

ولمّا كان الغد من قتل المختار نزل أنصاره على الحكم! فبعث إليهم مصعب عبّاد بن الحصين الحبطى التميمى، فنزعهم أسلحتهم وكثّفهم وأخرجهم مكثّفين!

وكان فيهم من قوّد المختار رئيس شرطته عبد الله بن قراد، فلمّا دخلوا عليه فأخذوا سيفه وكثّفوه وأخرجوه مكتوفاً أدركته الندامة فأخذ يطلب حديدَةً أو عصاً أو شيئاً يقاتل به فلم يجدّه! وكأنّ عبد الرحمان بن محمّد بن الأشعث عرفه أنّه قاتل أبيه فنزل إليه وقال: أدنوه منّى، فأدنوه منه فضرب عنقه.

وكان من أشرف أنصار المختار عبد الله بن شدّاد الجشمى ومعه ابنه شدّاد، وطلب عبد الرحمان من مصعب أن يدفع إليه ابن شدّاد، فأمر له به، فجاء وأخذه

ص: ٢٣٦

فضرب عنقه، وترك ابنه.

وجاءوا إلى مصعب ببجير بن عبد الله المسلمى ومعه منهم ناس كثير، فقال المسلمى: الحمد لله الذى ابتلانا بالإسار وابتلاك بأن تعفوننا ... ومن عفا الله عنه وزاده عزّاً ومن عاقب لم يأمن القصاص! يابن الزبير! نحن أهل قبلتكم وعلى ملّتكم، ولسنا تركاً ولا ديلماً ... وقد ملكتم فاسجحوا وقد قدرتم فاعفوا ... فما زال بهذا القول ونحوه حتّى رقّ لهم الناس ورقّ لهم مصعب وأراد أن يخلّى سبيلهم.

فقام عبد الرحمان بن محمّد بن الأشعث وقال لمصعب: يابن الزبير اخترنا أو اخترهم!

وقام محمّد بن عبد الرحمان الهمدانى وقال له: قتل أبى وخمسائة من أشرف أهل المصر وعشيرة همدان ثمّ تخلّى سبيلهم؟! اخترنا أو اخترهم!

وقام كلّ قوم اصيب منهم رجل فقالوا نحوا من هذا القول، فلمّا رأى مصعب ذلك أمر بقتلهم.

وكان فيهم مسافر بن سعيد بن نمران فقال لمصعب: يابن الزبير! ما تقول لله إذا قدمت عليه وقد قتلت أمة من المسلمين - صبرا - حكموك فى دمائهم! فكان الحقّ ألا تقتل نفساً بغير نفس. وفينا رجال كثير لم يشهدوا من حربنا وحربكم يوماً واحداً وإنّما كانوا فى الجبال والسواد يجبون الخراج ويؤمنون السبيل! فإنّ كُنّا قتلنا عدّة رجال منكم فاقتلوا عدّة من قتلنا منكم وخلّوا سبيل بقيتنا! فلم يتكلّم.

ثمّ أمر مصعب أن يقطعوا كفّ المختار فيسمّروها بمسمار إلى جانب المسجد الجامع! ففعلوا ذلك ٤٥٦.

ص: ٢٣٧

وقال الواقدى: كان المختار حين وقف لمصعب فى عشرين ألفاً! وتوجّه منهم نحو القصر ثمانية آلاف لم يجدوا من يقاتل بهم ووجدوا المختار فى القصر .. فأقام مصعب يحاصره أربعة أشهر، يخرج إليهم فى سوق الكوفة فيقاتلهم من وجه واحد ولا يقدرّون عليه حتّى قتل المختار. فلمّا قتل المختار بعث من فى القصر يطلب الأمان فأبى مصعب حتّى ينزلوا على حكمه،

فلما نزلوا على حكمه وهم ثمانية آلاف سبعة آلاف من العرب وسائرهم عجم! فلما خرجوا أراد مصعب أن يترك العرب ويقتل العجم!

فقال له من معه: أي دين هذا؟! تقتل العجم وتترك العرب ودينهم واحدا! فقدّمهم ف ضرب أعناقهم.

وعن النيمري البصري عن المدائني: أن مصعبا شاور أصحابه في من نزل على حكمه من المحصورين في القصر، فقال ابن الأشعث وأمّثاله: اقتلهم، وكان معهم عبيد الله بن الحرّ الجعفي فقال له: أيها الأمير، ادفع كل رجل منهم إلى عشيرته تمنّ بهم عليهم، ولا غنى بنا عنهم في ثغورنا، وادفع عبيدنا إلى مواليتهم فإنهم لأيتامنا وأراملنا وضعفائنا يردّونهم إلى أعمالهم، واقتل الموالى فإنه قد بدا كفرهم وعظم كبرهم وقلّ شكرهم.

وكان الأحنف التميمي ساكتا فقال له مصعب: وما ترى يا أبا بحر؟ فعرض بقتلهم كلّهم فقتلهم كلّهم!

وكان ذلك للرباع عشر من شهر رمضان من سنة سبع وستين، وللمختار سبع وستون سنة ٤٥٧.

ص: ٢٣٨

وأحضر مصعب امرأتى المختار: أمّ ثابت بنت سمرة بن جندب الأنصاري الفزاري فقال لهما: ما تقولان في المختار؟ فقالت: ما نقول فيه إلا ما تقولون أنتم فيه، فقال لهما: فاذهبي.

وقال لعمرة بنت النعمان بن بشير الأنصاري: ما تقولين فيه؟ قالت: رحمة الله عليه، إنه كان عبداً من عباد الله الصالحين! فأمر بحبسها وكتب فيها إلى أخيه عبد الله وقال: إنها تزعم أنه نبي! فكتب إليه بقتلها! فأخرجها بعد العتمة إلى ما بين الكوفة والحيرة ف ضربها قاتلها ثلاث ضربات بالسيف فقتلها وهي تصرخ: يا أبتاه! يا أهلاه! يا عشيرتاه ٤٥٨!

وحجّ مصعب فلقى عبد الله بن عمر زوج صفية اخت المختار، فسلم عليه وكأنه كان لا يعرفه فعرفه بنفسه أنه مصعب فقال له ابن عمر: أنت القاتل سبعة آلاف من أهل القبلة في غداة واحدة! قال مصعب: إنهم كانوا كفره سحرة! (فهو منيع هذا التشنيع) فقال ابن عمر: والله لو قتلت عدّتهم غنماً من تراث أبيك لكان ذلك سرفاً ٤٥٩!

٤٥٧. تاريخ الطبري ١١٥: ٦- ١١٦. وأغرب يعقوبى فقال: إن مصعباً أعطاهم الأمان وكتب لهم بذلك ثم قتلهم واحداً واحداً فكانت إحدى الغدرات المذكورة المشهورة في الإسلام! يعقوبى ٢٦٣: ٢- ٢٦٤. وإنه ألقى بين يديه رأس المختار ٢٦٥: ٢. وفي الإمامة والسياسة ٢٥: ٢: أنه بعث به إلى أخيه وذكر الأمان والغدر المسعودى في مروج الذهب ٩٩: ٣ وأعرض عنه في التنبيه والإشراف: ٢٧٠.

٤٥٨. تاريخ الطبري ١١٢: ٦ عن أبي مخنف.

وفي مروج الذهب ٩٩: ٣: واتى بحرم المختار، فدعاهن إلى البراءة منه ففعلن، إلا حرميتين له إحداهما بنت سمرة بن جندب الفزاري، والثانية ابنة النعمان بن بشير الأنصاري الخزرجي فأنهما قالتا: كيف نتبرأ من رجل يقول: ربّي الله، كان صائم نهاره قائم ليله، قد بذل دمه لله ولرسوله في طلب قتل ابن بنت رسول الله وأهله و«شيعة» فأمكنه الله منهم حتى شفى النفوس! فكتب مصعب إلى أخيه عبد الله يخبره بخبرهما وما قاتلاه، فكتب إليه: إن هما رجعتا عما هما عليه وتبرأتا منه، وإلا فاقتلها! فعرضهما مصعب على السيف فقالت ابنة سمرة:

فمع السيف لودعوتني إلى الكفر لكفرت، فأشهد أن المختار كافر! ولعنته وتبرأت منه! ولكن ابنة النعمان قالت: كذا! إنها موتة ثم الجنة والقدوم على الرسول وأهل بيته! والله لا يكون ذلك! أتى ابن هند فأتبعه! وأترك ابن أبي طالب! اللهم اشهد أنني متبعة لنبيك وابن بنته و«أهل بيته وشيعته»! فقتلها صبرا، وهذا لا يتنافى مع خبر أبي مخنف إلا في الإجمال والإكمال.

مصير إبراهيم بن الأشتر

كان سواد العراق وجبال شماله وشر من إيران تابعا لحكومة الكوفة، فلما قتل المختار طمع عبد الملك بن مروان في تطميع النخعي في الموصل في حكم العراق فكتب إليه: أما بعد، فإن آل الزبير انتزوا على أئمة الهدى! ونازعوا الأمر أهله! وألحدوا في بيت الله الحرام! واتخذوا الحرام حلاً! والله ممكن منهم وجاعل دائرة السوء عليهم. وإنني أدعوك إلى الله وإلى سنّة نبيه، فإن قبلت وأجبت فلک سلطان العراق ما بقيت وبقيت، على عهد الله وميثاقه بالوفاء بذلك.

وبعث مصعب عمّاله على السواد والجبال، وخاف التحاق النخعي بالأموى فقدم رسوله بكتاب مصعب إلى ابن الأشتر وفيه: أما بعد، فإن الله قد قتل المختار «الكذاب» و «شييعته الذين دانوا بالكفر وكادوا بالسحرا» وإننا ندعوك إلى كتاب الله وسنّة نبيه وإلى بيعه أمير المؤمنين! فإن أجبت إلى ذلك فأقبل إليّ، فإن لك أرض الجزيرة وأرض المغرب (مغرب العراق - الشام) كلّها! ما بقيت وبقي سلطان آل الزبير، لك بذلك عهد الله وميثاقه وأشدّ ما أخذ الله على النبيين من عهد أو عقد، والسلام.

فدعا إبراهيم أصحابه فأقرأهم الكتابين واستشارهم الرأي، فقائل يقول: عبد الملك، وقائل يقول: ابن الزبير. فقال لهم: ورأيي اتباع أهل الشام، ولكن كيف لي بذلك وليست قبيلة بالشام إلا وقد وترتها! ولست بتارك عشيرتي وأهل مصرى ٤٦٠! فكتب إلى مصعب، فكتب إليه مصعب أن أقبل فأقبل إليه ٤٦١ فلما بلغ

ذلك إلى مصعب بعث المهلب الأزدي البصري إلى عمل ٤٦٢ إبراهيم على الموصل والجزيرة وأذربيجان وأرمينية، وأقام مصعب بالكوفة ٤٦٣ أميرا على العراقيين وتوابعهما من إيران.

وبذلك تعاضم أمره، ورأى أخوه عبد الله أن مروان بن الحكم إن حكم تصبح حكومته ملوكيّة وراثيّة كما فعل معاوية قبله، فتوارثها ابنه عبد الملك، فأراد عبد الله أن يرّبي لها ابنه الأكبر حمزة ٤٦٤ فعزل مصعبا عن البصرة وولاه ابنه حمزة.

٤٥٩. تاريخ الطبري ١١٣: ٦ عن أبي مخنف.

٤٦٠. تاريخ الطبري ١١٠: ٦- ١١٢ عن أبي مخنف.

٤٦١. المصدر السابق ١١١: ٦ عن أبي مخنف.

٤٦٢. تاريخ الطبري ١١٢: ٦ عن أبي مخنف.

٤٦٣. المصدر السابق ١١٦: ٦ عن المدائني البصري. وهكذا غدر بابن الأشتر فلم يف له بما وعده إياه عاجلاً.

٤٦٤. من ثمانية أبناء له، المعارف: ٢٢٥، وانظر الطبري ١١٨: ٦.

فظهرت منه بالبصرة خفة وضعف وتخليط، كان أحيانا يحدو حتى لا يترك ما يملك، وأحيانا يمنع ما لا يمنع مثله. وكان على الخراج مردانشاه الفارسي فاستحثه على الخراج فأبطأ عليه فقام عليه بسيفه فقتله! وهم بالأشراف أن يضربهم! فكتب الأحنف التميمي بذلك إلى ابن الزبير وسأله أن يعيد عليهم مصعبا، ففعل، فاحتمل حمزة مالا كثيرا من بيت المال معه وترك أباه وذهب إلى

المدينة واستودع الأموال عند رجال فذهبوا بها! فلما علم ابن الزبير بما فعل قال: أبعد الله! أردت أن اباهي به بنى مروان! فنكص! فولى مصعب على الكوفة الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة المعروف بالقباع وانصرف إلى البصرة بعد سنة ٤٦٥ هـ أي في (٦٨ هـ).

ص: ٢٤١

مصير عبيد الله بن الحر

روى المدائني قال: لما قتل المختار قال الناس لمصعب: إن ابن الحر قد شاق ابن زياد ثم المختار، ولا نأمنه أن يشب بالسواد كما كان يفعل. فحبسه مصعب (بالكوفة، قبل أن يعود للبصرة).

وتوصل ابن الحر إلى وجوه مذحج (وهو منهم) وقال لهم: سعى بي قوم كذبة وخوفوا مصعبا مما لم أكن أفعله! وما لم يكن من شأني! فحبسني على غير جرم، فاتوه وكلموه في أمري. فوعده ذلك. فأرسل إلى فتيانهم قال: أرسلت قوما إلى مصعب يكلمونه في أمري، فالبسوا سلاحكم وليكن مستورا بشيابكم، واذهبوا معهم وقفوا ببابه، فإن خرج القوم وقد شفّعهم فلا تعرضوا لشيء، وإن خرجوا ولم يشفّعهم فكابروا السجّانين وأنا اعينكم من داخل! فجاء القوم من مذحج فدخلوا على مصعب فكلّموه فشفّعهم وأطلقه.

فلما أتاه الناس يهنئونه قال لهم: قد عهد إلينا رسول الله (ص): أن «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق» وما رأينا بعد الأربعة الماضين ٤٦٦ إماما صالحا ولا وزيرا تقيا، كلهم عاص مخالف، قوى الدنيا ضعيف الدين، فعلام تستحلّ حرمتنا ونحن أصحاب النخيلة والقادسيّة وجلولاء ونهاوند! نلقى الأسنة بنحورنا والسيوف بجباهنا، ثم لا يعرف لنا حقنا وفضلنا! فقاتلوا عن حريمكم، فأى الأمر ما كان فلكم فيه الفضل، وإني قد قلبت ظهر المجن! وأظهرت لهم العداوة فإنّ هذا الأمر لا يصلح إلا لمثل خلفائكم الماضين، وما نرى لهم فينا ندّا ولا شبيها فنلقى بأزمّتنا إليه ونمحضه نصيحتنا، فإن كان إنّما هو «من عزّ بزّ» فعلام نعقد لهم بيعه في أعناقنا وليسوا بأشجع منّا لقاء ولا أعظم منّا غناء.. ولا قوّة إلا بالله!

ص: ٢٤٢

٤٦٥. تاريخ الطبري ١١٧: ٦-١١٨ عن أبي مخنف والمدائني.

٤٦٦. هذه من بوادر ما مهّد فيما بعد لمصطلح: الخلفاء الراشدين، ولم يصطلح يومئذ بعد.

وحيث كان هو من مراد من مذحج، أرسل إليه مصعب سيف بن هاني (ابن عروء) المرادى فقال له: إن مصعبا يعطيك خراج بادوريا على أن تباع وتدخل في طاعته! فأبى.

فبعث مصعب إليه الأبرد الرياحي في نفر لقتاله، فقاتله ابن الحرّ فهزم الأبرد الرياحي. فبعث مصعب إليه حريث بن زيد في نفر، فقاتله ابن الحرّ فقتله وهزم جمعه. فبعث مصعب إليه الحجاج بن حارثة الخثعمي فلقبه على نهر صرصر فقاتله ابن الحرّ فهزم الخثعمي.

فأرسل مصعب قوما إليه يدعونه إلى أن يؤمنه ويؤليه أى بلد شاء! فأبى.

وكان على الفلوجة دهقان يدعى تيز جشش (بالفارسية) فأتاه ابن الحرّ ففرّ الدهقان بمال الفلوجة إلى عين التمر وعليها بسطام بن مصقلة بن هبيرة الشيباني ومعه مائة وخمسون فارساً، وتابع ابن الحرّ الدهقان، فخرج إليه بسطام بجمعه، ووافاهم الحجاج الخثعمي كره، فبارزه الحجاج فأسره ابن الحرّ، وبارزه بسطام فأسره أيضاً، وبعث دلهم المرادى بفوارس من أصحابه يطلبون الدهقان فأصابوه وأخذوا الأموال، فأخذها وتركهم إلى تكريت فهرب عاملها، فأقام ابن الحرّ بها يجبي الخراج.

فوجه مصعب إليه الأبرد الرياحي والجون الهمداني في ألف فارس، وأمدهما المهلب من الموصل بخمسمائة مع يزيد بن المغفل، فتقاتلوا وقتل كثير من فرسان ابن الحرّ وتحاجزوا مساء فخرج من تكريت إلى الشام ثم عاد بهم إلى الكوفة ليخوف مصعباً، فأتى على كسكر فنفي عاملها وأخذ بيت مالها، ثم أتى الكوفة إلى دير الأعور، فبعث إليه مصعب حجار بن أبجر فقاتله ابن الحرّ فهزمه، فضمّ مصعب إليه الجون الهمداني وعمر بن معمر، فانهزم حجار ثم كرّ وقاتلوه كلّهم، فكثرت الجراحات في أصحاب ابن الحرّ وعقرت خيولهم حتى أمسوا، وخرج ابن الحرّ إلى المدائن.

ص: ٢٤٣

وكان مصعب قد جعل على المدائن يزيد بن الحارث الشيباني، فكتب إليه بقتال ابن الحرّ، فقدم يزيد ابنه حوشبا بجمع فلقى ابن الحرّ في باجسرا، فقاتله ابن الحرّ فهزمه وأقبل ليدخل المدائن فتحصّنوا، ثم توجه إليه بشر الأسدى إلى تامراً فلقبه ابن الحرّ فقتله وهزم أصحابه، وتوجه إليه جون الهمداني في حولايا، فقاتله ابن الحرّ فهزمهم وتبعهم، فخرج إليه بشير العجلي فالتقوا في سورا فاقتتلوا قتالاً شديداً ثم انحاز بشر عنه فرجع إلى عمله. وأقام ابن الحرّ يغير على السواد ويجبي الخراج.

وكان مصعباً خرج من الكوفة إلى البصرة واستخلف عليها الحارث بن أبي ربيعة، فتوجه ابن الحرّ إليه وبلغ ذلك بنى قيس عيلان وكان ابن الحرّ قد هجاهم بشعره، فسألوا الحارث أن يبعث معهم جيشاً لحرب ابن الحرّ فوجه معهم، فلقوه وقاتلوه ساعة ثم غرق فرسه فركب بلما ليعبر فتصايح الأنباط: هذا طلبه أمير المؤمنين فضربوه بالمرادى فغرق واستخرجوه وحزوا رأسه فبعثوا به إلى الكوفة ثم البصرة ٤٦٧.

ص: ٢٤٤

الأزارقة بعد ابن الحرّ

أوقع المهلب الأزدي بالأزارقة الخوارج أتباع نافع بن الأزرق بالأهواز فلحقوا بفارس ونواحي إصفهان وكرمان، وقتل الأزرق فبايعوا الزبير بن ماحوز.

فلما شخص المهلب عن ذلك الوجه ووجه عاملا على الموصل وضواحيها، وجعل على فارس عمر بن معمر، اذ حطت الأزارقة عليه مع ابن ماحوز إلى فارس فلقبهم في شاپور فقاتلهم قتالاً شديداً حتى غلبهم فتركوا المعركة وذهبوا حتى نزلوا بإصطخر فارس، فسار إليهم حتى لقيهم على قنطرة طمستان، فقاتلهم قتالاً شديداً حتى غلبهم فقطعوا القنطرة وارتفعوا إلى إصفهان ثم كرمان فأقاموا بها. حتى قووا وكثروا واستعدوا وأقبلوا حتى مروا بفارس فأخذوا على شاپور ثم خرجوا على أرجان ثم توجهوا قبل الأهواز، وتبعهم عمر بن معمر فالتقى بهم هناك، وبلغ إقبالهم إلى مصعب بالبصرة في ولايته الثانية فخرج بالناس فعسكر بهم عند الجسر الأكبر.

وأقبل هؤلاء الخوارج الأزارقة حتى نزلوا الأهواز، فأخبرتهم عيونهم بأنهم بين مصعب وعمر بن معمر، فسار بهم ابن ماحوز حتى قطع بهم أرض جوحى ثم النهروانات ثم لزم شاطئ دجلة حتى خرج على المدائن، وكان عليها كردم ابن مرثد الفزاري فهرب، فشنوا الغارة على أهل المدائن يقتلون الرجال والولدان والنساء ويبقرون الحبالى! ثم أقبلوا إلى ساباط المدائن فوضعوا سيوفهم فى الناس.

وكان على الكوفة الحارث الملقب بالقباع فأتاه أهل الكوفة وقالوا له:

إن هذا عدونا قد أظننا فاخرج بنا! فخرج ونزل النخيلة فأقام أياماً، وخرج معه إبراهيم بن الأشتر النخعي فقال له: فانهض بنا إليه وأمر بالرحيل! فخرج فنزل

ص: ٢٤٥

دير عبد الرحمان فأقام فيه، وخرج معه شيب بن ربيعي التميمي فكلّمه بمثل مقال ابن الأشتر فارتحل إلى الصّراء فى بضعة عشر يوماً وقد انتهى إليها أوائل خيول العدو وطلّاعه، فلما أخبرهم عيونهم بخروج جمع أهل الكوفة إليهم قطعوا الجسر دونهم!

فقال إبراهيم للحارث: اندب معى الناس حتى أعبر إلى هؤلاء الكلاب! وكان شيب بن ربيعي وأسماء بن خارجة الفزاري ويزيد بن الحارث الشيباني ومحمد بن عمير بن عطار و محمد بن الحارث حاضرين فكأنهم حسدوا ابن الأشتر فقالوا للحارث: لا تبدأهم دعهم فليذهبوا! واغتنم الحارث ذلك فتحبس عنهم. فقام رجال وطلبوا منه إعادة الجسر حتى يعبروا إليهم، فأمر بذلك فاعيد الجسر، فعبر الناس إليهم فطار الخوارج الأزارقة إلى المدائن ثم خرجوا منها، فأتبعهم الحارث بعبد الرحمان بن مخنف الأزدي فى ستة آلاف ليخرجهم من أراضى الكوفة فإذا دخلوا أراضى البصرة خلاهم، ففعل ذلك ثم انصرف عنهم.

ومضوا إلى إصفهان وعليها عتاب بن ورقاء فأقاموا عليه وحاصروه، فخرج إليهم فقاتلهم فلم يقطعهم وشدوا على أصحابه حتى دخلوا المدينة، وأخذ يخرج إليهم فى كل يوم فيقاتلهم على باب المدينة، ويرمونهم من السور بالنبل والنشاب والحجارة. وأقاموا عليهم أشهراً حتى نفدت أطعمتهم واشتدّ عليهم الحصار وأصابهم الجهد الشديد! فخطبهم عتاب وعاتبهم فأعدّهم للخروج فى الصباح.

ثمَّ إنَّه حينَ أصبحَ خرجَ بهم على راياتهم فصبَّحهم في معسكرهم وهم آمنون فشدَّ عليهم حتَّى انتهى إلى ابن ماحوز فقاتل بأصحابه حتَّى قتل. وعاد عتَّاب فدخل المدينة.

ص: ٢٤٦

وانحاز الخوارج إلى قطريَّ بن الفجاءة فبايعوه، فارتحل بهم إلى كرمان فأقام بها حتَّى اجتمع إليه جمع كثير! واجتبى الأموال وأكل الأرض ثمَّ عاد إلى إصفهان ثمَّ إلى إيذه فإلى الأهواز فأقام بها.

فكتب الحارث إلى مصعب يخبره: أنَّ الخوارج قد خرجوا إلى الأهواز، وأنَّه ليس لهم إلا المهلب الأزدى.

فبعث إلى المهلب وهو على الموصل والجزيرة فأمره بالمسير إلى الخوارج وقتالهم، فجاء إلى البصرة.

وبعث إلى عمله إبراهيم بن الأشتر ٤٦٨ فكانه وفي له اليوم بما وعده بعد قتل المختار، بعد أكثر من سنة.

وفيات بعض الأعلام وابن العباس

في عهد المختار في سنة (٦٦ هـ) مات عدى بن حاتم الطائي، ومن الصحابة زيد ابن أرقم الأنصاري كلاهما بالكوفة. وفي (٦٧ هـ) مات الأحنف التميمي البصري بالكوفة مع المصعب فصلَّى عليه ومشى في جنازته بغير رداء!

وفي (٦٨ هـ) بالمدينة: أبو واقد الحارث بن مالك الليثي، وأبوشريح خويلد بن عمرو الخزاعي الكعبي، وزيد بن خالد الجهني وجابر بن عبد الله الأنصاري الخزرجي.

وعامل المدينة عن ابن الزبير جابر بن الأسود الزهري فطلب سعيد بن المسيب التابعي على بيعة ابن الزبير فأبى فضربه ستين أو سبعين سوطاً.

ومات بالطائف: أبو العباس عبد الله ابن العباس ٤٦٩.

ص: ٢٤٧

قال اليعقوبي: وهو ابن إحدى وسبعين سنة، وحضره محمد بن الحنفية فصلَّى عليه، ودفن في مسجد جامعها، وضرب عليه فسطاط. وكان له خمس بنين أكبرهم العباس الأعنق، ومحمد، والفضل، وعبد الرحمان، وعلى وهو أصغرهم سنًا وتقدّم لنبله.

نقل ذلك اليعقوبي وأرسل عنه قال: أردفني رسول الله فقال لي: يا غلام! ألا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن؟ قلت: بلى يا رسول الله! قال: جفّ القلم بما هو كائن؛ ولوجه الخلق على أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله لم يقدرُوا عليه، ولوجهوا على أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يقدرُوا! فعليك بالصدق واليقين. وإن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً،

٤٦٨. تاريخ الطبري ١١٩: ٦-١٢٧ عن أبي مخنف.

٤٦٩. تاريخ خليفة: ١٦٤-١٦٥.

واعلم أن النصر مع الصبر وأن الفرج مع الكرب، و «إنَّ مع العسر يسرا» وإذا سألتَ فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واذكر الله في الرخاء يذكرك في الشدة، واحفظ الله تجده أمامك، واحفظ الله يحفظك ٤٧٠.

وقال المسعودي: وكان يخضبُ شيبه بالحناء وله وفرة شعر طويلة، وقد ذهب بصره لبكائه على عليّ والحسن والحسين (عليهم السلام) وهو الذي يقول:

إن يأخذ الله من عينيَّ نورهما
ففي لساني وقلبي منهما نور

ومصعب لما عاد من باجميرا إلى البصرة وأعاد المياه إلى مجاريها، رجع إلى باجميرا، فيبدو أن ذلك بلغ عبد الملك بدمشق فخلف عليها ابن عمته الأشدق وسار إلى زفر بن الحارث الكلابي في قرقيسيا وبلاد الرحبة.

قال المسعودي: فبلغه أن عمراً بدمشق قد دعا الناس إلى بيعته، فكرّ راجعاً إليها، فامتنع عمرو فيها، وصارت فيما بينه وبين عبد الملك محادثات ومكاتبات

ص: ٢٤٨

وخطب طويل طلباً للملك، وكان ممّا كتب إليه عبد الملك: استدراج النعم إياك أفادك البغي، ورائحة الغدر أورثتك الغفلة، زجرت عمّا وافقت عليه، وندبت إلى ما تركت سبيله، ولو كان ضعف الأسباب يؤيس الطالب لما انتقل سلطان ولا ذلّ عزيز! وعن قريب يتبين من صريع بغي وأسير غفلة!

وناشده عبد الملك الرحم بينهم وقال له: لا تفسد أمر أهل بيتك وما هم عليه من اجتماع الكلمة، وفي ما صنعت قوة لابن الزبير! إرجع إلى بيتك فإنني سأجعل لك العهد! فرضى وصالح ٤٧١.

وجرى بينهم السفراء حتى اصطلحا وتعاقدا وكتبا بينهما كتاباً بالعهود والمواثيق والأيمان على أن لعمر بن سعيد الخلافة بعد عبد الملك، ودخل عبد الملك دمشق ٤٧٢.

وبقى عمرو متحيزاً في خمسمائة فارس يزولون معه حيث زال.

فقال عبد الملك يوماً لحاجبه: ويحك! أتستطيع إذا دخل عمرو أن تغلق الباب دون أصحابه؟ قال: نعم. وكان مروان قد ترك ابنه عبد العزيز على مصر وكان قد قدم هذا ذلك اليوم من مصر فتواطأ عبد الملك معه على قتل الأشدق، وكان الوليد

٤٧٠. تاريخ يعقوبي ٢٦٢: ٢ - ٢٦٣.

٤٧١. مروج الذهب ١٠٢: ٣.

٤٧٢. تاريخ يعقوبي ٢٧٠: ٢.

بن عبد الملك قد تزوّج أخت الأشدق، وأمرهما بقتل الأشدق ٤٧٣! ودعاه إلى قصره ولعله بحجة زيارة أخيه عبد العزيز القادم من مصر.

فتدرّع الأشدق تحت قبائه وقام ليخرج فعثر بالبساط فتطيرت امرأته نائلة ابنة الفريض وقالت له: انشدك الله ألا تأتيه! فأبى وقال لها: دعيني فوالله لو كنت نائما ما أيقظني! وخرج وكان عمرو رجلا عظيم الكبر لا يرى لأحد فضلا عليه، وإذا

ص: ٢٤٩

٤٧٤

مشى إلى أحد فلا يلتفت وراءه. فلما فتح الحاجب الباب ودخل عمرو، أغلق الباب دون أصحابه ومضى عمرو ولا يلتفت وهو يظن أن أصحابه قد دخلوا كما كانوا يدخلون. فلما دخل على عبد الملك قام من هناك من بنى أمية، فعاتبه عبد الملك طويلا. ثم قال له: إنني كنت حلفت لئن ملكتك لأشدنك في جامعة! فأتى بجامعة فوضعها في عنقه وأخذ يشدها عليه ويشده إليه! فأيقن عمرو بالهلاك، فقال له: أنشدك الله يا أمير المؤمنين! فقال له عبد الملك: يا أبا أمية! ما لك جئت في الدرع ألقّته؟! والتفت عمرو إلى أصحابه فلم يرههم في الدار! فكلّمه عبد الملك وأغلظ له بالقول.

فقال الأشدق: يا عبد الملك! أتستطيل عليّ كأنك ترى لك فضلا عليّ؟! والله إن شئت نقضت العهد بيني وبينك ثم نصبت لك الحرب! فقال عبد الملك: قد شئت ذلك! فقال الأشدق: وأنا قد فعلت! وكان صاحب حرسه يدعى أبا الزعيزعة وكان قد وصّاه أن يضرب عنق الأشدق، فهنا قال له: يا أبا الزعيزعة شأنك! فضربه أبو الزعيزعة فقتله ٤٧٥.

ونقل ابن قتيبة عن أبي معشر قال: فأمر رجلا عنده يقال له: ابن الزويرع فضرب عنقه، ثم أدرجه في بساط تحت سريره.

وكان لعبد الملك أخ من الرضاعة قد تفقه يقال له: قبيصة بن ذؤيب الخزاعي (الصحابي) كان عبد الملك يشاوره وقد سلّمه خاتمه ٤٧٦! فدخل عليه الساعة، ولعله لذا أخفى جثته الأشدق، فسأله عبد الملك: كيف رأيك في عمرو بن سعيد؟ وأبصر قبيصة رجل عمرو تحت السرير! فقال له: يا أمير المؤمنين اضرب عنقه! فقال عبد الملك: جزاك الله خيرا! ما علمت إلا أمينا ناصحا موفقا! فما ترى في هؤلاء الذين أحدقوا بنا وأحاطوا بقصرنا؟! وفيه: أنهم كانوا أربعة

ص: ٢٥٠

٤٧٣. مروج الذهب ١٠٤: ٣.

٤٧٤ يوسف غروي، محمد هادي، عصر الإمام السجاد، سياسيا و إجتماعيا، ١ جلد، المجمع العالمي لاهل البيت (عليهم السلام) - قم - إيران، چاپ: ١، ١٣٩٤ هـ.ق.

٤٧٥. مروج الذهب ١٠٢: ٣-١٠٣.

٤٧٦. وخزائن بيوت الأموال، كما في تاريخ خليفة: ١٩٠، وعدّه من الصحابة في: ١٨٥.

آلاف رجل مسلّح! فقال قبيصة: يا أمير المؤمنين! اطرح رأسه إليهم ثم اطرح عليهم الدنانير والدرهم يتشاغلون بها! هذا وهو الخازن. فأمر عبد الملك أن يطرح إليهم رأس عمرو من أعلى القصر وتطرح لهم الدنانير وتُتشر عليهم الدراهم! ففعلوا ذلك. ثم ناداهم مناديه: إنّ أمير المؤمنين قد قتل صاحبكم بما كان من القضاء السابق والأمر النافذ! ولكم على أمير المؤمنين عهد الله وميثاقه: أن يحمل راجلكم ويكسوعاريكم ويغني فقيركم، ويبلغكم إلى المائتين في الديوان بل إلى أكمل ما يكون من الرزق والعطاء! فاعرضوا أنفُسكم على ديوانكم، ويسلم لكم دينكم ودنياكم! فصاحوا: نعم نعم سمعنا وطاعة لأمر المؤمنين ٤٧٧!

ووافى أخو عمرو: يحيى بن سعيد بمن معه من رجاله إلى باب القصر ليكسره فخرج إليه موالى عبد الملك فاقتتلوا .. ثم اخذ أسيرا إلى عبد الملك.

وهكذا اجتمعت الكلمة له وانقاد الناس إليه.

وقال لابنه الوليد وأخيه عبد العزيز: والله ما أردت قتله إلا من أجلكم ألا يحوزها دونكم ٤٧٨!

ثم خرج عبد الملك للصلاة فصعد المنبر وذكر عمرا وخلافه وشقاقه فوقه فيه ٤٧٩.

ابن مروان في العراق ومقتل ابن الأشتر

قال المسعودي: في بقيّة سنة سبعين أقام عبد الملك بدمشق، ثم نزل إلى قرقيسيا فحاصرها، فنزل زفر بن الحارث العامري الكلابي على إمامة عبد الملك وبايعه وتابعه.

ص: ٢٥١

فسار عبد الملك حتى نزل على نصيبين فحاصرها، فنزل يزيد والحبشي من بقايا أنصار المختار على إمامة عبد الملك وانضافوا إليه.

وفي سنة اثنتين وسبعين خرج مصعب في أهل العراق يريد عبد الملك، فدلف إليه عبد الملك في عساكر الشام والجزيرة، وعلى مقدّمته أوساقتة الحجاج بن يوسف الثقفي.

وأخذ عبد الملك يكتتب سرّاً رؤساء أهل العراق ممن هم بعسكر مصعب وغيرهم يرغّبهم ويرهبهم.

وممن كتب إليه إبراهيم بن الأشتر النخعي، فلما أوصل جاسوسه كتابه إليه أتى بالكتاب إلى مصعب، فسأله مصعب: أقرأته؟ قال: أعوذ بالله! فلما تأمل مصعب ما فيه وجده أماناً له وولاية لما شاء من العراق. وقال النخعي:

٤٧٧ . الإمامة والسياسة ٢: ٢٢.

٤٧٨ . مروج الذهب ١٠٤: ٣.

٤٧٩ . المصدر السابق ١٠٣: ٣.

والله ما كاتبنى حتى كاتب غيرى، ولا امتنعوا عن إيصالها إليك إلا للرضا به والغدر بك، فأبدأ بهم ثم الق هذا الرجل، فأبى ذلك مصعب.

ثم سار إبراهيم على مقدمة مصعب متسرعاً ومعه عتاب بن ورقاء التميمي ٤٨٠ والتقوا في أرض العراق قرب قرية مسكن على شاطئ دجلة، وعلى مقدمة عبد الملك الحجاج بن يوسف الثقفي ٤٨١ أو محمد بن مروان أخو عبد الملك ٤٨٢.

وكان ممن دخل في خيل مصعب من أهل الكوفة القاسم بن حبيب بن مظاهر الأسدي الفقعسي، وقاتل أبيه البديل بن صريم التميمي العقفاني، وكان ممن فر من نقمة المختار إلى مصعب بالبصرة، ولم تكن للقاسم همّة إلا اتباع أثر قاتل أبيه ليجد منه غرة فيقتله بأبيه! فلما غره مصعب باجميرا (لغزو ابن مروان)

ص: ٢٥٢

دخل القاسم عسكره حتى عرف فسطاط قاتل أبيه، فأخذ يختلف إليه التماس غرته، حتى دخل عليه نصف النهار وهو في قيلولته فضربه بسيفه حتى برد ٤٨٣.

ثم التقوا فاقتتلوا حتى قرب المساء وقد أشرف إبراهيم على الفتح، فحسده عتاب التميمي فقال: يا إبراهيم، إن الناس قد جهدوا فمرهم بالانصراف! فقال إبراهيم: وكيف ينصرفون وعدوهم بإزائهم؟! وكان عتاب على ميمنته فقال له: فمر الميمنة أن تنصرف! فأبى ذلك إبراهيم، فمضى عتاب إليهم وأمرهم بالانصراف فانصرفوا فأكبت ميسرة الشام عليهم واختلط الرجال وصمدوا لإبراهيم وأسلمه من معه، فنزل ودار به الرجال وازدحموا عليه واشتبكت عليه الأسنة فقتل، فقتل إن قاتله ثابت بن يزيد مولى الحصين بن نمير السكوني الكندي وحمل رأسه

إلى عبد الملك، واتى بجسده والقي بين يديه، فجمع مولى الحصين عليه حطباً واحرقه ٤٨٤!

ص: ٢٥٣

حرب مصعب وعبد الملك

٤٨٠. مروج الذهب ١٠٤: ٣-١٠٦.

٤٨١. المصدر السابق ١٠٥: ٣.

٤٨٢. المصدر السابق ١٠٦: ٣.

٤٨٣. تاريخ الطبري ٤٤٠: ٥ عن أبي مخنف، عن حميد بن مسلم.

٤٨٤. مروج الذهب ١٠٦: ٣-١٠٧.

ثمَّ سار عبد الملك من موضعه في صبيحة تلك الليلة حتَّى نزل بدير الجاثليق (الكاثوليك) من أرض العراق (على فرسخين من الأنبار) وكان عبيد الله ابن زياد البكرى من زعماء بكر بن وائل وسادات ربيعة ومعه عكرمة بن ربيع فأقبلا برايات بني ربيعة فالتحقوا بعبد الملك ودخلوا في طاعته وأضافوها إليه ٤٨٥!

قال ابن قتيبة: وكان مصعب وعبد الملك قبل ذلك صديقين متحابين متصافيين لا يعلم بين اثنين من الناس ما بينهما من الإخاء والصدقة! ولذا تقدّم اليوم هنا عبد الملك وبعث إليه: أن ادن مني أكلمك! فدنا منه وتنحّى الناس عنهما.

فسلم عبد الملك عليه وقال له: يا مصعب قد علمت ما جرى بيني وبينك منذ ثلاثين سنة من الصحبة والإخاء، فوالله لأنا خير لك من عبد الله وأنفع لدينك ودنياك! فثق بذلك مني وانصرف إليّ وخذ بيعه المصيرين (الكوفة والبصرة) والأمر أمرك لا تعصى ولا تخالف. وإن شئت اتّخذتك صاحباً ووزيراً لا تعصى.

فقال مصعب: ما ذكرت من مودّتي وإخائي وثقتي بك، فذلك كما ذكرته ولكنّه قبل قتلك لعمرين سعيد، وبعد قتلك له فلا يطمان إليك وهو أقرب مني رحماً إليك وأولى بما عندك فقتلته غدراً، ووالله لو قتلتني في محاربة لمسك عاره ولما سلمت من إثمه.

وأما ما ذكرت من أنّك خير لي من أخى فدع عنك أبا بكر وإيّاك وإيّاها لا تتعرض له واتركه ما تركك! فقال عبد الملك: إنّ فيه ثلاث خصال لا يسود بها أبداً: عجب قد ملأه، واستغناء برأيه، وبخل قد التزمه! فلا يسود بهذه أبداً ٤٨٦!

ص: ٢٥٤

ثمّ تخلّى عن مصعب من كان معه من مضر واليمن! وبقي في نفر يسير منهم ابنه عيسى فقال له: يا بني دعني فأني مقتول واركب فرسك فانج بنفسك والحق بمكة بعمك فأخبره بما صنع بي أهل العراق! فأبى وتقدّم فقاتل حتّى قتل أمامه.

وكان عليّ بن عبد الله بن العباس بعد وفاة أبيه قد التحق بعبد الملك! وكان خالد بن يزيد بن معاوية صهر ابن الزبير مع عبد الملك، وكان محمد بن مروان رقّ لمصعب، فسأل أخاه عبد الملك أن يؤمّن مصعباً، فاستشار عبد الملك من حضره، فأبى عليّ بن عبد الله، ووافق خالد وارتفع الكلام بينهما حتّى تسابّا، ووافق عبد الملك خالداً وأخاه محمداً فأمره أن يمضي إلى مصعب فيؤمّنه.

فمضى محمد حتّى وقف قريباً من مصعب ثمّ ناداه: يا مصعب، أنا ابن عمك! محمد بن مروان وقد أمّنتك أمير المؤمنين! على نفسك ومالك وكلّ ما أحدثت، وأن تنزل أيّ البلاد شئت، فانشدك الله في نفسك! فأبى، وقاتل حتّى اثنخ بالجراح وعرقب فرسه فترجّل، فأقبل عليه عبيد الله بن ظبيان البكرى فضربه مصعب على رأسه وضربه عبيد الله فقتله، واحتزّ رأسه وأتى به عبد الملك، فسجد عبد الملك! وذلك في يوم الثلاثاء لثلاث عشرة ليلة خلت من جمادى الأولى سنة (٧٢ هـ). وأمر عبد الملك بمصعب وابنه عيسى فدنا بدير الجاثليق (الكاثوليك) ٤٨٧.

٤٨٥. مروج الذهب ١٠٧: ٣.

٤٨٦. الإمامة والسياسة ٢٨: ٢.

٤٨٧. مروج الذهب ١٠٧: ٣.

وسار عبد الملك من دير الجائليق (الكاثوليك) حتى نزل النخيلة بظهر الكوفة، فخرج إليه أهله فبايعوه. فوفى لمن وعدهم في مكاتبته إياهم سرّاً، وخلع

ص: ٢٥٥

وأجاز وأقطع، ورّتب الناس على قدر مراتبهم. ودخل دار الإمارة بالكوفة وقد حمل معه رأس مصعب فجىء به حتى وضع بين يديه.

فنقل المسعودي عن أبي مسلم النخعي أنّه لما رأى ذلك اضطرب، ورآه عبد الملك فسأله، قال: فقلت: يا أمير المؤمنين! دخلت هذه الدار فرأيت رأس الحسين (ع) بين يدي ابن زياد في هذا الموضع، ثمّ دخلتها فرأيت رأس ابن زياد بين يدي المختار، ثمّ دخلتها فرأيت رأس المختار بين يدي مصعب بن الزبير، وهذا رأس مصعب بين يديك! فواك الله يا أمير المؤمنين!

فوثب عبد الملك وأمر بهدم طاق ذلك المجلس! كأنّه هو عامل هذه المقاتل!

وكان مع عبد الملك أخوه بشر بن مروان فولاه على الكوفة، وخلف معه جماعة من أهل الرأي والمشورة من أهل الشام منهم روح بن زنباع الجذامي.

وأرسل الحجاج بن يوسف الثقفي لحرب ابن الزبير بمكّة، وعاد ببقية أهل الشام إلى الشام بعد أن ولّى على البصرة خالد بن عبد الله ٤٨٨.

وقال المضاء بن علوان كاتب مصعب: دعاني عبد الملك فقال لي:

علمت أنّه لم يبق من أصحاب مصعب وخاصته أحد إلا كتب إليّ يطلب الأمان والجوائز والى الإقطاعات! قلت: يا أمير المؤمنين! وقد علمت أنّه لم يبق من أصحابك أحد إلا وقد كتب إليّ مصعب بمثل ذلك وهذه عندي كتبهم!

وجئت به بإضبارة عظيمة! فلمّا رآه قال: ما حاجتي أن أنظر فيها فافسد قلوبهم عليّ! يا غلام أحرقتها بالنار! فأحرقها.

ثمّ ندب الناس للخروج إلى عبد الله بن الزبير، وانتدب الحجاج لذلك فوجّهه في عشرين ألفاً من أهل الشام وغيرهم ٤٨٩.

ص: ٢٥٦

ولمّا وصل خبر قتل مصعب إلى أخيه عبد الله أعرض عن ذكره حتى تحدّث بذلك الناس في سكك مكّة، فصعد المنبر وجبينه يرشح عرقاً فحمد الله وأثنى عليه ولم يصلّ على محمّد وآله وقال: إنّ أتنا خبر من العراق أحرزنا وأفرحنا

وهو قتل مصعب، أحزننا لفراق الحميم ثم إلى كريم الصبر وجميل العزاء، وأفرحنا بشهادته ٤٩٠! وكان مصعب حين قتله ابن أربعين سنة ٤٩١.

ولعلّ قتل مصعب غلب طارق بن عمرو مولى عثمان بن عفان على المدينة داعياً إلى عبد الملك، وأخرج منها والى ابن الزبير طلحة بن عبد الله بن عوف ٤٩٢.

ص: ٢٥٧

حرب الحجاج وابن الزبير

قال اليعقوبي: كان ابن الزبير يأخذ الحجاج بالبيعة له، فلمّا رأى عبد الملك ذلك منعهم من الخروج إلى مكة (ولعلّه إعداداً لحربه) فضجّ الناس وقالوا: تمنعنا من حجّ بيت الله الحرام وهو فرض من الله علينا!

فبنى قبة على الصخرة في مسجد بيت المقدس وأقام لها سدنّه وعلّق عليها ستور الديباج، وروى له ابن شهاب الزهري: أنّ رسول الله لمّا صعد من المسجد

إلى السماء وضع قدمه عليها! وأنّه قال (عن أبي هريرة): «ألا لا تشدّ الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي، ومسجد بيت المقدس!».

فقال عبد الملك للناس: هذا ابن شهاب يحدثكم الحديث عن رسول الله ..

فهو يقوم لكم مقام المسجد الحرام! وهذه الصخرة التي يروى فيها: أنّ رسول الله وضع قدمه عليها! فهي تقوم لكم مقام الكعبة! وأخذ الناس بأن يطوفوا حولها كما يطوفون حول الكعبة ٤٩٣.

ثمّ أجمل اليعقوبي في عدد جنود عبد الملك من الشام والكوفة مع الحجاج لحرب ابن الزبير بمكة في عشرين ألفاً كما مرّ، وفصله ابن قتيبة فقال: خرج الحجاج إلى ابن الزبير في ألف وخمسمائة من رجال الشام إلى الطائف، وتابع عبد الملك إرسال الجيوش إليه حتّى توافى عنده قدر ما يظنّ أن يقدر بهم على قتال ابن الزبير فخرج بهم في (هلال) ذي القعدة سنة (٧٢هـ) إذ خرج بهم من الطائف (عشرين ألفاً) حتّى نزل بمنى.

ثمّ نصب الحجاج المنجنيق على أبي قبيس وسائر جبال مكة فحاصر ابن الزبير ومن معه ورماهم بالحجارة ٤٩٤.

٤٩٠. مروج الذهب ١١٢: ٣.

٤٩١. تاريخ خليفة: ١٦٧ و ١٨٥.

٤٩٢. المصدر السابق: ١٦٨.

٤٩٣. تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٦١ وتاممه: وأقام بذلك أيام بنى أمية! والصحيح: أيام ابن الزبير.

ص: ٢٥٨

وقال اليعقوبى: فجعلت الصواعق تأخذهم والحجاج يقول لجنده من أهل الشام: يا أهل الشام! لا تهولنكم هذه الصواعق فإنما هي من تهامة! فلم يزل يرميه بالمنجنيق حتى هدم الكعبة! وكان ابن الزبير شديد البخل فكان يجرى لجنده نصف صاع من تمر! فرأى فيهم تناقلا فقال لهم: أكلتم تمرى وعصيتم أمرى ٤٩٥! فذهب مثلاً جارياً.

وكان ابن الزبير قد منع الحجاج وجمعه أن يطوفوا بالبيت معتمرين، وجاء الحجّ فوقف الحجاج بالناس بعرفة محرماً فى درع ومغفر! كما لم يخرج ابن الزبير إلى عرفة بسبب الحجاج حتى أنّه نحر بمكّة. واستمر حصاره وحربه (سبعة أشهر إلى شهر جمادى الآخرة) ٤٩٦.

وكان أخوه عروة بن الزبير مع عبد الملك فخرج إليه، وكان عبد الملك قد كتب إلى الحجاج يأمره بتعاهد عروة وألا يسوّه فى نفسه وماله! وكان مع الحجاج عمرو بن عثمان بن عفّان وخالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد فدعاهم الحجاج وعرض عليهم أمان عبد الملك لابن الزبير على ما أحدث ومن معه، وأن ينزل أىّ بلاد شاء. فرجع عروة إلى أخيه وقال له: هذا عمرو بن عثمان وخالد بن عبد الله يعطيانك أمان عبد الملك على ما أحدثت ومن معك، وأن تنزل أىّ بلاد شئت، لك بذلك عهد الله وميثاقه! فأبت أمّه أسماء بنت أبى بكر وكان لها مائة سنة فهي عمياء، وقالت له: أى بنى إياك أن تعطى بيدك أو تؤسر! مت كريماً ولا تقبل خطّة تخاف على نفسك منها مخافة القتل. فأبى ابن الزبير ٤٩٧.

وقال ابن قتيبة: جمع القرشيين وقال لهم: ما ترون؟ فقال رجل من بنى مخزوم: والله لقد قاتلنا معك حتى ما نجد مقاتلاً... وإنّما هي إحدى خصلتين:

ص: ٢٥٩

إمّا أن تأذن لنا فنخرج، وإمّا أن تأذن لنا فنأخذ الأمان لك ولأنفسنا. وقال رجل آخر: اكتب إلى عبد الملك، فقال عبد الله: أفأكتب إليه: من عبد الله أمير المؤمنين! فوالله لا يقبل منى هذا أبداً! أم أكتب إليه: لعبد الملك أمير المؤمنين من عبد الله بن الزبير! فوالله لئن تقع الخضراء على الغبراء أحبّ إلىّ من ذلك!

وكان أخوه عروة جالساً معه على سريريه فقال له: يا أمير المؤمنين! قد جعل الله لك اسوّه! قال: ومن هو اسوتى؟ قال: الحسن بن على بن أبى طالب! إذ خلع نفسه وبايع معاوية! فرفع عبد الله رجله عليه وضربه حتى ألقاه من سريريه وقال: لا أقبل شيئاً ممّا تقولون!

ثمّ لما أصبح اغتسل وتطيّب وتحنّط ثمّ تقلّد سيفه وخرج حتىّ أسند ظهره إلى الكعبة وإنّما معه نفر يسير ٤٩٨.

٤٩٤. الإمامة والسياسة ٣٠: ٢.

٤٩٥. تاريخ اليعقوبى ٢٦٦: ٢.

٤٩٦. تاريخ ابن الوردي ١٦٩: ١.

٤٩٧. مروج الذهب ١١٣: ٣.

٤٩٨. الإمامة والسياسة ٣٠: ٢-٣١.

وخطبهم فقال: أيها الناس! إن الموت قد أظلكم سحابه، وأحرق بكم ربابه، فغضوا أبصاركم عن الأبارقة (السيوف) وانشغل كل امرئ قرنه، ولا يلهيكم التساؤل: أين أمير المؤمنين، ألا فمن يسأل عني فإنني في الرعيل الأول ٤٩٩!

ثم جعل يقاتل بهم أهل الشام فيهمهم ثم يلتجئ إلى البيت .. وتكاثر عليه الرجال من أهل الشام فلم يزل يضرب فيهم حتى يخرجهم من المسجد ويعود إلى البيت، واستلم الحجر، ثم تكاثروا عليه، وأتاه حجر فصك جبينه فأدماه، فكشفهم عن المسجد وعاد على من بقي من أصحابه عند البيت وقال لهم:

ألقوا أغماد السيوف، وليصن كل رجل منكم سيفه كما يصون وجهه، لا ينكسر سيف أحدكم فيقع كالمرأة! ولا يسأل أحد: أين عبد الله فإنني في الرعيل الأول! وتكاثر عليه أهل الشام ألوفاً من كل باب. فحمل عليهم، فشدخ بالحجارة فانصرع ٥٠٠.

ص: ٢٦٠

وقال ابن قتيبة: وكان يمشى فجاءه حجر من حجارة المنجنيق فأصاب قفاه فسقط! وما درى أهل الشام أنه هوحى بكنهه جاريته تقول: وا أمير المؤمنين! فاحتزوا رأسه ورأس عبد الله بن صفوان بن أمية وعمارة بن عمرو بن حزم وجاؤا بهما إلى الحجّاج، فبعث الحجّاج برؤوسهم إلى عبد الملك ٥٠١.

وقال المسعودي: بل أكبّ عليه موليّان له فقتلوا جميعاً، وتفرّق من بقي معه من أصحابه، وأمر الحجّاج فصلب ٥٠٢ بالتنعيم ثلاثاً أو سبعاً.

الحجّاج وابن عمر وابن الحنفية

وكان عبد الله بن عمر معتمراً بمكة (وبايح الحجّاج) ومرّ بعبد الله مصلوباً فوقف وقال له: أبا خبيب! يرحمك الله! لولا ثلاث كنّ فيك لقلت إنك أنت!:

إلحادك في الحرم! ومسارعتك إلى الفتنة، وبخل بكفك! وما زلت أتخوّف عليك هذا المركب وما صرت إليه منذ كنت أراك ترمق بغلات شهباً لابن حرب فيعجبنيك! إلا أنه كان أسوس منك لدنياه!

ثم جاءت أمّه أسماء وهي عمياء تقاد حتى وقفت لدى الحجّاج وقالت له:

أما آن لهذا الراكب أن ينزل بعد؟! فأمر به فانزل ٥٠٣ ودفن.

٤٩٩. تاريخ يعقوبى ٢: ٢٦٧.

٥٠٠. مروج الذهب ٣: ١١٤.

٥٠١. الإمامة والسياسة ٢: ٣١.

٥٠٢. مروج الذهب ٣: ١١٥.

وكان عبد الله بن عمر قد جاوز الثمانين من عمره ومع ذلك كأنه كان قد حمل السلاح مع ابن الزبير ٥٠٤ وكأنه أحسن بشر الحجاج عليه فخاطب ابن الزبير بما

ص: ٢٤١

مر من عتابه له، وكأنه اشتد به الخوف فطرق على الحجاج بابه ليلا ليباع لعبد الملك لكي لا يبيت تلك الليلة بلا إمام! إذ كان يروى عن النبي (ص) قوله: «من مات ولا إمام له مات ميتة جاهلية»! فبلغ من احتقار الحجاج له واستردال الحال به أن أخرج له رجله من فراشه وقال له: اصفق بيدك عليها! ففعل ٥٠٥!

ومع ذلك لم يتحمل الحجاج قدس إليه رجلا سمّ زجّ رمحه وزاحمه في طريقه فطعنه بظهر قدمه، ثم عاد الحجاج فقال له: يا أبا عبد الرحمان من أصابك؟ قال: ولم تقول هذا رحمك الله! قال: لأنك حملت السلاح في بلد لم يكن يحمل السلاح فيه! ثم مات ابن عمر فدفن في حائط حرماز ٥٠٦ عند ردم بني جمح.

وقد مرّ أن ابن الزبير كان قد نفى ابن الحنفية إلى جبال رضوى بين مكة والطائف، وقد آن الأوان للعود إلى مكة، ولكنه كان يخاف من الحجاج فكتب بذلك إلى ابن مروان: أن الحجاج قد قدم بلدا وقد خفته! فاحب ألا تجعل له على سلطانا بيد ولا لسان!

فكتب عبد الملك إلى الحجاج: أن محمد بن علي كتب إلي يستعفيني منك، وقد أخرجته من يدك فلم أجعل لك عليه سلطانا بيد ولا لسان فلا تتعرض له!

فأمن بذلك ابن الحنفية من الحجاج فنزل إلى مكة مع الحجاج في الطواف فلقية الحجاج فعرض على شفته ثم قال له: لم يأذن لي فيك أمير المؤمنين! فقال له محمد: ويحك أما علمت أن لله تبارك وتعالى في كل يوم وليلة ثلاثمائة وستين لحظة (أو: نظرة) فلعنه ينظر إلي بنظرة فيرحمني فلا يجعل لك على سلطانا بيد ولا لسان!

ص: ٢٤٢

وكان ملك الروم قد كتب إلى ابن مروان يتوعده، فكتب الحجاج بجواب ابن الحنفية إلى ابن مروان فكتب به إلى ملك الروم، فكتب إليه ملك الروم: هذه ليست من سجيّتك ولا من سجيّة آبائك! ما قالها إلا نبيّ أو رجل من «أهل بيت» النبي ٥٠٧!

٥٠٣. تاريخ يعقوبى ٢٤٧: ٢-٢٤٨.

٥٠٤. المعارف لابن قتيبة: ١٨٥ و ١٨٦.

٥٠٥. شرح النهج للمعتزلى ٢٤٢: ١٣ عن الإسكافى فى رسالته فى نقض عثمانية الجاحظ.

٥٠٦. المعارف لابن قتيبة: ١٨٥.

٥٠٧. مروج الذهب ١١٦: ٣-١١٧ ونسب أحيانا إلى الإمام الباقر (ع).

ثم أعاد الحجاج بنيان الكعبة على ما كانت عليه قبل بناء ابن الزبير، فنقص منها ما كان زاده طوًلاً وعرضاً في جانب حجر إسماعيل ستة أذرع، وأغلق الباب الثاني ورفع الباب الأول ٥٠٨.

الحجاج في المدينة

وفي سنة (٧٤ هـ-) سار الحجاج إلى المدينة فأخذ يتعنت على أهلها ويستخف ببقايا من فيها من صحابة رسول الله (ص): ختم في أيديهم وأعناقهم (بالرصاص) يذللهم بذلك: أنس بن مالك، وجابر بن عبد الله الأنصاري، وسهل ابن سعد الساعدي، فإننا لله وإننا إليه راجعون ٥٠٩.

ولكنه لم يعرض لآل أبي طالب، ذلك أن عبد الملك كان قد كتب إليه:

جنّبي دماء آل أبي طالب؛ فإنني قد رأيت الملك استوحش من آل حرب حين سفكوا دماءهم. نقل ذلك المسعودي وقال: فكان الحجاج يتجنب آل أبي طالب خوفاً من زوال ملك آل مروان لا خوفاً من الله عز وجل ٥١٠.

ص: ٢٦٣

وبالبحرين مرة أخرى خرج من عبد القيس أبو معبد العبدى، وكان عامل البصرة من قبل الحجاج: الحكم بن أيوب الثقفي فبعثه إليه فخرج إليه وقاتله وقتله وفرق جمعه ٥١١.

ص: ٢٦٥

[عهد الحجاج في العراق]

ضرب النقود الإسلامية

٥٠٨. تاريخ يعقوبى ٢: ٢٧٢.

٥٠٩. تاريخ الخلفاء للسيوطي: ٢٥٦، وبخصوص جابر في الطبرى ١٩٥: ٦، وعليه فلا يصح ما جاء في الكشي: ١٢٤، الحديث ١٩٥: أن جابراً كان رجلاً من أصحاب رسول الله وكان شيخاً قد أسن فلم يتعرض له! اللهم إلا القتل.

٥١٠. مروج الذهب ١٧٠: ٣.

٥١١. تاريخ يعقوبى ٢: ٢٧٥.

كانت مصر عند الفتح الإسلامي في حكم الروم، وكانت صناعة القراطيس فيها رومية نصرانية قبطية تبعاً لأكثرهم، وأصبح المسلمون يستعملونها كما هي، وكان عليها طراز بالرومية مغفولاً عنه، ولعلّ هذه المناوشات الرومية الأخيرة بعثت عبد الملك أن يطلب ترجمة ذلك الطراز وإذا هو: باسم الأب والابن وروح القدس!

وكان هذا يطرز على الأقمشة للستائر والثياب أيضاً، فلما ترجم له قال: ما أغلظ هذا في أمر الدين والإسلام! وكان على مصر أخوه عبد العزيز فكتب إليه أن ينهأهم عنه ويأمرهم أن يبدّلوها بصورة التوحيد: «شهد الله أنه لا إله إلا هو...» أوبسورة التوحيد. وكتب إلى الآفاق بإبطال ذلك ومعاقبة من وجد عنده بعد النهي شيء منه بالضرب الوجيع والحبس الطويل! ففعلوا ذلك وعملوه.

وحملت القراطيس إلى الروم وإلى ملك الروم ٥١٢ بطراز التوحيد بالخط العربي، وترجم ذلك له فأنكره وغلظ عليه واستشاط غيظاً إلا أنه أرسل إلى عبد الملك بهدية وكتاب يطلب منه أن يرّد الطراز الرومي! فردّ عبد الملك الهدية

ص: ٢٤٤

والكتاب بلا جواب. فكتب ملك الروم إليه: «لتأمرن بردّ الطراز إلى ما كان عليه، أولاً من بنقش الدنانير ٥١٣ بشتم نبيك! وإنك تعلم أنه لا ينقش منها شيء إلا ما ينقش في بلادى!» فحبس رسوله.

واستشار عبد الملك أصحابه لذلك فقال له روح بن زنباع الجذامي:

إنك لتعلم المخرج من هذا الأمر ولكنك تتعمّد تركه! فقال: ويحك من؟ قال: «عليك بالباقي ٥١٤ من أهل بيت النبي (ص)» قال: صدقت ولكنه ارتجّ على الرأي فيه!

ثم كتب إلى عامل المدينة: أن أشخص إلى عليّ بن الحسين مكرماً...

فلما وافاه أخبره الخبر، فقال (ع): لا يعظم هذا عليك، فإنه ليس بشيء من جهتين:

إحداهما: أن الله عزّ وجل لم يكن ليطلق ما تهدّد به صاحب الروم في رسول الله (ص)! والأخرى: وجود الحيلة فيه. فقال عبد الملك: وما هي؟ قال: تدعوفى هذه الساعة بضعاً يضربون بين يديك سككاً.. وتجعل النقش عليها سورة التوحيد في وجه وذكر رسول الله في الوجه الثاني، وتجعل في مدارها ذكر البلد الذي يضرب فيه والسنة. ثم فصلّ ذلك حسب أوزان الدراهم والدنانير ٥١٥ وضرب الحجاج بالعربية أيضاً بالعراق ٥١٦.

٥١٢. لعلّه بوسطين بانوس (الثالث) وانظر مختصر تاريخ الدول: ١١٢ ولم يذكر هذا الخبر!

٥١٣. في الخبر عطف الدراهم؛ وهو وهم، لأنّ الدرهم المتداول يومئذ لم يكن رومياً وإنّما كان فارسياً، وراجع حوادث عام (٤٠ هـ-).

٥١٤. الخبر في كتاب المحاسن والمساوي للبيهقي (ق ٥ هـ- ٢٣٢: ٢ و ٤٦٨، ط. ٢، والخبر نسختان ففي نسخة كما ذكرنا، وفي نسخة: الباقر (ع) ولا يصحّ، لحياة أبيه السجاد (ع)، والباقر يومئذ دون العشرين من عمره!

٥١٥. المصدر السابق. وفي دائرة المعارف البريطانية ٩٠٤: ١٧ كان ذلك سنة (٧٦ هـ-) الموافقة لسنة (٦٩٥ م). وانظر مقال أخينا السيّد المرتضى في دراسات وبحوث: ١٢٧-١٣٧.

وقتل الخوارج الأزارقة وغيرهم

قال اليعقوبى: وألح الحجاج فى قتال الأزارقة فجادهم المهلب بن أبى صفرة الأزدى فما زال يهزمهم من منزل إلى منزل حتى انتهى بهم إلى سجستان فقتل هناك من رؤسائهم عطية بن الأسود الحنفى التميمى. وصاروا إلى كرمان مع رئيسهم قطرى بن فجاءة، ثم عثروا على كذبة منه فاستتابوه فأبى أن يوجب على نفسه التوبة فخلعوه! فلما امتنع أن يجيبهم إلى التوبة فيوجد لهم السبيل إلى خلعه.

كان فى جمعه رجلا نيسميان بعبد ربّه وقع بأسهم بينهم وانحاز كل واحد منهما فى جيش مخالفا لقطرى، فقصد المهلب عبد ربّه الصغير حتى قتله، ثم قصد عبد ربّه الكبير وفرّق جمعه.

ولكن بقى مع ذلك قطرى فى اثنين وعشرين ألفا! فصاروا إلى طبرستان، فأرسل إلى إصبهدها يسأله أن يدخل بلاده فسمح له وفعل، فلما سمن دوائهم وبرئ جرحاهم عرض قطرى الإسلام على الإصبهديّ أو يوّدَى الجزية صاغرا وأنه لا يجوز فى ديننا غير هذا! فخرج الإصبهديّ يحاربه فانهزم إلى سفیان بن الأبرد الكلبي وهو يومئذ عامل الرىّ وقد تهيأ لقتال الأزارقة، فأدخله إلى طبرستان من طريق مختصرة. فقتل قطرياّ وبعث برأسه إلى الحجاج سنة (٧٩هـ - ٥١٧).

وكان على البحرين زياد بن الربيع الحارثى الهمدانى فعزله زياد وولى محمّد بن صعصعة الكلابى على البحرين وعمان، ومن قرية طاب من قرى الخطّ (القطيف اليوم) بالبحرين خرج عليه الريّان النكرى ومعه جيّداء الأزديّة فهرب

منه الكلابى، فبعث الحجاج يزيد بن أبى كبشة فلقى النكرى فى ميدان الزارة فقتل الريّان وجيّداء وعامة أصحابهما ٥١٨.

ميلاد زيد للسجّاد (ع)

من أمّ ولد أهداها المختار الثقفى للسجّاد (ع) ولدت أربعة أولاد، خديجة وعليّ وزيداً ٥١٩ قبل الثمانين للهجرة ٥٢٠. وفى تسميته يزيد روى الحلّى عن ابن قولويه عن بعض أصحاب السجّاد (ع) قال: كان إذا صلى الفجر لم يتكلّم (إلا بالتعقيب)

٥١٦. تاريخ اليعقوبى ٢٨١: ٢.

٥١٧. تاريخ اليعقوبى ٢٧٥: ٢ - ٢٧٦.

٥١٨. تاريخ خليفة: ١٧٤ - ١٧٥.

٥١٩. مقاتل الطالبين: ٨٩.

حتى تطلع الشمس، فجاءوه يوماً وبشروه بولادة ولد له بعد الفجر، وسمع ذلك من حوله فسألهم: ما ترونى أن اسمى هذا المولود؟ فقال كل منهم:

سمه كذا وسمه كذا. فالتفت إلى غلامه وقال له: يا غلام على بالمصحف.

فجاء بالمصحف فوضعه في حجره وفتح ونظر إلى أول الورقة (يميناً) فإذا فيه: فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً ٥٢١ فأطبقه ثم فتح ونظر في أول الورقة «يميناً» فإذا فيه: إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ

ص: ٢٦٩

وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ٥٢٢ فقال يكرّر: هو والله زيد، هو والله زيد، فسمى زيدا ٥٢٣.

وقد روى الباقر عن أبيه السجاد عن أبيه الحسين (عليهم السلام): أَنَّ النَّبِيَّ (ص) قَالَ لَهُ: يَا حُسَيْنُ: يَخْرُجُ مِنْ صُلْبِكَ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ: زَيْدٌ، تَخْطِي هُوَ وَأَصْحَابُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ رِقَابَ النَّاسِ غَرّاً مُحَجَّلِينَ، يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ ٥٢٤. وعليه فالسجاد (ع) كان على علم بذلك لما تفأل لاسمه بكتاب الله وتكررت آيات الجهاد والشهادة شهد ذلك بأنه هو فسماه زيدا بتسمية النبي له ٥٢٥.

وفاء ابن جعفر وابن الحنفية

فى سنة ثمانين توفى عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ٥٢٦ وكان جواداً سخيّاً، ومات بدعائه: إذ أتاه آت يسأله معونته على أمره ولم يكن يحضره ما يعينه به، فخلع ثيابه عليه ثم دعا فقال: اللهم إن نزل بى بعد اليوم حق لا أقدر على قضائه فأمتنى قبله! فمات فى يومه ذلك ٥٢٧.

٥٢٠. المصدر السابق: ٨٨ و ٩٢.

٥٢١. النساء: ٩٥.

٥٢٢. التوبة: ١١١.

٥٢٣. السرائر ٦٣٨: ٣، ٧٣٦.

٥٢٤. أمالى الصدوق: ٤٠٨، الحديث ٥٢٩، المجلس ٩، وعيون أخبار الرضا (ع) ٤٧٨: ١، الحديث ١٨٨.

٥٢٥. وفى مقاتل الطالبين: ٨٨: بسنده عن عبد الله بن محمد بن الحنفية: أَنَّهُ مرَّ بِهِ زَيْدٌ بْنُ عَلِيٍّ (وهو صبيٌّ) فَرَقَّ لَهُ وَأَخَذَهُ وَأَجْلَسَهُ عِنْدَهُ وَقَالَ لَهُ: يَا بْنَ أَخِي! أَعْيَيْكَ بِاللَّهِ أَنْ تَكُونَ زَيْدًا مَصْلُوبًا بِالْعِرَاقِ! وَلَا يَنْظُرُ أَحَدٌ إِلَى عَوْرَتِهِ وَلَا إِلَيْهِ إِلَّا كَانَ فِي أَسْفَلِ دَرَكٍ مِنْ جَهَنَّمَ! وَعَلَيْهِ فَهُوَ كَانَ صَبِيًّا يَدْرَجُ قَبْلَ وَفَاةِ ابْنِ الْحَنْفِيَّةِ، وَسَيَأْتِي لَا حَقَّ.

٥٢٦. تاريخ خليفة: ١٧٦ واليعقوبى ٢٧٧: ٢ والمسعودى ١٦٧: ٣.

ص: ٢٧٠

وقال المسعودي: في سنة ثمانين كان الطاعون العام بالعراق والجزيرة والشام ومصر والحجاز، فلما قلّ مال ابن جعفر سمع يوم الجمعة في المسجد الجامع (?) يقول: اللهم إنيك قد عودتني عادة فعودتها عبادك، فإن قطعها عني فلا تبقي! فمات في تلك الجمعة، وقد ولد في هجرة والديه إلى الحبشة، وصلى عليه والي المدينة أبان بن عثمان بن عفان، وحين أُملي عبد الله واقتقر تزوج الحجاج بإحدى بناته ٥٢٨ وإنما تزوج الحجاج بابنته لبيتدل أو يذلّ بذلك آل أبي طالب ٥٢٩ ولعله كان قبل أن ينتقل الحجاج إلى العراق.

وقال ابن قتيبة: كانت أم كلثوم ابنة عبد الله بن جعفر لزينب بنت عليّ (ع) تزوجها القاسم ابن عمها محمد بن جعفر، ثم تزوجها الحجاج بن يوسف! كما تزوج ابنته الاخرى: أم أبيها عبد الملك بن مروان ٥٣٠! ومع ذلك افتقر وأُملي قهرا!

وقال في محمد بن عليّ المعروف بابن الحنفية: إنه هرب من ابن الزبير إلى الطائف فمات بها سنة إحدى وثمانين وهو ابن خمس وستين ٥٣١ ونقل قوله المسعودي ولكنه اختار أنه توفي في المدينة وأذن أكبر ولده أبوهاشم عبد الله لوالى المدينة أبان بن عثمان بن عفان أن يصلي عليه فصلى عليه ودفن بالبقيع ٥٣٢.

وقال النوبختي: فلما توفي محمد بن الحنفية بالمدينة في المحرم سنة إحدى وثمانين وهو ابن خمس وستين سنة تفرق أصحابه على ثلاث فرق:

ففرقة تبعت من أصحابه ابن كرب وهو قال: إن محمد بن الحنفية هو المهدي فلا يجوز (يمكن) أن يموت، بل غاب لا يدري أين. ولا إمام بعد غيبته، بل

ص: ٢٧١

يزعمون أن محمد بن الحنفية سيظهر بنفسه بعد الاستتار ينزل إلى الدنيا ويكون أمير المؤمنين ويملك الأرض، وهذه هي آخرتهم!

وفرقه قالت: إن محمد بن الحنفية لم يمت بل هوىّ مقيم بجبال رضوى بين مكة والمدينة، وهو عندهم الإمام المنتظر الذي بشر به النبي (ص): أنه يملأ الأرض عدلاً وقسطاً، عن يمينه أسد وعن يساره أسد أونمر يحفظانه إلى أوان قيامه ومجيئه وخروجه، تغدو عليه الآرام (الغزلان) وتروح فيشرب من ألبانها ويأكل من لحومها!

٥٢٧. تاريخ يعقوبي ٢: ٢٧٧.

٥٢٨. مروج الذهب ١٦٧: ٣.

٥٢٩. مروج الذهب ١٦٩: ٣.

٥٣٠. المعارف: ٢٠٧.

٥٣١. المصدر السابق: ٢١٦.

٥٣٢. مروج الذهب ١١٦: ٣.

وفرقه منهم قالت: إنَّ محمّد بن الحنفية أوصى إلى أكبر ولده أبى هاشم عبد الله بن محمّد فهو الإمام بعده، وغالوا فيه وقالوا بأنّه هو المهدي وهو يحيى الموتى ولا يموت ٥٣٣ وكانت شيعة أبيه تتولاه ولا عقب له، وكان عند موته بالشام وعنده محمّد بن عليّ بن عبد الله بن العباس فأوصى إليه وقال له: أنت صاحب هذا الأمر وهو في ولدك! ودفع إليه كتبه (!؟) وصرف شيعة إليه ٥٣٤.

هذا، وقد روى الكليني بطريقين إلى زرارة وأبى عبيدة عن الباقر (ع):

أنَّ عليّ بن الحسين (ع) أخبر ابن الحنفية: أنَّ أباه الحسين (ع) كان أوصى إليه قبل أن يتوجّه إلى العراق وعهد إليه بالإمامة والوصية قبل شهادته وأودعه سلاح رسول الله (ص) ثمّ تحاكم معه إلى الحجر الأسود لينطق بالحقّ بحيث يسمعانه، فانطلقا وبدأ ابن الحنفية فلم يجبه، ثمّ دعا عليّ بن الحسين (ع) فأنطق الله الحجر بلسان عربي مبين: أنَّ الإمامة والوصية بعد الحسين إلى عليّ بن الحسين (عليهما السلام)، فانصرف ابن الحنفية وهو يتولّى عليّ بن الحسين (عليهما السلام) ٥٣٥.

ص: ٢٧٢

وروى الطبرسي عن الصادق (ع): أنَّ أبا خالد وردان الكابلي كان يقول بإمامة ابن الحنفية فسمعه يخاطب عليّ بن الحسين يقول: يا سيدي! فسأله عن ذلك فقال له: إنّه حاكمني إلى الحجر الأسود فصرت إليه فسمعتة يقول لي: سلّم الأمر إلى ابن أخيك فإنّه أحقّ به منك ٥٣٦.

وعليه، فهو كان يدعى الإمامة أولاً ثمّ أذعن للحقّ، ولم يذعن له أبناؤه وأصحابهم كلّهم.

ص: ٢٧٣

الحجاج وعبد الرحمان بن الأشعث

ولى الحجاج العراقيين وهوابن ثلاث وثلاثين سنة! وله أربعة بنين: محمّد وأبان وعبد الملك، والوليد ٥٣٧! وأراد استمالة قوم الأشعث بن قيس الكندي إليه فتزوّج ميمونة بنت محمّد بن الأشعث قتيل المختار لابنه محمّد وهو غلام مراهق! ليكونوا له يدا على من ناواه. وكان لها أخ يقال له: عبد الرحمان بن محمّد بن الأشعث، وكان بهياً جميلاً منطيقاً وله أبهة في نفسه،

٥٣٣. فرق الشيعة: ٢٧ - ٣١.

٥٣٤. المعارف لابن قتيبة: ٢١٧، و فرق الشيعة: ٣٣ وقال: بل افترق أصحابه أربع فرق: ٣١.

٥٣٥. أصول الكافي ٣٤٨: ١، الحديث ٥، الباب ٨١، كتاب الحجّة.

٥٣٦. إعلام الوري ٤٨٦: ١.

٥٣٧. المعارف: ٣٩٧ - ٣٩٨.

فألحقه الحجاج بأفاضل أصحابه وأهل سرّه وخاصّته بل ألزمه بنفسه، وأجرى عليه العطايا الواسعة صلة، لصهره وإلتام الصنيعة إليه وإلى جميع أهله، فملأه كبراً وفخراً وتطاولاً، حيناً من الدهر.

ثمّ كتب له عهداً على سجستان ٥٣٨ ووجّه معه الحجاج بعشرة آلاف منتخب ٥٣٩ جيشاً كثيفاً حسن العدد حتّى سمّى جيش الطواويس، لغزو رتبيل ملك زابلستان ٥٤٠ وكل ملك يلي هذا الصقع من بلاد الهند؛ يقال له رتبيل ٥٤١ فلمّا صار إلى سجستان أقام في بست وضبط أطرافه، ثمّ سار يريد رتبيل ملك البلد فلمّا أوغل في بلاده خاف الكمين فرجع إلى بست وكتب إلى الحجاج يعلمه أنّه آخر غزو رتبيل إلى العام المقبل فكتب إليه الحجاج ينسبه إلى العجز ويغلظ له ويتوعّده فيه، فجمع أطرافه إليه وحرّضهم على الحجاج ودعاهم إلى خلعه فأجابوه وبايعوا له لبغضهم الحجاج وسطوته ٥٤٢.

ص: ٢٧٤

وكان في عسكره أيّوب بن القرية التميمي وكان كليماً مفوهاً، فسأله أن يصدر رسالة إلى الحجاج يخلع فيها طاعة الحجاج، فكتب له ابن القرية رسالة فيها:

بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الرحمان بن محمد بن الأشعث! إلى الحجاج بن يوسف، سلام على أهل طاعة الله وأوليائه الذين يحكمون بعدله ويوفون بعهدده، ويجاهدون في سبيله ويتورعون لذكره، ولا يسفكون دمّاً حراماً ولا يعطلون للربّ أحكاماً ولا يدرسون له أعلاماً، ولا يتنكبّون النهج ولا يسارعون في الغي، ولا يدلّلون الفجرة ولا يتراضون الجورة، بل يتمكّنون عند الاشتباه، ويتراجعون عند الإساءة.

أمّا بعد؛ فإنّي أحمد إليك الله حمداً بالغاً في رضاه، منتهياً إلى الحقّ في الامور الحقيقيّة عليه لله. وبعد فإنّ الله أنهضني لمصاولتك وبعثني لمناضلتك، حين تحيّرت امورك وتهتكت ستورك، فأصبحت عريان حيران مبهتاً، لا توافق وفقاً ولا ترافق رفقا ولا تلازم صدقا.

أوّل من الله الذي ألهمني ذلك أن يصيرك في حبالك ويسحبك للذقن، وينصف منك من لم تنصفه من نفسك، ويكون هلاكك بيدى من اتّهمته وعاديته.

فلعمري لقد طالما تطاولت وتمكّنت وأخطيت وخلت أن لن تبور وأنك في فلك الملك تدور! وستخبر مصداق ما أقول عن قريب!

فسر لأمرك ولاق عصابة خلعتك من حبالها خلعتها نعالها! لا يحذرون منك جهداً ولا يرهبون منك وعيداً! يتأملون خزايتك وهم عطاشى إلى دمك ويستطعمون الله لحكمك، يحاولونك به على طاعة الله وقد شروا أنفسهم تقرباً إلى

٥٣٨. الإمامة والسياسة ٣٦: ٢-٣٧.

٥٣٩. تاريخ يعقوبى ٢٧٧: ٢.

٥٤٠. التنبيه والإشراف: ٢٧١.

٥٤١. مروج الذهب ١٣١: ٣.

٥٤٢. تاريخ يعقوبى ٢٧٧: ٢، والتنبيه والإشراف: ٢٧١.

ص: ٢٧٥

اللّٰه! فأغض عن ذلك يابن امّ الحجاج، فسحمل عليك إن شاء الله، ولا حول ولا قوّة إلا باللّٰه، والسلام على أهل طاعة اللّٰه ٥٤٣.

خطبة الحجاج على ابن الأشعث

قال ابن قتيبة: فلمّا ورد الكتاب على الحجاج أمر فنودي: الصلاة جامعة، فاجتمع الناس، فخرج إليهم قد أخذ بطرف رداءه ويجرّ ذيله من خلفه حتّى صعد المنبر وقال فيما قال:

العجب العجب، وما هو أعجب! من العير الأبترا! أنى وجهته ومن معه من المنافقين، فانطلقوا فى نحور العدو، ثمّ أقبلوا على راياتهم لقتال أهل الإسلام؛ من أجل عير أبترا! على حين أنّنا قد أمّنا الخوارج وأطفأنا الفتن، فتتابعت الفتن إليهم! فكان من شكركم - يا أهل العراق - ليد الله فيكم ونعمته عليكم وإحسانه إليكم! جرأتكم على الله وانتهاكم حرمة واغتراركم بنعمته! ألم يأتكم شبيب مهزوما ذليلاً؟! فقبحت تلك الوجوه! فما هذا الذى يتخوّف منكم يا أهل العراق؟! والله لقد أكرمنا الله بهوانكم! وأهانكم بكرامتنا فى مواطن شتى تعرفونها وتعرفون أشياء حرّمكم الله اتّخاذها .. أرى الحزام قد بلغ الطبيين والتقت حلقتا البطان .. أنا ابن العرقية وابن الشيخ الأعزّ! كذبتم وربّ الكعبة! ما

الرأى كما رأيتم ولا الحديث كما حدّثتم، فافطنوا لعيوبكم وإيّاكم أن أكون وأنتم كما قال:

إنّك إن كلّفتنى ما لم أطق
ساءك ما سرّك منى من خلق!

والمخبر بالعلم ليس كالراجم بالظنون، فالتقدّم قبل التندّم، وأخو المرء نصيحته! ثمّ أنشد:

ص: ٢٧٦

لذى الحلم قبل اليوم ما تفرع العصا
وما علّم الإنسان إلا ليعلمّا

ثمّ قال: احمّدوا ربّكم، وصلّوا على نبيّكم (ص). ثمّ نزل.

وكان كاتبه مولاه نافعاً فقال له: يا نافع اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، من الحجاج بن يوسف إلى عبد الرحمان بن الأشعث، سلام على أهل النزوع من الزيف ..

فإنني أحمد الله الذي خلّك في حيرتك حتى أقحمك أمورا أخرجك بها عن طاعته وجانبت بها ولايته! وعسكرت بها في الكفر وذهلت بها عن الشكر! فلا تشكر في السراء ولا تصبر في الضراء .. أقبلت تستوقد الفتنة لتصلى بحرّها وجلبت لك ولغيرك ضرّها .. وعزّة ربك لتكّين لنحرّك وتقلبنّ لظهرك، ولتدحضنّ حجّتك، ولتذمّن مقامك، كأنّي بك تصير إلى غير مقبول منك إلا السيف، عند كشوف الحروب عن ساقها ومبارزة أبطالها! والسلام على من إلى الله أناب وسمع وأجاب ٥٤٤.

سعيد بن جبير إلى ابن الأشعث

قال ابن قتيبة: أتى إلى الحجّاج بسعيد بن جبير - وكان من موالى بنى والبة من بنى أسد ٥٤٥ - فقال له: انطلق بهذا الكتاب إلى هذا الطاغية الذي قد فتن وفتن فاردعه عن قبيح ما دخل فيه، وعظيم ما أصرّ عليه، وحرمة ما انتهك عدو الله من حقّ الله! إلى ما في ذلك من سفك الدماء وإباحة الحريم وإنفاق الأموال، ولولا معرفتي بأنك قد حويت علما وأصبت فقها ... فخرج سعيد متوجّهاً إليه.

ص: ٢٧٧

فلما قرأ عبد الرحمن الكتاب أسمع به ارتعش هيبه له وجزعا منه وتبيّنت رعشته! وكنتم الكتاب وجعل يستخلى بابن جبير فيسمر معه ليلا ويسأله الدخول معه فيما رأى من خلع الحجّاج، ومكث بذلك شهراً وسعيد يأبى ذلك عليه، ثمّ أجابه إليه ٥٤٦.

ودعا أبا عمر ذرّ بن ذرّ الهمداني القاصّ، فكساه ووصله وأمره أن يحضّض الناس على الحجّاج، فكان كلّ يوم يقصّ للناس فينال من الحجّاج وذلك في سنة إحدى وثمانين ٥٤٧.

وكتب إلى رتبيل ملك الهند أن يصلحه فيقف عنه أو يلبّجاً إليه إن شاء، وكتب كتاباً بينهم على ذلك. واستخلف رجلاً من قبله على سجستان وخرج منها ٥٤٨ وكتب إلى المهلب بن أبي صفرة وهويحاصر بلدى كش ونسف من بلاد خراسان الكبرى في سنة (٨١)، يدعوه إلى خلع الحجّاج، فانصرف عنهم المهلب ٥٤٩.

٥٤٤. الإمامة والسياسة ٣٨: ٢ - ٤٠.

٥٤٥. المعارف: ٤٤٥، ولكنّه في الإمامة والسياسة نسبه إلى بنى الأشعث بن قيس، ولا يصحّ.

٥٤٦. الإمامة والسياسة ٤٠: ٢.

٥٤٧. تاريخ خليفة: ١٧٦.

٥٤٨. تاريخ اليعقوبي ٢٧٨: ٢.

٥٤٩. تاريخ خليفة: ١٧٥.

وسار عبد الرحمن راجعا لإخراج الحجاج من العراق ومسألة عبد الملك إبدالهم به، ولكنه لما عظمت جموعه ولحق به كثير من أهل العراق ورؤسائهم ونسأكلهم عند قربها خلع منها عبد الملك فى اصطخر فارس، وسَمى نفسه «ناصر المؤمنين». وكان ممّا شاع من قبل فى اليمىين أن رجلاً من قحطان يعيد الملك فيها فهم كانوا ينتظرونه، وأن اسمه على ثلاثة أحرف! فادعى أنه هو وأن أصل اسمه

ص: ٢٧٨

«عبد» والرحمن خارج عن اسمه ٥٥٠!

وقدم لأى بن شقيق السدوسى على الحجاج فأخبره، فحملة من ساعته إلى عبد الملك، فردّه عبد الملك إلى الحجاج يأمره بالتشهير والجدّ حتّى تأتية الجنود ٥٥١ وكتب إليه: لعمرى لقد خلع طاعة الله بيمينه وسلطانه بشماله وخرج من الدين عريانا! وإنّى لأرجو أن يكون هلاكه وهلاك أهل بيته واستئصالهم فى ذلك على يدى أمير المؤمنين! وما جوابه عندى فى خلع الطاعة إلا قول القائل:

أناؤه وحلما وانتظارا بهم غدا
فما أنا بالوانى ولا الضرع الغمر! ٥٥٢

ص: ٢٧٩

قتال الأهواز، وزاوية البصرة

ورأى الحجاج أن حجّة ابن الأشعث الكندى الكوفى فى الكوفة أقوى من حجّة الحجاج بها، فسار إلى البصرة، وبلغ ذلك ابن الأشعث فسار إليه ٥٥٣ حتّى لقيه دون شوشتر بسبعة فراسخ ٥٥٤ فى دير من ديار الأهواز يسمّى جنديشابور ٥٥٥ وكان

٥٥٠. التنبيه والإشراف: ٢٧٢، وفى مروج الذهب ١٣١: ٣: أنه خلع عبد الملك فى بلاد كرمان قبل فارس.

٥٥١. تاريخ خليفة: ١٧٦.

٥٥٢. مروج الذهب ١٣١: ٣.

٥٥٣. مروج الذهب ١٣١: ٣.

٥٥٤. التنبيه والإشراف: ٢٧٢.

٥٥٥. الإمامة والسياسة ٤١: ٢ وفيه: نيشابور، خطأ.

ذلك يوم عيد النحر (الأضحى) (٨٢ هـ-) فالتقوا للقتال ٥٥٦ فقتل من أنصار الحجاج ثمانية آلاف ٥٥٧ فانكشف الحجاج راجعا حتى دخل البصرة، وتبعه ابن الأشعث.

وكان عامل الخراج للحجاج على البصرة قادن فرّخ فارسياً فأشار عليه قال: اخرج له عن البصرة؛ فالبصريون معه إذا شمّوا أولادهم ونساءهم قعدوا عنه!

فقبل الحجاج مشورته وخرج إلى ناحية طفّ البصرة، ودخلها ابن الأشعث فكان كما قال الفارسي: قعد عنه عامّة من كان معه من أهل البصرة، حتى سمع مناديه يناديهم: أين الذين بايعوا بالرخج؟! وقعد ابن الأشعث على المنبر يتوعّد الذين يتخلّفون عنه توعّداً شديداً!

ثمّ خرج ابن الأشعث فلقى الحجاج بالزاوية فاقتتلوا قتالاً شديداً ٥٥٨ ونزل ابن الأشعث بالخريبة وذلك في أوائل سنة (٨٣ هـ-) فأقاموا يقتتلون نحواً من شهرين! ثمّ بدا لابن الأشعث أن يتغلّب على الكوفة فخرج إليها ليلاً بشطر من أصحابه

ص: ٢٨٠

الكوفيّين. وافتقده البصريون صباحاً ٥٥٩ بلا خليفة له، وكان عندهم عبد الرحمان بن العباس بن ربيعة بن الحرث بن عبد المطّلب الهاشمي فقالوا له:

إنّه تركنا ولحق بالكوفة وهذا الفاسق منيخ علينا! فبايعهم وسار إلى الحجاج بالزاوية فقاتله فهزمه الحجاج فلحق بالكوفة ٥٦٠.

وقائع دير الجماجم وظهر المربد وحراء

دخل ابن الأشعث الكوفة، فكتب الحجاج كتاباً إلى عبد الملك يذكر فيه كثرة جيوش ابن الأشعث ويستنجد به ويسأله الإمداد وقال في كتابه ٥٦١: أمّا بعد فياغوثاه ثمّ يا غوثاه! فلمّا قرأ عبد الملك الكتاب كتب إليه: أمّا بعد، فيا لبيك ثمّ يا لبيك ثمّ يا لبيك ٥٦٢! وأمّده بجيوش الشام مع أخيه محمّد بن مروان من الجزيرة، وابنه عبد الله بن عبد الملك، وسار

٥٥٦ . تاريخ خليفة: ١٧٦.

٥٥٧ . التنبيه والإشراف: ٢٧٢.

٥٥٨ . تاريخ خليفة: ١٧٧.

٥٥٩ . التنبيه والإشراف: ٢٧٢.

٥٦٠ . تاريخ يعقوبى ٢٧٨: ٢.

٥٦١ . مروج الذهب ١٣٢: ٣.

٥٦٢ . تاريخ يعقوبى ٢٧٨: ٢.

الحجّاج حتّى نزل دير قرّة، وخرج ابن الأشعث من الكوفة إلى دير الجماجم، فاقتتلوا بدير الجماجم نحواً من أربعة أشهر، فى نحو من ثمانين وقعة! وابن الأشعث فى ثمانين ألفاً، ودونه الحجّاج، وقتل منهم جمع كثير، وسار ابن الأشعث إلى البصرة فتبعة الحجّاج فخرج منها، فالتقوا بأرض مسكن، فهزم أهل العراق (الكوفة) وقتلوا قتلاً ذريعاً، ومضى ابن الأشعث فى من تبعه إلى سجستان ٥٦٣ فأتى مدينة زرنج وعليها عبد الله بن عامر

ص: ٢٨١

فامتنع عليه، فمضى إلى بست وعليها عياض بن عمرو فدبر أن يغدر به ويتقرّب به إلى الحجّاج! فأدخلهم ٥٦٤.

وقال العصفري البصرى: إنّ الأشعث سار إلى خراسان أوّلًا، فاجتمع فلّ عسكره (البصرى) على عبد الرحمان بن العباس بن ربيعة الهاشمى أيضاً فاقتتلوا بظهر مربد البصرة ثلاثة أيام ثمّ انهزموا فتبعوا عبد الرحمان إلى خراسان، فتركهم ابن الأشعث وسار إلى سجستان.

وكان على خراسان ابنا المهلب: يزيد والمفضل على هراء، فلقبهم فهزمهم وأسر ناساً منهم محمّد بن سعد بن أبى وقاص وبعث به إلى الحجّاج فقتله ٥٦٥.

قال: وكان قد خرج مع ابن الأشعث خمسمائة من القرّاء كلّهم يرون القتال معه على الحجّاج وبنى مروان، وسمّى خمسة عشر رجلاً منهم، منهم من أهل البصرة: الحسن بن أبى الحسن البصرى قيل أخرج كرهاً فلم يقتل، أخرج ابن الأشعث لمّا قيل له: إنّ أحببت أن يقتلوا حولك كما قتلوا حول جمل عائشة فأخرجهم! ومن أهل الكوفة سعيد بن جبير مولى أسد، وعامر الشعبى وعبد الرحمان بن أبى ليلى، والنضر بن أنس بن مالك وأبو عبيدة بن عبد الله بن مسعود ومحمّد بن سعد بن أبى وقاص وعطاء بن السائب مولى ثقيف ٥٦٦ وسعد مولى حذيفة، وأبوالبختري مولى بنى طيء، وطلبه الباقر منهم يوم دير الجماجم ليؤمّروه عليهم فقال: أنا رجل من الموالى فأمّروا رجلاً من العرب! فأمّروا جبلة أوجهم بن زحر بن قيس الجعفى! وكان كثير منهم قد حلقوا رؤوسهم ٥٦٧ شعار

ص: ٢٨٢

الشراء الخوارج. وكانت الهزيمة لأربع عشرة ليلة خلت من جمادى الاولى سنة (٨٢ هـ-) وبعدها فى شعبان.

٥٦٣. التنبيه والإشراف: ٢٧٢.

٥٦٤. تاريخ يعقوبى ٢٧٨: ٢.

٥٦٥. تاريخ خليفة: ١٧٨-١٧٩ وفى الإمامة والسياسة ٥٠: ٢ أنّهم كانوا بقلعة بأرض فارس، وهو أولى.

٥٦٦. تاريخ خليفة: ١٨١.

٥٦٧. المصدر السابق: ١٧٨.

وفى وقعة ظهر المربد آخر المحرم وأول صفر، كان مع أبى عمر كثير مولى عنزة يبيع الكتان مائتان من الموالى فأتبعهم من قواد الحجاج: سفيان بن الأبرد الكلبى حتى دخلوا البصرة فقتلهم ثم رجع فقتل من لقي منهم أربعمئة أو أكثر ٥٦٨.

وكان ممّا أثار خيار القرّاء والحجّاج على الحجّاج ما أثاره هومن العجاج واللجاج فى تفضيل الخليفة الأموى حتّى على الرسول والنبيّ فضلاً عن الوصىّ، حتّى أنهم سمعوه يخطب على المنبر يقول: أخليفة أحكم فى أهله أكرم عليه أم رسوله فى حاجته؟! يعنى أن الخليفة أكرم على الله من رسوله ٥٦٩!

وممّا أثارهم على عبد الملك أنّه كتب إلى الحجّاج أن يبعث إليه بثلاثين جارية: عشرة من ذوات الأحلام وعشرة من النجائب وعشرة من قعد النكاح ٥٧٠.

أسرى الخوارج، والحجّاج

لما انهزم ابن الأشعث حلف الحجّاج: ألا يؤتى بأسير منهم إلا ضرب عنقه ٥٧١ ولعلّه بلغ ابن مروان، فروى العصفري البصرى عن المدائنى البصرى قال:

كتب عبد الملك إلى الحجّاج فى بقايا الخوارج مع ابن الأشعث: أن ادع الناس إلى البيعة، فمن أقرّ بالكفر! فخلّ سبيله، إلا رجلاً نصب راية أو شتم أمير المؤمنين.

ص: ٢٨٣

وكان الحجّاج قد أسر ناساً كثيراً منهم بنو ضبيعة من عنزة البصرة وسيدهم مسمع ومن قرّاء موالىهم عمران بن عصام، وكان الحجّاج لما قدم العراق أمر مسمع أن يزوّج عمران ابنته ماوية! ثمّ أوفد من البصرة وفداً إلى عبد الملك فأوفده فيهم، ولم يكن يوفد الموالى! وجيء اليوم بهم مع الأسرى، فقرأ عليهم كتاب عبد الملك، وفيهم عمران فدعا به الحجّاج وقال له: أتشهد على نفسك بالكفر؟! قال: ما كفرت بالله منذ آمنت به! قال: ألم أقدم العراق فأوفدتك ولا يوفد مثلك؟! قال: بلى! قال: وزوّجتك سيّدة قومها ماوية بنت مسمع، ولم تكن لها بأهل! قال: بلى! قال: فما حملك على الخروج؟ قال: أخرجنى باذان (!) قال: فمن أخرجك عن حجلة أهلك؟! قال: أخرجنى باذان! وكان معمّا فكشطوا عمامته فإذا هو محلول! فأمر به فضربت عنقه ٥٧٢.

٥٦٨. تاريخ خليفة: ١٨٠، ١٨٩.

٥٦٩. مروج الذهب ١٤٧: ٣ مستنداً.

٥٧٠. المصدر السابق ١٤٩: ٣.

٥٧١. المصدر السابق ١٥٤: ٣.

٥٧٢. تاريخ خليفة: ١٧٧ و ١٧٨.

قال: واتى بالشعبي فعاتبه فقال الشعبي: أجذب بنا الجناح، وأحزن بنا المنزل، واستحللنا الخوف (منك) وخبطتنا فتنه لم نكن فيها بررة أتقياء ولا فجرة أفوياء!

فقال الحجاج: لله أبوك! ومنّ عليه فتركه. وقتل الحجاج في مسكن أربعة آلاف وأخمسة آلاف أسير ٥٧٣. وجعل يتلقط بقاياهم حتى قتل خلقا كثيرا، وعفا عن جماعة منهم الشعبي وإبراهيم النخعي.

وفي السنة التي هرب فيها ابن الأشعث بنى الحجاج مدينة واسط وقال: انزل بين البصرة والكوفة ٥٧٤ كأنه استنكف من الأوبة إلى الكوفة بل والبصرة وقد قتل منهم خلقا كثيرا!

ص: ٢٨٤

وقال ابن قتيبة: لما انهزم ابن الأشعث وكان الحجاج مترجلا وقد وضع له منبر من حديد دعا بدابته فركبها وركب من معه فانتهى إلى ربوة فأومأ إليها ووقف في ذلك المرتفع، ينظر إلى معسكر ابن الأشعث وأصحابه ينتهبونه.

ثم رجع إلى معسكره فنزل إلى فسطاطه فجلس وأذن فدخلوا عليه يهتفون بفتحه، وأخذوا يأتونه بالأسرى فيقتلهم إلى الليل. ثم قفل إلى واسط التي بناها، وأقام لا يمرّ عليه يوم إلا ويؤتى بأسرى فيقتلهم! فلما رأى كثرة من يؤتى به أخذ يتحرى فيقول له: أمؤمن أنت أم كافر؟! فمن أقرّ بالكفر أو النفاق عفا عنه، ومن قال: مؤمن قتله ٥٧٥!

وكان هو يلقي ذلك من كان من الأسرى من ثقيف! أتى بأحدهم وخلفه رجل من السكون، فقال الحجاج للثقفي أكفرت؟ قال: نعم، قال: لكن هذا الذي خلفك لم يكفر! فقال السكوني: أتخادعني عن نفسي! بلى والله ولو كان شيء أشد من الكفر لبؤت به! فخلاهما ٥٧٦.

ثم أتى برجل من فرسان عبد الرحمن من بني عامر فقال له: والله لأقتلنك شرّ قتلة! قال: والله ما ذلك لك! قال: ولم؟ قال: لأن الله يقول: فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَتْنُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ فَإِمَّا مَنَّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً فَإِمَّا أَنْ تَمَنَّا عَلَيْنَا أَوْ تَفْدِينَا عَسَاوَرْنَا!

فقال الحجاج: أكفرت؟ قال: نعم، وغيّرت وبدلت! فخلّاه ٥٧٧.

ص: ٢٨٥

٥٧٣. تاريخ خليفة: ١٨١.

٥٧٤. تاريخ يعقوبى ٢٧٨: ٢ و ٢٧٩.

٥٧٥. الإمامة والسياسة ٤٦: ٢ و ٤٧.

٥٧٦. مروج الذهب ١٥٦: ٣.

٥٧٧. مروج الذهب ١٥٥: ٣ - ١٥٦.

قال ابن قتيبة: كان عامر الشعبي مع ابن الأشعث وكان خاصّ المنزلة به، ليس لأحد منه مثلها للذي كان عليه من حاله إلا سعيد بن جبير، وأفلت سعيد بن جبير إلى مكّة.

وأتى بالشعبي إلى الحجّاج في سورة غضبه وهويقتل الأسرى إلا من أقرّ بالكفر أو النفاق! فلقبه يزيد بن أبي مسلم مولى الحجّاج وحاجبه فقال له:

يا شعبي! لهفي للعلم الذي بين دفتيك! وليس هذا بيوم شفاعّة! إذا ادخلت على الأمير فأقرّ له بالكفر والنفاق عسى أن تنجو!

وَأدخل الشعبي والحجّاج واضع رأسه، فلمّا رفع رأسه رآه وعرفه فقال له:

وأنت أيضاً يا شعبي ممّن أعان علينا وآلب؟ قال: أصلح الله الأمير؛ إنني امرت بأشياء أقولها لك ارضيك بها وأسخط الرب! فلست أفعل ذلك! ولكنني اصدقك القول، فإن كان شيء ينفع لديك فهو في الصدق إن شاء الله: أحزن بنا المنزل. وأجذب الجنب، واكتحلنا السهر واستحللنا الخوف (منك) وضاق بنا البلد العريض فوقعنا في خزيّة لم نكن فيها برّة أتقياء ولا فجرّة أقوياء!

فقال له الحجّاج: كذلك؟ قال: نعم أصلح الله الأمير وأمتع به. وكان مع الحجّاج جنود الشام فقال لهم:

يا أهل الشام: صدق والله ما كانوا برّة أتقياء فيتورّعوا عن قتالنا! ولا فجرّة أقوياء فيقووا علينا! ثمّ قال للشعبي: انطلق يا شعبي فقد عفونا عنك فأنت أحقّ بالعفو ممّن يأتيينا وقد تلطّخ بالماء ثمّ يقول: كان كذا وكان كذا.

وبعد شهرين رفع إلى الحجّاج فريضة من فرائض الإرث أشكلت عليه في:

أمّ وجدّ وأخت. فقال: من هاهنا نسأله عنها؟ فدلّ على الشعبي فأرسل إليه فسأله عنها، فقال له:

ص: ٢٨٦

أصلح الله الأمير، قال فيها خمسة من أصحاب محمّد (ص): عليّ بن أبي طالب! وأمير المؤمنين عثمان! وعبد الله بن عبّاس، وعبد الله بن مسعود، وزيد بن ثابت، فاختر رأي عثمان وقال: يا غلام، قل للقاضي يمضيها على ما قال أمير المؤمنين عثمان ٥٧٨.

وأقام الأشعريّون منهم بقم

مرّ في أوائل أخبار المختار خبر قيام التابعي السائب ابن الصحابي مالك بن عامر الأشعري يردّ على الأمير الزبيرى عبد الله بن المطيع العدوى قوله بأن يسير فيهم بسيرة عمر وعثمان، ولم يذكر علياً (ع) بشيء، فقال السائب: «لا حاجة لنا في سيرة عثمان ... ولا في سيرة عمر في فيئنا! وألا يسار فينا إلا بسيرة عليّ بن أبي طالب رحمه الله عليه» ٥٧٩.

وأنّه كان من أركان شؤون المختار وأنصاره في مساره حتى مصيره في حصره في قصره دار الإمارة حتّى قتل معه، وكان ابنه محمد معه واستصغر فنجاً من مجزرة مصعب بن الزبير لسبعمائه ممّن كان مع المختار، ثمّ كان مع السائب ابن الأشعث فقتله الحجاج ٥٨٠.

وكان مع ابن الأشعث أيضاً أخ السائب: سعد بن مالك أوبعض أبنائه الخمسة: عبد الله وعبد الرحمان وإسحاق ونعيم والأحوص، واسر الأحوص وسجن وافرّج عنه على غير متوقّع؛ ولذا كان في الحسبان أن شرطة الحجاج سيعودون عليه، وكان أخاه عبد الله لم يكن معه فأشار عليه ألا يبقى في

ص: ٢٨٧

٥٨١

الكوفة بل يخرج منها لكي لا يعودوا عليه بالقبض فالقتل أو السجن، وتوافق إخوته عبد الله وعبد الرحمن وإسحاق ونعيم أن يلتحقوا به، قاصدين بنى أعمامهم في خراسان، وكأنّهم لمّا علموا مقاتلة أبناء المهلب الأزدي: يزيد والمفضل في فارس وهراة في خراسان لفلول ابن الأشعث - كما مرّ - يئسوا من خراسان، فقصّدوا جبال أرمينية في آذربايجان ليتحصّنوا بها، عن طريق «كمدان» فإصفهان.

فخرج الأحوص بأهله من الكوفة متّجها نحو إصفهان، لكنّه لما وصل إلى قرية أبرشتجان من قرى «كمدان» ورأوا القلاع والكلا والماء بها، وكانت قبل أيام النوروز، نزلوا بها والتحق به إخوته، ولهم إبل ومواشى كثيرة.

وكانت المنطقة ولا سيّما في تلك الأيام (النوروز) معرضة لهجوم طوائف من الديلم، وفي أوّل حملة للديلم بعد حضور الأشعريين في المنطقة، رأوا لهؤلاء إبلاً ومواشى كثيرة فأغاروا عليهم، فقاتلهم الأشعريون فقتلوا منهم وأسروا وهزموا بقاياهم، وكان رئيس «كمدان» يومئذ فارسياً منهم يسمّى «يزدانفر» فأرسلوا بالأسرى ورؤوس القتلى إليه، وفرّج الأهالي بفعلهم وناشدوهم البقاء، وقدموا إليهم الهدايا والتّحف ومراعى ومزارع وأراضى وبذوراً وأدوات الزراعة.

فقال عبد الله: ولكن ليس لنا هنا مسجد نصلى فيه، فخالف البقاء هنا وأرادهم أن يذهبوا إلى بلاد قزوین ليصبحوا مرابطين لثغور المسلمين مع جبال الديلمان وهم على كفرهم يومئذ.

٥٧٩. تاريخ الطبرى ١: ٦ عن أبي مخنف.

٥٨٠. ترجمة تاريخ قم بالفارسية: ٢٦٤، للحسن بن عليّ القمي المتوفى في (٨٠٦ هـ).

٥٨١ يوسفى غروى، محمد هادى، عصر الإمام السجاد، سياسيا و اجتماعيا، جلد، المجمع العالمى لاهل البيت (عليهم السلام) - قم - ايران، چاپ: ١، ١٤٣٦

فقال له الأحوص: إنَّ الديلم تهجم على هذه المنطقة في كلِّ عام، كما رأيت - فهي رباط كذلك! وكان هناك محلٌّ لبيت نار فهدمه الأحوص وبناءه مسجداً ٥٨٢، ليزيل علّة أخيه عبد الله، فرضى وبقي وبقوا.

وقال الحموي: كان هناك سبع قرى اسم إحداها (أومركزها): گمندان

ص: ٢٨٨

(المكان الضائع بين الجبال) فنزل هؤلاء الإخوة على هذه القرى ... واستوطنوها، واجتمع إليهم أبناء عمومتهم، والتحمت القرى فصارت سبع محالّ بها، فسمّيت باسم إحداها «گمندان» وعربوها وأسقطوا بعض حروفها، فصارت بتعريبهم: قم.

وكان لعبد الله ولد بالكوفة (موسى) ثمّ انتقل منها إلى قم، وكان هذا «إمامياً» فهو الذي نقل «التشيّع» إلى قم، فلا يوجد بها سنّى قط ٥٨٣!

ولذا قال صاحب «تاريخ قم»: إنَّ أوّل من أظهر التشيّع بقم: موسى بن عبد الله الأشعري ٥٨٤.

وبناءً على ما مرّ فإنَّ إقامة الأشعريّين بقم كانت بمناشدّة لهم من أهلها وتقديمهم الأراضي لهم، وحتّى بيت نارهم المتروك ليهدموه ويبنوه لأنفسهم مسجداً، بإزاء دفعهم أذى الديلمان عن «گمندان» والحموي عكس ذلك فضمن بيانه السابق ناقض فقال: نزل هؤلاء الإخوة على هذه القرى وقتلوا أهلها حتّى افتتحوها واستولوا عليها واستوطنوها! فجعل القتال دفاعاً عنهم دفعاً لهم عن أموالهم وديارهم بل وأرواحهم. وهل كان هذا فتحاً مكرراً بعد ما قال:

إنّها فتحت على يد الأحنف بن قيس التميمي على مقدّمة أبي موسى الأشعري ٥٨٥؟!

ص: ٢٨٩

ومصير ابن الأشعث الانتحار

قال اليعقوبي: مضى منهزماً لا يلوى على شيء إلى زرنج من سجستان، وكان عليها عبد الله بن عامر فمانعه من دخولها، فمضى إلى بست، وكان عليها عياض بن عمرو فدبّر أن يغدر به فيتقرّب به الحجاج فأدخلهم ... ثمّ صار إلى رتبيل صاحب تلك البلاد فوفى له رتبيل بما كان بينهما فأقام عنده في أمن وسلامة ... في أربعة آلاف من أصحابه.

٥٨٢. ترجمة تاريخ قم بالفارسية: ٢٤٣-٢٥٣، الفصلان الأولان من الباب الرابع.

٥٨٣. معجم البلدان ٣٩٧: ٤-٣٩٨.

٥٨٤. ترجمة تاريخ قم بالفارسية: ٢٧٨ ف ٦، ب ٥، بقي أن نقول: إنّه لم يذكر سجن الحجاج وقال: سجن بعد قتل زيد بن علي! وأرخ لذلك بسنة اثنتين وستين! وهذا الثاني تصحيف عن الثمانين والأوّل وهم؛ فإنّ قيام زيد لم يكن في أيّ من هذين التاريخين بل بعد هذا.

٥٨٥. وانظر: قم حرم أهل البيت (عليهم السلام) لأخينا الشيخ محمّد عليّ الأنصاري: ٢٤-٢٩.

وبلغ الحجاج ذلك فدعا عماراً بن تميم اللخمي وكتب معه إلى رتبيل يأمره أن يوجه إليه ابن الأشعث وإلا فإنه يوجه إليه بمائة ألف مقاتل! ووجهه إليه، فلم يفعل ... فعاد عماراً وأقام بمدينة بستان. وهرب عبيد بن أبي سبيع من عند رتبيل فصار إلى عماراً بن تميم في بستان وقال له: تجعلون لي شيئاً وتكفون عن رتبيل وتصلحونه ويسلم إليكم ابن الأشعث. فكتب عماراً بذلك إلى الحجاج فوافق الحجاج، فكتب عماراً لعبيد عهداً وختمها بخاتمه، فأخذها عبيد وعاد بها على رتبيل فلم يزل يرغبه مرةً ويرهبه أخرى حتى أجابه إلى أخذ ابن الأشعث فأخذه وأخاه وجماعة معه، وقيدهم وحملهم معهم في الحديد إلى الحجاج. وكان عبد الرحمان قد قيد مع رجل يقال له أبو العنز، وكان الفصل حاراً فأصعدوهم في الرخج إلى سطح دار، فرمى بنفسه - وصاحبه - من فوق السطح فماتا جميعاً فاحتزوا رأس ابن الأشعث وحمل إلى الحجاج، فحملة الحجاج إلى عبد الملك ٥٨٦ ووجه به عبد الملك إلى أخيه عبد العزيز في مصر وذلك في سنة (٨٣هـ - ٥٨٧).

ص: ٢٩٠

خطبة الحجاج لقتل ابن الأشعث

قال المسعودي: لما قتل ابن الأشعث وأتى برأسه إلى الحجاج، رقى منبر الكوفة (أو الواسط) فحمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله ثم قال: يا أهل العراق، إن الشيطان استبطنكم فخالط منكم اللحم والعظم، والأعضاء والأطراف، وجرى منكم مجرى الدم، وأفضى إلى الأضلاع والأمخاخ، فحشاً ما هناك شقاقاً واختلافاً ونفاقاً، ثم أربع فيه فعشش، وباض فيه وفرخ، فاتخذتموه دليلاً تتابعونه، وقائداً تطاوعونه، ومؤامراً تؤامرونه!

ألستم أصحابي «بالأهواز» حين سعيتم بالغدر بي فاستجمعتم على حيث ظننتم أن الله سيخذل دينه وخلافته؟! واقسم بالله أنني (كنت) لأراكم بطرفي وأنتم تتسللون لواداً منهزمين وسراعا متفرقين، فكل امرئ منكم سيفه على عنقه رعباً وجبناً!

ثم يوم «الزاوية» وما يوم الزاوية (بالبصرة) كان بها فشلكم وتخاذلكم، وبراءة الله منكم، وتوليكم على أكتافكم السيوف هاربين، ونكوص وليكم عنكم، إذ وليتم كالإبل الشوارد إلى أوطانها. لا يسأل الرجل عن بني، ولا يلوى امرؤ على أخيه، حتى عضتكم السلاح وقصفتكم الرماح!

ويوم «دير الجماجم» كانت بها الملاحم والمعارك العظائم!

فما الذي أرجوه منكم يا أهل العراق! أم ما الذي أتوقعه! ولماذا استبقيكم! ولأي شيء أدخركم؟ ألفتجرات بعد الغدرات؟ أم للنزوة بعد النزوات؟ وما الذي أراقب بكم؟ وما الذي انتظر فيكم! إن بعثتم إلى ثغوركم جبنتم! وإن أمنتهم أوقفتم نافقتهم! لا تجزون بحسنة ولا تشكرون نعمة!

يا أهل العراق! هل استنبحكم نابح أو استشلاككم غاوأواستخفكم ناكث أو استنفركم عاص إلا تابعتموه وبايعتموه، وآويتموه وكفيتموه؟!

ص: ٢٩١

يا أهل العراق! هل شغب شاغب أو نعب ناعب أو دبی كاذب إلا كنتم أنصاره وأشياعه؟!

يا أهل العراق! لم تنفعكم التجارب وتحفظكم المواعظ وتعظكم الوقائع، فهل يقع في صدوركم ما أوقع الله بكم عند مصادر الامور ومواردها؟! ثم التفت إلى الشاميين الحاضرين وقال لهم:

يا أهل الشام! أنتم العدّة والعدّة! والجنّة في الحرب، إن نحارب حاربتم أو نجانب جانبتم! وأنا لكم كالظليم الرامح (المدافع) عن فراخه ينفي عنهنّ القذى ويكنفهنّ من المطر ويحفظهنّ من الذئب ويحميهنّ من سائر الدواب! فلا يخلص معه إليهنّ قذى ولا يمسهنّ أذى ولا يفضي إليهنّ ردى! وما أنتم وأهل العراق إلا كما قال نابغة بنى جعدة: و ان تداعيههم حظهم ولم ترزقوه ولم تكذب كقول اليهود: قتلنا المسيحولم يقتلوه ولم يصلب

احتجاج الحجّاج على عبد الملك:

قال المسعودي: ولما أسرف الحجّاج في قتل أسارى «دير الجماجم» (أربعة أو خمسة آلاف) وفي بذل الأموال لرجال القتال، بلغ ذلك عبد الملك، فكتب إليه: أمّا بعد، فقد بلغ أمير المؤمنين سرفك في الدماء وتبذيرك في الأموال، ولا يحتمل أمير المؤمنين هاتين الخصلتين لأحد من الناس! فحكم عليك في الدماء في العمد القود وفي الخطأ الدية! وفي الأموال العمل فيها برأيه! ٥٨٨

فإنما أمير المؤمنين أمين الله! وسيان عنده منع حق وإعطاء باطل ... وظنّ

ص: ٢٩٢

بأمر المؤمنين كلّ شيء إلا احتمالك على الخطأ! وإذا أعطاك (أوأتاك) الظفر على قوم فلا تقتلنّ جانحا ولا أسيرا! (بعد خمسة آلاف أو أربعة)! وختم كتابه بسبعة أبيات من شعره.

فلما قرأ الحجّاج كتابه كتب: أمّا بعد، فقد أتاني كتاب أمير المؤمنين! يذكر فيه سرفي في الدماء وتبذيري الأموال! ولعمري ما بلغت في عقوبة أهل المعصية ما هم أهلها! (بعد أربعة أو خمسة آلاف)! وما قضيت حقّ أهل الطاعة بما استحقّوه! فإن كان قتلى أولئك العصاة سرفاً، وإعطائي أولئك المطيعين تبذيراً فليسوغني أمير المؤمنين ما سلف! ثمّ ليحدّ لي فيه حدّاً أنتهى إليه إن شاء الله تعالى! ولا قوّة إلا بالله! ووالله ما ظلمتهم فأقاد بهم ولا أصبّتهم خطأ فأديهم! ولا قتلت إلا فيك ولا أعطيتهم إلا لك. ثمّ قابله بمثله شعراً.

فلما انتهى كتابه إلى عبد الملك قال: خاف أبو محمد (الحجّاج) صولتي! ولن أعود لشيء يكرهه ٥٨٩!

أمر الحجّاج بإعجام كلام الله

كثر القراء على عهد الحجّاج بالعراق، وكثروا في عسكر عبد الرحمان بن الأشعث، وكثر قتل الحجّاج لأكثرهم، فكان ما قاله أبو أحمد العسكري: كثر التصحيف (في القراءة) وانتشر بالعراق، ففزع الحجّاج بن يوسف إلى كتابه وسألهم أن يضعوا للحروف المشبهة علامات. فيقال: إن نصر بن عاصم الليثي (تلميذ أبي الأسود الدؤلي) قام بذلك، فوضع النقط أفراداً وأزواجاً، وخالف بين أماكنها ٥٩٠.

ص: ٢٩٣

وزاد غيره: يحيى بن يعمر العدواني البصري ٥٩١ وكرهه إبراهيم النخعي وعامر الشعبي ٥٩٢ واستحسنه الحسن البصري ومحمد بن سيرين ٥٩٣ وقالوا: أصلح الحجّاج الرسم القرآني في أحد عشر موضعاً فأصبحت أيسر وأوضح ٥٩٤ ونقل الزركشي عن أحمد بن الحسين: أن الحجّاج بعث فجمع قراء البصرة ثم اختار منهم جماعة ثم أمرهم أن يعدّوا حروف القرآن فعّدوها في أربعة أشهر، ثم ذكر التفاصيل ٥٩٥ ونقل السهمودي عن مالك بن أنس: أن الحجّاج أرسل إلى أمّهات القرى بمصاحف (استكتبها) فمنها إلى المدينة، وكان في صندوق على يمين أسطوانة مقام النبي (ص)، وكان يفتح كلّ خميس وجمعة ٥٩٦ كلّ ذلك عسى ولعلّه يجبر كثرة قتله للقراء! وأكمل الخبر الصادق (ع) قال: كان بين الحائط والمنبر قدر ممر رجل وهو منحرف، فكان يوضع القرآن عند القامة والمنبر، فكان الرجل يأتي فيكتب السورة، ويجيء آخر فيكتب السورة، كذلك كانوا يصنعون، ثم إنهم اشتروا بعد ذلك ٥٩٧.

ص: ٢٩٤

٥٨٩. مروج الذهب ١٣٣: ٣-١٣٥.

٥٩٠. نقلًا عن كتاب التصحيف: ١٣.

٥٩١. مناهل العرفان ٣٩٩: ١، وانظر الشيعة وفنون الإسلام: ٥٦، وتاريخ القرآن: ٩٧، وبحوث في تاريخ القرآن وعلومه: ١٧٠-١٧٥، والتمهيد ٣٠٩: ١، وتلخيصه ١٨٥: ١، وشكّك صبحي في مباحث في علوم القرآن: ٩١-٩٣.

٥٩٢. مناهل العرفان ٤٠٢: ١ عن التبيان للنووي.

٥٩٣. الإتيان ٢٩٠: ٢.

٥٩٤. المصاحف لابن أبي داود، وذكر المواضع.

٥٩٥. البرهان ٢٤٩: ١-٢٥٢.

٥٩٦. وفاء الوفاء ٦٦٧: ٢-٦٦٨ وقال: حتى بعث المهدي العباسي بمصاحف فنحن مصحف الحجّاج.

٥٩٧. وسائل الشيعة ١١٥: ١٢، الباب ٣١، الحديث ٨ و ٩.

ويقترح الحجاج ولاية الوليد

قال ابن قتيبة: لما كانت سنة (٨١ هـ) عقد عبد الملك لموسى بن نصير (المولى الفارسي) على إفريقية وما حولها وضم إليها برقة، ووجهه لقتال من بها من البربر. فلما قدم موسى بن نصير مصر متوجّها إلى برقة والبربر وإفريقية وانتهى ذلك إلى عبد العزيز بن مروان بمصر، ردّ موسى من مصر إلى الشام.

فانصرف موسى بن نصير إلى عبد الملك بالشام فذكر له ما استقبله به أخوه عبد العزيز وما ناله منه من الامتهان! فأجابه عبد الملك: إنّ عبد العزيز صنو أمير المؤمنين وقد أمضينا فعله!

وبعث عبد العزيز بدل موسى بن نصير: قرّة بن حسان التغلبي، فتوجّه قرّة إلى إفريقية فقتل أكثر أصحابه وهزموا. وكان عبد العزيز وليّ العهد لعبد الملك من قبل أبيهما مروان.

وكان الحجاج أراد أن يتزوّف إلى عبد الملك فكتب يقترح عليه أن يكتب لابنه الوليد العهد من بعده وأن يبايع هوله في العراقين! فكتب عبد الملك إلى الحجاج يقول له: ما أنت والتكلّم بهذه الأمور؟!

ثمّ عزم عبد الملك على ذلك فكتب إلى الحجاج بأن يشخص إليه عامر بن شراحيل الشعبي الهمداني! فأشخصه إليه فأنسه وبرّه وأقام عنده أيّاماً ثمّ قال له:

إنّي أأتمنك على شيء لم أأتمن عليه أحداً! إنّ قد بدا لي أن أبايع للوليد بولاية العهد بعدى، فاذهب إلى عبد العزيز وزين له أن يخلع نفسه من ولاية العهد على أن تكون له مصر طعمة!

ص: ٢٩٥

ثمّ نقل اليعقوبي عن الشعبي قال: فذهبت إلى عبد العزيز، فما رأيت ملكاً أسمح أخلاقاً منه! وذات يوم وأنا خال به أحدثه إذ قلت له: أصلح الله الأمير، والله إن رأيت ملكاً أكمل ولا نعمة أنضر ولا عزّاً أتمّ ممّا أنت فيه! ولقد رأيت عبد الملك طويل النصب كثير التعب، قليل الراحة دائم الروعة، هذا إلى ما يتحمّل من أمر الامة! والله لوددت أنّهم أجابوك إلى أن يصيروا مصر طعمة لك ثمّ يصيروا عهدهم لمن أحبوا! فقال: ولكن من لي بذلك؟ فعرفت ما عنده من الموافقة على ذلك.

فانصرفت عائداً إلى أخيه عبد الملك فأخبرته الخبر، فخلع عبد الملك أخاه من ولاية العهد وولاه ابنه الوليد ثمّ سليمان بعده. فقليل: إنّ عبد العزيز سقى سمّاً .. وكان على مصر والمغرب. فجعلهما لابنه الثالث عبد الله بن عبد الملك.

وطلب البيعة للوليد وللسليمان معاً. وكان على المدينة هشام بن إسماعيل المخزومي فطلبها من (ابن عمّه) سعيد بن المسيّب (المخزومي) فأبى أن يجمع بيعتين، فضربه هشام ستين سوطاً وطاف به. فبلغ ذلك عبد الملك فكتب إلى هشام يلومه على ذلك ٥٩٩.

وقال خليفة: بل قال سعيد لهشام: إن أحبّ عبد الملك أن إبايع الوليد فليخلع نفسه! فقال هشام: فادخل من هذا الباب واخرج من آخر ليرى الناس أنّه قد بايع! فأبى وقال: لا يغترّبي أحد! فضربه مائة سوط! فحين بلغ ذلك عبد الملك قال: بئسما صنع هشام! مثل سعيد لا يضرب بالسياط، كان ينبغي أن يضرب عنقه! أو يدعه! وكان ذلك سنة أربع (أو خمس) وثمانين.

وفيها كان أخو عبد الملك: محمد بن مروان ما زال على الموصل والجزيرة وإلى أرمينية، وزحفت الروم إلى أرمينية، فكانه بلغه عنهم أنّهم استقبلوهم مرحّبين، فلمّا هزمهم محمد بعث من موالى عثمان بن عفّان: زياد بن الجراح

ص: ٢٩٦

ومعه جمع، فجمع أهل نخجوان النشوى والبسفرجان في كنائسهم وبيعهم وقراهم وحرقها عليهم! فسميت عندهم سنة الحريق!.

ثمّ ولاها عبد الله بن حاتم الباهلي، فمات، فولّاها أخاه عبد العزيز بن حاتم فبنى مدن النشوى وبرذعة وديبل سنة (٨٥ هـ -).

وخرج من أنطاكية أكثر من ألف إلى طوانة بثغر المصيصة من ثغور الروم، فلقبهم الروم في جموع كثيرة فاصيب نحو من ألف منهم من أهل أنطاكية.

وفي سنة (٨٦ هـ) غزا مسلمة بن عبد الملك بلاد الروم ففتح حصن بولاق وحصن الأخرم قبيل وفاة أبيه.

وفيها في النصف من شوال مات عبد الملك بدمشق وهو ابن ثلاث وستين سنة ٦٠٠.

الفجر الصادق لميلاد الصادق (ع)

مرّت أخبار لحوق محمد بن أبي بكر (التيّمي) بأمر المؤمنين على (ع) حضانه وتربية وتأديبا حتى روى عنه (ع) قال فيه: «محمد ابني من صلب أبي بكر». ومرّ أيضاً خبر لحوق ابنه القاسم النجيب بعمته عائشة وأنها احتضنته حاقدة على معاوية قتله لأخيها محمد.

ومرّ في أخبار إجبار معاوية الجبار لخيار الناس وفيهم عبد الرحمن ابن أبي بكر على البيعة لولايته عهده ليزيد، استنكاف عبد الرحمن من ذلك حتّى مات في ظروف غامضة، وقد صاهره القاسم النجيب ابن أخيه محمد بن أبي بكر، وولد له منها أولاد منهم ابنة له أسماها فاطمة وعرفت بكنيتها أمّ فروة.

وتعلّم القاسم الفقه حتّى عدّ من فقهاء المدينة المعروفين، وعلم ذلك أولاده ومنهم فاطمة. وشابهه القاسم النجيب الفقيه أباه فأصبح من ثقات الإمام

السَّجَّاد (ع) إلى جانب سعيد بن المسيَّب المخزومي وأبي خالد الكابلي كنكر ٦٠١ وفي حدود الثمانين للهجرة تقرَّب الباقر (ع) من صاحب أبيه هذا الفقيه النجيب ليخطب منه ابنته النجبية فاطمة لنفسه مباشرة! فطبيعي أن رجَّح القاسم أن يكون أبوه السَّجَّاد (ع) هو الذي يخطب له ويؤجِّه ٦٠٢ وطبيعي أن السَّجَّاد (ع) باشر ذلك فخطب له منه وزوج به، وأظنَّ أنه إنما قدَّم الباقر (ع) قبله لكي لا يكون يخرجه يومئذ.

وفي اليوم السابع عشر من شهر ربيع الأول ٦٠٣ من سنة (٨٣ هـ - ٦٠٤) ولد له منها ولد ذكر. ولم يكن السَّجَّاد (ع) يجمع لابنه محمَّد بين اسم محمَّد وكنية أبي القاسم، بل كان يكتنيه بأبي جعفر، فسمَّى ابنه هذا كذلك جعفر، وكنَّاه أبا عبد الله، وحديثهم عن أبيه عن جدِّه عن رسول الله (ص) قال: إذا ولد ابني جعفر بن محمَّد بن عليَّ بن الحسين بن عليَّ فسمِّوه الصادق، فإنَّه سيكون في ولده سمي له يدعى الإمامة بغير حقِّها فيسمَّى كذاباً ٦٠٥.

هلاک الملک عبد الملک

جاء في اليعقوبي: روى بعضهم: أن رجلاً قال لسعيد بن المسيَّب: رأيت كأنَّ النبیَّ موسى واقف على ساحل البحر، آخذ برجل رجل يدور كما يدور الغسال الثوب، فدوره ثلاثاً ثمَّ دحا به إلى البحر! فما تفسيره؟ فقال سعيد: إن صدقت رؤياك

٦٠١. أصول الكافي ٤٧٢: ١ عن الصادق (ع) في باب مولده، الحديث الأوَّل.

٦٠٢. قرب الإسناد: ١٥٧، وعنه في قاموس الرجال ٤٩٢: ٨ برقم ٦٠١٦.

٦٠٣. روضة الواعظين: ٢٥٣ وهو أوَّل من عيَّن اليوم والشهر مرسلًا.

٦٠٤. تاريخ أهل البيت عليهم السَّلام: ٨١، وأصول الكافي ٤٧٢: ١.

٦٠٥. علل الشرائع ٢٧٤: ١، الباب ١٦٩، الحديث ١.

وأغرب هنا بعض الغربيِّين فافتري على السَّجَّاد (ع): أنَّ القابلة أخبرته أنَّ للوليد عينين زرقاوين! فتبسَّم الإمام وقال: فهو يشبه عيني والدتي! كما في: الإمام الصادق كما عرفه علماء الغرب: ٧٢ وعنه في أعلام الهداية ٣٩: ٨، فيالها من غواية!

ولم يعلم عن أئمَّة أهل البيت (عليهم السلام) ولا شيعتهم الرواية عن الصادق (ع) أنه قال: ولقد ولدني أبوبكر مرتين! ولا أجد فيما بأيدينا أقدم من رواية الجنابذي البغدادي للخبر مرسلًا أيضاً وعنه الإربلي في كشف الغمَّة ١٦٣: ٣ ويبدو عنه الذهبي في تذكرة الحفاظ ١٦٦: ١ بلفظ: ولدني أبوبكر مرتين! مرسلًا أيضاً.

ولوتنزَّلنا، فعلى فرض التسليم بصدوره عنه (ع) فلعلَّه يعنى الفخر بالانتساب إلى محمَّد ابن أبي بكر لامتناعه عن البيعة لمعاوية حتى قتل، وانتسابه إلى عبد الرحمن بن أبي بكر لامتناعه عن البيعة لولايته عهده حتى مات في ظروف غامضة وقيل: قتل، فراجع الموضوع.

فسيموت عبد الملك إلى ثلاثة أيام! فلم تمض ثلاثة أيام حتى جاء نعيه! فسأل الرجل سعيد: من أين قلت هذا؟ قال: لأن موسى غرق فرعون، ولا أعلم فرعون هذا الوقت إلا عبد الملك ٦٠٦.

قال: وخلف أربعة عشر ذكرا: الوليد وسليمان وعبد الله ومسلمة ومروان ومعاوية ويزيد والحجاج وعنبسة وآخرين. فلما حضرته الوفاة جمعهم وقال للوليد: إذا أنا مت فشمّر وائتزر والبس جلد النمر! ثم ادع الناس إلى بيعتك فمن قال برأسه كذا فقل بالسيف كذا ٦٠٧!

وقال ابن قتيبة: كان مروان قد زوج ابنته فاطمة لابن أخيه عمر بن عبد العزيز وكان يومئذ حاضرا فأوصاه بها وبإبيه الوليد وسليمان - وكان قد عهد إليهما على التوالي - ثم قال لهما قوموا عصمكم الله وكفاكم! فقاموا وخرجوا من عنده، ثم دعا بالوليد وسليمان فقال للوليد: اسمع يا وليد، قد حضر الوداع وذهب الخداع وحلّ القضاء! فبكي الوليد فقال عبد الملك: لا تعصر عينيك على كما

ص: ٢٩٩

تعصر الأُمّة الوكساء ٦٠٨ إذا أنا مت فاغسلني وكفني وصلّ عليّ واسلمني إلى عمر بن عبد العزيز يدلّيني في حفرتي. أمّا أنت فاخرج للناس والبس لهم جلد النمر واقعد على المنبر! وادفع الناس إلى بيعتك، فمن قال بوجهه عنك كذا فقل له بالسيف كذا! وتنكّر للقريب واسمح للبعيد! واوصيك بالحجاج خيرا فإنّه هوالذي وطأ لكم المنابر وكفاكم تقحّم تلك الجرائر! ثمّ مات.

فخرج الوليد إلى الناس وصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثمّ قال: نعمّة ما أجلّها! ومصيبة ما أعظمها! فإنّا لله وإنّا إليه راجعون، فقد الخليفة، ونقلت الخلافة ٦٠٩.

وقال: أيّها الناس؛ عليكم بالطاعة ولزوم الجماعة، فإنّه من أبدى ذات نفسه ضربت الذي فيه عيناه ٦١٠!

ثمّ دعا الناس إلى بيعته، فلم يختلف عليه أحد. ثمّ كتب ببيعته إلى الآفاق والأمصار، وإلى الحجاج بالعراق ٦١١ فنعى إليه أباه عبد الملك ودعاه إلى بيعته.

٦٠٦. تاريخ خليفة: ١٨٣: ١-١٨٥.

٦٠٧. تاريخ يعقوبى ٢٨٠: ٢-٢٨١.

٦٠٨. الوكساء: الخسيّة.

٦٠٩. الإمامة والسياسة ٥٨: ٢.

٦١٠. تاريخ يعقوبى ٢٨٣: ٢.

٦١١. الإمامة والسياسة ٥٨: ٢.

فنادى الحجاج بالصلاة جامعة ثمّ صعد المنبر فذكر عبد الملك وقرّظه ووصف فعله وقال: كان والله البازل الذكّر! رابعا من الولاة الراشدين المهديين (الامويين!) وقد اختار له الله ما عنده! وعهد إلى نظيره في الفضل وشبيهه في الحزم والجلد والقيام بأمر الله! فاسمعوا وأطيعوا! ٦١٢! فبايع الناس ولم يختلف عليه أحد. ثمّ كتب الحجاج إلى الوليد:

ص: ٣٠٠

أمّا بعد، فإنّ الله تعالى استقبلك - يا أمير المؤمنين! - في حادثة سنك بما لا أعلمه استقبل به خليفة قبلك: من التمكين في البلاد والملك للعباد والنصر على الأعداء! فعليك بالإسلام فقوم إوده وشرائعه وحدوده! ودع عنك محبة الناس وسخطهم وبغضهم، فإنهم قلّ ما يؤتى الناس من خير وشرّ إلا أفشوه (أونسوه) في ثلاثة أيام، والسلام.

ودخل سليمان على الوليد وقال له: يا أمير المؤمنين! عزل الحجاج بن يوسف عن العراقين، فإنّ الذي أفسد أكثر مما أصلح! فقال الوليد:

إنّ عبد الملك قد أوصاني به خيرا! فقال سليمان: إنّ عزل الحجاج والانتقام منه من طاعة الله وتركه من معصية الله! فقال الوليد: سنرى وترون إن شاء الله ٦١٣.

ودفن عبد الملك وجاء في وصفه: أنّه كان مربوعاً أسمر قد طولّ لحيته، متيقظاً في سلطانه، حازماً في أمره، لا يكل الأمور في أعدائه وأهل حربه حتّى يباشرها بنفسه، ويخطئ كثيراً ومع ذلك يسلم فتغره السلامة.

واستمرّ في الاعتماد على الكاتب سرجون بن منصور الرومي النصراني كاتب معاوية، ويزيد قبله، ثمّ كتب له عمرو بن الحارث مولى بني عامر ٦١٤ واتخذ الأخطل النصراني شاعرا قال فيه: لكلّ قوم شاعر وشاعر بني أمية الأخطل! ولما أنشده قوله فيهم:

شمس العداوة حتّى يستقاد لهم
وأعظم الناس أحلاماً إذا قدروا!

طرب له وقال لغلامه: يا غلام خذ بيده فألق عليه من الخلع ما يغمره! وأنشده الأخطل في الخمرة:

إذا ما نديمي علّنى ثمّ علّنى
ثلاث زجاجات لهنّ هدير

ص: ٣٠١

٦١٢. تاريخ يعقوبى ٢٨٣: ٢.

٦١٣. الإمامة والسياسة ٥٨: ٢.

٦١٤. التنبيه والإشراف: ٢٧٣. وفي تاريخ خليفة: أن سرجون كان كاتب الخراج وأرزاق الجنود. وخلفه: سليمان بن سعد مولى قضاة: ١٨٩.

خرجت أجرة الذيل تيهًا، كائني

عليك - أمير المؤمنين - أمير ٦١٥

وكان كثيراً ما يجلس بعد أبي الدرداء إلى امرأته أم الدرداء، وكان قد بلغها أنه يشرب فيسكر، فسألته: يا أمير المؤمنين! بلغني أنك شربت الطلاء (الخمير) بعد

العبادة والنسك! قال: إي والله والدماء قد شربتها ٦١٦ وكأنه يشير بذلك إلى يأسه وقنوطه من رحمة الله.

وينو مروان هم أول من ابتدع الأذان لصلاتي الفطر والقربان وهو أول من نقل الديوان من الفارسية إلى العربية بالترجمان ٦١٧ إكمالاً لتعريبه دنانير الرومان.

نقل السيوطي ذلك وقال: لولم يكن من مساوي عبد الملك إلا الحجاج وتوليته إياه على المسلمين وعلى الصحابة يذلهم ويهينهم حبساً وشتماً وضرباً وقتلاً، وقد قتل من الصحابة وأكابر التابعين ما لا يحصى فضلاً عن غيرهم، وختم في عنق أنس وغيره من الصحابة ختما يريد بذلك ذلهم ... فلا رحمه الله ولا عفى عنه ٦١٨.

ولذا قال قبله ابن الوردي بشأن ابن مروان: كان عالماً ديناً حتى تولى! بل نقل فيه عن الحسن البصري قال: ما أقول في رجل الحجاج سيئة من سيئاته ٦١٩!

ص: ٣٠٢

الوليد والمسجد النبوي الشريف

كان الوليد قد صاهر عمه عبد العزيز على ابنته أم البنين ٦٢٠ وقد عهد بدفن أبيه عبد الملك بوصيته إلى ابن عمه عمر بن عبد العزيز هذا وهو صهره على اخته فاطمة بنت عبد الملك ٦٢١ فولاه المدينة بمكان هشام بن إسماعيل المخزومي، وأمره

٦١٥. تاريخ الخلفاء للسيوطي: ٢٦٤.

٦١٦. تاريخ الخلفاء للسيوطي: ٢٦٤.

٦١٧. المصدر نفسه: ٢٦١، وتاريخ خليفة: ١٩٠ وقال: ترجمها سليمان بن سعد مولى قضاة.

٦١٨. تاريخ الخلفاء للسيوطي: ٢٦٢.

٦١٩. تاريخ ابن الوردي ١٧٠: ١.

٦٢٠. مروج الذهب ١٥٨: ٣.

٦٢١. الإمامة والسياسة ٥٧: ٢ - ٥٨.

أن يوقف هشاما لاقتصاص الناس أومقاضاتهم؛ لأنه كان قد جار في أحكامه وأساء السيرة. وأن يضرب البعث للفتوح على أهلها. وأن يهدم حجرات أزواج النبي (ص) وقد مات كلهن، وكذا المنازل حوله فيدخلها في المسجد ويبنيه من جديد.

فحمل عمر ثقله على ثلاثين بعيرا إلى المدينة فدخلها مع دخول سنة (٨٧ هـ-)، فبدأ بإيقاف هشام المخزومي، وكان قد تحامل على آل رسول الله (ص) فكان يقول: ما أخاف إلا على بن الحسين (ع) فمر به وهو موقوف فسلم عليه! فناداه هشام: الله أعلم حيث يجعل رسالته ٦٢٢ فاقتدى به سعيد بن المسيب فلم يعرض له ولا لأحد من أسبائه وحاميته.

وضرب البعث للغزو والفتوح على حاملي السلاح من أهل المدينة فأخرج منهم إلى الشام ألفى رجل.

وصالح الوليد ملك الروم، وكتب إليه يعلمه أنه قد هدم مسجد رسول الله فليعنه فيه. فبعث إليه بمائة ألف مئقال ذهباً وأربعين حملاً فسيفساء! فبعث الوليد بذلك كله إلى عمرو بن عبد العزيز.

ص: ٣٠٣

ولما بدأ بهدم الحجرات (وفيها حجرة عائشة) قام خبيب بن عبد الله بن الزبير (حفيد أختها أسماء) فقال: نشدتك الله يا عمر أن تذهب بآية من كتاب الله يقول: إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ ٦٢٣. فأمر عمر به فضرب مائة سوط ثم نضح عليه بالماء البارد، وكان الفصل بارداً، فمات!

ثم هدم الحجرات والمنازل التي حول المسجد وأدخلها فيه وفرغ من بنائه في سنة (٩٠ هـ-)، فحج الوليد سنة (٩١ هـ-) لينظر إلى المسجد وما اصلح منه، فلما قرب من المدينة جمع عمر أشرفها وخرج فتلقاه بهم، وأخرج من المسجد كل

من كان فيه إلا سعيد بن المسيب. فدخل الوليد وجعل يطوف وسعيد بن المسيب جالس، فقال الوليد لعمر: أحسب أن هذا سعيد بن المسيب؟ قال عمر: نعم، وقد ضعف بصره، كأنه يعتذر له منه، فجاء الوليد حتى وقف عليه بلا سلام وقال له: كيف أنت أيها الشيخ؟ فعرفه وقال: يا أمير المؤمنين نحن بخير وكيف أنت؟ وانصرف الوليد وهو يقول: هذا بقيّة الناس! ثم قسم بين أهل المدينة قسماً كثيرة.

فلما كان يوم الجمعة صفّ الجند في المسجد صفّين وخرج الوليد في درّاعة وقلنسوة بلا عمامة ولا رداء فصعد المنبر وقعد عليه وخطب قاعداً! وتوعّد أهل المدينة فقال لهم: إنكم أهل الخلاف والمعصية!

وكان قد جعل على مكّة خالد بن عبد الله القسري، وكان قد بعث إليه بثلاثين ألف دينار فضربت كصفائح على الأساطين داخل الكعبة وعلى الميزاب والأركان والباب، فكان أول من فعل ذلك. وصار إلى مكّة ففيها أيضاً خطب خطبة بتراء فيها الوعيد والتهديد! وفي عرفات نصب موائد وأطعم الناس ٦٢٤.

ص: ٣٠٤

٦٢٢. الأنعام: ١٢٤.

٦٢٣. الحجرات: ٤.

٦٢٤. تاريخ يعقوبى ٢٨٤: ٢ - ٢٨٥.

وعين ابن الوردى مساحة توسعة مسجد النبى بمائتى ذراع فى مثلها، وأنه ثمن البيوت فوضع أثمانها فى بيت المال، وقدمت الفعلة والصناع لذلك من الشام ٦٢٥.

وكان البدء بذلك فى سنة (٨٧هـ - ٦٢٦). وهدم فيما هدم دار على (ع) الذى كان فى المسجد ٦٢٧.

الوليد ومسجد دمشق

قال اليعقوبى: وابتدأ فى سنة (٨٨هـ -) ببناء مسجد دمشق فأنفق عليه أموالاً عظيمة ٦٢٨ وكان فى محله كنيسة فهدمها ٦٢٩ وهى كنيسة مارى حنا، وكانت قد سلمت للرومان بدمشق لوقوعها فى النصف من دمشق الذى أخذ صلحا، فأدخلها فى جملة الجامع، وجاءه الصناع لعمارتها من بلاد الروم وبلاد الإسلام ٦٣٠ واستبدلوا

ص: ٣٠٥

محل الناقوس بالمئذنة، فهى من أوائل المآذن المبنية فى الإسلام.

وأنفق عليه أربعمئة صندوق من الذهب فى كل صندوق أربعة عشر ألف أو أربعة وعشرون ألف أو ثمانية وعشرون ألف دينار! فلامه الناس عليه فقال: إنما هذا من مالى ٦٣١!

وأمر الوليد أن يكتب بالذهب على اللازورد على حائط المسجد! ربنا الله لا نعبد إلا إياه. أمر ببناء هذا المسجد وهدم الكنيسة التى فيه عبد الله الوليد أمير المؤمنين فى ذى الحجة سنة سبع وثمانين ٦٣٢.

٦٢٥. تاريخ ابن الوردى ١٧٠: ١.

٦٢٦. تاريخ خليفة: ١٩١.

٦٢٧. مناقب آل أبى طالب ٢٤٠: ٢. وقال ابن الفقيه فى مختصر تاريخ البلدان: ١٠٧: خرج الوليد حاجاً فدخل مسجد النبى فرأى فيه بيتاً ضاعناً شارعاً بابه إليه! فسأل عنه ف قيل له: هذا بيت على؟! فصاح يا غلام: اهدمه.

فقيل له: يا أمير المؤمنين لا تفعل حتى تقدم الشام فتخرج أمرك بتوسيع مساجد الأمصار فتبنى بدمشق مسجداً وتبنى مسجد بيت المقدس ومكة والمدينة، فيدخل بيت على فيما يوسع من مسجد المدينة. فقيل ذلك.

وذكر ابن كثير فى البداية والنهاية ٧٤: ٧٦ - ٩: أنه لما علم بذلك أهل المدينة وكان فيهم عشرة فقهاء فأجمعوا على عدم الرضا بذلك! فكتب به ابن عبد العزيز إلى الوليد فأرسل إليه الوليد يأمره بذلك. فلما شرعوا فى الهدم صاح وجوه الناس من بنى هاشم وغيرهم وبكوا كيوم مات فيه رسول الله (ص).

٦٢٨. تاريخ اليعقوبى ٢٨٤: ٢.

٦٢٩. مختصر تاريخ الدول لابن العبرى: ١١٣.

٦٣٠. تاريخ ابن الوردى ١٧١: ١.

٦٣١. انظر الإمام الصادق والمذاهب الأربعة ١٥٧: ١.

وكان مسلمة بن عبد الملك على مكة فصرفه أخوه الوليد إلى غزواروم فغزاهم سنة (٨٧ هـ)؟ فافتتح بلدة قمقم وبجرة الفرسان وبلغ عسكره قلوذى مائلس وسبى منهم وانصرف عنهم. وعاد عليهم في شتاء السنة التالية (٨٨ هـ) ومعه العباس بن أخيه الوليد فرباطا على أنطاكية وشتوا بها، وجمع الروم لهم جمعا كثيرا فزحفوا إليهم، فقاتلوهم وافتتحوا سوسنة وطوانة من ثغور مصيصة، وقيل قتل من الروم خمسون ألفا، وانصرفوا. وفي سنة (٨٩ هـ) غزا مسلمة عمورية فلقى جمعا من الروم فهزمهم. وفي سنة (٩٠ هـ) افتتح خمسة حصون من سورية! وفي (٩١ هـ) عزل الوليد أخاه محمدا عن الجزيرة وأرمينية وأذربايجان وولاهما أخاه مسلمة فغزا أذربايجان ففتح حصونا ومدائن منها حتى بلغ الباب ودان له من وراءها ٦٣٣.

ص: ٣٠٦

وقال اليعقوبي: وفي سنة (٩١ هـ) ولي الوليد موسى بن نصير اللخمي (مولاهم) على بلاد الأندلس ووجهه إليها ومعه مولاه طارق بن زياد ٦٣٤ وقال خليفة: بل في سنة (٨٧ هـ) فأغزى عبد الله بن حذيفة الأزدي إلى سردانية من بلاد المغرب فأصاب سببا وغنم وسلم. وأغزاها ابنه عبد الله فافتتح بلدة قوله ٦٣٥. وفي (٨٩ هـ) أغزاه فغزا ميورقة ومنورقة جزيرتين بين صقلية والأندلس فافتتحهما. وأغزى ابنه مروان السوس الأقصى فافتتحها وبلغ سببها أربعين ألفا ٦٣٦!

وقال اليعقوبي: في سنة (٩١) وجه مولاه طارقا فالتقى الإدريق ملك الأندلس ٦٣٧ وقال المسعودي: عبر طارق إلى الأندلس (من مضيق طارق) وقاتل الأذريق ملك الإشبان الذين كانوا بالأندلس ٦٣٨ وزحف طارق إليه فاقتلوا قتالا شديداً، وفتح الأندلس، ثم خرج موسى إلى البلد فلقية طارق وترضاه فرضى عنه ووجهه إلى مدينة طليطلة من عظام مدائن الأندلس على مسيرة عشرين يوماً! فافتتحها وأصاب فيها مائدة ذهب مفصصة بالجواهر فبعث بها إلى ابن نصير.

وكان قتيبة بن مسلم الباهلي عامل الحجاج الثقفي في الري فكتب الحجاج إليه أن يذهب بمن معه إلى مرو فيقبض على أبناء المهلب بن أبي صفرة الأزدي:

٦٣٢. مروج الذهب ١: ١٥٨، وفيه: وهو مکتوب إلى وقتنا هذا سنة (٣٣٢ هـ).

٦٣٣. تاريخ خليفة: ١١١ و ١٩٢-١٩٣.

٦٣٤. تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٨٥.

٦٣٥. تاريخ خليفة: ١٩٠ و ١٩١.

٦٣٦. المصدر السابق: ١٩٢.

٦٣٧. تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٨٥.

٦٣٨. التنبيه والإشراف: ٢٨٨ والإشبان معرب الإسبان، وصحف في اليعقوبي إلى إصفهان!

يزيد والمفضل وبنى أبيه فيوثقهم ويشخصهم إلى الحجّاج، فقد عزلهم وولاه بدلهم على خراسان. فسار قتيبة بمن معه من الرّى حتّى قدم مرو فأخذ ولد المهلب وأشخصهم إلى الحجّاج، فطالبهم بستّة آلاف ألف درهم (ملايين) وحبسهم في ذلك ٦٣٩ وعذبهم لذلك بأشدّ عذاب، فسألوه أن يدخل إليهم التجار

ص: ٣٠٧

ليبيعوهم أموالهم وضياعهم فيوفّوه ما أراد، فأدخل عليهم التجار، وكانوا قد تقدّموا إلى ذويهم أن يعدّوا لهم طعاماً كثيراً ويدخلوا عليهم النجائب، فركبوها واختلطوا بغمار الناس وخرجوا معهم متنكرين إلى دمشق الشام! فصاروا إلى عبد العزيز بن الوليد فشفع لهم عند أبيه الوليد فآمنهم وأحضرهم وصالحهم على نصف ما أراد الحجّاج: ثلاثة آلاف ألف درهم (ملايين) ٦٤٠.

ثمّ صار قتيبة الباهلي إلى بخارى فافتتحها ومدنا منها معها، وخلف فيها ورقاء بن نصر الباهلي وانصرف عنها، فلمّا انصرف قتيبة تحرّك صاحب السغد طرخون وحاكم بخارى في الأتراك لقتال قتيبة، فوجّه قتيبة حيّان النبطي إليهم فصالحهم. وكان على الطالقان (من خراسان) بادم، وكان قتيبة قد خاف عصيانه وطغيانه فاصطحب معه ابنه وجماعة رهينة، ومع ذلك عصى وتغلّب على البلد وتحصّن به وارتدّ، فلمّا بلغ ذلك إلى قتيبة أمر بقتل الرهائن وصلبهم، ثمّ التقى بادم فقاتله أيّاماً حتّى ظفر به فقتله وولده وامرأته، واستعمل على البلد أخاه عمرو بن مسلم.

وكان يترك خان الترك من طخارستان قد أسلم وتسمّى عبد الله وكان يحضر مع قتيبة في حروبه، فلمّا افتتح قتيبة بخارى والطاقان استأذنه يترك ليرجع إلى بلاده طخارستان فأذن له، فلمّا عاد إليها كاتب الناس وبدأ يجمع الجموع عاصياً، فرحف إليه قتيبة ووجّه إليه قبله سليم الناصح فأعطاه الأمان من قتيبة فخرج إليه فقتله قتيبة وبعث برأسه إلى الحجّاج.

ثمّ سار قتيبة إلى السغد فخرج إليه صاحبهم فصافّه أيّاماً ثمّ هرب فانصرف قتيبة عنهم.

وكتب الحجّاج إليه يأمره أن يصير إلى سجستان فيحارب رتبيل ملك ثغر الهند، وذلك في سنة (٩٢ هـ) فسار حتّى صار إلى زالق وزحف إلى رتبيل، ثمّ

ص: ٣٠٨

بدا له فولّى لذلك عبد ربّه الليثي وانصرف عنه. وكان قد بلغه أنّ سعيد بن ونوفار في خوارزم قد خرج على عامل قتيبة وقتله، فسار قتيبة إلى خوارزم حتّى قدمها وحاصر سعيد بن ونوفار حتّى قتله وسبى مائة ألف! وانصرف بغنائم لم يسمع بمثلها، وأصلح البلاد. واستخلف عليها عبد الله الكرمانى. وأراد جنده أن يرجعوا بما فى أيديهم إلى أوطانهم فلم يأذن لهم قتيبة أن يبرحوا وكان قد بلغه أن غوزك قد قتل طرخون ملك السغد فى سمرقند وتملّك على البلد، فسار بأنصاره إليهم وقاتل غوزك فى حروب شديدة، ثمّ دعاه إلى الصلح فأذعنوا له، واتّخذ غوزك ملك سمرقند لهم طعاماً وكتبوا كتاب الصلح كذا: هذا ما صالح عليه قتيبة ابن مسلم غوزك أخشيد السغد وأفشين سمرقند، على السغد وسمرقند وكشّ ونسف،

صالحه على ثلاثة آلاف درهم يؤدّيها غوزك إلى رأس كل سنة. وجعل له عهد الله وذمته وذمة الأمير الحجاج بن يوسف وأشهد شهودا، وكان ذلك في

سنة (٩٤ هـ) وولّى عليها أخاه عبد الرحمن بن مسلم وخرج منها. فأتاهم ملك الترك خاقان وغدر به أهل سمرقند فكتب بذلك إلى أخيه قتيبة، فتوقّف قتيبة حتّى ينحسر الشتاء ثمّ سار إليه فهزم الأتراك، واستقامت له خراسان ٦٤١.

وفتوح في السند والهند

قال اليعقوبي: وجّه الحجاج محمّد بن القاسم الثقفي سنة (٩٢ هـ) إلى السند، وأمره أن يقيم بشيراز من أرض فارس حتّى يمكن الزمان. فقدم محمّد شيراز وأقام بها ستة أشهر، ثمّ سار في ستّة آلاف فارس إلى مكران فأقام بها نحو شهر،

ص: ٣٠٩

ثمّ زحف إلى قنّبور فحاربهم شهورا حتّى فتحها فغنم وسبى. ثمّ زحف إلى ارمائيل فحاربهم أيّاما حتّى فتحها فأقام بها شهوراً. ثمّ زحف إلى الديبل في خلق عظيم حتّى بلغها وأقام يحاربهم عدّة شهور ثمّ وضع السلالم على سورها وأصعد إليها الرجال حتّى فتحها عنوة، فقتل المقاتلة. وكان لهم بدّ (بت: صنم) يعبدونه طوله أربعون ذراعاً فكسره، ووجد له سبعمائة راتبة لخدمته، وأخذ من ذلك المعبد أموالاً عظيماً. ثمّ سار من الديبل إلى البيرون فصالحهم، ثمّ كتب إلى الحجاج يستأذنه هل يتقدّم؟ فكتب إليه أن سِرْ فأنت أمير على ما فتحته! فمضى محمّد الثقفي لا يمرّ ببلد إلا غلب عليه ولا مدينة إلا فتحها صلحاً أو عنوة، حتّى عبر نهر السند دون شطّ مهران، ثمّ سار إلى سهبان ففتحها، ثمّ سار نحو شطّ مهران، فلمّا بلغ إلى ملك السند داهر مكان الثقفي وجّه إليه جيشاً عظيماً، فلقى ابن القاسم ذلك الجيش فهزمه، فزحف إليه داهر بجمعه وبنفسه فأقام موافقاً له عدّة شهور، ثمّ زحف إليه داهر على فيله واشتدّت الحرب بينهما وأخذت من الفريقين، حتّى عطش فيل داهر فغلب فيّاله فترجّل منه داهر ونزل يقاتل حتّى قتل وانهزم جيشه، وفتح المسلمون، وكتب محمّد إلى الحجاج بالفتح وبعث إليه برأس داهر، وحمل امرأة داهر معه.

ثمّ مضى في بلاد السند ففتح بلداً بلداً ومدينةً مدينةً حتّى أتى الرور أعظم مدائن السند فحاصرها حصاراً شديداً، ثمّ بعث إليهم بامرأة داهر قالت لهم: إنّ الملك قد قتل فاطلبوا الأمان! فطلبوه، ونزلوا على حكمه وفتحوا له باب المدينة، فدخلها، ثمّ استخلف عليها ومضى يقطع سائر البلاد ويفتح مدينةً مدينةً. وكتب الحجاج إليه: إنّى كنت قد ضمنت لأمر المؤمنين الوليد أن أردّ إلى بيت المال ما أنفقت لهذا الغزواً فخرجنى من ضمانى! فحمل إليه أكثر ممّا أنفق. وأقام بالسند حتّى هلك الحجاج والوليد ٦٤٢.

ص: ٣١٠

وتقل خليفة عن أبى عبيدة قال: ولّى الحجاج محمّداً الثقفي وهو ابن سبع عشرة سنة! ولذا قال الشاعر:

٦٤١. تاريخ اليعقوبى ٢٨٥: ٢-٢٨٧.

٦٤٢. تاريخ اليعقوبى ٢٨٨: ٢-٢٨٩.

وروى أن داهر داهمهم ذات ليلة فقاتلوه فقتلوه وهزم أصحابه فأتبعهم محمد حتى أتى مدينة براهما فحاصرها حتى فتحها، ثم سار إلى الكيرج فافتتحها سنة (٩٣ هـ) وفي سنة (٩٥ هـ) افتتح مدينة المولتان ٦٤٤.

ونقل عن عوانة بن الحكم قال: في المحرم سنة (٩٣ هـ) غزا موسى بن نصير اللخمي (مولاهم) مدينة طنجة على البحر فافتتحها. ثم عبر البحر لا يأتي على مدينة حتى ينزلوا على حكمه أو يفتحها عنوة، حتى سار إلى قرطبة (كارتوبا) ثم أتجه غربا فافتتح بلدة باجة على البحر، ثم افتتح مدينة البيضاء، ثم وجه الجيوش فجعلوا يفتحون ويغنمون!

وفي سنة (٩٤) بعث موسى بن نصير بالخمسة من الأندلس إلى الوليد وقدم إليه بما معه من التيجان والأموال يخبره بما فتح الله عليه. وفي سنة (٩٥) استخلف ابنه عبد الله بن موسى على إفريقية وقفل منها يحمل الأموال ومعه ثلاثون ألف رأس! إلى الوليد ٦٤٥.

قال: وفي سنة (٩٣ هـ) كان أنس بن مالك الأنصاري النجاري قد بلغ مائة سنة وثلاث سنين فتوفي ٦٤٦، فكان آخر الأنصار بل الصحابة موتاً.

ص: ٣١١

ونطق الفرزدق بالحق

روى الكشي عن العياشي عن الغلابي البصري عن ابن عائشة عن أبيه محمد ابن عائشة: أن هشام بن عبد الملك حج في خلافة أبيه وأخيه الوليد، فطاف بالبيت وأراد أن يستلم الحجر الأسود فلم يقدر عليه من الزحام، فنصب له منبر فجلس عليه وأطاف به أهل الشام ومعهم الفرزدق الشاعر. فبينما هو كذلك إذ أقبل على بن الحسين (ع) وعليه إزار ورداء، وهو من أحسن الناس وجهاً وأطيبهم رائحة، بين عينيه سجادة كأنها ركة عز! فجعل يطوف بالبيت فإذا بلغ إلى موضع الحجر تنحى الناس عنه حتى يستلم! هيبه منه وإجلاله له!

٦٤٣. ونقله اليعقوبي: لخمسة عشرة حجة!

٦٤٤. تاريخ خليفة: ١٩٣-١٩٥.

٦٤٥. المصدر السابق: ١٩٥-١٩٦ فهل كان ذلك مرتين؟!

٦٤٦. المصدر السابق: ١٩٤.

فقال رجل من أهل الشام لهشام: يا هشام! من هذا الذى قد هابه الناس هذه الهيبة وأفرجوا له عن الحجر؟ وقد عرفه هشام ولكنه قال: لا أعرفه! مخافة أن يرغب فيه أهل الشام! وكان الفرزدق همّام بن غالب البصرى حاضراً فقال: لكننى أعرفه! فالتفت إليه الشامى وقال له: من هويا أبا فراس! فأنشأ يقول:

ص: ٣١٢

هذا الذى تعرف البطحاء وطأته	والبيت يعرفه والحلّ والحرم
هذا ابن خير عباد الله كلّهم	هذا التقى النقى الطاهر العلم
هذا علىّ، رسول الله والده	أمست بنور هداه تهتدى الامم
إذا رآته قريش قال قائلها	إلى مكارم هذا ينتهى الكرم
ينمى إلى ذروة العزّ التى قصرت	عن نيلها عرب الإسلام والعجم
يكاد يمسكه عرفان راحته	ركن الحطيم إذا ما جاء يستلم
يغضى حياء ويغضى من مهابتة	فما يكلم إلا حين يبتسم
ينجاب نور الهدى عن نور غرته	كالشمس ينجاب عن إشراقها الظلم
هذا ابن فاطمة إن كنت جاهله	بجده أنبياء الله قد ختموا ٦٤٧

قال: فغضب هشام وأمر بحبس الفرزدق، فحبس فى عسفان بين مكّة والمدينة، فجعل الفرزدق يهجو هشاماً ومما هجاه به قوله:

أحسبني بين المدينة والنبي	إليها قلوب الناس يهوى منيها
يقلّب رأساً لم يكن رأس سيّد	وعيناً له حواء باد عيوبها

وبعث إليه علىّ بن الحسين (ع) باثني عشر ألف درهم وقال له: أعذرنا يا أبا فراس، فلو كان عندنا أكثر من هذا لوصلناك به! فردّها وقال: يا بن رسول الله! ما قلت الذى قلت إلا غضباً لله ولرسوله! وما كنت لأقبل عليه أجراً! فردّها علىّ بن

الحسين (ع) وقال له: بحقّي عليك لما قبلتها! فقد رأى الله مكانك وعلم نيتك! فقبلها الفرزدق. ولما بلغ هشاماً أن الفرزدق يهجوّه بعث إليه فأخرجه ٦٤٨ خوف الفضيحة، ولم يكن خليفة ولا ولياً للعهد ليتمكن أن يفتك به، ولعلّ الفرزدق وافق هوى في ذلك للخليفة الوليد فتجراً على أخيه هشام.

وكأنّه بلغ الوليد أن كثيراً من الحجاج الذين لم يكثرثوا لهشام ولكنّهم انفرجوا للسجّاد (ع) إكراماً هم من العراقيين الفارين من جور الحجاج، فكتب يعقوبى: أن الوليد كتب إلى عامله على الحجاز خالد بن عبد الله القسرى بأمره بإخراج من بالحجاز من أهل العراق وحملهم إلى الحجاج بن يوسف! فنادى مناديه بمكّة والمدينة - وأكثرهم بها -: ألا برئت الذمّة ممن آوى عراقياً! ثمّ بعث

ص: ٣١٣

خالد إلى المدينة عثمان بن حيّان المرّى لإخراج من بها من أهل العراقيين! وكان جماعاتهم يجتمعون في الجوامع فأخرجهم جميعاً إلى الحجاج ولم يترك تاجراً ولا غير تاجر، وكان لا يبلغه أن أحداً منهم في دار أحد بالمدينة إلا أخرجه ٦٤٩.

وكأنّ هذا الأمر عمّ العراقيين وخصّ منهم التابعي الجليل سعيد بن جبيرة مولى بنى والبة من أسد الكوفة ٦٥٠، وقد نصّ الصادق (ع) على أنه كان مستقيماً وكان يأتّم بعلى بن الحسين (ع). وكان علىّ يثنى عليه ٦٥١ وكان سعيد آخر من قتله الحجاج ثمّ هلك، فإلى خبره.

مقتل سعيد بن جبيرة مولى بنى أسد

بلغ (الوليد بن) عبد الملك ٦٥٢ أن سعيد بن جبيرة قد لجأ إلى مكّة، فولّى عليها خالد ابن عبد الله القسرى بكتاب قرأه عليهم فيه: إلى أهل مكّة! أمّا بعد، فإنّي قد وليت عليكم خالد بن عبد الله القسرى فاسمعوا له وأطيعوا، ولا يجعلنّ امرؤ على نفسه سبيلاً، فإنّما هو القتل لا غير، وقد برئت الذمّة من رجل آوى سعيد بن جبيرة، والسلام!

ثمّ التفت خالد إليهم وقال: والذي نحلف به ونحجّ إليه! لا أجده في دار أحد إلا قتلته وهدمت داره ودار كلّ من جاوره واستبحت حرمة! وقد أجلتكم فيه ثلاثة أيّام! ثمّ نزل.

٦٤٨. اختيار معرفة الرجال: ١٢٩-١٣٢، الحديث ٢٠٧، ونشرت في ديوانه ١٧٨: ٢، وبعد عشر سنين في (١٠٥) تولّى هشام فمدحه الفرزدق بأكثر من عشرة قصائد هي في ديوانه مع قصائد عديدة في مدح آبائه حتّى معاوية والحجاج! فهو شاعرهم. ولعلّ الإمام السجّاد جاد عليه ليقرّبه إليه ويبعده عنهم فلم يبتعد، والله أعلم بمآله. نعم، لا ينكر تشييعه في باطن أمره لآل البيت، ومنه تعلّم التشييع لهم ابن اخته الكميت بن زيد الأسدي البصري (رحمه الله).

٦٤٩. تاريخ يعقوبى ٣٩٠: ٢ وكأنّه انفرد بهذا الحدث العظيم!

٦٥٠. المعارف: ٤٤٥، والتنبيه والإشراف: ٢٧٤ وقال: كان أسود، ومناقب الحلبي ١٩٠: ٤.

٦٥١. اختيار معرفة الرجال: ١١٩، الحديث ١٩٠.

٦٥٢. الخبر في الإمامة والسياسة ٥١: ٢: عبد الملك، وأثبتنا الصحيح.

فأخبره رجل أن سعيد بن جبير بواد من أودية مكة بمكان كذا مختفياً.

ص: ٣١٤

فأرسل خالد في طلبه. فأتاه الرسول ولكنه قال له: إنما امرت بأخذك ولكني أعوذ بالله من ذلك فالحق بأي بلد شئت وأنا معك! قال ابن جبير: ألك أهل وولد هنا؟ قال: نعم. قال: فإنهم يؤخذون وينالهم مثل ما ينالني! قال: فإنني أكلهم إلى الله! قال سعيد: لا يكون هذا! فأتى به إلى خالد، فشده وثاقاً وبعث به إلى الحجاج، كذا أمره ابن مروان.

وكان معه جند من الشام فقال له أحدهم: إن الحجاج قد أئذر به وأشعر قبلك فما عرض له، فلوجعلته فيما بينك وبين الله (?) لكان أزكى من كل عمل يتقرب به إلى الله!

وكان خالد حينها مسنداً ظهره إلى الكعبة فقال: والله لو علمت أن (الوليد بن) عبد الملك لا يرضى عني إلا بنقض هذا البيت حجراً حجراً لنقضته لمرضاته!

فلما قدموا بسعيد على الحجاج سأله: ما اسمك؟ قال: سعيد. قال: ابن من؟ قال: ابن جبير. قال: بل أنت شقي بن كسير! قال: أمي أعلم باسمي واسم أبي. قال: شقيت وشقيت أمك! قال سعيد: الغيب يعلمه غيرك! قال الحجاج:

لاوردنك حياض الموت! قال سعيد: إذن أصابت أمي في اسمي! قال الحجاج:

لابدلنك بالدنيا ناراً تلظي! قال سعيد: ولو أنني أعلم أن ذلك بيدك لاتخذتكم إلهاً! قال: الحجاج: فما قولك في محمد؟ قال سعيد: نبي الرحمة ورسول رب العالمين إلى الناس كافة بالموعظة الحسنة! فقال الحجاج: فما قولك في الخلفاء؟ قال سعيد: لست عليهم بوكيل كل أمرئ بما كسب رهين ٦٥٣ قال الحجاج: أشتمهم أم أمدحهم؟ قال سعيد: لا أقول إلا ما أعلم، إنما استحفظت أمر نفسي. قال الحجاج: أيهم أعجب إليك؟ قال: يفضل بعضهم على بعض، قال: صف لي

ص: ٣١٥

قولك في علي! أفي الجنة هوأم في النار؟ قال سعيد: لودخلت الجنة فرأيت أهلها علمت، ولورأيت من في النار علمت، فما سؤالك عن غيب قد حفظ بالحجاب! قال الحجاج: فأى رجل أنا يوم القيامة؟! قال سعيد: أنا أهون على الله من أن يطلعني على الغيب! قال: أبيت أن تصدقني! قال سعيد: بل لم أرد أن اكذبك! قال الحجاج: فدع عنك هذا كله، وأخبرني ما لك لم تضحك قط؟ قال: وكيف يضحك مخلوق من طين والطين تأكله النار ومنقلبه إلى الجزاء، واليوم يصبح ويمسي في الابتلاء! قال الحجاج: فأنا أضحك. قال سعيد: كذلك خلقنا الله أطواراً! قال الحجاج: هل رأيت شيئاً من الله؟ قال: لا أعلمه. فدعا الحجاج بالعود والنأى وأمر بضربهما، فلما ضرب بالعود ونفخ في النأى بكى! قال: ما يبكيك؟ قال: أما هذه النفخة فذكرتني يوم النفخة في الصور! وأما هذه المصراة فمن نفس هي معك إلى الحساب، وأما هذا العود فقد نبت بالحق وقطع لغير الحق! فقال الحجاج: أنا قاتلك! قال سعيد: قد فرغ من تسبب موتي. قال الحجاج: أنا أحب إلى الله منك! قال سعيد: لا يقدم أحد على ربه حتى يعرف منزلته منه، والله أعلم بالغيب. قال الحجاج: كيف لا أقدم على ربي في مقامى هذا وأنا مع إمام الجماعة وأنت مع إمام الفرقة والفتنة؟! قال سعيد: ما أنا بخارج عن الجماعة ولا أنا براض بالفتنة، ولكن قضاء الرب نافذ لا مرد له.

قال الحجاج: كيف ترى ما نجتمع لأمر المؤمنين؟ ودعا بذهب وفضة وجواهر وكسوة!

فقال سعيد: هذا حسن إن قمت بشرطه! قال: وما شرطه؟ قال: أن تشتري له بما تجمع من هذا الأمن من الفزع الأكبر يوم القيامة! وإلا فإن كل مرضعة تذهل عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها، ولا ينفعه إلا ما طاب منه. قال:

فترى جمعنا طيباً؟ قال: برأيك جمعته فأنت أعلم بطيبه. قال: أتحب أن يكون لك شيء منه؟ قال: لا أحب ما لا يحب الله! قال: ويلك! قال: الويل لمن زحزح عن الجنة وادخل النار! قال: فاقتلوه!

ص: ٣١٦

فقال له: يا حجاج! فإنني أشهدك أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، أستحفظكهن حتى ألقاك يا حجاج. فأخذه فلماً أدير سمع يضحك فقال الحجاج: ما يضحكك يا سعيد؟ قال: عجبت من جرأتك على الله وحلم الله عليك! قال الحجاج: إنما أقتل من شق عصا الجماعة ومال إلى الفرقة التي نهى الله عنها. اضربوا عنقه.

فقال سعيد: حتى أصلي ركعتين فلما استقبل القبلة قال الحجاج: اصرفوه عن القبلة إلى قبلة النصارى الذين تفرقوا واختلفوا بغيا بينهم فإنه من حزبهم! فصرفوه عن القبلة فتلا: فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ٦٥٤ الكافي بالسرائر. فقال الحجاج: لم نوكل بالسرائر وإنما وكلنا بالظواهر. قال سعيد: اللهم لا تترك له ظلمي واطلبه بدمي واجعلني آخر قتيل يقتله من أمة محمد! فقال الحجاج: لا أخاف إلا دعاء من هو في ذمة الجماعة من المظلومين، فأما أمثال هؤلاء فإنهم ظالمون حين خرجوا عن جمهور المسلمين! فقتلوه. فقيل: لم يفرغ من قتله حتى خوط في عقله فجعل يصيح: قيودنا قيودنا ٦٥٥!

ولما ضربت عنق سعيد سقط رأسه يتدحرج على الأرض ويسمع منه: لا إله إلا الله، ولم يزل كذلك حتى أمر الحجاج بعض رجاله أن يضع رجله على فيه! ففعل فسكت.

وروى في محاجة الحجاج إياه قال له: قدمت الكوفة فجعلتك إماماً! وليس يوم بها إلا عربي! ثم إنني وليتك القضاء فضج أهل الكوفة وقالوا: لا يصلح القضاء إلا لعربي! فاستقضيت أبا بردة (بن أبي موسى الأشعري) وأمرته ألا يقطع أمراً دونك! وجعلتك من سمّاري! فما أخرجك علي؟! والله لأقتلنك! وقتله

ص: ٣١٧

وله ابنان: عبد الله وعبد الملك! وله تسع وأربعون سنة في سنة أربع وتسعين ٦٥٦.

وكذلك ذكره أبو نعيم وقال: كان ذلك في شعبان ٦٥٧ في بلدة واسط ودفن بظهرها وقبره بها معلوم معروف، وهلك الحجاج بعده بستة أشهر ٦٥٨ في سنة (٩٥ هـ) وله أربع وخمسون سنة، على رأس عشرين عاماً من إمرته على العراقيين ٦٥٩ وقال المسعودي: كان في شهر رمضان قبل موت الوليد بتسعة أشهر ٦٦٠ وقبل قتل سعيد قتل كميل بن زياد، فنذكره هنا.

٦٥٤. البقرة: ١١٥.

٦٥٥. الإمامة والسياسة ٥١: ٢-٥٤.

٦٥٦. المعارف: ٤٤٥-٤٤٦.

قتل كميل بن زياد النخعي

كان كميل بن زياد النخعي من القراء الذين شاركوا في خروج عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث الكندي على الحجاج وبنى أُميَّة في وقعة دير الجماجم ٦٦١ وكان قد بلغ الحجاج أن كميلاً كان ممّن شارك في الثورة على عثمان، فأمر بطلبه فهرب منه مختبئاً في قومه، فحرم قومه النخع عطاءهم، فلمّا رأى كميل ذلك قال لهم: أنا شيخ كبير قد نفذ عمري فلا ينبغي أن أحرّم قومي عطياتهم.

فخرج وأسلم بيده للحجاج، فلمّا رآه قال له: لقد كنت أحبّ أن أجِدَ عليك سبيلاً! فقال له كميل:

ص: ٣١٨

لا تصرف عليّ أنيابك ولا تهدّم عليّ، فوالله ما بقي من عمري إلا مثل كواسل الغبار، فاقض ما أنت قاض، فإن الموعد الله، وبعد القتل الحساب! ولقد خبرني أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب (ع) أنّك قاتلي! فقال له الحجاج: الحجة عليك إذن! فقال كميل: ذاك إن كان القضاء إليك ٦٦٢.

فقال له الحجاج: أنت الذي فعلت بعثمان كذا؟! فقال كميل: لا تكثر عليّ اللوم ولا تهل عليّ الكتيب، وما ذاك؟ رجل لطمني فأنفذ صبري وعفوت عنه،

فأينا كان المسيء؟ فأمر به فضربت عنقه ٦٦٣ بالكوفة، ودفن بالتوبة بظهر الكوفة إلى النجف، وقبره بها معلوم معروف مشهور.

هلاک الحجاج

قال المسعودي: بلغ عدد من قتله الحجاج صبرا في غير حروبه: مائة وعشرين ألفاً؛ منهم كميل بن زياد النخعي صاحب عليّ بن أبي طالب (ع) وسعيد بن جببر صاحب عبد الله بن العباس، مولى لبنى والبة من أسد الكوفة.

٦٥٧. أخبار إصبهان ٣٢٤: ١.

٦٥٨. قاموس الرجال ٨٦: ٥.

٦٥٩. تاريخ يعقوبى ٢٩٠: ٢.

٦٦٠. التنبيه والإشراف: ٢٧٤.

٦٦١. قاموس الرجال ٦٠١: ٨ عن ذيل الطبرى.

٦٦٢. الإرشاد ٣٢٧: ١، وفي الإصابة ٣١٨: ٣.

٦٦٣. قاموس الرجال ٦٠١: ٨ عن ذيل الطبرى.

وتوفى الحجاج وفي محبسه خمسون ألف رجل، وثلاثون ألف امرأة! وكان حبسه لا يكتفهم من برد ولا حرّ، ويسقون الماء مشوباً بالرماد!

وكان قد تولّى العراق وخارجها مائة ألف ألف (مليون) درهم، فلم يزل بعنته وسوء سياسته حتّى صار خراجها خمسة وعشرين ألف ألف (مليون) درهم، أى ربع ما كان من قبل ٦٦٤.

وقال ابن العبري: وكان الحجاج مبتلى بأكل الطين! وكان له طبيبان

ص: ٣١٩

نصرانيان: يتاذق، وثاودون، فدخل هذا الثاني عليه يوماً فقال له: ما دواء أكل الطين؟ قال: أيها الأمير عزيمة مثلك! فلم يعد إليها بعدها.

وذكروا أنّه أخذ السِّلَّ فهجره النوم فأحضر منجماً فسأله: هل ترى ملكاً يموت؟ قال: نعم أرى ملكاً يموت ولكن اسمه كليب! فقال: بذلك سمّيتني أمي! قال المنجم: كذلك تدل عليه النجوم! قال الحجاج: فلا قدمك أمامي! ثمّ أمر به فضربت عنقه! ثمّ مات الحجاج ٦٦٥.

وقال ابن الوردي: كان الحجاج أخفش فصيحاً رقيق الصوت! وقال عمر بن عبد العزيز: لوجاءت كلّ أمّة بمنافقيها وجئنا بالحجاج لفضلناهم ٦٦٦!

وكان الحجاج يستخلف على عمله يزيد بن أبي مسلم، فأقرّه الوليد بن عبد الملك على ذلك ٦٦٧.

ص: ٣٢٠

وفاء الإمام السّجّاد (ع)

مرّ الخبر عن عدم اكتراث الحجاج بهشام وانفراجهم للإمام السّجّاد (ع)، وأنّ كثيراً منهم كان من حجاج العراق الفارّين من الحجاج، وأنّ الوليد أمر بردّهم إليه عموماً وخصّ منهم سعيد بن جببر، وجاء فيه عن الصادق (ع) قال: كان يأتّم بعلى بن الحسين (ع) وما كان سبب قتل الحجاج له إلا على هذا الأمر ٦٦٨!

٦٦٤. التنبيه والإشراف: ٢٧٤-٢٧٥، والأخير في تاريخ اليعقوبي ٢٩١: ٢.

٦٦٥. تاريخ مختصر الدول لابن العبري: ١١٣، وتنسب قصّة أكله الطين إلى المأمون مع الرضا (ع)، خطأ.

٦٦٦. ابن الوردي ١٧١: ١.

٦٦٧. تاريخ اليعقوبي ٢٩٠: ٢.

٦٦٨. اختيار معرفة الرجال: ١١٩، الحديث ١٩٠.

والحجاج إنما قتله بإرسال الوليد إياه إليه لذلك كما مرّ خبره، فلو كان قتله لا لائتمامه بعلي بن الحسين (ع)، فلا بعد فيما جاء أن الوليد سمّ الإمام (ع) ٦٦٩.

ولم يأت فيما رواه الكليني عن الحميري بسنده عن الصادق (ع) قال:

عاش علي بن الحسين بعد الحسين عليهما السلام خمسا وثلاثين سنة، وقبض وهوابن سبع وخمسين سنة في عام خمس وتسعين ٦٧٠.

وقال المسعودي: في سنة (٩٥ هـ) قبض علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، في ملك الوليد .. وهوابن سبع وخمسين سنة، وهوالسجاد وذوالثفتان وزين العابدين، ودفن بالمدينة في بقيع الغرقد مع عمّه الحسن بن علي. وكلّ عقب الحسين من عليّ هذا ٦٧١.

وقال ابن الوردي: في سنة (٩٤ هـ) وقيل (٩٥ هـ) توفّي علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب. الذي سلم من القتل؛ لأنّه كان مريضا على الفراش (لا

ص: ٣٢١

لصغره) وكان كثير العبادة، ولهذا سمّي زين العابدين. توفّي في المدينة ودفن بالبقيع، وعمره ثمان وخمسون سنة ٦٧٢.

وصاياها الأخيرة وصدقة السرّ

روى ابن الصبّاح المالكي قال: دخل جماعة على علي بن الحسين (ع) عائدين له، فقالوا له: كيف أصبحت يا ابن رسول الله فدتك أنفسنا؟ قال: في عافية، والله المحمود على ذلك. ثمّ قال لهم: كيف أصبحتم أنتم جميعاً؟ قالوا:

أصبحنا والله يا ابن رسول الله لك وادّين محبين. فقال: من أحبنا لله تعالى أدخله الله ظلّا ظليلاً يوم لا ظلّ إلا ظله، ومن أحبنا يريد مكافأتنا كافأه الله عنا بالجنة، ومن أحبنا لغرض دنيا آتاه الله رزقه من حيث لا يحتسب ٦٧٣.

وروى الخزّاز في «كفاية الأثر»: أنّه (ع) في أيام مرضه جمع أولاده محمّداً والحسن وعبد الله وزيدا والحسين، وقال لأبي جعفر الباقر (ع): يا بُنَيَّ، العقل رائد الروح، والعلم رائد العقل، والعقل ترجمان العلم. واعلم أنّ العلم أبقي، واللسان أكثر هذراً، وأنّ صلاح الدنيا بحذافيرها في كلمتين بهما إصلاح شأن المعاش: ملء مكبال: ثلثاه فطنة وثلثه تغافل؛ لأنّ الإنسان

٦٦٩. عن الصدوق في مناقب الحلبي ١٨٩: ٤، وفي دلائل الإمامة: ٨٠.

٦٧٠. أصول الكافي ٤٦٨: ١، الباب ١١٧، الحديث ٦.

٦٧١. مروج الذهب ١٦٠: ٣. فهو مصداق وعد الله إنا أعطيناك الكوثر.

٦٧٢. تاريخ ابن الوردي ١٧١: ١. وراجع حوادث عصر عاشوراء فهناك المزيد.

٦٧٣. الفصول المهمة: ٢١٨.

لا يتغافل عن شيء قد عرفه ففطن له. واعلم أن الساعات تذهب عمرك، وأنك لا تنال نعمة إلا بفراق أخرى. وإياك والأمل الطويل، فكم من مؤمل أملا لا يبلغه، وجامع مال لا يأكله، ومانع ما سوف يتركه، ولعلّه من باطل جمعه، ومن حقّ منعه، أصابه حراما وورثته واحتمل إصره وباء بوزره، ذلك هو الخسران المبين. ثم أوصى بالإمامة إليه ٦٧٤.

ص: ٣٢٢

وروى الكليني بسنده قال: التفت عليّ بن الحسين (ع) وهو في الموت إلى ولده وهم مجتمعون عنده، وكان قد أخرج قبل ذلك صندوقاً عنده، فالتفت إلى محمد ابنه وقال له: يا محمد احمل هذا الصندوق واذهب به إلى بيتك. فحمل بين أربعة ٦٧٥.

وروى بسنده عن الصادق (ع) قال: لما كانت الليلة التي وعد فيها عليّ بن الحسين (عليهما السلام) قال لأبي: يا بُنى أبغنى وضوءاً (ماء للوضوء) قال أبي: فقممت فجئته بوضوء، فقال: إن فيه شيئاً ميتاً! قال: فخرجت فجئت بالمصباح فإذا فيه فأره ميتة! فجئته بوضوء غيره، فقال: يا بُنى هذه الليلة التي وعدتها.

وروى بسنده عن الكاظم (ع) قال: إن عليّ بن الحسين (عليهما السلام) لما حضرته الوفاة اغمى عليه ثم فتح عينيه وقرأ: إذا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ وَ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ ثُمَّ تَلَا: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَهُ وَ أَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَّبِعُ مِنْ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ٦٧٦ ثم لم يقل شيئاً حتى قبض من ساعته.

وفي آخر الخبر السابق قال: لما مات عليّ بن الحسين عليهما السلام فقد ناس من كان يخرج إليهم في الليلة الظلماء يحمل جراباً فيه صرر فيها دراهم ودنانير، حتى يأتي باباً باباً فيقرعه ثم ينيل من يخرج إليه، فلما مات عليّ بن الحسين علموا أن علياً (ع) كان يفعل ٦٧٧.

ص: ٣٢٣

وتقله الحلبي فلم يذكر صرار الدرهم والدينار وزاد: وكان إذا ناول فقيراً غطى وجهه لئلا يعرفه. وأضاف: وفي خبر: أنه كان إذا جنّ الليل وهدأت العيون قام فجمع ما بقى في منزله من قوت أهله وجعله في جراب وحمله على عاتقه، وخرج إلى دور الفقراء وهو متلثم، فيفرق عليهم. وكثيراً ما كانوا قياماً على أبوابهم ينتظرونه فإذا رأوه تباشروا وقالوا: جاء صاحب الجراب!

٦٧٤. كفاية الأثر للخزّاز القمي: ٣١٩.

٦٧٥. أصول الكافي ٣٠٥: ١، الحديث ١ و ٢، الباب ٦٩ في النص والإشارة على أبي جعفر الباقر (ع)، وفي آخر الخبر: فلما توفي جاء إخوة الباقر إليه وقالوا له: أعطنا نصيبنا ممّا في الصندوق! فقال: لو كان لكم فيه شيء ما دفعه إليّ. ثم قال الباقر (ع): وكان في الصندوق سلاح رسول الله وكتبه. وفي الخبر الثاني: أما إنه لم يكن فيه دينار ولا درهم، ولكن كان مملوءاً علماً.

٦٧٦. الزمر: ٧٤.

٦٧٧. أصول الكافي ٤٦٨: ١، الحديث ٤ و ٥ وذيل ٤ الباب ١١٧ مولد عليّ بن الحسين.

ونحوه الصدوق في علل الشرائع ٢٧١: ١، الحديث ٨، الباب ١٦٥ عن أبي حمزة الثمالي.

وروى عنه (ع) أيضاً قال: إنه كان يعول مائة بيت من فقراء المدينة. وكان يعجبه أن يحضر طعامه الأضرأ والزمنى واليتامى والمساكين الذين لا حيلة لهم، وكان يناولهم بيده، ومن كان منهم له عيال حمّله إلى عياله من طعامه، وقد قاسم الله ماله مرتين ٦٧٨.

وفى حملة الطعام إلى دور الأيتام نقل الصدوق بسنده عن سفيان بن عيينة عن الزهري أنه رأى علي بن الحسين فى ليلة باردة مطيرة وعلى ظهره دقيق وحطب! فسأله: يابن رسول الله ما هذا؟ قال: أريد سفرا أعدّ له زادا أحمله إلى موضع حريز! وكان مع الزهري غلامه فقال: هذا غلامى يحمله عنك. فأبى. فقال الزهري: فأنا أحمله عنك فأنى أرفعك (أجلك) عن حملة. فقال علي بن الحسين: لكننى لا أرفع نفسى عما ينجينى فى سفرى ويحسن ورودى على ما أرد عليه، أسألك بحق الله لما مضيت لحاجتك وتركنتى. فانصرف الزهري عنه، وبعد أيام سأله: يابن رسول الله لست أرى لذلك السفر الذى ذكرته أثراً! قال: يا زهري، ليس ما ظننته، ولكنه الموت وكنت أستعدّ له، والاستعداد للموت تجنّب الحرام وبذل الخير والندى.

فلما مات ووضّع على السرير ليغسل شوهد ظهره وعليه مثل ركب الإبل ممّا كان يحمل على ظهره إلى منازل الفقراء والمساكين ٦٧٩.

ص: ٣٢٤

ونقله الحلبي وفصله عن أبي نعيم عن عمرو بن ثابت قال: لما مات علي بن الحسين فغسلوه جعلوا ينظرون إلى آثار سواد فى ظهره فسألوا: ما هذا؟

ف قيل: إنه كان يحمل أجربة الدقيق على ظهره ليلا يعطيها فقراء المدينة.

وزاد عن الزهري قال: لما مات زين العابدين (ع) فغسلوه وجد على ظهره مجل (أثر حبل) فبلغنى أنه كان يستقى بالليل لضعفة جيرانه ٦٨٠.

وروى المفيد بسنده، عن يونس بن بكير الشيباني، عن محمد بن إسحاق قال: كان بالمدينة كذا وكذا أهل بيت يأتيهم رزقهم وما يحتاجون إليه، لا يدرون من أين، فلما مات علي بن الحسين (عليهما السلام) فقدوا ذلك ٦٨١.

ونقله الحلبي عن الحلبي والأعاني وزاد: فصرخوا صرخة واحدة، وعنهما، عن ابن اسحاق، عن الباقر (ع) وأبي حمزة الثمالي: أنه (ع) كان يحمل جراب الخبز بالليل على ظهره فيتصدّق به ويقول: إن صدقة السر تطفى غضب الرب ٦٨٢.

٦٧٨. مناقب آل أبي طالب ١٦٦: ٤-١٦٧.

٦٧٩. علل الشرائع ٢٧٠: ١، الحديث ٥ و ٦، الباب ١٦٥.

٦٨٠. مناقب آل أبي طالب ١٦٧: ٤، عن حلية الأولياء ١٣٦: ٣ و ١٤٠.

٦٨١. الإرشاد ١٤٩: ٢ ومصادر، اخرى فى الحاشية.

٦٨٢. مناقب آل أبي طالب ١٦٥: ٤-١٦٦ ونقل هذا فى مطالب السؤل ٤٥: ٢ وعنه فى كشف الغمة ١٣: ٣، ١٤ وبهامشه مصادر كثيرة. ومرّ خبر الثمالي عن علل الشرائع للصدوق وفيه: كان يحمل صرر الدراهم والدنانير، لا الخبز! وهذه الصدقات كانت من صدقات جدّيه النبی والوصى التي ردّها عليه عبد الملك، كما

وإنما كان هذا من الإمام السجّاد (ع) لرعاية أيتام قتلى واقعة الحرّة وحرمان بقاياهم من العطاء، فكان ذلك لعلّة خاصّة، وهي قضيّة في واقعة، فلا يقاس عليها.

ص: ٣٢٥

وأما يوم الوفاة: فأقدم ما بأيدينا فيه هو ما ذكره المفيد: في الخامس والعشرين من المحرم ٦٨٣ وتابعه تلميذه الطوسي ٦٨٤ وأول من خالف القتال فقال:

لاثنى عشرة ليلة بقيت من المحرم ٦٨٥ وتابعه الطبرسي والحلي. وقلبه الشهيد الثاني فقال: قبض ثاني عشر شهر محرم ٦٨٦ وكان لفظ: بقيت، قرأها: خلت! وهو وهم.

ص: ٣٢٧

مصادر الكتاب

- ١ الآثار الباقية عن القرون الخالية، أبو ریحان محمد بن أحمد البروني (ت: ٤٤٠ هـ - ق).
- ٢ أخبار إصفهان، أبو نعيم أحمد بن عبدالله بن أحمد الإصفهاني (ت: ٤٣٠ هـ - ق).
- ٣ الأخبار الطوال، أبو حنيفة أحمد بن داود الدينوري (ت: ٢٨٢ هـ - ق).
- ٤ أخبار الزينبيات، يحيى بن الحسن بن جعفر العبيدلي العقيقي (ت: ٢٧٧ هـ - ق).
- ٥ اختيار معرفة الرجال (رجال الكشي)، أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي المعروف بـ (شيخ الطائفة) (ت: ٤٦٠ هـ - ق).
- ٦ تحقيق در باره اولین أربعین حضرت سید الشهداء، محمد علی قاضی طباطبائی (معاصر).

في الإرشاد ١٥٠: ٢. وقد جاء في الإيقاد: ٢٠٤ عن جابر الجعفي أنّه لما جرد الباقر أباه ليغسله بكى، فسأله عن بكائه فقال له: لما جردته رأيت آثار الجامعة في عنقه! والقيد في رجله! وأقرّ محقق الكتاب بأنّه لم يعثر بعد التتبع على مثل هذا الخبر.

٦٨٣. مسار الشيعة: ٦٢.

٦٨٤. مصباح المتجّد: ٥٥١.

٦٨٥. روضة الواعظين: ٢٤٢.

٦٨٦. دروس في فقه الإمامية: ١٥٣.

٧ الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، الشيخ المفيد أبي عبدالله محمد بن محمد بن النعمان العكبري البغدادي (ت: ٤١٣ هـ - ق).

٨ أصول الكافي (فروع الكافي) (روضة الكافي)، أبو جعفر محمد بن إسحاق الكليني (ت: ٣٢٩ هـ - ق).

٩ أعلام الهداية (ج ٦) (الإمام علي بن الحسين (ع) زين العابدين)، لجنة التأليف والتحقيق في المجمع العالمي لأهل البيت (عليهم السلام).

١٠ إعلام الوري بأعلام الهدى، أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي (من أعلام القرن السادس الهجري).

ص: ٣٢٨

١١ إقبال الأعمال، رضي الدين علي بن موسى بن جعفر ابن طاووس اليماني (ت: ٦٦٤ هـ - ق).

١٢ الأمالي، الصدوق أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (ت: ٣٨١ هـ - ق).

١٣ الأمالي، الشيخ الطوسي أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي (ت: ٤٦٠ هـ - ق).

١٤ الإمامة والسياسة، أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت: ٢٧٦ هـ - ق).

١٥ الإمام الصادق كما عرفه الغرب، مجموعة من الكتاب المؤمنين، مؤسسة النعمان، بيروت.

١٦ أنساب الأشراف، أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري (ت: ٢٧٩ هـ - ق).

١٧ الأنوار البهية في تواريخ الحجج الإلهية، المحدث القمي، عباس بن محمد رضا القمي (ت: ١٣٥٩ هـ - ق).

١٨ الإيقاد في وفيات المعصومين، محمد علي بن ميرزا محمد الشاه عبدالعظيمي النجفي (ت: ١٣٣٤ هـ - ق).

١٩ بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، محمد باقر بن محمد تقي المجلسي (ت: ١١١١ هـ - ق).

٢٠ بحوث في تاريخ القرآن وعلومه، أبو الفضل مير محمد الزرندي (معاصر).

٢١ البدء والتاريخ، مطهر بن طاهر المقدسي (ت: ٥٠٧ هـ - ق).

٢٢ البداية والنهاية (تاريخ ابن كثير)، إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي (ت: ٧٧٤ هـ - ق).

ص: ٣٢٩

٢٣ البرهان في تفسير القرآن، هاشم بن سليمان بن إسماعيل الحسيني البحراني (ت: ١١٠٧ أو ١١٠٩ هـ - ق).

٢٤ بلاغات النساء، أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر بن طيفور (ت: ٢٨٠ هـ - ق).

٢٥ تاريخ أهل البيت (عليهم السلام)، نقلًا عن الأئمة (عليهم السلام) (رواية المحدثين والمؤرخين)، إعداد وتحقيق محمد رضا الحسيني الجلالى (معاصر).

- ٢٦ تاريخ ابن الوردي، زين الدين عمر بن المظفر المعروف بـ (ابن الوردي) (ت: ٧٤٩ هـ - ق).
- ٢٧ تاريخ الأمم والملوك (تاريخ الطبري)، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت: ٣١٠ هـ - ق).
- ٢٨ تاريخ الخلفاء، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت: ٩١١ هـ - ق).
- ٢٩ تاريخ خليفة، أبو عمرو خليفة بن خياط بن خليفة الشيباني العصري البصري (ت: ٢٤٠ هـ - ق).
- ٣٠ تاريخ قم (فارسي)، الحسين بن عليّ القميّ (ت: ٨٠٦ هـ - ق).
- ٣١ تاريخ القرآن، أبو عبدالله بن عبدالرحيم بن نصر الله بن شيخ الإسلام الزنجاني (ت: ١٣٦٠ هـ - ق).
- ٣٢ تاريخ مختصر الدول، غريغوريوس أبو الفرج بن هارون النصراني الشهير بـ (ابن العبري) (ت: ٦٨٣ هـ - ق).
- ٣٣ تاريخ اليعقوبي (تاريخ ابن واضح)، أحمد بن أبي يعقوب بن وهب بن واضح (ت: ٢٨٤ هـ - ق).
- ٣٤ التبيان في آداب حملة القرآن، أبوزكريا يحيى بن شرف بن برى بن حسن الحزامي الحوراني محيي الدين النوى الشافعي (ت: ٦٧٧ هـ - ق).
- ص: ٣٣٠
- ٣٥ تذكرة الخواص، أبو المظفر يوسف بن قزاوغلي عبدالله بن سبط ابن الجوزي (ت: ٦٥٤ هـ - ق)، تحقيق الشيخ حسين تقى زاده.
- ٣٦ تلخيص التمهيد، الشيخ محمد هادي المعرفة (معاصر).
- ٣٧ تذكرة الحفاظ، أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي (ت: ٧٤٨ هـ - ق).
- ٣٨ التمهيد، الشيخ محمد هادي المعرفة (معاصر).
- ٣٩ التنبيه والإشراف، أبو الحسن عليّ بن الحسين بن عليّ بن مسعود (ت: ٣٤٦ هـ - ق).
- ٤٠ تنبيه الخواطر ونزهة النواظر، ورام بن أبي فراس المالكي التستري (ت: ٦٠٥ هـ - ق).
- ٤١ تهذيب الأحكام، أبو جعفر محمد بن الحسن بن عليّ بن الحسن الطوسي (ت: ٤٦٠ هـ - ق).
- ٤٢ جهاد الإمام زين العابدين (ع)، محمدرضا الحسيني الجلالى (معاصر).
- ٤٣ الجمل، الشيخ المفيد أبي عبدالله محمد بن محمد العكبري البغدادي (ت: ٤١٣ هـ - ق).
- ٤٤ جواهر المطالب في فضائل عليّ بن أبي طالب (ع)، محيي الدين بن محمد بن عليّ بن أحمد بن طريح الرماحي النجفي (ت: ١٠٨٥ هـ - ق).
- ٤٥ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم أحمد بن عبدالله الإصفهاني (ت: ٤٣٠ هـ - ق).

٤٦ حياة الإمام زين العابدين (ع)، عبدالرزاق بن محمد آل المقرم النجفي (ت: ١٣٩١ هـ - ق).

ص: ٣٣١

٤٧ حياة الحيوان، أبو البقاء محمد بن موسى بن عيسى بن عليّ الدميري المصري (ت: ٨٠٨ هـ - ق).

٤٨ الخرائج والجرائح، أبو الحسين سعيد بن عبدالله الراوندي المعروف بـ (قطب الدين الراوندي) (ت: ٥٧٣ هـ - ق).

٤٩ الخصائص، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت: ٩١١ هـ - ق).

٥٠ دائرة المعارف البريطانية، اشترك في تأليفها رجال كاسنر وغيره.

٥١ دراسات وبحوث في التاريخ الإسلامي، جعفر مرتضى العاملي (معاصر).

٥٢ دروس في فقه الإمامية، عبدالهادي الفضلي (معاصر).

٥٣ دلائل الإمامة، أبو جعفر محمد بن جرير بن رستم الطبري (من أعلام القرن الخامس الهجري).

٥٤ دلائل النبوة، أبو بكر أحمد بن الحسين بن عليّ البيهقي (ت: ٤٥٨ هـ - ق).

٥٥ ديوان الفرزدق، همام بن غالب بن صعصعة (ت: ١١٠ هـ - ق).

٥٦ ذيل المذيل، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت: ٣١٠ هـ - ق).

٥٧ ذوب النضار في شرح أخذ الثار، جعفر بن محمد المعروف بابن نما الحلبي (ت: ٦٤٥ هـ - ق).

٥٨ رجال الكشي (اختيار معرفة الرجال)، الشيخ الطوسي (ت: ٤٦٠ هـ - ق).

٥٩ روضة الواعظين، محمد بن الحسن بن عليّ بن قتال النيسابوري (ت: ٥٠٨ هـ - ق).

٦٠ السرائر الحاوي لتحرير الفتاوى، أبو جعفر محمد بن منصور بن أحمد بن إدريس العجلي الحلبي (ت: ٥٩٨ هـ - ق).

ص: ٣٣٢

٦١ سمط النجوم العوالي في أخبار الأوائل والتوالي، عبدالملك بن الحسين العصامي الملكي الشافعي (ت: ١١١١ هـ - ق).

٦٢ سليمان بن سرد الخزاعي، إبراهيم بيضون (معاصر).

٦٣ السيّد سكينة، عبدالرزاق بن محمد آل المقرم النجفي (ت: ١٣٩١ هـ - ق).

٦٤ شرح نهج البلاغة (خطب ورسائل وكلمات الإمام عليّ بن أبي طالب (ع))، (ت: ٤٠ هـ - ق)، شرح عزّ الدين عبدالحميد بن محمد بن أبي الحديد المعتزلي (ت: ٦٥٦ هـ - ق).

٦٥ الشيعة وفنون الإسلام، أبو محمد حسن صدر الدين بن هادي الموسوي العاملي الكاظمي (ت: ١٢٧٢ هـ - ق).

٦٦ الطبقات الكبرى، أبو سعد محمد بن سعد بن وزيع الهجري البصري (ت: ٢٣٠ هـ - ق).

٦٧ العقد الفريد، أحمد بن محمد بن عبد ربّه الأندلسي (ت: ٣٢٨ هـ - ق).

٦٨ علل الشرائع، أبو جعفر محمد بن عليّ بن الحسين بن بابويه القميّ (الشيخ الصدوق) (ت: ٣٨١ هـ - ق).

٦٩ عيون أخبار الرضا (ع)، أبو جعفر محمد بن عليّ الصدوق (ت: ٣٨١ هـ - ق).

٧٠ الغارات، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الثقفي الكوفي (ت: ٢٨٣ هـ - ق).

٧١ فرق الشيعة، أبو محمد الحسن بن موسى النوبختي (ت: ٣٠٠ هـ - ق).

٧٢ فتوح البلدان، أحمد بن يحيى البلاذري (ت: ٢٧٩ هـ - ق).

٧٣ الفصول المهمة في معرفة الأئمة (عليهم السلام)، عليّ بن محمد بن أحمد المالكي الملكي المشهور بـ (ابن الصباغ المالكي) (ت: ٨٥٥ هـ - ق).

٧٤ قاموس الرجال، محمد تقى التستري (معاصر).

ص: ٣٣٣

٧٥ قرب الإسناد، أبو العباس عبدالله بن جعفر الحميري (من أعلام القرن الثالث الهجري).

٧٦ قم حرم أهل البيت (عليهم السلام)، محمد عليّ الأنصاري.

٧٧ الكامل البهائي (كامل السقيفة)، حسن بن عليّ بن محمد بن عليّ المازندراني الشهير بـ (العماد الطبري) (من أعلام القرن السابع الهجري).

٧٨ كتاب التصحيح، أبو أحمد الحسن بن عبدالله العسكري (ت: ٣٨٢ هـ - ق).

٧٩ كشف الغمّة في معرفة الأئمة (عليهم السلام)، عليّ بن عيسى الإربلي (ت: ٦٩٢ هـ - ق).

٨٠ كفاية الأثر في النصّ على الأئمة الاثني عشر (عليهم السلام)، أبو القاسم عليّ بن محمد بن عليّ الخزّاز القميّ الرازي (من أعلام القرن الرابع الهجري).

٨١ مباحث في علوم القرآن، صبحي الصالح (معاصر).

٨٢ مثالب العرب، أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي (ت: ٢٠٤ هـ - ق).

٨٣ مثير الأحزان، محمد بن جعفر بن أبي البقاء هبة الله بن نما الحلبي (ت: ٦٤٥ هـ - ق).

٨٤ المحاسن والمساوي، إبراهيم بن محمد البيهقي (ت: ٣٢٠ هـ - ق).

٨٥ مختصر تاريخ الدول، أبو الفرج هارون النصراني المشهور ب- (ابن العبري) (ت: ٦٨٥ هـ - ق).

٨٦ مروج الذهب، عليّ بن الحسين بن عليّ المسعودي (ت: ٣٤٦ هـ - ق).

٨٧ مسار الشيعة في مختصر تواريخ الشريعة، الشيخ المفيد أبي عبدالله محمد ابن محمد بن النعمان العكبري البغدادي (ت: ٤١٣ هـ - ق).

ص: ٣٣٤

٨٨ مصباح المتجهّد، أبو جعفر محمد بن الحسن بن عليّ بن الحسن الطوسي (ت: ٤٦٠ هـ - ق).

٨٩ المصاحف، أبو بكر بن أبي داوود عبدالله بن سليمان بن الأشعث الأزدي السجستاني (ت: ٣١٦ هـ - ق).

٩٠ مطالب السؤول في مناقب آل الرسول، محمد بن طلحة الشافعي (ت: ٦٥٤ هـ - ق).

٩١ المعارف، أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت: ٢٧٦ هـ - ق).

٩٢ معجم البلدان، أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي الرومي (ت: ٦٢٦ هـ - ق).

٩٣ مقاتل الطالبين، أبو الفرج عليّ بن الحسين بن محمد الإصفهاني (ت: ٣٥٦ هـ - ق).

٩٤ مقتل الحسين (ع)، أبو المؤيد الموفق بن أحمد المكي الخوارزمي (ت: ٥٦٨ هـ - ق).

٩٥ مقتل الحسين، عبدالرزاق بن محمد الموسوي المقرّم النجفي (ت: ١٣٩١ هـ - ق).

٩٦ الملهوف على قتلى الطفوف، عليّ بن موسى بن جعفر بن طاووس الحسني (ت: ٦٦٤ هـ - ق).

٩٧ مناقب آل أبي طالب، أبو جعفر محمد بن عليّ بن شهر آشوب السروي (ت: ٥٨٨ هـ - ق).

٩٨ موسوعة التاريخ الإسلامي، محمد هادي اليوسفي الغروي (المؤلف).

٩٩ نسب قریش، الزبير بن بكار بن عبدالله القرشي الأسدي المكي (ت: ٢٥٦ هـ - ق).

ص: ٣٣٥

١٠٠ نفس المهموم في مصاب سيّدنا الحسين (ع)، عباس بن محمد رضا بن أبي القاسم القمي (ت: ١٣٥٩ هـ - ق).

١٠١ نهج البلاغة، أبو الحسن الشريف الرضي محمد بن الحسين بن موسى الموسوي (ت: ٤٠٦ هـ - ق).

١٠٢ الهداية الكبرى، أبو عبدالله الحسين بن حمدان الخصبي (ت: ٣٣٤ هـ - ق).

١٠٣ وسائل الشيعة، محمد بن الحسن الحرّ العاملي (ت: ١١٠٤ هـ - ق).

١٠٤ وقعة صفين، نصر بن مزاحم المنقري (ت: ٢١٢ هـ - ق).

١٠٥ وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، نور الدين بن عليّ بن أحمد السهمودي (ت: ٩١١ هـ - ق).

ص: ٣٣٧

الفهرس

مقدّمه المجمع ٧

تمهيد ٩

والده الإمام السجّاد (ع) ٩

مولد الإمام السجّاد (ع) ١٠

زواج السجّاد بابنة عمّه الحسن (ع) ١١

الإمام السجّاد (ع) في مجلس ابن زياد ١٣

موقف ابن عفيف ١٥

الرؤوس بين يدي يزيد ١٦

أم سلمة ونعي الحسين (ع) ١٩

السبايا في الشام ٢٣

السبايا والسجاد (ع) ٢٤

خطبة العقيلة في مجلس يزيد ٢٥

ورأس الحسين (ع) إلى المدينة ٢٨

خطبة السجّاد (ع) بالشام ٢٩

ردّهم إلى أوطانهم ٣٣

فزاروا الحسين (ع) في أربعينه ٣٥

ثم انفصلوا من كربلاء نحو المدينة حتّى قربوا منها فنزلوا: ٣٦

ابن الزبير وقتل الحسين (ع) ٣٨

يزيد، بعد الحسين الشهيد ٤١

يزيد، وبنو زياد: ٤٢

ص: ٣٣٨

إجلاء زينب ووفاتها ٤٤

الوليد وعمرو بن سعيد ٤٤

يزيد، وابن عباس ٤٤

جواب ابن عباس ليزيد ٤٧

يزيد، وابن الحنفية ٥١

وفد المدينة عند يزيد ٥٣

مقدمات واقعة الحرّة ٥٤

تمرد أهل المدينة على يزيد ٥٤

نفي بني أمية من المدينة ٥٧

جيش الشام إلى المدينة ٦١

لقاء أهل المدينة بالأمويين ٦٣

وقعة الحرّة ٦٥

قتال يوم الحرّة ٦٦

اقتحام خندق المدينة ٦٨

نهب المدينة وإباحتها ٧٠

أعداد القتلى في الحرّة ٧١

كتاب ابن عقبة إلى ابن معاوية ٧٥

أخذه البيعة ليزيد ٧٨

الإمام السجّاد ويزيد ٨٢

خوارج البصرة ٨٥

مسير ابن النمير إلى ابن الزبير ٨٦

حصار الحصين على مكة ٨٧

هلاک يزيد وتبدد الجنود ٨٩

موت يزيد واستخلاف معاوية وموته ٩١

ص: ٣٣٩

أحوال البلاد بعد يزيد ٩٧

إعلان البيعة لابن الزبير، ولمروان: ٩٨

حوادث السنة الخامسة والستين وثورة التوابين ١٠٣

استخلاف مروان لعبد الملك ١٠٣

استيلاؤه على فلسطين ومصر ١٠٣

بداية وثبة التوابين عن تقصيرهم في شأن الحسين (ع) ١٠٥

الكوفة بعد موت يزيد ١٠٥

أوائل أقاويل الشيعة بالكوفة ١٠٧

مؤتمر امراء التوابين الخمسة ١٠٨

بيان سليمان الخزاعي ١١٠

خطبة عبيد الله المزني ١١١

فلما مات يزيد بن معاوية ١١٣

رسالة سليمان إلى سعيد بن حذيفة ١١٤

واختار المختار أن يعود للديار ١١٧

ودخل المختار الكوفة ١١٨

ابن زياد إلى العراق، والكوفة ١٢٠

خروج التوابين إلى النخيلة ١٢٣

في الكوفة أو إلى الشام ١٢٤

ليس للدنيا خرجنا، فلا ننتظر ١٢٦

محاولات أمير الكوفة ١٢٧

خطبة سليمان ورحيلهم إلى كربلاء ١٢٩

زيارة الثوار لقبر أبي الأحرار ١٣٠

كتاب الأمير الخطمي وجواب الخزاعي ١٣٢

موقف قلعة قرقيسيا ١٣٤

ص: ٣٤٠

خطبة الخزاعي في عين الورد ١٣٧

غارة المسيب الفزاري ١٣٨

معركة التوابين في عين الورد ١٣٩

ورفع الراية رفاعة، واستشهد آخرون ١٤٢

وارتفع رفاعة بالباقيين ليلاً ١٤٤

أواخر أخبار مروان ١٤٦

جيش حُبَيْش إلى المدينة ١٤٨

بداية أخبار المختار ١٥٠

وحبسوا المختار بعد ابن صرد ١٥٠

وأطلق المختار بكفالة وتحليف ١٥٣

أول خطبة لابن المطيع في الكوفة ١٥٤

استحضر المختار ١٥٥

حنفي يتحرى إذن ابن الحنفية ١٥٦

المختار يبشر الأنصار ١٥٧

ودعت همدان سيدها إبراهيم ١٥٩

أمر ابن الحنفية لابن الأشتر؟! ١٦٠

مقابلة قوَّات الكوفة ١٦٢

يالثارات الحسين (ع) ١٦٤

إبراهيم يجمع من بايع ويقا تل بهم ١٦٥

أوائل قتال المختار ٦٨٧١٦٦

استعداد الوالى ومقابلة المختار ١٦٨

نكسة الشيبانى: ١٦٩

حملة شبت ومقابلته ١٧٠

حملات إبراهيم النخعى ١٧١

ص: ٣٤١

خطبة ابن مطيع وحملة النخعى ١٧٢

حصر ابن مطيع فى القصر ١٧٤

خطبة المختار وييعته وعطاؤه ١٧٥

وولّى على توابع الكوفة ١٧٧

ومدحه الشعراء ١٧٧

شرحبيل الهمدانى إلى المدينة ١٨٠

فضيق ابن الزبير على ابن الحنفية ١٨٣

ابن الزبير فى اليعقوبى ١٨٥

ابن الزبير فى المسعودى ١٨٦

وقعة الموصل الأولى ١٩٠

وعادوا فى عيد الأضحى ١٩٢

وتلاقى المرجفون فى الكوفة ١٩٤

تواثب العرب على المختار ومحاورته لهم ١٩٥

وعاد أنصار المختار ١٩٦

ابن الأشتر لمضر والمختار لأهل اليمن ١٩٧

والشعراء يتبعهم الغاؤون ٢٠٠

وأعاد ابن الأشتر لابن زياد ٢٠١

ابن الأشتر إلى الموصل ٢٠٢

الاستعداد لقتال ابن زياد ٢٠٤

وقعة نهر الخازر بالموصل ٢٠٦

أخبار الانتصار عند المختار ٢٠٨

رأس ابن زياد عند السجّاد (ع) ٢٠٩

وجاء مصعب للبصرة ٢١٠

وفرّ شمر وهلك ٢١١

ص: ٣٤٢

وتجرّد المختار لقتله الحسين (ع) ٢١٢

وأربعة نهبوا خيام الحسين (ع) ٢١٣

وحامل رأس الحسين (ع) ٢١٤

عمر بن سعد الزهرى والأمان! ٢١٥

وحرمله بن كاهل الأسدى ٢١٨

والطائي قاتل العباس ٢١٩

وقاتل علىّ بن الحسين (ع) ٢٢٠

وقاتل عبد الله بن مسلم ٢٢٠

صدّات الصدائي والمختار ٢٢١

فروا فهدمت دورهم ٢٢١

ومحمد بن الأشعث وشيث ٢٢٢

وعبيد الله بن عليّ (ع) ٢٢٣

بداية أمر مصعب مع المختار ٢٢٤

عبيد الله بن الحرّ الجعفي ٢٢٥

واستعدّ المختار وخطب ٢٢٦

أنصار المختار بالمدار ٢٢٧

مصعب إلى الكوفة ٢٢٨

حرب مصعب والمختار ٢٣٠

مصير عبيد الله بن عليّ (ع) ٢٣١

مصعب وحصار المختار ٢٣٣

مصير المختار وأنصاره ٢٣٥

مصير إبراهيم بن الأشتر ٢٣٩

مصير عبيد الله بن الحرّ ٢٤١

الأزارقة بعد ابن الحرّ ٢٤٤

ص: ٣٤٣

وفيات بعض الأعلام وابن العباس ٢٤٦

ابن مروان في العراق ومقتل ابن الأشتر ٢٥٠

حرب مصعب وعبد الملك ٢٥٣

عبد الملك ملك العراق ٢٥٤

حرب الحجاج وابن الزبير ٢٥٧

الحجاج وابن عمرو ابن الحنفية ٢٦٠

الحجاج في المدينة ٢٦٢

[عهد الحجاج في العراق] ٢٦٥

ضرب النقود الإسلامية ٢٦٥

وقتل الخوارج الأزارقة وغيرهم ٢٦٧

ميلاد زيد للسجاد (ع) ٢٦٨

وفاء ابن جعفر وابن الحنفية ٢٦٩

الحجاج وعبد الرحمان بن الأشعث ٢٧٣

خطبة الحجاج على ابن الأشعث ٢٧٥

سعيد بن جبير إلى ابن الأشعث ٢٧٦

قتال الأهواز، وزاوية البصرة ٢٧٩

وقائع دير الجماجم وظهر المريد وحرارة ٢٨٠

أسرى الخوارج، والحجاج ٢٨٢

عامر بن شراحيل الشعبي ٢٨٥

وأقام الأشعريون منهم بقم ٢٨٦

ومصير ابن الأشعث الانتحار ٢٨٩

خطبة الحجاج لقتل ابن الأشعث ٢٩٠

احتجاج الحجاج على عبد الملك ٢٩١

أمر الحجاج بإعجام كلام الله ٢٩٢

ص: ٣٤٤

ويقترح الحجاج ولاية الوليد ٢٩٤

الفجر الصادق لميلاد الصادق (ع) ٢٩٦

هلاک الملك عبد الملك ٢٩٨

الوليد والمسجد النبوي الشريف ٣٠٢

الوليد ومسجد دمشق ٣٠٤

فتوح فى الروم والأسبان وخراسان ٣٠٥

وفتوح فى السند والهند ٣٠٨

ونطق الفرزدق بالحق ٣١١

مقتل سعيد بن جبير مولى بنى أسد ٣١٣

قتل كميل بن زياد النخعى ٣١٧

هلاک الحجاج ٣١٨

وفاء الإمام السجاد (ع) ٣٢٠

وصاياه الأخيرة وصدقة السر ٣٢١

مصادر الكتاب ٣٢٧

الفهرس ٦٨٨٣٣٧

ص: ٣٤٥